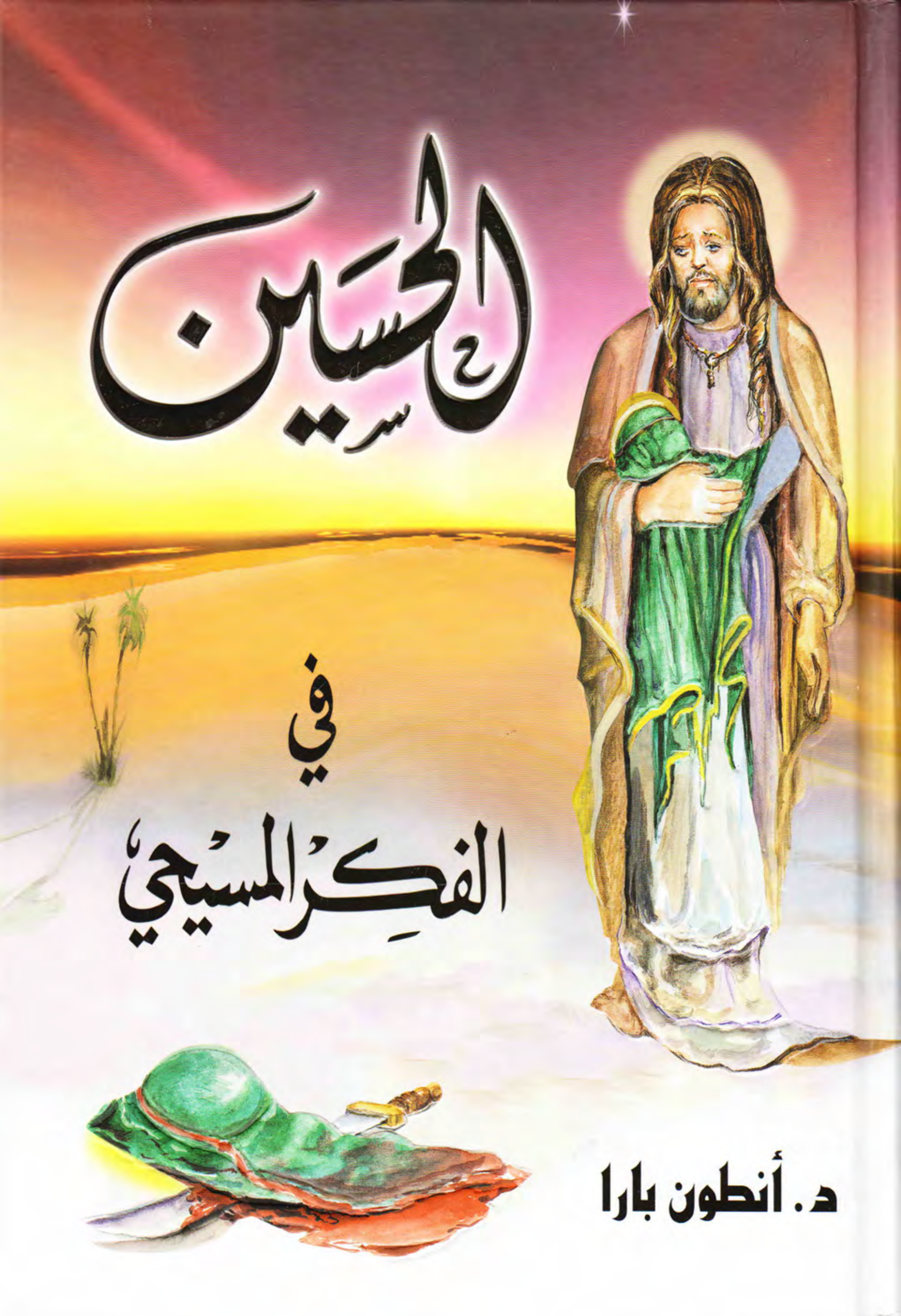

الحسين
في
الفكر المسيحي
د. أنطون بارا

الحسين في الفكر المسيحي

د. آنطون بارا



دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع

العنوان في سوريا

ص . ب ٣٣ يبرود ـ سوريا

هواتف ٧٨١٢٨٤٨ ـ ٧٨١٤٨٤٨

موبايل ٩٥٥٣٥٦٨٤٩

المفتاح الدولي ـ ٠٠٩٦٣١١

العنوان في الكويت

ص . ب ٨٠٨ حولي ـ الكويت

موبايل ٩٩٢٣٠٠٠٧ / **تلفاكس** ٢٢٦٦٥٦٦٤

المفتاح الدولي ـ ٠٠٩٦٥

Email : antonbara@yahoo.com

- **الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م ـ كويت**
- **الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م ـ كويت**
- **الطبعة الثالثة ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م ـ كويت**
- **الطبعة الرابعة ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م ـ بيروت**
- **الطبعة الخامسة ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م ـ بيروت**

هذه الطبعة منقّحة ومزيّدة ومتضمنة الدعوى المرفوعة على الكتاب ومناقشة المؤلف لحيثياتها والرد عليها ، ومزدانة بصور تمثل الملحمة الدامية .. من الخروج حتى المقتل والسبي وثورات الثأر لدم الحسين وعترة آل البيت الطاهرين

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

تمهيد ومقدمات



مقدمة الطبعة الأولى لسماحة المرجع الديني الأعلى
المغفور له آية الله العظمى الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي

الحسين حيٌّ .. حي

« ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل اللّه أمواتاً بل أحياء »

وهكذا فالحسين «ع» حيٌّ .. حي عند اللّه، عند الناس، في الضمائر، في القلوب، في الأفكار، في المشاعر، على المنابر، في المجالس، في الكتب، حيٌّ حي، وكلُّ واعي الضمير منوَّر القلب يغترف من معين هذه الحياة السرمديَّة.

وكان من جملة المغترفين من هذا المعين الإلهي، الكاتب أنطون بارا في سِفرهِ القيِّم «**الحسين في الفكر المسيحي**».

وقد طالعته فشدَّني بأسلوبه الجديد كل الجدَّة في عالم التأليف والتحليل، إنه كتاب يكفيه سمواً أن لا يغمز إلا من قناة الفكر ومُنطلق الرؤية[1].

الكويت في ١٢ صفر ١٣٩٤هـ

٨/ ٤/ ١٩٧٤م

---

(١) لقد تفضل المغفور له السيد محمد الحسيني الشيرازي بمراجعة مخطوطة هذا الكتاب قبل إصداره وقدم له بهذه الكلمات المضمخة بعبير الحب للحسين وبشوق النزوع المستدام لسيرته العطرة .

الامتداد الثّر
لرسالة الجد

مقدمة الطبعة الثانية

للمفكر الإسلامي سماحة السيد الدكتور محمد بحر العلوم

لأمر رائع جداً أن يلتقيَ الفكران الإسلامي والمسيحي في قضية من أهم القضايا العقائدية ، وينتهي بهما المطاف إلى نتيجة واحدة ، ألا وهي الحق والعقيدة والاستجابة لنداء الرسالة والنضال في سبيلها بإيمان وشموخ ..

فالمصدر لهذين الخطَّين واحد ، ومسارهما التاريخي لن يختلف ، فمن اللّه تلك الرسالة السماوية قد بُعثَت لمكارم الأخلاق ، تُهدي الأمة وتنقذها من الجهالة والظلم ، فكانت رسالة المسيح « ع » ، وكانت رسالة محمد « ص » رسالتان هزَّتا ضمير العالم ، وأجَّجتا فيه كل مشاعل الأمل ، وأثرتا فيه العطاء ..

ولا بد أن تكونا كذلك لأنهما هبة السماء لإنقاذ البشرية ، فقد كان المجتمع في حينه ولا يزال بحاجة إلى هذا النبع الصافي لتزهر التربة بكل أنواع الخير : خُلقاً ، فضيلة ، كرامة ، وعيشاً رغيداً من أجل رفعة الإنسان وإبراز طاقاته الخلاقة في بناء مجتمع صالح .

ولم يكن الإمام الحسين عليه السَّلام إلا ذلك الامتداد الثَّرُّ لرسالة جده رسول الإنسانية محمد صلّى اللّه عليه وآله وسلّم ، ومن أجل تقويم تلك الرسالة نهض بموقفه المضحِّي لتصحيح مسار الأمة الذي انحرف نتيجة تحرك الفئة الضَّالة لاجتثاث تلك القيم الإنسانية التي جاء بها محمد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم .

وكان موقفاً كمثل الموقف الذي كان بقيادة المسيح « ع » من قبل لأجل تدعيم كلمة الحق في مجتمع تغلغل فيه الجهل وانتشر فيه الظلام ، فكان ما كان من تعنت وتطاول على كرامة الرسالة السماوية .. وكادوا أن يغتالوا الشمس والحق ، ولكن اللّه رفعه إلى سمائه حماية لإنسانه الخالد ..

هذا هو المسيح عليه السلام .

والحسين عليه السَّلام بمسيرته الفدائية قد صافح السَّيف وعانق الرِّماح ، وأعطى القرابين تلو القرابين من أجل عقيدته ، وبذلك يكون قد نال القسط الأوفر من الفداء والتضحية ، من يوم إسماعيل حتى عهد المسيح .

لذلك « **لم تحظَ ملحمة إنسانية في التاريخين القديم والحديث بمثل ما حظيت به ملحمة الاستشهاد في كربلاء من إعجاب ودرس وتعاطف** » ، هكذا يقول الكاتب الفاضل أنطون بارا في كتابه « الحسين في الفكر المسيحي » ، ويصفها بأنها « **الأولى والرائدة والوحيدة والخالدة في تاريخ الإنسانية مذ وجدت وحتى تنقضي الدهور ، إذ هي خالدة خلود الإنسان الذي قامت من أجله** ».

إن العقيدة تصهر الإنسان لدرجة تجعله وحدة متلاحمة مع معاني الكمال والسمو ، بحيث لا يمكن الفصل بينهما ولو بحدود شعرة ، وليس كبيراً على الحسين بن علي « ع » رائد الإنسانية ومثلُها الأعلى أن يكون صاحب ثورة أولى ورائدة ووحيدة وخالدة ، بعد محمد وعلي عليهما الصَّلاة والسَّلام .

والحسين من محمد كالرُّوح من الجسد ، والحسين من علي والده الذي حمل كل خصائصه ومقوماته الرائعة منذ أول يوم لامست عيناه نور الوجود ، فالعقيدة مصبٌ زاخر يبدأ من محمد إلى علي ثم الحسين ، فإذا كان في هذا الامتداد.. فهو من الرسالة الإسلامية ذلك اللبُّ الأصيل ، وإذا كان ذلك اللبُّ الرسالي الإسلامي الأصيل .. فهو لا يختلف عن اللُبِّ الرسالي المسيحي .. المسيح .

إنها حلقة واحدة وإن تطاولت العصور ، فهي من اللّه دعوة لهداية البشر ، ويمرُّ زمان ويأتي من تهمُّه هذه الحقيقة ليشبك الروافد الرسالية في مصبٍّ واحد .

فإذا كان الأستاذ جورج جرداق قد كتب بالأمس عن النبعة الصافية ، الإمام علي لعقيدة السَّماء ، ليؤكد على هذا الارتباط بين المسيحية والإسلام ، جاء اليوم الكاتب الفاضل أنطون بارا ليمدَّ الشراع ويسير نحو هذا المصب ، ويكتب في ثورة الحسين من مظلَّة الفكر المسيحي ، فشكراً وألف شكر لمن يقوم بتوثيق الأواصر وتدعيم المحبة والأُلفة بين أنصار السماء.

والكتاب حاز على إعجابي من خلال قراءتي له ، وإن كنت أقف منه في بعض النقاط موقف الملاحظ ، ولكن لا أرى المجال لذكرها نظراً لعدم تأثيرها على شعوري بقيمة الكتاب ، أسلوباً ومضموناً .

وأخيراً أرجو للكاتب الخير والموفقية في محاولته المبدعة ، مبتهلاً إلى اللّه أن يسدد خطاه ليدفع لنا بالنتاج تلو النتاج في هذا المضمار ، وهو ولي التوفيق .

محمد بحر العلوم

الكويت في ٢٣ شوال

١٣٩٩هـ ـ ١٤/٩/١٩٧٩م

ضمير الأديان
إلى أبد الدهور

مقدمة الطبعة الثالثة

للعلامة الدكتور أسعد علي

- ١ -

إن « للألم » سراً يتَّصلُ بينبوع السُّرور ..بل يتدفَّقُ منه كما ينبثقُ « الأمل » من حروف « الألم » بقليلٍ منَ حركية التركيب والتواصُلِ بين الحروف « ألم ـ أمل » .

هذا على مستوى التركيبِ اللغويِّ الواضح ..

أما مستوى الرُّوح الواسعِ كالرِّيح ، فظاهرُ المظاهرِ خفيُّ السَّرائر .. يكتشفُه أهلُ الذَّوقِ في سيَرِ الأنبياء والشهداء والصَّالحين ..

- ٢ -

في الإنجيل ، والإنجيل يعني : البشارة ، صلىَّ السِّيدُ المسيحُ « ع » عشيَّةَ تسليمه وناجَى اللّه قائلاً :

« إن كان يُستطاعُ فلتعبرُ عني هذه الكأس .. لكن ليس كمشيئتي بل كمشيئتك أما الرُّوح فمستعدٌّ وأما الجسدُ فضعيفٌ .. ولكن كيف تتمُّ الكتب فإنَّه هكذا ينبغي أن يكون[١] ».

ضعفُ الجسدِ : مصدرُ الألم .. واستعداد الروح لتنفيذ المشيئةِ العليا : يَصِلُها

---

(١) متى : ٢٦/ ٤٠ ـ ٥٥

بينبوع السُّرور الخالد .. فلا موت ..

والنصرُ الحقيقيُّ لا يكون إلا انسجاماً مع التوجُّه الينبوعيِّ الطاهر .. وهل ينتصر من يخسَرُ نفسَه ولو ربحَ العالم[1] ..؟

بهذا المقياسِ الانتصاريِّ ..

ماذا يقولُ العالمُ بثورة الحسين بن علي بن أبي طالب « ع » ؟

هل انسجَمَ الحسينُ مع التوجُّه الينبوعيِّ الطَّاهِر ، فكانَ منتصِراً في شهادته وشهادة آل بيته ؟

فطنَ المؤرِّخونَ والباحثون لرمزيَّة الثورة الحسينيَّة ، واستعذبوا تكرار السِّيرة الحسينيَّة : استلهاماً لها .. واستقواءً بروح صاحبها[2] ..

- ٣ -

يقول الباحث الشابُّ أنطون بارا ، في بحثه الجديد ، « الحسين في الفكر المسيحيِّ » ما خلاصته :

« **لم يُسجِّل التاريخُ شبيهاً لاستشهاد الحسين في كربلاء** » .

فاستشهاد الحسين وسيرته : عنوانٌ صريحٌ لقيمةِ الثباتِ على المبدأ .. ولعظمةِ المثالية في أخذ العقيدة وتمثُّلها .

« ... لذلك ، غدا حبُّ الحسين الثائر : واجباً علينا كبشر .. وغدا حبُّ الحسين الشهيد جزءاً من نفثات ضمائرنا ، فقد جاءت صيحته « ع » : نبراساً لبني الإنسان في كل عصر و مِصر ، وتحت أيةِ عقيدة انضوى .. إذ أن أهداف الأديان هي المحبَّة

---

(١) نفسه : ١٦/ ٢٦ : فإنه ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟

(٢) يلاحظ ما كتبه : عباس محمود العقاد ، والشيخ عبدالله العلايلي ، والشيخ محمد مهدي شمس الدين .. وكثيرون غيرهم .

والتمسُّك بالفضائل ، والدعوة إلى التآخي البشري ، لتنظيم علاقة الفرد بربِّه أوَّلاً .. وبأخيه ثانياً [١]» .

إنَّ بحث الكاتب أنطون بارا ، بمجمل فصوله[٢] ، يؤكد حقيقةً تجلَّت له ، وجسَّدها بقوله :

« **فقد كان الحسين « ع » شمعةَ الإسلام .. أضاءت ممثِّلة ضميرَ الأديان إلى أبدِ الدهور**[٣] » ..

إنَّ هذه النتيجة مثيرةٌ للغاية ، لأنها تحكمُ الماضي والمستقبل ، ومقياسُ الحكم فيها ثورة الحسين الواقعيَّة .. ثمَّ مثالية الرَّمز في شخصيته ، فكيفَ يخرَّجُ هذا الحكمُ الذي يبدو وكأنه انخطاف بالتأثر حتى الغلوِّ ؟ هل مثَّلَ الحسين ضمير الأديان في الماضي وهل يمثله في المستقبل ؟

- ٤ -

ضميرُ الأديان بمقياس المسيحية .. وصيتان :

« أحبب الربَّ إلهك ، بكل قلبك ، وكلِّ نفسك ، وكلِّ ذهنك .. هذه هي الوصية العظمى والأولى »..

« أحبب قريبك كنفسك .. هذه هي الوصية الثانية التي تشبه الأولى »..

---

(١) الحسين : ص٦٦

(٢) لاحظ عناوين الفصول : ثورة الحسين لمن ؟ ثورة الوحي الإلهي .. فداء الحسين في الفكر المسيحي معجزات الشهادة : في ضمير الإسلام .. في المجتمع .. في الزمن .. حكمة اختلاف الشهادتين..أسباب ثورة الحسين : قريبة وبعيدة .. في عهد يزيد .. الخروج .. آخر أقوال سيد الشهداء ومواقفه .. مقتله .. الجريرة التي أسقطت أمية .. المسيح هل تنبَّأ بالحسين ؟ كربلاء الأرض المقدسة .. ضمير الأديان أفضال وألقاب .. سمو الشهادة في علم الجمال .

(٣) الحسين : ٦٥

بهاتين الوصيتين : يتعلّقُ الناموسُ ، كلُّهُ ، والأنبياء [1]..

إن ضمير الأديان : محبّةٌ للّه .. وتحابٌّ بين العباد .. كما يُفهَمُ من عبارة السيد المسيح ..

فكيف يُفهمُ ضميرُ الأديانِ من عبارة القرآن ؟

- ٥ -

آيات المحبة في القرآن الكريم تؤكدُ ضمير الأديان هذا ، فضميرُ الأديان : محبَّةٌ وتحابٌّ .. ومن صيغ التعبير عن هذه الحقيقة :

« يا أيها الذين آمنوا ..من يرتدَّ منكم عن دينه ..فسوف يأتي اللّه بقوم : يحبهم ويحبونه ، أذلَّة على المؤمنين..أعزَّة على الكافرين..يجاهدون في سبيل اللّه ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضلُ اللّه يُؤتيه من يشاء واللّه واسعٌ عليم » [2].

قومُ اللّه : يحبُّونه..وهو لذلك يحبُّهم..فدينه : المحبَّة..ولا يقبلُ قوماً يرتدُّون عن هذا الدين أو يتقاعسون في تنفيذ أخلاقه التي أشارت إليها الآية : رحمةً .. وشدَّةً وجهاداً..وشجاعةً [3]..

هذا ضميرُ الأديان في الصِّيغة الإسلامية .. وفي الصِّيغة المسيحيَّة السَّابقة.

إنه المحبَّةُ والتحابُّ .. فكيف مثَّله الحسينُ بن علي بالثورة ؟

خيرُ الأمم : أمةٌ هُديت إلى الحقِّ فهدت به والتزمته بالعدل [4].. وما الحقُّ الذي يجعلُ الأمَّة خير الأمم؟

---

(١) متى : ٢٢ - ٢٨ - ٤١

(٢) المائدة : ٥٤

(٣) تلاحظ رسالة عبد الله خلف حول : حقيقة الحب في القرآن

(٤) لاحظ نصوص الآيات الواضحة : « وممن خلقنا : أمة يَهدون بالحق وبه يعدلون » ـ أعراف ١٨١ـ

إنه الإخلاص للّه .. والتعايُشُ بالمعروف المطهَّر من المنكر [١].

النصـوص القرآنية تؤكـد مقـاييس خـير الأمم : بصيـغة جديدة لدين الحبِّ والتحاب .. فهل كانت ثورة الحسين تمثيلاً عملياً لضمير الأديان هذا ؟

- ٦ -

يقول الحسين « ع » :

« إنما خرجتُ لطلب الإصلاح في أمة جدِّي ..أريد أن : آمر بالمعروف .. وأنهى عن المنكر .. فمن قبلني بقبول الحقِّ .. فاللّه أولى بالحقِّ ، ومن ردَّ عليَّ هذا ..أصبرُ حتى يقضيَ اللّه بيني وبين القوم بالحقِّ ، وهو خيرُ الحاكمين ».

حلَّلت هـذا النصَّ ، مـرَّة ، أمـامَ أصـدقـاء من الشـعب والعلمـاء ، في بيـروت ١٩٧٥ ، وناقشنا مبادئ الأديان المركَّزة فيه ، إنما جاء تركيزها ميدانياً ، فالحسين يقررُ واقعةَ خـروجه للثورة ، ويُعلن غـايةَ ثورته : طلباً للإصلاح في أمَّة جدِّه الذي بُعثَ للنَّاس جميعاً.. كمـا يُعلن أصول ثورته الإصـلاحيـة ، فهي : أمرٌ بالمعروف ونهيٌ عن المنكر .. حتى يكونَ انسجـامُ الإنسـان مع الحقِّ كـاملاً غيـر منقوص ، ولكي تبلغ الحكمة الإلهية مراقيها بين البشر ..

فمـا هي دروسُ الثـورة المعروفة في ضمير الأديان [٢] .. والتي أوضـحَها الحسينُ بحبر جديد من دمِ الشهادة المحرِّرة المنقذة ؟

---

(١) « كنتم خيرَ أمة أخرجت للناس : تأمرون بالمعروف .. وتنهون عن المنكر.. وتؤمنون باللّه .. ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم » ـ آل عمران : ١١٠

.. وكذلك « ورحمتي وسعت كلَّ شيء .. فأكتبها : للذين يتقون .. الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل .. يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر» ، أعراف ١٥٦ ـ ١٥٧

(٢) تأمَّل التفاصيل في : « جامعة الحسين بن علي » ص ٢٣ - ٣٠ وقارن بالآيات المشار إليها « أعراف ١٥٦ - ١٥٧ - ١٨١» ، وآل عمران ١١٠

من دروسِ المعروف الخالدة في الثورة الحسينيَّة : الحرية .. الإيثار .. التطوُّر .. الإبداع .

ألا تمثلُ هذه الدروس ضمير الأديان إلى أبد الدهور؟ ولكن كيف نفهمها في عصرنا كما أرادها الحسينُ بن علي في ثورته ؟

أمثِّلُ لذلك بمقاطعَ من « جامعة الحسين » :

« **أول دروس المعروف : الحرية ، ويقابلها من مظاهر المنكر : العبودية** » .

فكلُّ المظاهر التحكمية أو التسلطية أو الاستغلالية ، إنما هيَ مظاهرُ للعبودية وزبانيةٌ لها .

وثورة الحسين كانت وثبةً شجاعةً من أعماق سجون التسلُّط في عصره ليخترق جدران العبودية ، مُطلقاً هواء الحرية بالفداء في فضاء الزمان ليصل الهواء النقي ببعضه ، من ماض وحاضر وآت .. فالهواء حرٌّ من طبعه الحريَّة ، ولا يستطيعُ الحياةَ بين جدران ، الهواءُ الحرُّ : يُحيي .. والهواء الحبيسُ : يقتل.

حرَّر الحسينُ بوثبته الفدائيَّة ، هواءً تتنفَّسُه النفوسُ الحرَّةُ الشريفة ، لأنه أكَّد عذوبة الموت : طلباً للإصلاح الإنساني..

وإن كانَ الموتُ بهذا المستوى من العذوبة فلماذا يستعبدُ الخوفُ الإنسانَ .. لماذا لا يندفعُ كالسَّهم الملتهب ، فيحترق ويخترق ؟

إنَّ الاحتراقَ الخارقَ : حريَّةٌ فائقةُ المذاق .. إنَّه : الشهادةُ التي تثمرُ الشهداء .. « **أشهدُ أن لا إله إلا اللّه** » : عنوان جامعة الشهادة ، أي الحريَّة ، لأن هذه العبارة تعني : عدم الخضوع لغير اللّه ، والخضوعُ للّه : حريَّة ، لأنَّ من يخضَعُ للّه .. يتقوَّى بقوته .. ويتحوَّل بحوله.

والشهداء : خرِّيجو هذه الجامعة التي تصنع الأحرار ، وتدعو عشاقَ الحريَّة في

كلِّ سبيل[1] .

أمـا الدرسُ الثاني من دروس المعروف ، فهـو : الإيثار ..ويُقابلُ الإيثار من مظاهر المنكر : الأنانيَّة .

فكلُّ الأعمال التي تجعلُ الآخرين وأشياءهم وقفاً لأنا الفرد المتسلِّط .. تُعتبر من أشواكِ الأنانية ، أو من ثمارها الشائكة .

وثورة الحسين إنَّما هي خروجٌ مُحبٌّ من أجل الجماعة ، ولو كان هذا الخروجُ الثوريُّ مودياً بحياته وحياة أبنائه وبناته .. إن الحسين يطلُبُ الإصلاح في أمة جدِّه ، « **خير أمَّة أخرجت للناس** » بثلاثة مواقفها : الإيمان .. والأمر .. والنهي[2] ، تلك المواقف المكتوبة في التوراة والإنجيل[3] .

لقد آثر الحسين صلاحَ أمَّة جدِّه ـ الإنسانية الهادية بالحقِّ ، العادلة به[4] ـ على حياته ، فانطلقَ إلى كربلاء ليكون عاشوراء ، وليَبقى الفداءُ ضمير الأديان المطوِّر والمبدع[5].

كذلك يُفهمُ درس التطور في ثورة الحسين .. وكذلك يُفهم درس الإبداع فيها.. وبمثل هذا الفهم يكون التحرر من مظاهر المنكر : جموداً وتخلُّفاً وتقليداً أعمى.

ـ ٨ ـ

أليس ضميرُ الأديان : إيقاظاً مستمرًا وتذكيراً دائماً بهذه المبادئ التي فداها الحسين في عاشوراء ؟

---

(١) جامعة الحسين ، بيروت : ١٩٧٥ ص٢٦ ـ ٢٧

(٢) لاحظ نص الآية (١١٠) من سورة آل عمران

(٣) لاحظ نص الآية (١٥٧) من سورة الأعراف

(٤) لاحظ الآية (١٨١) من سورة الأعراف

(٥) جامعة الحسين : ٢٧ – ٢٨

أليست الحرِّيةُ والإيثار كما فهمنا هما من ثورة الحسين ، جوهر وَصيتي الإنجيل العُظمَيَين ؟

- ٩ -

لقد أثار السيد أنطون بارا في كتابه : « الحسين في الفكر المسيحيِّ » إثارات تدعو الإنسانية المعاصرة إلى مزيد من التأمل لمعرفة الحقِّ الذي يُحرِّر كما يقول السيد المسيح .. فهل يتأمل المعاصرون[1] ؟

د. أسعد علي

دمشق ٢٤ ج٢ سنة ١٣٩٩هـ

٢١/ ٥/ ١٩٧٩م

---

(١) لاحظ مثلاً كيف تنبأ المسيح بالحسين ص ٢٩٥ ومابعدها ، إن هذا يثير ما يُقال في نبوءة سليمان .. ومن قبله نوح .. فما معنى إجماع الأنبياء على هذا ..؟

مقدمة المؤلف

بسم اللّه الرَّحمن الرَّحيم

الثورةُ التي فجَّرها الحسينُ بنُ علي ، عليه وعلى أبيه أفضل السَّلام ، في أعماق الصدور المؤمنة والضمائر الحرَّة ، هي حكاية الحرية الموءودة بسكين الظلم في كلِّ زمان ومكان وُجد بهما حاكم ظالم غشوم ، لا يقيم وزناً لحرية إنسان ، ولا يصون عهداً لقضية بشرية ، وهي قضية الأحرار تحت أيِّ لواء انضووا ، وخلف أيَّة عقيدة ساروا .

هذه الثورة التي استلهمتُها عنواناً لمؤلَّفي هذا في طبعته الأولى.. كان حرياً بها أن تظل هكذا عنواناً للطبعات التالية ، مادام الحديث عنها كـ« ثورة » يعني الحديث عن شخصيَّة مفجِّرها « ع » ، إذ أنها تمثل خُلاصات ونتائج أفكار وأفعال وتحركات رافع لوائها .

وبمعنى أدق ، هي مرآة لشخصيته وترجمة لمبادئه ومُثُله ، وأيُّ تطرُّق لها كثورة.. هو تطرُّقٌ لشخصية الحسين « ع » ، وفي المقابل فأيُّ تطرُّق لشخصية الحسين ، هو تطرُّقٌ لثورته ، فتكون الثورة بذلك هي الوجهُ الآخر لشخصية صاحبها ، وتكون شخصية صاحبها هي الوجهُ الأساس لها كثورة .

وقد رأى بعضُ المتنوِّرين فكرياً بأن سطور الكتاب تحدثت بإسهاب عن شخصية الحسين « ع » وحللت أفكاره ومبادئه وخططه وأهدافه .. المرحلية الآنية منها

والمستقبلية .. فكانت الشخصية هي المبرزة بما تمثِّله من محصِّلة المبادئ ، إذ منها انطلقت الأفكار والمثل ، وفيها اختمرت المبادئ ، وفي أعماقها ربضت كل المُوحيات التي أبرزت إلى النُّور ما ظهر ، سواءٌ ما كان منه قولاً أو فعلاً أو مبدأ ، أو **ثورة** .. كفكرة ، وكفعل ، وكمعاناة ، وكهدف آني ومستقبلي ، وبالتالي كخطوة لها طابعٌ مادي بطولي ، يتَّصل بجانبه الماديِّ هذا ، بما تعارف عليه البشر من أفعال ماديَّة بشرية صرفة ، وفي هذا تعلَّة الثورة التي جمعت كل « الممكنات » في ثناياها الممكنات : الروحية ، والزمنية ، والاجتماعية ، والمادية البطولية .

لذا فمن منطلق هذه الرؤية الفكرية لمجمل شخصية الحسين « ع » تكون ثورته جزءاً من تكوُّن هذه الشخصية ، ومن ثَمَّ فهي مرحلة من مراحل سير مكوِّناتها وتأثيراتها بما تحمله من أفكار ومبادئ ، حيث بدأت وانتهت في إحدى مراحلها ، واستمرت في سيرها خالدةً إلى أبد الدهور في مراحلها الأخرى .

فكان حريًا وقد تناولنا شخصية الحسين بما احتوته من أفكار ومبادئ ومواقف وأعمال ـ و الثورة جزء منها ـ أن تكون هذه الشخصية هي محور البحث ، وعنوان السيرة والثَّورة معاً ، واعتبار الثَّورة جزءاً من الشخصية الشاملة ككل ، مما يجدر معها أن تكون الشخصية هي الواجهةُ ، لا الثورة التي هي جزءٌ من مقوِّمات ومحصِّلات الشخصية ، وبالتالي يكون الحسين « ع » كممثِّل لهذه الشخصية ذات الخصائص والميزات القُدسيَّة والبشرية الفريدة في بابها .. عنواناً لثورته ولا تكون ثورته الخالدة عنواناً لشخصيته العظيمة ، مما يجعل عبارة « الحسين في الفكر المسيحي » التسمية الأكثر ملاءمةً لهذا المعنى .

وإذ كُنيت التسمية بشخصية الحسين دون ثورته في الشق الأول من عنوان الكتاب فالأحرى ـ كما طالب البعض ـ أن تَحُلَّ في الشق الثاني منه ، كلمة « إنساني » بدل « مسيحي » فيصبح العنوان معها « الحسينُ في الفكر الإنساني » وهي فكرةٌ صائبة وتسميةٌ في محلِّها ، على اعتبار أن ثورة سيد الشُّهداء كانت ثورةً إنسانية في مُفرد ميزاتها وفي مُجملها ، وأخذِها من وجهة نظر مسيحية بما يخدم البحث المقارن

الذي هو موضوع الكتاب .. يصلح تقديمه كمثال على إنسانية هذه الثَّورة ، أكثر مما يصلح قصره على هذه الوجهة ، وبأخذنا لها من زاوية الفكر المسيحي .. نكون وكأننا ننظر إليها من زاوية الفكر الإنساني ككل ، لأن الفكر المسيحي ماهو إلا جزء من الفكر الإنساني ، ولأن المسيحية ماهي إلا مرحلة من مراحل المدرسة الإلهية التي تكوِّن الدين الواحد ، هذا الدين الذي جاء للبشرية عبر مراحل متعددة ، فكان أدواء لعللها الإجتماعية والزمنية ، اتخذ عبر مراحل التاريخ منحى متدرجاً ، فكان الطابعُ الغالب على الرسالة « الموسوية » طابع الآلهة القومي ، حيث نشأت فكرة شعب اللّه المختار ، وعلى الرسالة « العيسوية » طابع الآلهة العالمي غير المتحرر من المادة ، وهذا ماتشير إليه مسألة الأبوَّة والبنوَّة والتَّثليت ، بينما وصل الخط البياني للتوحيد في الرسالة المحمديَّة إلى الذروة .. « قل هو اللّه أحد ، اللّه الصَّمد ، لم يَلد ولم يُولد ولم يكن له كفواً أحد»[1] .

وهكذا كان الإسلام خاتم الديانات ، والرسالة المحمديَّة خاتمة النبوَّات : « **اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**[2]» ، لذا فمنطق الإيمان الكلي بالدين الواحد وبرسالاته الثلاث .. يقضي بألا يصحُّ إسلامُ المسلم ، حتى يَتنصْرنَ ولا تصحُّ نصرانيَّةُ المسيحي ، حتى يتأسْلمَ[3] فدين اللّه واحد وهدفه صناعة الإنسان[4] بما يرضي خالقه.

من هذا المنطلق تكون رؤية الفكر المسيحي لشخصية الحسين وثورته ، هي ذات رؤية الفكر الإنساني لها ، وما تحديد التسمية في عنوان الكتاب ، إلا نوعٌ من إغناء البحث ، وذلك بحصره ضمن حدود يمكن الإستشهاد بها ومقارنتها والانطلاق منها بشكل واف.

---

(١) الآيات « ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ » من سورة الإخلاص

(٢) الآية « ٣ » من سورة المائدة .

(٣) من حديث للشيخ محمد اليعقوب في مجلة النهضة الكويتية عام ٧٧

(٤) صناعة الإنسان شكلت القاسم المشترك للأديان السماوية وجعلته هدفها الأول والأخير .

لذا فإن في بحث رؤية الفكر المسيحي لثورة الحسين ، دلالة كافية على إنسانية هذه الثورة ، مما لا يجعل بقاء الشق الثاني من العنوان كما هو ، أمراً يدعو إلى الدهشة ، فالفكر المسيحي هو قاسمٌ مشترك للفكر الإنساني ، وجزء لا يتجزأ منه ، يشترك معه في سداه ولحمته ، وفي تطلُّعنا إلى ثورة سيد الشهداء من كوَّة هذا الفكر.. نكون كمن نتطلّع إليها من كُوى الفكر الإنساني كلّه ، لأن هذه الثورة كانت من أجل الإنسانية أولاً وآخراً ، ولأن الإنسانية جمعاء تشترك في دين واحد يرتكز على ثوابت إلهية واحدة ، لا تتبدَّل بتبدُّل الديانات وبأساليب الإيمان بها ، هذه الأساليب التي تدخل في المجال الحيوي للعقل البشري .. « شرَّع لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك ، وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرَّقوا فيه[1] » .

وإذا كان الشيءُ بالشيء يذكر.. فإن أول ما يتبادر إلى ذهن القارئ ، سواء أكان مسيحياً أم غير مسيحي لدى قراءته للكتاب ، هو كيف أمكن الربط بين ثورة الإمام الحسين ، وبين فكر أهل الكتاب ؟ إذ لم يسبق هذا الربط أي اهتمام فكري مسيحي بعلَم من أعلام الإسلام ، كي يأتي ما أورده هذا الكتاب ليكمل اهتمامات سابقة بهذا الصدد .

وكان مكمن الغرابة في كون مؤلف الكتاب الفقير للّه..مسيحياً عربياً ، فكانت هذه الصفة مكمناً إضافياً لجدَّة البحث ، ودافعاً للاطلاع عليه حتى آخر سطر منه ، بهدف الوقوف التام على ما يمكن أن يضيفه هذا الفكر إلى ملحمة استشهاد الحسين من أبعاد جديدة.

و« الأبعاد الجديدة » في رأي البعض هي في النظر لملحمة كربلاء من وجهة نظر مسيحية لكاتب مسيحي عربي ، لا هو بمسلم كي يُقال بأنه متأثر عاطفياً بالفاجعة التي وقعت فوق ثرى الطَّفْ ، ولاهو بمستشرق صاحب فكر غربي ينظر إلى التاريخ الإسلامي نظرته إلى أيَّة مرحلة تاريخية أخرى ، لا تُخْشعه خلالها أية قُدسية من

---

(١) الآية « ١٣ » من سورة الشورى

قُدْسيات آل البيت « ع » فلا يرى من خلال عدم الخشية هذا..إلا الجانب التاريخي السَّردي ، مُهملاً عن عمد أو جهل ، الكثير من المقوِّمات الروحية والإلهية للحركة ، من جانبها العُلوي القُدْسي ، مُجرِّداً إياها من أهم ما تملك ، ومن أكبر الأهداف التي رمت إليها.

فالفكر المسيحي العربي يقدِّس آل البيت « ع » كما يقدسه الفكر المسلم ، وفي أخذه لأية حادثة تاريخية تختص بالعالم الإسلامي الذي يعيش فيه .. يهدف إلى الحيدة ، مبتغياً الواقع ، باحثاً عن المنطق والرؤية العقلانية السليمة ، وهي صعوبة تتكاثف على قلمه الذي تحكم حيدته اعتبارات كثيرة ، ولا يحتمل الزلل لأقل هفوة ولا يُقبل منه الشطط أو التطرُّف ، ولا تَسمح له الأدبيات الفكرية بإبداء ما يخالف الحقيقة وما ينفر منه العقل الآخر الذي يخاطبه ، وفي هذا حُجَّة..وللحُجَّة سبب بل جملة أسباب منها : أن الفكر المسيحي العربي يستمد تراثه من التراث العربي الإسلامي[(١)] ، ويتعرض لنفس التيارات الفكرية والروحية التي يتعرض لها ، ويحيا في سائله الحضاري ، ويشكل جزءاً من أطروحته الثقافية ، ويدخل خيطاً فاعلاً في نسيجه[(٢)] اليقيني ، ويتطبع بهويته العربية الإسلامية[(٣)] ، ويتمثل خصوصيتها وتمايزها ، ويعي كل حادثة تاريخية نتيجة تشربه لها في المدرسة ، أو زيارته لأماكنها ،

---

(١) للأمين العام لحركة الجهاد الاسلامي في فلسطين ، رمضان عبدالله شلح ، رأي يقول فيه : إننا نعتبر المسيحيين العرب ، مسلمي حضارة وثقافة ، ومسيحيي ديانة ، وهم جزء لا يتجزأ من الأمة العربية الإسلامية ولهم دورهم التاريخي الفاعل في مسيرتها ـ من حديث له نشر في الرأي العام الكويتية عدد الخميس ٢٣/ ١٢/ ١٩٩٩

(٢) العربي المسيحي سيفهم أنه يتكامل مع العربي المسلم ابن ترابه وعروبته ويدخلان في ثقافة واحدة أنتجاها سويةً ، وإلا فأين أضع جبران ومارون عبود وعبدالله العلايلي وموسى الصدر هؤلاء الذين صنعوا لنا فراش ثقافة بيئة واحدة لننام عليها سوية ـ من حديث للسيد هاني فحص نشر في القبس عدد ١٠ ديسمبر ٢٠٠١

(٣)المسيحي العربي ، مسيحي القلب ، مسلم العقل ، عربي الدم ، شيعي الهوى .

أو لاتصال ظواهرها به .. إن في الانسان أو الجماد أو التراث[1] ، ونتيجةً لمتوالية التعايش اليومي المشترك وتقاسم ذات الهموم والتطلعات جيلاً بعد جيل وكابراً عن كابر ، بينما لا يملك الفكر المسيحي الغربي الخشية والإحساس الورع بقيمة الشخصية القُدْسيَّة التي يتناولها ، فإذا ذكر النبي محمد « ص» لا يهمه كثيراً وضعُ كلمة « صلّى اللّه عليه وسلّم » وإذا ذكر أحداً من آل البيت ، لا يؤثمه عدم وضع كلمة « عليه السَّلام » .

هذا الفارق بين التمثُّل القُدسي ، وعدمه .. فارقٌ له أهميته في أخذ الحادثة التاريخية للعالم الإسلامي ، وهو فارقٌ كبيرٌ على صغره المتناهي في ميزان النتيجة ، وصغيرٌ في انعكاساته الفكرية في ميزان الكيفية.

وشتَّان بين كبر خطر النتيجة ، وبين تفاهة صغر الكيفية خلال مسار الأمور.

هذه الغرابة ، وهذا التوقُّع والترقُّب لما هو مُحتمل في جدَّته .. عوامل نفسية وفكرية من الممكن أن تعتمل في ذهن قارئ حيال أثر ما يربط بين الفكر الإسلامي ، وبين فكر أهل الكتاب .

وبالمقابل فإن ما يشبهها بشكل أو بآخر ، يعتمل أيضاً في ذهن المفكر المسيحي الذي يتناول فكرياً علَماً من أعلام الإسلام ، ويدفعه للتساؤل عن مسبِّبات هذه الغفلة التي يرتع فيها الفكرُ الإسلامي ، مما يدمغه بصفة التقصير عن دراسة شخصية مثل شخصية الحسين ، دراسة وافية منصفة وتقديمها للعالم المسيحي ، الغربي والعربي ، كواحدة من أنصع الصفحات بياضاً في تاريخ الإسلام .

فشخصية الحسين محيطٌ واسع من المُثُل الأدبية والأخلاق النبوية ، وثورته فضاءٌ واسع من المعطيات الأخلاقية والعقائدية ، ولعلنا نتمثلُ أهمَّ سمة من سمات العظمة في هذه الشَّخصية .. من قول جدِّه الرسول « ص» «حسين مني وأنا من حسين »

---

(١) إكتشافات مكتبة « ناغ حمادي» في السودان عام ١٩٤٥ بيَّنت أن المسيحية الشرقية هي الساحة الخلفية الأقرب للإسلام نظراً لتوحد النظرة المشتركة بينهما إلى الإيمان والروحانيات .

فارتقت إنسانية السبط إلى حيث نبوَّة الجد « **أنا من حسين** »[1] ، وهبطت نبوَّةُ الجَّد إلى حيث إنسانية الحفيد السبط « **حسين مني** » ، وفي هذا المعنى يقول السيد الطباطبائي :

غرسٌ سقاه رسول اللّه من يده وطاب من بعد طيب الأصل فارعُهُ

وإذاكان العالم المسيحيُّ الغربيُّ له مآخذ[2] على الإسلام ، فإنما ينظر إلى هذه المآخذ من كُوى مثالب عهود بني أميَّة ، والتشويهات التي استهدفت أمة الإسلام

---

(١) أنظر الإمام الحسين للشيخ عبدالله العلايلي ٢٩٠

(٢) استمرت هذه المآخذ حتى عام ٦٢ حيث بدأت آنذاك إجتماعات سرية في مجمع الفاتيكان في روما شارك فيها كبار العلماء والفكر المسيحي الأوربي وأسفرت عن إصدار وثيقة تاريخية من ١٥٠ صفحة رفعت إلى البابا بولس السادس تحت مسمى « وثيقة نور العالم .. توجهات من أجل حوار بين المسلمين والمسيحيين » وفي الصفحة ١٧ قال نداء الفاتيكان : « سنجد الفرصة بصورة أوسع في ما بعد للكلام حول إصلاح عقيدتنا وأفكارنا عن الإسلام والمسلمين » .

وتحت عنوان: « علينا أن نتحرر من أضخم مزاعمنا الباطلة » .. وجهت الوثيقة الدعوة إلى المسيحيين فقالت : « وهنا أيضا ينبغي أن نخضع أفكارنا لتزكية عميقة وأن نفكر بالخصوص في بعض الأحكام المسبقة التي ننقلها غالباً وببساطة عن الإسلام ، ويبدو أساساً أن لا نمارس في سرنا اجترار هذه النظريات الشائعة التي أدت بنا إلى أن نستعمل في لغتنا بصورة رسمية لفظة « اللّه » ، قاصدين بها إله المسلمين ، كما لو كان المسلمون يؤمنون بإله غير إله المسيحيين » .

واعترفت الوثيقة أن لفظة اللّه في العربية تعني الألوهية الواحدة ، واللّه هو بالنسبة إلى المسلمين نفس إله موسى وعيسى عليهما السلام ، وألحت على هذه الناحية الأساسية في العبارات التالية : « إنه يبدو باطلاً أن ندعم مع بعض الغربيين القول بأن اللّه ليس في الحقيقة هو اللّه ، حسب اللغة والنقل الفرنسي DIEU ، والحق أنه لايمكن تلخيص العقيدة الإسلامية في كلمة اللّه ، بأحسن من عبارات وثيقة نور العالم ، فالمسلمون الذين يؤمنون بعقيدة إبراهيم يعبدون معنا الإله الواحد الرحيم ديَّان الناس في اليوم الآخر » .

فيما بعدها ، حيث نظر الحكام الى الدنيا والمُلك بالشكل الذي صوَّره معاوية بعد احتلاله الكوفة ، إذ قال : « إنّي لم أقاتلكم لكي تُصلُّوا أو تصوموا .. بل قاتلتُكم لكي أتأمَّرَ عليكم » .

هذه النظرة المغلوطة من زاوية الماديات الصرفة إلى أمور الدنيا وقضايا الحكم..كان أبو سفيان بن حرب قد نظر من خلالها يوم فتح مكة ، إذ قال للعباس عم الرسول « ص» جملته الممثلة خير تمثيل للمبدأ النفعي الذي كان مسيطراً على العقول آنذاك : « لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً » فكان في قولته لا يرى من جهاد الرسول الكريم ، سوى ذلك المغزى الدنيوي « الغَلَبة والعَظَمة » ، أما تعبيد الخلق للخالق وتنفيذ إرادة اللّه في خلقه .. فلم تَبِنْ لناظره ، ومثلُه لا يفهمها «فما يعقلها إلا العالمون » .

هذا هو المظهر الخارجي لجوهر الصراع الذي استشرى بعد ذلك بين أهل بيت رسول اللّه « ص » وبين ذريَّة أبي سفيان ، أهل البيت يرون أن الخلافة مركب يقود إلى الآخرة وفق أحكام اللّه ، وبنو أمية يتطلعون إليها باعتبارها مركباً يقود للجاه والسلطان وانقياد الدنيا وفق أهواء النَّفس ومطالبها . وبين أحكام اللّه ، وبين أهواء النفس .. حدث الانقسام المريع في جسد أمة الإسلام ، والتفَّ الأبناء حول الرمز الأقرب لما تهيأت له أنفسهم « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة [١] ».

وهكذا ، فالفكر المسيحيُّ الغربي لا يعي هذا التناقض الصارخ بين الحق المقهور وبين الباطل المنتصر ، ومتى فُقد هذا الوعي .. تجرَّدت الحوادث التاريخية من أهم عناصرها ومسبباتها.

لذا فقد رأى المستشرقون في حادثة الطَّفِّ ـ انطلاقاً من هذا التجريد ـ موقعة عسكرية تغلبت خلالها الكثرة على القلّة ، والتنظيم على الإرتجال ، غير ملتفتين إلى اختيارات العناية الإلهية وسرِّها وتدخلها في هذا الحدث الجذري في المسيرة

---

(١) نص الآية ١٥٣ من سورة آل عمران .

الروحية والتاريخية لأمة الإسلام ، ولدين اللّه ذي الوحدانية الكلية.

من هنا يبرز دور الفكر المسيحي العربي في تمثيل الحيادية الصرفة ، مُحلاً الرؤية الموضوعية محل تلك العاطفية منها ، والمتجنِّية على السواء.

لكن هذا الدور تحكمه حساسية فائقة حيال آلاف الشروحات والتفسيرات للحادثة وكثرة الأسانيد واختلاف الروايات ، وهنا مكمن الصعوبة ، حيث يتجلّى دور البصيرة النافذة للقيام بعملية غربلة حذرة لمئات من هذه الروايات ، واختيار للأسانيد الموثوقة ، ثم القيام بعملية تكريسيَّة نهائية لا تقلُّ صعوبةً عن عمليتي الغربلة والانتقاء ، يلعب فيها الحدس والخلفية الثقافية والرؤية العقلانية المحايدة للكاتب..الدور الأهم ، قبل أن يُقرِّب قلمه ويؤشِّر على إحدى الروايات الأقرب إلى العقل ، والمنسجمة مع الحدث العام ، والمتناغمة مع إيقاع الأحداث ، لذا فإن معادلة « كل ما يقبله العقل مقبول » تظل رافعة أشرعتها خلال البحث ترقب تحركات القلم وترصد حياديته ، بل وترغمه في أحايين كثيرة على نزع حالات شطط وتطرف لإبراز موضوعية الأحداث والحفاظ على مصداقية وحيادية العمل .

وإذا كانت الحساسية التي تواكب قلم الكاتب غير المسلم لدى تناوله لسيرة علم من أعلام الإسلام .. مضاعفة ، فإنها سوف تتضاعف أيضاً لدى القيام بعملية الربط بين المواقف المتجانسة والأهداف المشتركة بين نبي ونبي ، وشهيد وشهيد ، لاسيما إذا لم يسبق هذا الربط ربط مماثل يقرب منه أو يبعد ، يشبهه أو يكاد ، فتكون البداية في هذا الصدد ، محط اهتمام الكثيرين ، ويكون البادىء محل هذا الاهتمام أيضاً ، مضافاً إليه النقد والاستحسان أو الاستهجان.

ولعل هذا المؤلَّف لم يسلم من هذا النقد ، كما لم يحرم من هذا الاستهجان والاستحسان ، شأنه شأن أي عمل طابعه الجدَّة ، ولكن العامل المتكل على اللّه في عمله ، لا يعدم الإحساس بالرضى عن عمله مهما قوبل بالنقد ، إيجابياً كان أم سلبياً « وقل اعملوا فسيرى اللّه عملكم ورسوله ، والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ».

أسوق هذه التهيئة البسيطة التي لا بد من الإشارة إليها في متن هذه المقدمة والتي لا يصح سوق مثلها في المتن بعد تجاوز بداية المقال لأصل إلى مدخل الفصل الأهم من الكتاب ، والذي يمثِّل « الحساسية الفائقة » التي عنيتها تواكب قلم الكاتب غير المسلم ، فأشير إلى أن فصل « المسيح ..هل تنبأ بالحسين ؟ » قد أثار اهتمام الكثيرين ، واستأثر دون الفصول الأخرى بجُلِّ النقد[1] والاستحسان وكذلك الاستهجان ، ودارت حوله المناقشات والتساؤلات ، لاسيما حول خطبة عيسى في تلاميذه قبل توجهه للموت ، وما عنته كلماته القليلة من معان ، عمدت الى تفسيرها بالشكل الذي ألهمتَه وبالكيفية التي ترمي لها هذه المعاني في حقيقتها ، مستنداً في ذلك الى حُجج دامغة أوردتها في متن الفصل المذكور إياه ، وسأضيف لها بعض التفاسير والتحليلات الأخرى ضمن هذه المقدمة..

قال عيسى « ع » في إنجيل يوحنا [2] :

« إني ذاهب الآن إلى الذي أرسلني
وما من أحد منكم يسألني : إلى أين تذهب ؟

---

(١) نسوق هذا الرأي في هذا المقام للتشبيه لا للدلالة ،وللاستدلال على حتمية وقوف البعض مع أو ضد الفكرة والعمل ككل : « إني ربما ألَّفت الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة.. وأنسبه لنفسي ، فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم بالحسد المركب فيهم ، وهم يعرفون براعته ونصاعته ، وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلفاً لملك معه القدرة على التقديم والتأخير والحط والرفع والترغيب ، فإنهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الإبل المغتلمة.. وربما ألفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه ، فأترجمه باسم غيري وأحيله على من تقدمني عصره مثل ابن المقفع والخليل ومسلم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن خالد والعتابي ومن أشبه هؤلاء من مؤلفي الكتب .. فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم ، الطاعنون على الكتاب الذي كان أحكم من هذا الكتاب ، لاستنساخ الكتاب وقراءته عليَّ ، ويكتبونه بخطوطهم ويصيرونه إماماً يقتدون به » المحاسن والأضداد للجاحظ « منتصف القرن الثالث الهجري » .

(٢) يوحنا : ١٦/ ٥ ـ ٧ ـ ٨

غير أني أقول لكم الحق

من الخير لكم أن أمضي

فإن لم أمض لا يأتكم المؤيِّد

أما إذامضيت فأرسله إليكم

ومتى جاء أخزى العالم على الخطيئة والبر والحكم ».

وقد تركزت المناقشات والتساؤلات حول ثلاث نقاط :

الأولى : من المقصود بالمؤيِّد في قولة عيسى .. أليس الرسول محمد « ص» هو الجدير بهذا القصد ؟

والثانية : الحسين شهيد وليس بنبي .. فكيف يتحدث عيسى عنه بينما لم يلمح إلى قدوم الرسول « ص» من بعده ، مع أنه نبي ؟

والثالثة :لقد فُسِّرت كلمة المؤيد في الإنجيل تحت معنى « الروح القدس » فكيف احتملت اللفظة هذا التأويل المغاير الذي لم يُقرأ إلا في هذا الكتاب ؟

هنا يجدر بنا الوقوف لتوضيح أمر طالما تعامى عنه الغلاة المتطرفون ، ولايزال يشكل عقبة كأداء أمام منوَّري القلب والفكر من العقلاء أمام انطلاق أفكارهم وقناعاتهم المؤمنة ، بأنه ما من نبي إلا وتنبأ مبشراً بقدوم نبي بعده ، وما من شهيد إلا وتنبأ بالشهيد الذي سيليه ، ولم يكن عيسى « ع » ليشذ عن هذه الحكمة الإلهية ، لا تغافلاً عن تبشير الناس بقدوم النبي محمد « ص » ولا كُرهاً لهذا التبشير أو هذا القدوم ، « حاشا للّه » ، وعيسى رسول المحبة والسلام والمبشر بالحب والغيرية ، حتى للأعداء والمبغضين ، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بنبي بعده ، ختم اللّه به الأنبياء ، وبرسالته الديانات ، وكان على هذا القدر العظيم من الشمائل النبوية ، والخلق الكريم ؟

وللإجابة على مُجمل التساؤلات .. يستحسن إعطاء نُبذة عن نشأة الأناجيل الأربعة ، والتي سار ويسير على تعاليمها العالم المسيحي ، ولنحدد أكثر ـ المسيحي

الكاثوليكي التابع لسلطة البابا في روما .

فالإنجيل المقدس عُرِّبت لفظته إلى العربية من كلمة EUAYYEYIOV اليونانية[1] ، وهي تعني « البشرى الحسنة » ، ثم أطلقت على الكتاب الذي يحتوي هذه البشرى ، وهو مجموع الأسفار الإلهية التي كتبت بإلهام الروح القدس خلال الحقبة الزمنية الممتدة من القرن السادس عشر قبل المسيح حتى آخر القرن الأول بعده ، وإن كانت لفظة « إنجيل » هي كتاب القرن الأول قبل المسيح.. فإن كتاب القرون التي سبقت السنة الميلادية ، دُعي بـ « الكتاب المقدس » وهو ينقسم الى عهدين: « القديم والجديد »[2] ، الأول يحتوي على الأسفار التي أُنزلت قبل السيد المسيح وعددها ٤٦ سفراً ، وتنطوي على تاريخ وشعر وحكمة ونبوة ، والآخر يتضمن الأسفار التي أنزلت بعد بعثه وفيها خلاصة حياته المقدسة وتعاليمه السَّامية ، وعددها ٢٧ سفراً ، فكان الكتاب القديم تمهيداً ، والجديد تحقيقاً .

والإنجيل وضعه رسولان : متى ويوحنا ، وكلاهما عاينا وسمعا وعاشا ولمسا حياة المسيح عن قرب ، وتلميذان هما : مرقس ولوقا وكلاهما رفيق حميم .. الأول لبطرس والثاني لبولس ، وهما اللذان تلقيا الخبر عن رفيقيهما .

وعلَّة الاختلاف الظاهر في أسلوب تدوين الروايات بين الأناجيل الأربعة ، ترجع إلى ظروف المكان والزمان الذي كُتبت فيه من قبل التلاميذ ، فمتَّى كتب إنجيله لليهود باللغة الآرامية ، وقد فُقدت هذه النسخة بعد أن تُرجمت إلى اليونانية ، وقد غلب على هذه الرواية اللغة الثقافية لأنه كتبها للمثقفين ، والبرهان على ذلك أنه كتب الكلمة الوضعية على الصليب بثلاث لغات ، وهي : العبرية ، واليونانية ، والرومانية والتي تقول : « يسوع ملك اليهود » ، وقد أظهر الكاتب لليهود أن المعلم الإلهي هو الماسيَّا المنتظر ، والذي به تمت نبوءات العهد القديم وتحققت رموزه ، فأكثر في إنجيله عبارة :«كما ورد في أشعيا وأرميا والأنبياء» أو « وهكذا تمت الكلمة

---

(١) تمهيد « أ » وما بعدها ، العهد الجديد ، المطبعة البولسية

(٢) العهد الجديد « أ » تمهيد ط البولسية .

التي قيلت بيسوع ».

كذلك لم يكن متَّى ليحرص على تسلسل الحوادث التاريخية ، فكان يجمعها جمعاً بدون هذا التسلسل ، إذ كان المهم عنده إبراز الموقف بغض النظر عن توقيته الزمني ، ويقال إنه ترجم إنجيله إلى اليونانية بنفسه.

أما مرقس تلميذ بطرس ، فقد وجَّه إنجيله إلى الرومانيين باللغة اليونانية ، ولأن هذا الشعب مغرم بالقدرة والعظمة..فقد أوقف وصفه على ما يُظهر وجه المسيح من هذا القبيل ، وهو ينقل عن بطرس ، وفي إنجيله تركيز على المعجزات التي اجترحها المسيح مع أنه لا يأتي على ذ كر بطرس شخصياً.

أما لوقا تلميذ بولس فكان مثقفاً وطبيباً ومصوراً وخبيراً ضليعاً باللغة اليونانية ، وقد وجَّه إنجيله خصيصاً لليونانيين والرومانيين المتنصرين [١] حديثاً ، فأبان لهم أن رحمة المخلص ـ المسيح ـ لم تنحصر في فئة من الناس دون أخرى ، وكان لا يهتم بالتفاصيل التي أوردها غيره في أناجيله ، وهو الذي ألّف أعمال الرسل ، وكان يوجه كلامه لـ « تيوفيلوس » بكل الأمور التي جاء بها المسيح « ع » مبتدئاً كلامه بعبارة : « سأحكي الحقيقة وليس كما زادوا عليها » ، وقد انفرد إنجيله بإيراد أمثال الرحمة : كالخروف الضال ، والابن الشاطر ، حتى دُعي بـ « إنجيل الرحمة ».

أما يوحنا فقد كتب إنجيله بعد مائة سنة من المسيح ، لذلك اختلف عن الأناجيل السابقة ، وقد كتبه باليونانية ليُحاجَّ به دعاة الضلال المتنكرين لناسوت المسيح أو لاهوته [٢] وحرص على التسلسل التاريخي أكثر من غيره وهدف به كل المسيحيين حيث حلّق بالفلسفة كثيراً وهو المتأثر بفلسفة اليونان وبالكلمة ، لذا فقد بدأ إنجيله بعبارة : « في البدء كان الكلمة » وفي عهده انبثقت فئة أسمت نفسها « النقلاويُّون »

---

(١) الكثير من الرومانيين اعتنقوا النصرانية ولم يتخلوا عن عقائدهم الوثنية .. بل أن النصارى هم الذين تروَّموا وحولوا النصرانية من عقيدة التوحيد إلى عقائد الروم الوثنية.

(٢) الناسوت : طبيعة المسيح البشرية ، واللاهوت طبيعته الإلهية.

أنكرت ألوهية المسيح ، كما نشأت على عهده قصص شعبية وخيالية ، وألّف إنجيل دُعيَ « أبو كريف » وبدأت الأناجيل تكثر منذ عهده .

والإنجيل الذي نتلوه اليوم منقول عن المخطوطات الكبرى على الجلد التي تعود إلى القرن الرابع ، منها المخطوطة الفاتيكانية وقد نُسخت حوالي سنة ٣٤٨م ، والمخطوطة السينائية وقد نسخت حوالي سنة٣٣١م ، والمخطوطة الاسكندريَّة التي ترقى الى القرن الخامس ، وهناك مخطوطة رابعة معروفة بالأفرامية لأن نص الكتاب والإنجيل قد مُحي وكُتب عليه مواعظ « مارأفرام » وقد تمكن العلماء بعد دراسة متأنية من إبراز النص الأصلي وقراءته ، ويوجد أيضاً مخطوطات أخرى نُسخت ما بين القرنين الرابع والعاشر وهي نحو أربعين ، وهناك أيضاً نحو ثمانية آلاف مخطوطة صغيرة .

ففي الفاتيكان والمتحف البريطاني وباريس توجد ثلاث مخطوطات أصلية ، وقد اكتشف « شتر بيتي » مجموعة تشتمل على جزء كبير من الأناجيل ترجع إلى القرن الثالث ، وفي سنة ١٩٥٦ اكتشف « مارتان بودمير » أوراق بردي تتضمن إنجيل يوحنا كاملاً مع أجزاء من إنجيل لوقا يعود تاريخها إلى أواخر القرن الثاني ، كما اكتشف « جون رايلايد » أقدم مخطوطات البردي المحتوية على قسم من الفصل الثامن عشر من إنجيل يوحنا وجده في صعيد مصر ، وهو يرْقى إلى النصف الأول من القرن الثاني .

أما أقدم المخطوطات العربية لترجمة الكتاب المقدس ، فموجودة الآن في« دير سيناء » ، منها مخطوطة أعمال الرسل والرسائل الجامعة ، وهي من القرن الثامن م ، ومنها مخطوطة المزامير بالخط الكوفي مع النص اليوناني ، وهي من العام ٨٠٠ م وهناك عدد من مخطوطات الأناجيل الأربعة ترجع كلها إلى القرن التاسع ، ومخطوطةٌ للرسائل وسفر الأعمال ، وقد ذكر ناسخها تاريخ نسخها وهو عام ٨٦٧ م ، كما أن هناك بعض أسفار الأنبياء وأيوب ترجع إلى القرن التاسع م ، وفي دير سيناء مخطوطة للتوراة من القرن العاشر ، كما وُجدت ترجمات قديمة إلى العربية يرجع عهدها إلى ما قبل الإسلام ، حيث كان المسيحيون العرب في اليمن

وبصرى إسكي شام يتعبدون بها.

أما الأناجيل الأربعة فقد تُرجمت للعربية منذ عهد « يوحنا الثالث » بطريرك السريان الأنطاكي « ٦٣١ ـ ٦٤٨ » وطبعت لأول مرة في رومية سنة ١٩٥١ ، وقد ظهرت ترجمات عربية عصرية كاملة منذ عام ١٨٦٥ في ثلاثة مجلدات كبيرة حققها الآباء اليسوعيون اللبنانيون .

وأخلُصُ بعد هذا العرض إلى فكرة أن الأناجيل الأربعة التي وضعها الرسل المذكورون .. كانت صريحة وصادقة وأمينة ، ترجمت حياة المسيح بأكملها ، لكن ما طرأ بعد وفاة يوحنا زاد من عدد الأناجيل كثيراً ، إذ شوَّه البروتستانت بعض المرادفات ، وألغوا بعضاً منها ، وحوَّروا البعض الآخر بما يتفق مع عقيدتهم ، وعلى سبيل المثال حذفهم كلَّ ما يَمَسُّ رئاسة بطرس للكنيسة الموحدة .

وفي العالم المسيحي الآن ألف طائفة للبروتستانتية وحدها ، ولكل منها إنجيل يختلف بشكل أو بآخر عن الآخر .

فقد جاء وقت كان فيه راهب يدعى « لوثيروس » فتح عينيه على رجال الدين الكاثوليك يتاجرون بـ « الغفرانية » ويملّكون أماكن في الجنة بموجب شهادات رسمية سميت وقتذاك بـ « صكوك الغفران » ، فأراد القيام بحركة إصلاح وبدأها بالانشقاق عن السدة البابوية ، ولم يحاول البابا وقتذاك إصلاح الوضع الشاذ الذي أوجده رجال الدين من خلال بيعهم لصكوك الغفران ، وقد قيل في عصرنا : إنه لو انشق لوثيروس في عهد البابا يوحنا الثالث والعشرين الذي توفي في سبعينات القرن الماضي .. لكان أمَر بإصلاح هذا الخلل ولم يسمح بالانشقاق ، لكن المصالح الإقتصادية والأطماع المادية كانت تعصف برؤوس رجال الدين مما جعل الانشقاق أمراً حتمياً .

وبعد اللوثرية جاءت : الكالفنية ، والبروتستنتية ، والمورمون ، والباتيست ، والسبتيست ، والميثوديست ، والمشيخية ، والكاثارينية ، واليعقوبية ، وشهود يهوه ، ومذاهب إنشقاقية أخرى ، كلٌ منها تُعدِّل في الإنجيل بما يتفق ومعتقداتها الجديدة

فمنها من ألغت الأسرار ، ومنها من بالغت بتقديس العذراء مريم ، ومنها من ما نفت القدسية عنها أو حرَّفت الأحداث التاريخية كمسألة ولادتها لعيسى في المغارة وزيارة المجوس لمولودها في المزود .. الخ .

ولما استشرى الوضع وتفاقم الخلاف بين الكنائس المنشقة ، وكثرت الأناجيل حتى غدت بعدد الطوائف المبعثرة .. اجتمع المجمع المسكوني وقام بعملية غربلة كبيرة استبعد معها كل الأناجيل التي صدرت بعد عهود التلاميذ الأربعة ، ومنها إنجيل « برنابا » الذي وصفه المجمع المذكور : « بأنه كتب بيد مرتد عن النصرانية ، جدُّ خبير بالتوراة اللاتينية ، يصف فيه شتى نواحي الحياة الدينية والمدنية والتاريخية والجغرافية والاجتماعية في عهد المسيح ، على ما رأى بعينه في بيئته الإيطالية في القرن السادس عشر[1] » .

إضافة لذلك كله أن يوحنا ذكر في نهاية إنجيله عبارة تقول : « **وقال المسيح خلال حياته كلاماً كثيراً لو جُمع لما احتوته أسفار** ».

إذاً فنحن هنا أمام تعدُّد أناجيل كثيرة نقلت من لغة إلى أخرى ، وكُتبت في أزمان متفاوتة لتخدم غايات معينة ، وحيال كلام كثير قاله المسيح ولم يُدوَّن .. فإلى أين تقود هذه التشعبات التي آلت إليها الأناجيل؟

المسيح تفوَّه بكلام كثير .. فماذا قال ترى .. ولمَ لمْ يدوَّن قوله كلُّه ، وهو النبي العظيم المنزه عن الخطأ والتكرار والتشابه في الأقوال والأفعال .. وما كانت ستضم هذه الأسفار لو جُمعت كما ذكر يوحنا في نهاية إنجيله .. وما كانت ستضم أيضاً من صنائعه إضافة لأقواله كما ذكر ؟ [2]:

« وصنع يسوع أيضاً أشياء كثيرة أخرى ، لو أنها كتبت واحداً فواحداً لما خلْتُ أن العالم نفسه يسع الصحف المكتوبة » .. هل كانت ستضم من الأقوال والصنائع ..

---

(١) العهد الجديد ج تمهيد ط البولسية

(٢)٢٠/ ٢٥ يوحنا : ٢٠/ ٢٥

المتشابه والمكرر والمعاد من الكلام والفعل النبوي .. هذه الأقوال التي فاقت فصاحتها كلَّ فصاحة ، وهذه الأفعال التي فاق إعجازها كل إعجاز ..؟

وتلك الموجة العارمة من الأناجيل التي برزت ، والتي عُنيَ المجمع الكنسيُّ بغربلتها .. ماذا أضافت للعقيدة المسيحية .. وماذا ألغت من قوانينها وأسرارها..وما دورها في إغناء أو إفقار التَّعاليم المسيحية من خلال انتشارها..؟

سؤال طالما يرد إلى أذهان الكثيرين في غياب أيِّ قبس مدوَّن عن الكيفية التي تمت فيها عمليتا الغربلة والإقرار النهائي للأناجيل الحالية المتداولة من قبل المجمع الكنسي ، والتي لا يرد في متنها أو مقدمتها ما يفسِّر ويُوضح الملابسات التي تعرَّض لها الإنجيل حتى وصل إلى الأيدي بشكله الحالي .

ولكننا كمسيحيين مؤمنين ، لدينا غنىً كامل في قناعتنا بأن الأناجيل الأربعة المتداولة حالياً عن ألسنة التلاميذ الأربعة هي الكتب الصحيحة والكاملة للمسيحية ، وما تساؤلنا إلا نوع من التعطش إلى الحقيقة والظمأ إلى المعرفة .

فإذا لم يكن في هذه الأناجيل إشارة واضحة لتنبؤ المسيح بقدوم نبي من بعده اسمه « محمد » .. فمما لا شك فيه أن هذا المعنى متضمن إحدى آياته « ع » حيث لم تسعف القوى التأملية بجوهر ومعنى الدين الكلي الواحد ، عن عمد أو عن غير عمد ، بترجمته ونحته من صُلب الآيات ، لأن رسول المحبة بشَّر وتكلم لا بشكل مباشر ، بل على سنَّة الرموز والأمثال :

« **وبغير مثل لم يكن يكلمهم ليتم ما قيل بالنبي القائل : « أفتح فمي بالأمثال ، وأذيع بالمكنونات منذ إنشاء العالم**[1] » .

وهكذا على هذه السُّنة شبَّه المسيح ملكوت السموات بالحقل المزروع بالحنطة ، كما شبَّه معتقدات الفرِّيسيين والهيروديسيين .. بالخمير ، حيث نهى تلاميذه عنه بقوله : « أنظروا .. إياكم وخمير الفريسيين وخمير هيرودس » وهكذا ..

---

(١) متَّى : ١٣/ ٣٥ مز ٧٧/ ٢

فالرسل والأنبياء والأوصياء والمصطفون والشهداء ، أعطاهم اللّه مَلَكَة نورانيَّة تساعدهم على استجلاء الغيب المغيَّب واستشفاف المستقبل ، وفي الآية : « **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول**[1] » .. دلالة على أن هذا العالم ـ عالم الغيب ـ تكشَّف على أوسع نطاق للأنبياء والمرسلين ، فاستشفوا كل الأحداث التي ستليهم ، ما يتعلق منها بالأديان [2] والمذاهب والمعتقدات والتاريخ والجغرافية والحركات السياسية .. ولا بدع في هذا القول فمن يقرأ الكتب السماوية الثلاثة ـ خلا مزامير داوود ونبوءات الرسل وأمثال سليمان ـ يجد أن أعظم الأحداث وأتفهها التي حدثت في الماضي والتي لا تزال تحدث في قرننا هذا والتي ستظل تحدث حتى انقضاء الدهور .. قد ورد ذكرها في هذه الكتب : الوثنية ، سدوم وعمورا ، طوفان نوح ، ظهور الأديان ، عبور العبرانيين ، دمار أورشليم وتشتت اليهود ، خراب بابل ، مذبحة كربلاء ، فيضان النيل ، اختفاء الأتلنتيك ، ظهور إسرائيل ، براكين تركيا ، ظهور النفط من باطن الأرض ، ظهور الدجالين باسم

---

(١) من سورة الجن

(٢) في التوراة وردت نبوءة على لسان موسى « ع » : « أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامي في فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به » وهذا واضح أن المراد به محمد عليه الصلاة والسلام ، وأن المراد بإخوتهم أبناء اسماعيل عليه السلام ، وليس في الأنبياء الذين جاؤوا من بعد موسى في تعاقب مستمر حتى ظهور عيسى .. من ادعى أنه النبي الموعود في هذه النبوءة ، ولا يمكن أن يحمل على أحد من خلفائه من أنبياء بني إسرائيل الذين جاؤوا لتنفيذ شريعته ، لأنهم ليس فيهم أحد مثله ، وقد نص في آخر سفر التثنية على أنه لم يقم في بني إسرائيل نبي مثله ، وهناك نبوءة أخرى تكاد تكون صريحة أيضاً في البشارة بالنبي ، ففي التوراة :« جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من ساعير ، وتلألأ من جبل فاران » فالمجيء من سيناء يشير الى ظهور موسى « ع » ، والإشراق من ساعير إشارة إلى ظهور عيسى « ع » ، وتلألئه من جبل فاران إشارة إلى ظهور النبي محمد « ص » إذ أن التوراة تطلق تسمية فاران على أرض الحجاز «مكة » حيث ظهر النبي « ص » كذلك بشَّر الإنجيل بالنبي ، وهذه الأناجيل الموجودة اليوم وإن كانت غير مفسَّرة في بعض مواقعها كما أقر بذلك الأحرار المفكرون من علماء النصرانية أنها متضمنة ما يدل على البشارة بالنبي« ص » ـ أنظر كتاب « السيرة النبوية » لمؤلفه د . محمد أبو شهبة ـ ص ٢١٠ ـ ط بيروت .

الأديان ، عبادة الشيطان ، سقوط عروش وممالك ، قيام نظم ، اختراع الطيران ، اكتشاف الذرة ، ظهور أوبئة مجهولة ، الصعود الى القمر ، اكتشاف الكون ، تقدم الطب والعلوم ، الإلحاد[1] .

وإضافة لما عايشته البشرية حتى الآن من الأحداث ، فإن في طيٍّ هذه الكتب سجلاً كاملاً لأحداث ستلي خلال القرون المقبلة .

فإذا ما نظرنا إلى الإنجيل من هذه الزاوية.. نجده زاخراً بكل المعاني والنبوءات ، متضمناً كل استشفافات المستقبل حتى انقضاء الدهور ، وعودة إلى الأناجيل بحثاً عن هذه النبوءات .. ليظهر منها الكثير في كل آية ، فالمسيح كانت له قدرة خصَّه اللّه بها دون سائر الرسل ، تكشف له الغيب حتى انقضاء الدهور .. فكيف بتلك الاستشفافات التي ستليه بعد خمسة قرون حيث كان مقرراً أن تنزل خلالها الرسالة السماوية الثالثة ، التي أكملت الرسالة الثانية ، والتي بشر « ع » بها وشابهتها في جلِّ تعاليمها وفي جوهرها السامي وبدعوتها إلى الحق الإلهي .. هذه التعاليم التي سحرت النفوس فاستهوتها ، حتى بلغ عددها منذعهد النبي « ص » إلى وقتنا هذا معادلاً لعدد تلك الأنفس التي آمنت برسالة عيسى « ع » لأنها وجدت في رسالة محمد « ص » تتمة وخاتمة لرسالته « ع » فبلغ بها الكمال الإلهي حدوده العليا وارتقت وحدانية اللّه مداها من خلالها .

فكيف إذن لا يجد المسيحي المتفهم لروحية الإنجيل ، أية إشارة متضمنة أو منحوتة من إشارة متضمنة إحدى الآيات لهذا الحدث العقائدي عميق الأثر لملايين النفوس .. بينما نجد إشارات لأحداث بشرية مادية عادية لا تبلغ مهما ارتقت معشار حدث نزول الرسالة المحمدية ، وانتشار عقيدة الإسلام فوق هذه الرقاع الواسعة من الأرض وترسخها في هذا العدد الهائل من النفوس البشرية..؟

لكن نظرةً موضوعية ومتجردة من الأحكام والتفاسير الجاهزة لسطور الإنجيل ، نجد تلميحات عدة لنزول آيات الرسالة الثالثة ، إذ يقول السيد المسيح لبعض

---

(١) الأسفار والمراثي والنبوءات

الفريسيين : « ما بال هذا الجيل يطلب آية ؟ الحق أقول لكم إنه لن يُعطى هذا الجيل آية »[1] ، فمثل هذا القول يشير إلى ترقب نزول الآية على الأجيال التالية التي ستعطى إياها ، وهذا الجيل لن يعايش المسيح .. بل نبياً غيره ، مع التضمين اللفظي بأن الآية لا يلفظها إلا لسان نبي.

ويطالعنا أيضاً في إنجيل يوحنا قول واضح لا مجرد تلميح فحسب متضمن مجيء نبي بعد المسيح ، إذ تقول شهادة يوحنا المعمدان حينما أوفد اليهود إليه من أورشليم كهنة ولاويِّين ليسألوه : « من أنت ؟ » فاعترف وما أنكر ، اعترف : « **إني لست المسيح** » ، فسألوه : « **إذن ماذا ..أإيليا أنت ؟** » ، فقال : **لست** إياه ، فسألوه : « **النبيُّ أنت ؟** » أجاب : « لا » ، فسألوه وقالوا له : « **فلمَ إذن تُعمِّد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي؟** »[2] .

ففي هذا القول تسلسل سُلَّمي أثبت التاريخ الديني والوضعي صحَّته من حيث ظهور الأنبياء ، فقبل المسيح جاء يوحنا يبشر به ثم جاء « ع » ، وبعده جاء النبي محمد « ص» .

كذلك نجد في نفس الإنجيل إشارة أخرى للنبي والمسيح وذلك في وصف خطبة عيسى في اليوم الأخير العظيم ، إذ قال : « إن عطشَ أحدٌ فليأت إليَّ ويشرب ، من آمن بي فستجري من جوفه كما قال الكتاب ..أنهار ماء حي »[3] .

وإذ سمع بعض الجمع هذا الكلام ، وقالوا : « لا جَرَمَ أن هذا هو النبي ! » ، وقال آخرون : « بل هو المسيح ! » وقال غيرهم : « أمِنَ الجليل يأتي المسيح[4] ؟».

ولنلاحظ صيغةالأسئلة التي وجهت إلى يوحنا ، وصيغة أجوبته عليها .. فقد

---

(١) مرقس : ٨/ ١٢-١٣

(٢) يوحنا : ص١٧٧/ ٢٠ ـ ٢١ العهد الجديد

(٣) يوحنا : ص١٩٣/ ٣٧ ـ ٣٨

(٤) نفسه : ٤٠ ـ ٤١

أجاب بعد أن سُئل من أنت ؟ بقوله : « إني لست المسيح » ، وأجاب بعد أن سُئل عما إذا كان هو إيليا ؟ بقوله : « لست إياه » ، وأجاب بعد أن سُئِل عما إذا كان هو النبي..؟ بقوله : « لا » .

وكلمة « النبي » كما وردت في شهادة يوحنا كانت بصيغة معرفة « النبي » لا نكرة « نبي » كي تفسر على أنها صفة عامة لا خصوصية فيها قد تطلق هكذا لمجرد التساؤل حول هوية يوحنا ، وهل هو « نبي ما » أوتي مقدرة ما ، أو بشر عادي .. بل سُبقت بـ « أل التعريف » فانتقلت من لفظة نكرة تدل على مجهول غير منتظر .. إلى معرفة تدل على معلوم منتظر ، بما يشير إلى أن النبي المقصود قد أجمعت النبوءات على تحديد أوصافه واسمه ، وعلى تسلسل ظهوره في سلم ظهور الأنبياء ، وعلى مكانته النبوية بينهم ، وعلى انتظار البشر لمجيئه بعد المسيح مباشرة .

وفي منظور التسلسل اللفظي الذي جاء في شهادة يوحنا : « المسيح .. إيليا .. النبي » .. نلاحظ أن لفظة « النبي » كانت مسبوقة وليست متبوعة بأي اسم آخر ، وبأنها ختمت هذا التسلسل بتواجدها في نهايته . وفي هذا الاختتام انسجام تام مع ما ورد في الكتب السماوية والتواريخ الوضعية المدونة ، والتي لم تسجل ظهور نبي بعد عيسى « ع » مباشرة أطلقت عليه صفة « النبي » حيث لم يظهر بعده نبي.. إلا النبي محمد « ص » خاتم الأنبياء والمرسلين .

وحتى الإنجيل المقدس لم يفسر المعنى المقصود بـ « النبي » كما ورد في شهادة يوحنا ، والذي يُنتظر مجيئه بعد المسيح ، كي يُقال بأن أي تفسير مغاير له يجافي الحقيقة والتاريخ.

فإذا قلت ذلك من قناعتي كمسيحي مؤمن فهم تعاليم عيسى وما هدفت إليه وتعمق في جوهر مبادئه السامية ..فلا يُحمَّل قولي بأكثر من حدود ما رمى إليه ، ولا يؤخذ على أنه تحميل لآيات الكتاب المقدس تأويلات لا تحتملها ..حاشا للّه ، بل كما سبق وأسلفت أن قناعتي كاملة بوجود ما يشير إلى مثل حدث نزول رسالة الإسلام في صلب آيات الإنجيل ولكن استخلاصها من مظانّها يحتاج إلى عقل

ملهم ، وضمير متبصر نيِّر ، وشجاعة أدبية مؤمنة لا تخاف الجهر بقناعاتها وتحليلاتها الموضوعية العقلانية ، فلم تكُ أبداً رسالة المسيح رسالة تقوقع أو بغض ، ولا حتى رسالة نرجسية وعشق ذات ، فالمسيح « ع » قال : « **لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، إني ما جئت لأنقض بل لأكمل** [1] ».

ففي هذه المقولة مغزى مؤدٍ إلى ما يلي معنى الإكمال المتبوع بـ « الاستمرارية » المؤدية بدورها إلى الخاتمة .

فإذا اعترفنا بأن الأديان إنما جاءت لجميع البشر على السواء .. فنكون قد كرَّسنا حقيقة أزلية تجلت في حكمة نزول الرسالات الثلاث واختتامها برسالة الإسلام الذي أتم كمالها .

فعيسى « ع » قال لمجموع البشرية: « ما جئت لأنقض بل لأكمل » [2] ، وكان يريد إفهام الناس بأنه يكمل ما كان قد بُدىء من دين اللّه الواحد برسالة اليهودية التي تشكل أولى مراحله ، حيث أعقب هذا القول تضميناً لفظياً باستمرارية مسيرة الرسالات السماوية لتصل نحو نقطة النهاية ـ الخاتمة ـ والقرآن الكريم خاطب مجموع البشرية بالقول : « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا** » [3].

والمقصود في هذه الآية بأن ما كان في مسالك دين اللّه الواحد من رسالات .. نزل الإسلام ليكملها ويضع لها الخاتمة ، فتمت نعمة اللّه على البشرية بتمام هذه الرسالات .

---

(١) العهد الجديد ص ٩ / ١٧

(٢) جاء تصديق هذه القولة في القرآن الكريم إنه « ع » قال لقومه : « ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ، ولأحلَّ لكم بعض الذي حُرِّم عليكم ، وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا اللّه وأطيعون ، إن اللّه ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » آل عمران ٥٠ ـ ٥١ .

(٣) من سورة المائدة

فمعنى عبارة : « أكملت لكم دينكم » يجيء مشيراً بشكل ضمني وواضح إلى وجود هذا الدين في مسالك الرسالات السماوية التي سبقته ، ومسلِّماً ببداهة هذه الكينونة السابقة بشكل منقوص ، حيث أكملت [١] اليوم بالشكل المرسوم الذي أرادته العناية الإلهية .

أما عبارة : « ورضيت لكم الإسلام دينا » فإنها جاءت بعد عبارة « وأتممت عليكم نعمتي » الواقعة بدورها بعد عبارة « اليوم أكملت لكم دينكم » ، فبذا يكون الإسلام هو الدين البشري الذي رضيه اللّه لعباده سواء أكانوا يهوداً أم نصارى أم مسلمين [٢] ، وتكون اليهودية والمسيحية هما الأدواء الروحية التي عالجت الأنفس في أزمان نزولهما ، فبرأتها ، إلى حين نزول الإسلام حيث أكملها وحصَّن الأنفس بطعم روحي سرمدي ، درأ عنها كل العلل والأسقام والوهن التي قد تطرأ عليها ، فتفنيها .

فالدين الواحد برسالاته الثلاث كان رحمةً للبشر [٣] ، وأمراً لهم بعبادة اللّه الأحد ، ولم يختص منهم أحداً دون الآخر ، بل قالت عزَّته : « يا أيها الناس [٤] ، أعبدوا ربكم الذي خلقكم ، والذين من قبلكم ، لعلكم تتقون [٥] » .

---

(١) يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي بأن اللّه تعالى أخذ العهد على النبي « ص » بأن يؤمن بالرسل السابقين ، فهو « ص » لم يأت ليهدم أدياناً بل ليكمل أدياناً .. حسب النص القرآني الجليل في سورة المائدة ـ من كتابه « حقائق الأديان في الإسلام » ص ١٤٥ طبعة القاهرة .

(٢) مفتي جمهورية أذربيجان شكر اللّه شاه زاده يقول : إن اللّه بعث محمداً « ص » رسولاً للعالمين ولم يبعثه لقومه العرب دون غيرهم ، وقال تعالى : « يا أيها النبي إنَّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً » وقال جلَّ وعلا : « قل يا أيها الناس إني رسول اللّه إليكم جميعاً » .

(٣) للعناية الإلهية تدابيرها في مسيرة البشرية إذ وهبت لها عقائدها من منبع واحد ولغاية واحدة.

(٤) للإمام علي « ع » كلمة خلابة ليس لسحرها مثيل .. فقد قال « ع » بوصف الخلائق : « الناس صنفان إما أخٌ لك في الدين وإما نظيرٌ لك في الخلق ».

(٥) الآية « ٢١ » من سورة البقرة .

وقد عرَّفت الرسالات السماوية الثلاث ، البشر باللّه الأحد ، وأوصلت لهم دينه الإلهي الواحد ، مصداقاً لقوله تعالى : « شرَّع لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً ، والذي أوحينا إليك ، وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »[١] .

كما ورد ذكر الإله الواحد والدين الكلّيُّ الشمول في الآية الكريمة : « **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون** »[٢] .

فعبارة : « آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد »..فيها أبينُ دلالة على وحدانية اللّه ، ووحدانية[٣] الأديان ، ووحدانية التنزيل ، ووحدانية الإسلام بين الإسلام والمسيحية .

وقد جاء في القرآن الكريم : « ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنَّا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ، وإذ سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع ممَّا عرفوا من الحق يقولون ربَّنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين[٤] » .

وفي سورة أخرى نقرأ : « من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الكتاب أناء الليل وهم يسجدون يؤمنون باللّه واليوم الآخر » .

---

(١) الآية «١٣» من سورة الشورى .

(٢) الآية «٤٦» من سورة العنكبوت .

(٣) يؤكد القرآن الكريم بتواتر متلازم على شمولية ووحدة الاعتقاد لدى أهل الكتاب واعتبار النصوص المنزلة في الأديان الثلاثة .. صيغاً متتالية لكتاب واحد ، وأهل الكتاب أبناء سلالة دينية جذرها التوحيد الإبراهيمي ـ أنظر « الغرب المتخيل صور الآخرفي الفكر العربي الإسلامي الوسيط » لمحمد نور الدين أفاية ـ إصدار المركز الثقافي العربي .

(٤) الآية « ٨٣ ـ ٨٤ » من سورة المائدة .

ففي كل هذا مصداق للقول : بأنه لا يصح إسلام المسلم حتى يؤمن بنبوة عيسى « ع » ولا تصح نصرانية المسيحي ، حتى يؤمن بنبوة محمد « ص » ، « ولو شاء اللّه لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم » .

وتصديق المسلمين بكتب اللّه ورسله [1] ، ليس على سبيل المجاملة أو العرف ، بل هو مقرر في أصول الشريعة الإسلامية بصريح نص القرآن الكريم في سبع عشرة آية محكمة ، منها على سبيل المثال: « **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ، والمؤمنون كلٌ آمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** [2] » .

وأساس اعتراف الإسلام بجميع الرسل والأنبياء .. يرجع إلى أنهم جميعاً قد دعوا إلى دين واحد [3] .

فالإسلام يؤمن بجميع الرسل والأنبياء الذين سبقوا الرسالة المحمدية انطلاقاً من مبدأ وحدة الدين مع تعدد الرسالات والرسل [4] .

لقد عمد علماء أصول الدين في الإسلام إلى التماس دعوة الإسلام إلى الإيمان

---

(١) من حديث للدكتور إدوار الذهبي في القبس الكويتية عدد الثلاثاء تاريخ ١٢/ ١/ ٩٩

(٢) سورة البقرة ٢٨٥

(٣) لاحظت الدكتورة عائشة عبد الرحمن « بنت الشاطئ » أن كلمة « الدين » لم تأت في القرآن الكريم بصيغة الجمع « أديان » على الإطلاق ، وإنما هو دين واحد وقد تعددت رسالاته ورسله ، والذي تلقاه خاتم الرسل هو في جوهره ما تلقاه الرسل من قبله .

(٤) أول وثيقة مكتوبة في تاريخ الإسلام ، هي الوثيقة التي حررها النبي « ص» وهو يرسي أسس المجتمع الإسلامي في المدينة ، والتي عرفت باسم « الصحيفة » قد تضمنت نصاً اعتبر اليهود مع المسلمين أمة واحدة بحيث عوملوا كمواطنين في الدولة الإسلامية الوليدة ، ولم يعاملوا كأجانب أو رعايا من الدرجة الثانية ، هذه الوثيقة جعلت غير المسلمين المقيمين في دولة المدينة .. مواطنين فيها ، لهم من الحقوق وعليهم من الواجبات مثل ما للمسلمين وعليهم .

بالرسل والأنبياء الذين تعاقبوا منذ آدم عليه السلام ، مصداقاً لقوله تعالى : « **قولوا آمنا باللّه وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** ».

والأديان السماوية في أصولها الثابتة كلها تستقي من معين واحد ، ألا وهو الوحي الإلهي.. « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا ».

لقد خلق اللّه الناس مختلفين في معتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، ولا يزالون كذلك إلى يوم الدين ، لأن هذا الاختلاف حتمي لحكمة يعلمها اللّه .. « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟ » « **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين**[1] ».

والإسلام لم يُجز المهاترة مع المخالفين ولا سبَّ عقائدهم ولو كانوا وثنيين « ولا تسبوا الذين يدعون من دون اللّه فيسبوا اللّه عدواً بغير علم » ، ومن وصايا الرسول « ص » للمسلمين : « استوصوا بالقبط خيراً فإن لكم منهم نسباً وصهراً » وأيضاً : « من آذى ذمياً كنت خصمه يوم القيامة [2] ».

ومن مظاهر التعايش بين الأديان .. أن المساجد كانت تجاور الكنائس في ظل الحضارة الإسلامية وإلى يومنا هذا ، وكان رجال الدين المسيحي يعطون الصلاحية التامة في كنائسهم وفي كل شؤونهم الدينية والروحية ، ولا تتدخل الدولة في ذلك تحت أية ذريعة .

إن الدين الإسلامي لم يأت لإلغاء كل ما في الأديان والأفكار الأخرى التي سبقته بل لإثبات ما هو صحيح منها ، فيعدل ويضيف ما هو أصلح للبشر وللحياة الدائمة

---

(١) سورة هود ١١٨

(٢) الخطيب البغدادي في عهد ابن مسعود .

إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها[١].

لقد دعا الإسلام كل أتباع الأديان السماوية السابقة إلى عدم التخلي عن إيمانهم بأنبيائهم ورسلهم ، بل لا يقبل الإسلام إيمان المسلم من دون أن يؤمن ويصدِّق بكل أنبياء ورسل اللّه تعالى بلا استثناء أو تعصب[٢] إمتثالاً لقوله تعالى: « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌ آمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله[٣] ».

وقد تساءل مرة المقوقس زعيم الأقباط في مصر ، أنه إذا آمن بنبي الإسلام .. فهل سيتخلى عن إيمانه بالسيد المسيح وتعاليمه وكتابه ؟ وذلك بعد وصول رسالة من النبي محمد « ص » يدعوه فيها إلى الإسلام فأجابه حامل الرسالة الصحابي حاطب بن أبي بلتعة : « لسنا ننهاك عن دين المسيح ، لكننا نأمرك به » .

وفي دعوة الإسلام إلى الإيمان بجميع الرسل والأنبياء ، وفي مقدمتهم رسل وأنبياء الديانات السماوية الثلاث ، تأكيد على أهمية القيم الأخلاقية الصحيحة التي كرستها هذه الأديان مشتركة ، وقد عمل علماء أصول الدين في الإسلام إلى التماس دعوة أتباع الملّة إلى الإيمان بالرسل والأنبياء الذين تعاقبوا منذ آدم عليه السلام ، لأن الأديان السماوية في أصولها الثابتة كلها تستقي من معين واحد ، ألا وهو الوحي الإلهي[٤] .

---

(١) من حوار لوزير الأوقاف السوري محمد عبد الرؤوف زيادة ، نشرته القبس في عددها ٩٥١٦ الصادر يوم الثلاثاء ١/ ١٢/ ١٩٩٩

(٢) أورد هذا الرأي سماحة مفتي سوريا الشيخ أحمد كفتارو في محاضرة ألقاها في جامع النور بدمشق مطلع عام ١٩٩٩

(٣) سورة البقرة ٢٨٥

(٤) راجع حوار مع الشيخ عكرمة صبري إمام المسجد الأقصى ـ نشر في القبس عدد ٩٥٢١ الصادر بتاريخ ١٩/ ١٢/ ١٩٩٩

إن جميع الأديان والكتب التي نزلت ، من توراة وإنجيل وقرآن ، هي في صورتها التي أنزلت بها.. كتب توحيد تدعو إلى وحدانية الخالق عز وجل [1] ، والقرآن يقرر بوضوح لا لبس فيه ، أن جميع أهل الكتاب من يهود ونصارى قبل البعثة المحمدية على هدى إذا التزموا بالتوحيد وأن لهم أجرهم يوم القيامة ، بل وأكثر من ذلك يقرر القرآن أنه حتى الذين توجهوا إلى الشمس على أنها رمز وآية من آيات اللّه ، وهم الصابئون أمثال أخناتون .. كانوا في زمانهم على دين ولهم أجرهم ، وبالمثل اليهود قبل مجيء المسيح ، والنصارى قبل مجيء محمد ..

فالدين في حقيقته دين واحد من ناحية العقيدة ، وقد نزلت شرائع هذا الدين الواحد على مراحل ، يقول تعالى في كتابه الكريم : « لكل جعلنا شرعاً ومنهجاً » ويقول المسيح « ع » : « ما جئت لأنقض الناموس بل لأكمله » ، إنها مراحل وفي كل مرحلة يبعث تعالى نبيها المناسب وينزل من الشرائع ما يلائم تطور الأنفس في تلك المرحلة .

ففي زمن موسى وهو عصر الفراعنة ، عصر العنف والعنفوان والجبروت .. تنزل شرائع العدالة على موسى ، والعدالة الملائمة لمثل هذا العصر هو رد الضربة بمثلها.

فإذا ارتقى الإنسان خطوة نزلت شرائع الحب وجاء المسيح ليقول له في الإنجيل : « سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر ، من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » .

وتصطدم تلك الأخلاقيات الرفيعة بجبروت وصلف الظالمين ، ويحدث ما حدث للمسيح من اضطهاد ، وتُمتحن المحبة أسوأ امتحان ، ويرى فيها كل ظالم جبار..ضعفاً ، فيطغى .

وكان لا بد أن تنزل شريعة محمد لتجمع بين شرائع العدالة والحب في شريعة واحدة هي شريعة الرحمة ، وجاء في قوله تعالى : « إن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما

---

(١) انظر حديث الدكتور مصطفى محمود المنشور في عدد القبس الصادر يوم الإثنين ٤/ ١/ ١٩٩٩

عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وما صبرك إلا باللّه » ، وبهذا جعل اللّه الدفاع عن النفس باستعمال القوة أمراً مشروعاً بعد أن كان ممنوعاً في الإنجيل ، حتى لا تجد النفوس الجبارة مطمعاً في ضعف المؤمنين ، وحتى يكون للحق سند من القوة ، ولكن مع مشروعية الدفاع عن النفس.. فإنه يفضل الصبر وتحمل الأذى على التعجيل بالانتقام ، بل وكان القرآن صريحاً في تفضيل المحبة وردِّ الإساءة بالإحسان .

واللّه يأمرنا بعدم التفريق بين رسول ورسول ، فالمسيحي الصالح مسلم للّه إذا آمن بجميع الرسل والكتب ، والأديان في أصلها العقائدي دين واحد ، وما هي إلا مراحل نزلت فيها الشرائع على وفاق الطبيعة البشرية وتطورها .

والإسلام لم يكن يوماً سيفاً على رقاب الآخرين [1] ، ولا يقبل أن يكون سوطاً يلهب ظهور من يختارون غيره من الديانات ، وهو الذي يقول : لست عليهم بمصيطر ولا إكراه في الدين « قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلَّ فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل ».

والعقيدة الإسلامية لا تعتبر نفسها جديدة ، ولكنها عريقة الجذور في التاريخ ، إنها « ملة أبيكم إبراهيم هو سمَّاكم المسلمين من قبل » ، فالوحدانية فكرة أزلية الوجود في النفس الإنسانية ، وما الحنيفية واليهودية والمسيحية والإسلام سوى دين واحد متصل الحلقات أبداً [2] .

والرسل جميعاً إخوة لعلات ، تجمعهم عقيدة واحدة ودين واحد ، والأديان السماوية كلها تتفق في الأصول والثوابت وإن اختلفت في الشرائع والفروع ، أولاد العلات [3] الذين أبوهم واحد وأمهاتهم شتَّى ، وفي صحيح البخاري عن النبي

---

(١) من حديث للشيخ عباس علي جناح ـ رئيس علماء جنوب إفريقيا ـ نشر في القبس عدد الجمعة تاريخ ٢٩/ ١/ ١٩٩٩

(٢) راجع كتاب د . شاكر مصطفى « التاريخ العربي والمؤرخون » طبعة ٧٨ دار العلم للملايين ص ٥٧

(٣) كتاب د . محمد أبو شهبة ، راجع « السيرة النبوية » ص ٣٧٠ ـ ط بيروت

قال : « نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات ، ديننا واحد ».

وهكذا نرى أن هذا التعدد في الخلق وفي الرسالات ، هو في جوهره كتعدد روافد نهر واحد يصبُّ آخره في خضمٍّ محيط واسع ، وهذا التعدد لا يعني التفرد أو الخصوصية .. بل يشبه دور عدة أعمدة تحمل مبنى واحداً ، يتوزع ثقله بالقسطاس على كل واحد منها ، رسالة الرسالات تشابهت ، كذلك تعاليمها ومبادئها ، وقد ناقش المجمع المسكوني علاقة الكنيسة المسيحية مع بقية الأديان [1] ، كما قارن بين الديانات التوحيدية الثلاث : اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام ، وأبرز قواسمها المشتركة ، وحدد سماتها المتشابهة.

أهم هذه القواسم كما تحددت :

- **الدعوة إلى عبادة اللّه الأحد**
- **خلود النفس**
- **الآخرة**
- **اللّه خالق**
- **الثواب والعقاب**
- **الفضائل والأخلاق الحسنة**
- **الزكاة والصدقة والبر والإحسان**
- **الملائكة والشياطين**
- **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**
- **التعامل بالحسنى**

---

(١) كان ذلك على عهد يوحنا الثالث والعشرين وأكمله بيوس السادس ، وقد دُعي ممثلو الديانات الأخرى غير التوحيدية لحضور الجلسات كمراقبين .

- **تحريم القتل والزنا وشهادة الزور والسرقة**

- **تكريم الوالدين .**

وقد تبين للمجمع المسكوني أن الوصايا العشر في المسيحية..يقابلها وصايا شبيهة في الإسلام .. ففي الإنجيل ثمة وصية تقول : « **أحبب عدوك وقريبك كنفسك** » وفي القرآن ثمة وصية مشابهة تقول : « **ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌ حميم** » والاثنتان تدعواننا للتأمل في مغزاهما ومراميهما ومعاني ألفاظهما .

كذلك فإن قصة خلق الإنسان على صورة اللّه ومثاله ، ومدة الخلق التي هي ستة أيام ، واستواء الخالق على عرشه ، كلها متشابهة شبهاً كبيراً ما بين الإنجيل والقرآن.

والمطلع على الكتابين المقدسين ، سيجد تطابقاً غريباً في معظم القصص والأحداث ، وتشابهاً بيِّناً بين المبادىء والأهداف ، وما قصة استخلاف اللّه لآدم في الأرض إلا إحدى هذه التطابقات المتجانسة.

إضافة إلى ذلك هناك الكثير مما يجمع بين الإسلام والمسيحية ، منها أن الديانتين خرجتا من مشكاة[1] واحدة وتدعوان في الحقيقة إلى الإيمان بالإله الخالق الواحد وعدم التفرق في الدين ، كما أنهما تحثان أتباعهما على أن يكونوا أعضاء نافعين في المجتمع ، وإلى تبادل المحبة والمودة .

---

(١) يرى مفتي سوريا الشيخ أحمد كفتارو في حديث موسع له نشرته القبس في عددها الصادر يوم الجمعة ٢٤/٩/٩٩ ، أن الإسلام اعترف بأن المسيح نبي مرسل من عند اللّه وأن المسيحية رسالة سماوية ، وخصص سورة من أطول السور للحديث عن آل عمران الذين هم أهل مريم ، كما خصص سورة أخرى لمريم وأسماها سورة مريم ، وبذلك يكون الإسلام قد قطع نصف المسافة على طريق اللقاء الإسلامي المسيحي ، وطالب المسيحية بإكمال بقية المسافة ودعا رجال الدين المسيحيين إلى أن يقوموا بدراسة القرآن الكريم بكل تجرد ونزاهة ، وسيجدون الحل واضحاً مثل نور الشمس في رابعة النهار وسيجدون أن الإسلام يدعو إلى رسالة المسيح وأنبياء التوراة ويدافع عنهم .

كما أن الديانتين تجمعهما حقائق مشتركة أخرى ، منها التقاؤهما في الإيمان بحقائق أبدية ، فلهذا العالم خالق واحد لا يموت ، ولم يكن وجود هذا العالم صدفة وعبثاً وكذلك الإيمان بالغيب كالقضاء والقدر ، وبالبعث والحساب بعد الموت ، وبالجنة والنار .

وبدين الإسلام هذا وصَّى إبراهيم « ع » بنيه ، وبه وصَّى حفيده يعقوب أي إسرائيل .. بنيه ، إذ قال لهم : ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا : « نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق..إلهاً واحداً ونحن له مسلِّمون ».

وطريق الهدى واحدة ، ملَّة إبراهيم ، الإسلام ، وعليها كان إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى ، المؤمنون يؤمنون بما أوتي النبيون ، لا يفرقون بين أحد منهم ، ويسلمون للّه ويلون الإسلام يصطبغون ، الذين يؤمنون هذا الإيمان هم المهتدون ، أولئك لا يجادلون في اللّه تعصباً لأهوائهم ، بل يخلصون لفطرة اللّه ولا يتفرقون [1] .

فطرة اللّه ، هي اختياره تعالى لقافلة أنبيائه من ذرية واحدة ، بعضها من بعض لتكمل دعواتهم بعضها بعضاً أيضاً ، لأنها في تمامها دعوة إلهية واحدة ، إذ قال تعالى: « إن اللّه اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ، ذريَّة بعضها من بعض ، واللّه سميع عليم » [2] .

فإذا كان الخط البياني للتوحيد بلغ في الرسالة المحمدية إلى الذروة « قل هو اللّه أحد »..فإن التوحيد في المسيحية يبرز جلياً واضحاً في مطلع قانون الإيمان إذ جاء فيه : **« في الحقيقة نؤمن بإله واحد ضابط الكل خالق السماء والأرض وكل ما يُرى وما لا يُرى ».**

أما التثليث : « الآب والإبن والروح القدس » فإنه تعبير مجازي أدبي ، لا

---

(١) « تفسير القرآن المرتب منهاج لليسر التربوي » للدكتور أسعد علي ص ٣٦٤

(٢) « ٣٣ ـ ٣٤ » سورة آل عمران

حقيقي مادي أو كما يفسره البعض من أن اللّه ثلاثة أقانيم منفصلة .. إذ الأصح أنها أقانيم متصلة متداخلة تعبر المجاز في ثلاث نقاط نحو الحقيقة ، ويصح تشبيه هذا المجاز اللفظي بقولنا عن الشمس بأنها مكونة من نار وضوء وحرارة ، تشكل مجتمعة قرصاً واحد يدعى الشمس.. يُعرفُ بها ، ولا تُعرف به ، ولا تشكل مفردة عالما أو كوناً قائماً ، تُعرِّف من قريب أو بعيد على ذات ما عرَّفت به مجتمعة ..

وتعد وحدانية اللّه الحقيقة الأساسية التي يعلّمها الكتاب المقدس ، فقد جاء على لسان أشعيا النبي :

« أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيري »

ثم جاء المسيح وثبت هذه الحقيقة بقوله : « إن الرب إلهنا رب واحد[1] وإني خرجت[2] من اللّه وجئت ، ولم آت من نفسي ، بل هو الذي أرسلني» ، ثم انطلق الرسل بعده يعلّمون هذه الحقيقة فكتب بولس الرسول إلى أهل أفسس : « للجميع رب واحد وإيمان واحد وإله واحد هو فوق الجميع ومع الجميع وفى الجميع » وصرح لأهل كورنتس : « نحن نعلم أن الوثن ليس بشيء في العالم وأنه لا إله غير واحد وهو اللّه » .

وتقول أولى الوصايا العشر : أنا الرب إلهك لا يكن لك آلهة أخرى تجاهي ..

وكتب لوقا : للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد[3] .

ولما كان عقل الإنسان محدوداً غير قادر على سبر جوهر اللّه والوقوف على سرِّ طبيعته .. فقد شاءت عزته أن يعلن عن سر ماهيته العميق ، فكلّم البشر بواسطة أنبيائه ، ولما قام البعض بنفي الألوهية عن الثالوث السري .. التأم أقطاب الكنيسة وحددوا عقيدة الثالوث مستعينين بكلمتي « أقنوم » و « طبيعة » ليعبروا بها عن اللّه

---

(١) مرقس ١٢/ ٢٨ ـ ٣٥ إجابة عيسى « ع » على سؤال أحد الكتبة حول أولى الوصايا .

(٢) إنجيل يوحنا ٨/ ٣١ ـ ٤٢ حينما جاء اليهود يجادلون المسيح في مسألة بنوتهم لسيدنا إبراهيم «ع »

(٣) لوقا ٤/ ٨

الواحد ، وجعلوا عبارة : « بسم الآب والإبن والروح القدس ، الإله الواحد ».. بداية الصلاة .

وإنَّا لواجدون في سفر التكوين تلميحات إلى الأقانيم الثلاثة ، قال اللّه بصيغة الجمع : « لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا » [١] .

وجاء فيه أيضاً : « هلم نهبط ونبلبل لغتهم » [٢] .

كما يروي لنا أشعيا النبي أنه رأى في السماء مجد اللّه وسمع السِّرافين ـ إحدى طغمات الملائكة ـ يقولون : « قدوسٌ ، قدوسٌ ، قدوسٌ رب الجنود ، السماء والأرض مملوءتان من مجدك » [٣] ، فتكرار كلمة قدوس ثلاث مرات موجهٌ إلى طبيعة الأقانيم الثلاثة ، أما الأقنوم الثاني الذي هو الإبن ـ المسيح ـ فقد أشار إليه داود النبي في قوله :

« الرب قال لي : أنت ابني ، وأنا اليوم ولدتكَ [٤] » .

وقال أيضاً : « قال الرب لربي : إجلس عن يميني ، في بهاء من الجوف قبل الفجر ولدتك » [٥] .

وفي العهد الجديد كشف عن سر الثالوث ، إذ قال جبرائيل الملاك وهو يبشر العذراء مريم « ع » : « إن الروح القدس يحلُّ عليك وقوة العلي تظللك ، ولذلك فالقدوس المولود منك يدعى ابن اللّه [٦] » .

---

(١) سفر التكوين : ١/ ٢٦

(٢) نفسه : ١١/ ٧

(٣) أشعيا : ٣٦

(٤) المزامير : ٢/ ٧

(٥) نفسه : ١٠٩/ ١ ـ ٣

(٦) لوقا : ١/ ٣٥

وعندما عمَّد يوحنا المسيح في نهر الأردن .. انفتحت السماوات ونزل الروح مثل حمامة فوق رأسه وصاح صوت : « أنت ابني الحبيب بك سررت[١] » ، هذا ويدعو القديس يوحنا ، الأقنوم الثاني بـ « الكلمة » المتميز عن الأقنوم الأول ، فيقول : « في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند اللّه ، وجاء إلى خاصته ، والكلمة صار جسداً[٢] » .

والروح القدس هو أقنوم ثالث ، لأن كلمتي « الروح القُدُس » و « اللّه » تأتيان متناوبتين مترادفتين ، ومثال على ذلك ما جاء في أعمال الرسل: « يا حنانيا ، لماذا ملأ الشيطان قلبك حتى تكذب على الروح القدس ؟ إنك لم تكذب على الناس بل على اللّه[٣] » .

إن من يشرك باللّه هو إنسانٌ كافر ، ومن يؤمن بثلاثة آلهة هو أيضاً كافر ، والقرآن الكريم يقول عن المسيحيين إنهم غير مشركين وأهل توحيد ويؤمنون بإله واحد .

وفي إحدى سوره عرض لثلاث طوائف : اليهود ، والذين أشركوا ، والنصارى .. فاليهود والمشركون أشد عداوة ، والنصارى أقربهم مودة ، لذا فالقرآن الكريم وضعهما في جانبين مختلفين ، كما نقرأ : « **إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن باللّه واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**[٤] » .

وفي سورة[٥] : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ، إن اللّه يفصل بينهم يوم القيامة ، إن اللّه على كل شيء شهيد ».

---

(١) مرقس : ١/ ١١

(٢) يوحنا : ١/ ١ ـ ٢ ـ ٣

(٣) أعمال الرسل : ٥/ ٣ ـ ٥

(٤) سورة البقرة ٦٢ ويشبهها سورة المائدة ٦٩

(٥) الحج ١٧

والإسلام فرَّق في القوانين بين المشركين والنصارى ، فحرَّم زواج المسلمين من المشركات ، ولم يحرمه من النصرانيات ، وأهدر دم المشركين ، أما النصارى فلم يأمر بقتلهم .

فما هو التثليث إذن ؟ القول إن اللّه ثالث ثلاثة .. هذا منطق الكفار ، فالإنسان نفسه خُلق على صورة اللّه ومثاله .. وله ذات إنسانية واحدة ، هذه الذات لها عقل وروح يكملانها.

والروح القدس هي روح اللّه والابن معاً ، والعقل كلمة مترجمة من أصلها اليوناني « لوجو » ، ولها معان كثيرة .. منها العقل ، وفعل «ليجو» في اليونانية معناه .. ينطق[1] .

فأقنوم الابن في هذا المقام .. هو أقنوم العقل ، الحكمة ، النطق ، المعرفة ، فللكل معنى واحد ، وهو تمييز فكري مجازي لتقريبه للأذهان .. لا لفصله ، كأن تقول : حللت هذه المسألة بعقلي .. فتكون أنت وعقلك مشاركان في الحل لأنكما كلٌ واحد لا يتجزأ.

والتثليث بمعناه الثلاثي الأطراف ليس هو التثليث المسيحي .. بل الوثني ، ففي إحدى سور[2] القرآن الكريم نقرأ :

« بديع السموات والأرض أنَّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟ وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم » ، وفي سورة مشابهة [3] : « وإنه تعالى جَد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ».

وأتباع المسيحية يقولون نفس الكلام ولا يؤمنون بأن للّه تعالى ولداً من صاحبة ..

---

(١) منها كلمة « لوجك » المنطق ، أو العقل المنطوق به .

(٢) الأنعام «١٠١»

(٣) الجن « ٣ »

ومن يقول بغير ذلك لا يحتسب مسيحياً مؤمناً .. بل ملحداً خارج الملّة ، ولو عدنا لكتب التاريخ الغابر لوجدنا التثليث الوثني هو التثليث الذي ليس فيه وحدانية ، ولا يتشابه بأي شكل مع التثليث المسيحي .

فإيزيس تزوجت أوزوريس وأنجبت منه حورف ، وهذا الثالوث الفرعوني الوثني فيه إله .. أب وزوج ، وإلهة .. أم وزوجة ، وإله ابن ، والثلاثة يكوِّنون ثالوثاً وثنياً ، إلا أن المسيحية لم تقل بذلك في أي من أدبياتها وتعاليمها « **وإذ قال اللّه يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون اللّه ..؟ قال : سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق**[1] » .

ففي صيغة مخاطبة اللّه تعالى لنبيه عيسى « ع » : « **أأنت قلت للناس ؟** » وفي رد عيسى : « **حاشا** ».. توكيد لا لبس فيه على وحدانية اللّه ووحدانية المسيحية وعدم تصور وجود تثليث إلهي فيها .. فحكمته تعالى جعلت المخاطبة بصيغة تساؤل لا جزم .. حمل وجوباً صيغة جواب مواز له في الشفافية والتوكيد .. وإلا لكانت الصيغة حتى في حالة السؤال قد جاءت : « **لماذا قلت للناس؟** » ، ولكن الحكمة العلوية صاغته بهذه الصيغة القرآنية ، لأن اللّه تعالى أراد تنزيه ساحة عيسى« ع » عن مثل هذه التخرصات ، ولكي يكون جواب عيسى استهجاناً ورفضاً قاطعاً لقول بعض أتباعه بشراكته ووالدته مريم بالألوهية مع اللّه تعالى .. أو اتخاذهما إلهين من دونه ، فرسول المسيحية لم يقل هذا القول ولم يجر على لسانه طوال حياته شيء من هذا.. لا تصريحاً ولا تلميحاً ولا تضميناً ، لذافكان جوابه « **حاشا** » تنصلاً واستنكاراً وشجباً في آن معاً لهذه الفرية التي حاول بعض أتباعه إشاعتها ، والتي تتعارض مع عظاته « ع » وما جاء يبشر به من وحدانية في رسالته السماوية ، ومن أنه نبي مرسل من لدن باعث الأنبياء وهو « ع » القائل : « إن الرب إلهنا رب واحد » فكيف يستقيم هذا القول مع الطلب من الناس أن يتخذونه إلهاً ..؟ فكان استفظاعه لهذا المنحى معبراً عنه خير تعبير بكلمة «**حاشا**» ففي هذه الكلمة تحذير لأتباع رسالته

---

(١) سورة المائدة ١١٦

من الإشراك باللّه ، أو حتى مجرد التفكير باعتباره « ع » إلهاً دون ربِّه الذي أرسله ، وتوجيه لضمائرهم بضرورة البعد عن الشطط والمغالاة في تقديسه إلى درجة الكفر والخروج عن المسلمات الإيمانية.

فإن وُجدت بدعة من هذا القبيل حاربها الإسلام .. فإن المسيحية لم تألُ جهداً في محاربتها أيضاً ، إذ لم يقل أحد من المسيحيين إنَّ مريم العذراء وابنها إلهين من دون اللّه ، ومن ينادي بذلك فقد كفر وجدَّف ، لأن ليس في العذراء ألوهية ، وعيسى نبي مرسل ، وفي المسيحية لا يوجد سوى « إله واحد »[1] ، ولا وجود لثلاثة البتة .

ولكن ما هي حكاية الابن وكيف يمكن تفسيرها للعامة ؟ إنها ليست بنوة عضوية وليست من صاحبة ، إنما هي نوع آخر من البنوة الذاتية العقلية والروحانية التي لا علاقة لها بالبنوة المتعارف عليها ، ومثال على ذلك عندما يقال: إن العقل يولِّد أفكاراً فعلى هذا المقياس فإن الابن العقلي يخرج من أبيه دون انفصال عنه .. فيفارقه ويظل فيه ، وهذا يمكن تقريبه بفكرة تخرج من الذهن وتصل إلى أسماع الآخرين وقد تدوَّن في كتب وتصل إلى الكثيرين في أصقاع بعيدة ، ومهما بعدت فإنها تظل في العقل الذي خرجت منه وهو خروج لا انفصالي بل خروج ثبات وديمومة.

والابن سُمِّي « الحكمة » في أمثال سليمان ، وعُني به العقل والمعرفة ، وعنه قال الكتاب: « مخبأة فيه كل كنوز العلم والمعرفة » ، وحينما يقال أن الآب خلق العالم بالابن .. فمعناه أنه خلقه بعقله وحكمته ومعرفته وبنفحة منه ، فروح اللّه مصدر الحياة في كل الكائنات .

وقد يقول قائل إن المسيحية استمدت فكرة التثليث من الوثنية ، ولكن الفارق بينهما جوهري ، لأن التثليث في المسيحية توحيد في معناه ومغزاه ، وكلمة ابن يجب فهمها بمعان كثيرة ، فلها الزمان والمكان والمعنى ، كأن يقال : أبناء الدهر ، فليس معناه أن للدهر أبناء ، وكذلك القو ل : أبناء جيل واحد ، وللمكان أبناء أيضاً كأن

---

(١) من خطبة للبابا شنودة عام ١٩٩٩

يقال : أبناء النيل وأولاد بلدنا ..فالبنوة تطلق على الزمان والمكان رمزاً مجازاً ، وحتى على النواحي العقلية ، كالقول إنَّ العقل يلد فكراً ، أو لم ينطق ببنت شفة ، وهناك بنوة روحية كقول المدرس : أبنائي الطلبة ، أو كما وصف المسيح اليهود بعبارة : « يا أبناء الشياطين » ، فهم ليسوا من صلبه..بل أبناء تلبيسه وكذبه ، وكذلك : « يا أبناء الأفاعي» وهم ليسوا من نسبهم..بل ينسبون لمكرهم وسمومهم ، ولا تشذ بنوة المسيح عن بنوة التشريف والرفعة ، وعلى لسانه « ع » كان هناك اعتراف بين كل عبارة وأخرى بأنه رسول اللّه وبأنه يعبده تعالى ، وفي كافة مواقفه تأكيد على هذا الاعتراف ، إذ يقول لتلاميذه : « وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويضطهدونكم لتكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات »[1].

وفي قولة إبليس حينما جاء يجربه : « إن كنت ابن اللّه فاطرح نفسك إلى أسفل لأنه قد كُتب : يوصي ملائكته[2] بك فيحملونك » ، فأجابه عيسى : « لا تجرب الرب إلهك » ، وكذلك قولته لإبليس حينما طلب منه السجود له : « لقد كُتب: للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد » ، وكذلك قال : « **يا بني إسرائيل اعبدوا اللّه ربي وربكم إنه من يشرك باللّه فقد حرم اللّه عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار** » .

أما آريوس اللاهوتي فقد رأى أن الآب وحده اللّه ، والابن مخلوق مصنوع ، وقد كان الآب ولم يكن الابن ، وقد تبعه في هذا المعتقد كثير من النصارى في مصر وفلسطين ومقدونية والقسطنطينية.

ومن مطلع قانون الإيمان نقرأ : « المولود من الآب قبل كل الدهور ، نور من نور» وعيسى « ع » قال : « والآن مجِّدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم » ، والكتاب يقول : « كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان ».

---

(١) متى ٦/ ٤٥

(٢) معنى الوصاية هنا بأنه « ع » عبد للّه وإلهه هو الحامي ، وما رجزه لإبليس إلا مخافة من قدرة الخالق.

والغنوسيون أصحاب الهرطقات التي دخل فيها بعض الأفلاطونية الحديثة [1] قالوا إن اللّه لا يمكن أن يكون له اتصال بالمادة مباشرة ، فحتى يخلق المادة يخلق إلهاً متوسطاً له صلة بها ، وعبر هذا الإله المتوسط يخلق كل شيء ويكون وسيطاً بين الذات الإلهية وبين العالم المادي.

وهكذا نرى أن تعليم الكتاب عن تثليث الأقانيم في اللّه ، لا يمكن أن يتفق مع التعليم[2] عن الوحدانية ما لم تكن للأقانيم الثلاثة طبيعة واحدة غير منفصلة ، لاتشكل إحداها منفردة أي طبيعة أو خاصية مميزة ، بقدر ما تكمل بها الخواص الأخرى ، فلو أمكن الفصل بين الأقانيم .. لكان في الطبيعة الإلهية تعدد وكثرة ، فاللّه تعالى روح محض ، في منتهى البساطة ، ولا يوجد فيه تأليف أو تركيب ، وفي التطرق إلى أبوة اللّه..ليس معناه أبوة بحسب المفهوم البشري المتعارف عليه ، بل بمعنى صدورها الذاتي والمعنوي ..كما يصدر النور من الشمس ضياءً ، لا يتعارض مع الحرارة الصادرة من ذات المصدر.

ولكن كيف ستوفق عقول العامة بين صدور النور من أحد المصادر ثم بقائه في هذا المصدر .. ألا يشكل هذا التفسير لغزاً محيراً لها حيال القول بأن صدور الابن في هذا المقام ، يشبه إلى حدٍّ ما صدور القصيدة من قريحة الشاعر؟ فهي وليدة فكره وإنتاج مخيلته ، يخطها القرطاس وتتناولها الأيدي ولكنها تبقى في الوقت نفسه راسخة أبداً في مخيلته ؟

---

(١) خلق اللّه للمادة ليس به نقص ، وهي فكرة خاطئة لدى بعض الفلاسفة ، اصطلحوا على تسميتها بـ « نيو بلا تينيز» فاللّه كان قبل الكون ومنذ الأزل.. وهو العقل الكلي للكون وروحه ، وفي الكتاب المسيحي : « اللّه روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا » .

(٢) جاء في القرآن الكريم سورة النساء الآية ١٧١ : « يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على اللّه إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول اللّه وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا باللّه ورسله ولا تقولوا ثلاثة إنتهوا خيراً لكم إنما اللّه إله واحد سبحانه أنّى يكون له ولد في السموات وما في الأرض وكفى باللّه وكيلاً » .

وهكذا فإن المسيحية لا تؤمن إلا بإله[1] واحد لا شريك له ، ولا تؤمن بثلاثة البتة ، لأنها رسالة توحيد ، ولأنها بالتالي واحدة من مراحل التنزيل ، وواحدة من مراحل الرسالات السماوية.. «وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وإليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون »[2] .

أما المؤيِّد الذي عناه المسيح فلا يمكن أن يكون النبي محمد « ص» لسبب جوهري وهو أن الرسول ليس لديه السلطة العلوية على إرسال رسول مثله ، بل اختصت هذه السلطة بيدي اللّه جلَّ جلاله باعث الرسالات من لدنه ، وفي كلمة عيسى « ع » لتلاميذه مصداق لذلك ، إذ قال :

الحق الحق أقول لكم : ما كان عبدٌ أعظم من سيده

ولا كان رسول أعظم من مرسله[3].

وقال أيضاً « ع » :

من قَبلَ الذي أرسله قبلني

ومن قبلني قَبلَ الذي أرسلني[4].

فهنا ثمَّة تعبيران واضحان لا لبس فيهما ، يؤكدان على أن ثمة قوة عليا لا سيطرة للمسيح عليها ، هي التي أرسلته ، وهي قوة أعظم منه ، وهو كرسول يمثل الطاعة لهذه القوة والامتثال لمشيئتها .. فكيف ستكون له سلطة إرسال نبي مثله وهو المرسل من لدُن اللّه ؟

---

(١) التثليث التبس على كثير من المسيحيين ، وكذلك على أتباع الديانات الأخرى .. لكن المسيحي المتفهم لجوهر رسالة عيسى « ع » وحكمة بعثه ، لا يجادل في مسألة « اللّه الواحد » لأن ديانته ديانة توحيدية لا تشرك باللّه أحداً وتشكل أحد أضلاع مثلث الرسالات السماوية التوحيدية.

(٢) العنكبوت : ٤٦

(٣) يوحنا : ١٣/ ١٦/ ١٧

(٤) نفسه : ١٣/ ٢٠

وللجواب عن ثاني التساؤلات حول المؤيِّد ، يمكن القول بأن المسيح حينما تكلَّم عنه ، فإنما كان يتكلم بصفته شهيداً لا نبياً ، وقد تكلَّم عن شهيد يكمل شهادته ويؤيدها بين الناس ، ولم يكن يتضمَّن معنى عبارته « أرسل لكم المؤيِّد »..التأييد لنبوته..بل لشهادته التي أكملت بتمامها شهادات من سبقه عليهم السلام ، إبراهيم وإسحاق وزكريا وموسى ويحيى وغيرهم ، والتي ستكملها بدورها شهادات مماثلة على زمن الرسالة الثالثة التي سيتم اللّه تعالى بها عهد الرسالات ، ويؤيد بنزولها صدقية وسمو الرسالات التي سبقتها .

ولتوضيح التساؤل حول كلمة المؤيِّد ولمَ أوِّلت في هذا المؤلَّف بالشكل الذي بدت به ، بينما فُسِّرت في الإنجيل المقدس بأنها الروح القدس .. فإن في العودة إلى فصل « المسيح هل تنبأ بالحسين ؟ [1] » إجابة وافية على ذلك ، توضح في الوقت ذاته دوافع تفوه المسيح بهذه العبارة وما كان يرمي من ورائها ، مع تحليل موسع لها يجيب على مختلف الاستفسارات التي قد تجول في ذهن القارىء المتعطش لتحليل واف يرضي قناعته .

وتوخياً لإعمال فكر القارىء ورغبته في جعل تأملاته معبراً إلى الحقيقة الحرة ، يتوصل إليها بقدراته الفكرية الذاتية..فقد عمدنا في هذا الفصل إلى تغيير عنوانه السابق من : « المسيح يتنبأ بالحسين » إلى : « المسيح هل تنبأ بالحسين ؟ » ، فنقلناه بهذه الصيغة من صفة الجزم المطلق .. إلى صفة التساؤل المحرك لرغبة البحث والتفكير ، مع الإبقاء على مقصد التضمين الجازم بصدد النبوءة ، حتى في باب التساؤل الذي تركناه مفتوحاً ليلج منه فكر القارىء إلى محراب التأمل ، فالمعرفة ، فالحقيقة ، دونما توجيه أو إيحاء من جهتنا ، كما جعلنا متن الفصل متلائماً مع عنوانه الجديد بما يحقق الهدف آنف الذكر ، فالحقائق السماوية لا تُطال أعتابها إلا بالتأمل والتحليل والتحليق نحوها بجناحي البصيرة الملهَمَة ، إلى حيث مصدر ذبذباتها ، وسَمْت إيحاءاتها العلوية.

---

(١) الحسين ص ٢٩٥

« ... لمَ الحسين بالذات دون سائر أعلام الإسلام موضوعاً للكتاب ؟ » سؤال لطالما طُرح في معظم ما كُتب حول الكتاب ، ويأتي الجواب بتساؤل مردود : « ولمَ لا يكون الحسين بالذات ..أيكره أحدنا الحق ورافعي لوائه..ولمَ لا يحب المؤمن أياً كان دينه[1] من أحبه النبي « ص » واعتبره بضعة منه « حسين مني » واعتبر نفسه جزءاً منه « وأنا من حسين » ؟

أيرفض مطلقُ إنسان ـ لا سيما إذا كان مسيحياً ـ أن يكون ذلك المؤمن الذي ترقد في قلبه حرارة قتل الحسين التي لا تبرد أبداً .. تيمناً بقول الرسول الكريم : « إن لقتل الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً »[2] ؟ ومن ذا الذي لا يحب مظلوماً كالمظلوم الحسين ، ولا يجد في حبه راحةً لضمير حيٍ ، وسعادة لفكرٍ أصيل ، ورضىً لقلب مترعٍ بالإيمان ؟

فشخصيةٌ كالحسين اختصت بشمائل النبوة ، لا يعثر المطّلع في سفر حياته على موقف رخو أو متخاذل ، فلا يملك إلا أن يُعجب به ويحبه ، ويجد في الاستجابة لهذا الإعجاب وهذا الحب : مودة قلب ومودة قُربى..« قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة

---

(١) نشرت القبس في عددها الصادر يوم الجمعة الموافق ١٤/ ٤/ ٢٠٠٠ مقالاً بمناسبة المحرم للكاتب صادق الحسن جاء فيه : لقد أعطى الحسين كل ما يملك لحبيبه مالك الملك ، فبماذا يجازي مالك الملك حبيبه؟ وهو الذي يحب المتطهرين ويحب المحسنين ويحب المتقين ويحب المقسطين ويحب المتوكلين .. هل يكفي جزاء له أن يجعل محبته في قلوب المخلصين من عباده المسلمين وغير المسلمين من أمثال بولس سلامة الشاعر اللبناني المبدع والأستاذ أنطون بارا وجورج جرداق وحتى غاندي الذي قال مقولته المشهورة : « علّمني الحسين أن أكون مظلوماً لكي أنتصر » ؟

لقد جعل اللّه سبحانه وتعالى محبة الحسين في قلب كل منصف ومحب للسلام ، وفي قلوب من يحبونه على مر الدهور والعصور ليبقى نوراً ونبراساً وقبساً لكل أحبائه ، لذا فقد حذا أهل بيت الحسين حذو أبيهم في محبتهم العارمة للّه سبحانه وتعالى حتى قال فيهم الشاعر واصفاً إياهم في المعركة :

لبسوا القلوب على الدروع شوقاً إلى الهيجاء لا الحسناء

(٢) مستدرك الوسائل ج٢ ص ٢١٧

في القربى» .

كيف تولَّدت فكرة الكتاب .. وما لغته ؟ سُئلت عن هذا..

لقد اعتدت معايشة شخصية الحسين «ع» ساعتين يومياً بقصد الاطلاع على مجريات أحداث كربلاء ، وفي الوقت ذاته الإلمام بالأبعاد القدسية والبشرية لشخصية مفجِّرها ، فتوفر لي بعد فترة من القراءة والاطلاع على جوانبها ومعطياتها .. رؤية معينة لا تمت إلى الرؤى التي تكونت عنها بصلة .. وكما أسلفت فإني كثيراً ما تحسست خلال قراءتي أو كتابتي لسيرة الحسين «ع» غفلة الكتاب والمؤرخين المسلمين عن الجوانب المميزة لشخصية سبط النبي ، ورددت ذلك إلى كون هؤلاء الكتاب و المؤرخين يعيشون وسط الصورة ، لا خارجها ، فرأيت أن ما توفر لديَّ من رؤى وآراء ، كان من خارج الصورة حيث وضُحت زوايا عديدة خافية.

ورأيتني بعد سنتين من القراءة في سيرة أبي الشهداء .. أبدأ بترتيب أفكاري ورؤاي وآرائي لأمضي بعدها سنة أخرى في وضع الكتاب في ضوء ما توفر لي وعلى هدي ما استلهمته بعون اللّه من أفكار ، برغم صعوبة توفير الوقت الذي تضن به فترة الشباب المبكر ، وما تفرضه فورة طموحات العمر.

والآن حينما أعيد قراءته بعد مضي ثلاثة عقود على تأليفه .. يتأكد لي أنني كنت خلال كتابته واقعاً تحت تأثير وإلهام ما كنت قادراً على إنجازه دون عونهما ، إلهام يلازم الفكر في الصحو والمنام ، ويلبِّي هتاف وحي رجَّاف انبثق له من أعماق الدهور يستحث من أعماق السريرة للإفصاح والتدوين وإضافة جديد على سيرة الحسين العطرة وثورته الخالدة ، فكان إيحاءً يدفع لإتمام واجب ، وإلهاماً يعين على إتمامه بقدر ما يتنادى له الفكر الحي والضمير المنوَّر ، فأشكر اللّه على هذه النعمة التي خصني بها ، وأتيقن من شمولي ببركة ريحانة الرسول المذبوح ظلماً والمستشهد دون حق اللّه فوق ثرى كربلاء المقدسة .

وهكذا فإننا كثيراً ما نقف نحن البشر الضعفاء لنتساءل : لمَ فعلنا هذا .. ولمَ أقدمنا على فعل ذاك من الأمور؟ ناسين أن ثمة قوة علوية هي التي تُنفذنا إلى إتمام

هذا وذاك ، وتسدد خطانا جزاء طاعتنا ، أو تعثّر بنا هذه الخطى جزاء عقوقنا واستهتارنا بكل ما هو قدسي.

وتظل تجربة هذا الكتاب مجال فخري ما حييت ، إذ برغم تراكم الخبرة الفكرية وتعدد الكتب التي ألّفتها في شتى المواضيع والحقول..أشعر بعجزي الآن عن إنجاز عمل شبيه به أو في مستوى أقل منه بكثير حتى لو تفرغت له عشر سنوات ، وسيظل من أبلغ ما كتبت وأفضل ما سطّرت وهذا شرف كبير لا أستحقه أنا العبد الحقير للّه.

وهكذا انبثقت فكرة الكتاب .. وعلى هذا النسق الذي وصفته توالت أيام وضعه كلاماً على الورق ، أما عن لغته وأسلوبه..فقد وضعت في اعتباري منذ البداية أن تكون اللغة سهلة ، وأسلوب العرض والتحليل موضوعياً .

ففي البداية تساءلت : بأية لغة أكتب ؟ هل أستخدم لغة تاريخية تنسجم مع التاريخ الذي تغرف منه .. أم أكتب بلغة أدبية عقيم ، أم بلغة فلسفية عسرة ؟ وأخيراً رأيت أن تكون اللغة بسيطة ببساطة الموضوع الذي تطرقه ، وعميقة عمق هذه البساطة ، فما دامت شخصية الحسين « ع » هي محور البحث ، وهي في ميزان البساطة والتعقيد ..بسيطة كالحق ، واضحة كنور الشمس .. فلتكن اللغة المبرزة لصفاتها هذه في مستوى بساطتها وعمقها ووضوحها.

وهكذا كانت لغة الكتاب وسطاً بين لغتي الأدب و الصحافة المثقّفة ، تأخذ من الأدب جماله ، ومن الصحافة إيقاعها السهل الممتنع.

لكن ذلك لم يمنعني من إعطاء كل حدث ما يوافقه من لغة وأسلوب بغض النظر عن الهيكل العام للكتاب وذلك بهدف إغناء العمل وإلباسه جدية البحث وسلاسة التحقيق ورشاقة العرض البعيد عن الإنشائية والتقريرية وتكرار ما سبق تكراره ، بحيث ينسجم هذا كله مع الهدف الذي رميت إليه ، ألا وهو إخراج بحث تحليلي صرف لا يقرب من السرد التاريخي إلا فيما يخدم الفكرة فحسب ، لأني لست مؤرخاً ، بل كاتباً يبحث في التاريخ عن الإنسانية ومواقف الإنسان.

وهكذا كانت الفكرة .. وأيضاً اللغة ..

ويظل الحب .. ومن رحابه تطل المحبة ناشرة ضياءها بين السطور والكلمات ، ويفرز قلم المؤمن مداد قلبه ، كَلمات تحس روعة الاستشهاد ، وتُبرز عظمة المضاء وتصور هلع السرائر والحنايا من هول الفاجعة .

فإذا اللّه جلَّ شأنه فدى إسماعيل من الذبح بعد أن صدق أبوه الرؤيا وتلّه الجبين فهل يرضى سبحانه بذبح الحسين ابن بنت رسوله..وكم كان غضبه عظيماً حين ذُبح فداءً للحق الإلهي وهو الصادق الأمين على هذا الحق وعلى سُنة اللّه في خلقه ؟ وكم هوحري بنا نحن البشر الضعفاء لأن نقف بقلوب حزينة وعيون دامعة أمام أحداث هذا الذبح الذي لم تسجل الأديان والتواريخ ما يعدله سمو معنى ، وسمو ذات ، وعلو شأن ؟

فهو ذبحٌ فدى البشرية جمعاء ، وصان دين اللّه الواحد من الانتهاك .

وهو ذبيح أرسى للبشرية مجدها الذي ترتع في نعمته الآن ، وإلى أبد الدهور .

« ويأبى اللّه إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

فسلام عليه سيداً للشهداء

سلام عليه يوم ولد

ويوم مات

ويوم يبعث حياً

أنطون بارا

دمشق ٧/ ٧/ ١٩٧٩م

الفصل الثاني

المبادىء والصراع

ثورة الحسين..لمن ؟

لم تحظَ ملحمة إنسانية في التاريخين القديم والحديث ، بمثل ما حظيت به ملحمة الاستشهاد في كربلاء من إعجاب ودرس وتعاطف ، فقد كانت حركة على مستوى الحدث الوجداني الأكبر لأمة الإسلام ، بتشكيلها المنعطف الروحي الخطير الأثر في مسيرة العقيدة الإسلامية ، والتي لولاها لكان الإسلام مذهباً باهتاً يركن في ظاهر الرؤوس ، لا عقيدة راسخة في أعماق الصدور ، وإيماناً يترع في وجدان كلِّ مسلم .

ولقد كانت هزة وأية هزة .. زلزلت أركان الأمة من أقصاها إلى أدناها ، ففتحت العيون وأيقظت الضمائر على ما لسطوة الإفك والشر من اقتدار ، وما للظلم من تلاميذ بررة على استعداد لزرعه في تلافيف الضمائر ، ليغتالوا تحت ستر مزيفة .. قيم الدين ، وينتهكوا حقوق أهليه ، ويخمدوا ومضات سحره الهيولية.

كانت ثورة بمعناها اللفظي ، ولكنها لم تكن كذلك بمبناها القياسي ، إذ كانت أكبر من أن تُستوعب في معنى لفظي ذي أبعاد محددة وأعظم من أن تقاس بمقياس بشري .

هي ثورة رَقَت درجات فوق مستوى الملحمة كما عهدنا الملاحم التي يُجاد بها بالأنفس ، فأية ملحمة هي استمدت وقود أحداثها من عترة النبي وآل بيته الأخيار؟ وأية انتفاضة رمت إلى حفظ كيان أمة محمد وصون عقيدة المسلم وحماية السُّنة المقدسة وذبِّ أذى المنتهكين عنها ؟

فإذا نظرنا إليها بمنظار الملاحم..لم يفتنا ما فيها من كبَر فوقها ، فالملاحم والثورات التي غيرت مجرى التاريخ والأمم..تقاس عادة بمدى إيجابية وعظَم أهدافها ، وإمكانية تساميها إلى مستوى العقيدة أو المبدأ لمجموع فئة أو فئات ، وعلى هذا المقياس تكون ثورة الحسين « ع » : الأولى والرائدة والوحيدة في تاريخ الإنسانية مذ وجدت وحتى تنقضي الدهور ، إذ هي خالدة خلود الإنسان الذي قامت لأجله.

« **أولى** »..لأنها في إطارها الديني كانت أول ثورة سُجلت في تاريخ الإسلام ، وكذلك في تاريخ الأديان السماوية الأخرى ، ما كان منها على مستوى المبادىء أو القيم العقائدية .

« **رائدة** ».. لأنها مهدت لروح ثورية وثورة روحية انطوت عليها صدور المسلمين ، تذكِّرهم في نومهم وقعودهم بمعنى الكرامة ، وبمعنى أن ينتصب المؤمن كالطود الصلب في وجه موقظي الفتنة باسم الدين ، ورافعي مداميك الشرك والعبث في صرح العقيدة ، فكانت دعوة جاهرة لنقض هذه المداميك ، وهدم دعائم الضلال والوقوف أمام أهداف الذين حادوا عن صراط الشريعة ، ولعبوا بنواميس وشرائع الدين ، وقامروا بكيان الديانة الوليدة تمهيداً لوأدها قبل أن تحبو.

« **وحيدة** »..لأنها استحوذت على ضمائر المسلمين فيما خلَّفته من آثار عقائدية ضخمة ، فما كان قائماً من ممارسات لدى القائمين على الإسلام والحاكمين باسمه..كان بحاجة إلى هزة انتحارية فاجعة لها وقع الصاعقة آنذاك ، ومسرى الحب في الضمائر بعد أجيال وحقَب تالية.

« **خالدة** ».. لأنها إنسانية أولاً وآخراً ، انبثقت من الإنسان وعادت إليه مجلَّلة بالغار ، وملطخة بالدم الزكي ، ومطهرة بزوفى الشهادة المثلى ، فظلت في خاطر المسلم رمزاً للكرامة الدينية ، شاهد من خلالها صفحة جديدة من مسيرة عقيدته ، صفحة بيضاء عارية من أشكال العبودية والرِّق والزَّيف ، مسطَّرة بأحرف مضيئة تُهدي وجدانه إلى السبل القويمة التي يتوجب عليه السير في مسالكها ليبلغ نقطة الأمان الجديرة به كإنسان .

إذن هي خالدة لأنها أخلاقية ، سنَّت دستور أخلاق جديداً أضاء للأمة الإسلامية درب نضالها على مختلف الأصعدة ، وعلّمها كيف يكون الجود بالنفس في زمان ومكان الخطر المحيق.. رخيصاً ، وكيف يكون الموت سعادة والحياة مع الظالمين برماً ، والموت في عز خير من حياة في ذل.

تلك كانت مبادىء معلم الثورة الحسين « ع » في ثورته التي فجَّرها للإنسان أياً كان على وجه هذا الكون ، وسجلها لتُقال ويُعمل بها في أي مكان وزمان برزت فيهما الجاهلية من الأنفس واندثرت النزعة السامية التي بشَّر بها الأنبياء والمصلحون والتي ما أنزلت في النفوس إلا لتحقيق العدل بين الجميع ونشر الرحمة والحق فيما بينهم.

فإذا ما نظرنا إلى هذه الثورة بمنظور اجتماعي ونفساني بحت ..لوجدنا أن ما أسفرت عنه من أخلاقيات اجتماعية لأكثر من أن تحد ، فقد أفلحت النُظُم التي طوَّق بها الأمويون مثالب حكمهم في أن تقف حائلاً بين المسلم والثورة على هذه النُظُم والأساليب ، ويوماً بعد يوم انغرست مبادىء التدجين البشري في النفوس ، واستوطنت الحنايا مسلَّمات الخنوع والرضى بالمغانم الدنيوية الزائلة ، فنامت ضمائر المسلمين نومة أهل الكهف ، واسترخت الهمم الثورية التي كانت رمزاً للمسلم في مُنطلق بعث ديانته ، حتى تحوَّل هذا الاسترخاء إلى آفة اجتماعية ونفسية وباتت تهدِّد روح الأمة وعقيدتها.

كانت هذه الآفة تدغدغ من داخل الصدور ، وتوسوس ناصحة بالمحافظة على الذوات والحفاظ على المكاسب المادية والمنازل الاجتماعية ، وتحول دون النضال فلا يندفع إليه المسلم بحُميا نكرانه لذاته واستهانته بمكاسبه الزائفة ومنزلته الاجتماعية ، إلى إزالة وضع شاذ أجبر على السير في ركابه دون أن يدري إلى أي منزلق يقوده.

من هذه النقطة التي وصل إليها الإسلام كعقيدة ، والمسلم كإنسان انطبعت في سويدائه مبادئها .. وجد الحسين عليه السلام بأن لا مندوحة من إحداث هزة توقظ النائمين في أوهامهم ، السادرين في ضلالهم ، وتقديم بديل حق لما كان يسود الأمة

من مبادىء استسلامية ، ولما تفجرت هذه الثورة واشتعل أوارها .. هتفت للمسلم : قم ، لا ترضَ بالزيف ، لا تستسلم ، لا توافق على تدجين عقيدتك ، لا تبع نفسك التي عمرت بالإيمان لشيطان المطامع ، ناضل ولا ترضَ بحياة بُلَهْنيَّةٍ وترفٍ مع الظالمين وهادمي الذوات .

وترددت أصداء هذه الصيحات في أودية النفوس التي استكانت إلى الهدم يعمل في داخلها.. فهبت بعد إخلاد دام ربع قرن منذ مقتل أمير المؤمنين « ع » وتولّي الأمويين مقاليد الأمور ، حيث غدا الاضطهاد والظلم وسرقة أموال الأمة بديهيات مسلَّماً بها .. هبَّت كبركان عاصف محموم ما لبث أن اقتلع هذا الرُّكام من البديهيات المتمثِّل بالخنوع والزُلفى والانهيارالبطيء.

والخطأ الفادح الذي يتصوره أولئك المتسائلون رداً على أسئلتهم .. ماذا كان من الممكن أن يغدو الحال لو لم يقم الحسين « ع » بثورته .. وما مصير أمة الإسلام إذا ما قدر للأمويين دوام العبث باسم الخلافة والانحراف بسنن العقيدة ؟ يكمن في تصورهم الآني لما كان سيحدث ، فقد تصور البعض بأن يستمر الحكم الأموي في سياسته لإغراق جموع الأمة في ماعون الأطماع المادية والدنيوية ، فتنحل لحمتها على عجل ويجد الفاتحون فرصة لاكتساح البلاد دون مقاومة فيتشرد المسلمون بدداً في الأرض .

إن مثل هذا التصور يسيء إلى مفهوم ثورة الحسين « ع » ، لأنه تصور قاصر ينطلق من مبدأ مادي بحت ذي أبعاد زمانية ومكانية محددة لا علاقة لها بتكوينه الأساسي وينتهي إلى مفهوم سيء .

« زمانية ».. تنتهي باكتساح دولة الأمويين ، و« مكانية » .. في قيام دولة غريبة قد تجافي روح الإسلام في بقعة من أرض الشام ، أما التصور فيما ستؤول إليه العقيدة ، وما سيكون عليه مصير الأمة الديني .. فذلك لم يحظَ بأقل تصوُّر لدى أغلبية من أرَّخوا للثورة أو كتبوا عنها.

فالثورة عندما قامت استمدت عزمها من روحيَّة الشريعة ، وكانت تهدف إلى

إعادة بثِّ هذه الروحيَّة[1] في نفس كل مسلم ، ولو كان التصور يقف عند حدود إزالة دولة الأمويين .. لما عنى الحسين « ع » نفسه بهذه الثورة ، لكنه كان عارفاً بأنه خاسر معركة ليكسب الإسلام الحرب .. الحرب على الظلم عامة والانتصار على مسببات ضعف العقيدة ، وأكبر دليل على ذلك أنه كان بإمكانه أن يلجأ إلى نفس الأساليب التي لجأ إليها خصمه يزيد ، فيشتري الأنصار ويبذل المال لشراء الضمائر ، وكان « ع » قادراً على فعل ذلك ، إلا أنه لم يرض بهذا الأسلوب الوقتي .. وهذا ما أعلنه في خطابه للذين بايعوه ، كي تظلَّ ثورته صافية ، لا يُتهم بأنه استأجر لها أنصاراً ولأفكاره مؤيدين ، إضافة لكونه كان عارفاً بأن ثورته في حساب الخسارة والربح.. لا بد خاسرة ، لكنه كان يستقرىء المستقبل لربح أعظم يتعلق بدوام صفاء العقيدة ، وإلا لكان بإمكانه الاعتصام في شعاب الحجاز وقيادة ثورته من ركن قصي آمن ، موفراً نفسه وأنفس أهل بيته وخُلُص أصحابه ، ولكن كل ذلك لم يكن كافياً لإقناعه ، ونقول إقناعه ونحن على يقين تام بأن عدم قناعته كانت تستند إلى وحي إلهي لإتمام المسيرة التي لا بدَّ منها لخير الأمة ومستقبل عقيدتها.

وبالمقابل كان ثمة إجماع ممن حوله يستدعي البقاء حيث كان ، ويدعو إلى عدم الخروج من مكة والاستعاضة عن الجهاد ببذل النفس بقيادة الثورة من بعيد ، فكان أمامه « ع » أكثر من بديل للموت وأكثر من اقتراح للسلامة ، وكان عالماً بكل هذه البدائل والطرق الموصلة إليها وإلى نقيضاتها ، إلا أن الحكمة الإلهية التي كانت تُخطِّط لثورته .. أكبر من فهم البشر وأعظم تَجلَّة من أن تدخل في نطاق بصيرتهم ، لذا فقد سارت ثورته كما أوحي له بها ، ونجحت ذلك النجاح القياسي الهائل ، والذي لم تكن لتبلغه لو سارت على نهج تقليدي على هَدي ما قُدِّم من اقتراحات وبدائل.

وذات الوحي الإلهي الذي حدد مسار وتوقيت ثورة الحسين ، أزال الغشاوة عن

---

(١) يقول المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون : لقد أخذ الحسين على عاتقه مصير الروح الإسلامية ، وقُتل في سبيل تحقيق هذا الهدف فوق بطاح كربلاء .

العيون وبدَّد الأوهام التي رانت على العقول والضمائر ، والتي ظنت ساعة قيام الثورة بأنها كانت لمناوأة حكم الأمويين ، وبأنها ستنطفىء بانطفاء جذوتها وتخمد بانخماد شرارتها الأولى ، فعرفت هذه العقول وقنعت هذه البصائر بأن هذه الثورة كانت يقيناً ربض في أعماق الصدور ، ووحياً استلهمه كلُّ مظلوم على مرِّ الأجيال والقرون ، وعلى اختلاف البشر ونحلهم ومللهم ، وبأنها كانت نبراساً يضيء للناس ، وحرارة تستعر في قلوب المؤمنين.

ألم يقل رسول اللّه « ص » : « إن لقتل الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً » ؟ أما خطر لأولئك الذين شرَّحوا ثورة الحسين « ع » وخلصوا إلى رأي بأنها حركة رجل ضد رجل بعد اختلاف على الحكم والمبادىء ..كي يستلهموا كلمات صلوات اللّه عليه ويستنبطوا معانيها الجليلة الخالدة ؟ أما خطر لهم أن يتساءلوا : ولمَ يظل لقتل الحسين تلك الحرارة التي لا تبرد أبداً في قلوب المؤمنين ما دامت حركة زمنية مؤقتة لا انتفاضة روحية عقائدية جعلت القيم الدينية والشريعة محل اهتمامها ، والإنسانية محور وسائلها ، والحق مطلبها ؟

وأولئك الذين نظروا إلى حركة الحسين بكثير من قصر النظر ، وأيضاً الذين أرَّخوا لها وكتبوا عنها .. ألم يلفت نظرهم أن هذه الثورة لا يجوز أخذها بمأخذ الثورات التقليدية ..كي يعلموا أنها كانت صراعاً بين خلقين ومبدأين ، وجولة من جولات الصراع بين الخير والشر..بين أنبل ما في الإنسان وأوضع ما يمكن أن تنحدر إليه النفس البشرية من مساوىء ؟

ألم يعوا كيف تحولت هذه الملحمة العظيمة بتقادم العهد عليها..إلى مسيرة ، وكيف صارت الشهادة التي أقدم عليها الحسين « ع » وآل بيته وصحبه الأطهار إلى رمز[1] للحق والعدل .. وكيف صار الذبيح بأرض كربلاء منارة لا تنطفىء لكل متطلع باحث عن كرامته الإنسانية التي تشعره بآدميته ، والتي خص بها سبحانه

(١) يقول المستشرق الألماني كارل بروكلمان : الحق أن ميتة الشهداء التي ماتها الحسين ، قد عجلت في التطور الديني لحزب علي ، وجعلت من ضريح الحسين في كربلاء أقدس محجة ..

وتعالى خلقه بقوله : « ولقد كرَّمنا بني آدم » ؟

والسيرة العطرة لحياة سيد شباب أهل الجنة واستشهاده الذي لم يسجل التاريخ[1] شبيهاً له .. كانا عنواناً صريحاً لقيمة الثبات على المبدأ ، وعظمة المثالية في أخذ العقيدة وتمثُلها ، فغدا حُبُه كثائر واجباً علينا كبشر ، وحبُّه كشهيد جزءاً من نفثات ضمائرنا ، فقد كان « ع » شمعة الإسلام أضاءت مُمثِّلة ضمير الأديان إلى أبد الدهور ، وكان درعاً حمى العقيدة الوليدة من أذى منتهكيها وذبَّ عنها خطر الاضمحلال ، وكان انطفاؤه فوق أرض كربلاء مرحلة أولى لاشتعال أبدي كمثل التوهج من الاحتراق ، والحياة من الموت.

فلو كان فرخ النبي «ع » ضنيناً بمبدأ ، ولو لم تكن له عقلية متصورة مُوحى لها.. لما استطاع أن يفلت من ربقة الأطماع التي كانت بمثابة دين ثان في ذلك الزمان ، ولما كان ارتفع بنبل قلَّ نظيره فوق الدوامة التي دوَّمت الجميع ، أولئك المتزلفين يزيد على خُطى من سبقهم في تزلُف والده معاوية .

كان « ع » لو شاء لأصبح بانحناءة رأس بسيطة أميراً مطلقاً على ولاية ، أو يقنع بزعامة شيعة أبيه بينما تنُتهك حرمات الدين على يد أمير مؤمنين مزيف.

لكنه لم يؤْثر السلامة ولم يرنُ إلى تطلعات أرضية ، فقد كان هدفه أعظم ، ورسالته أعمق غوراً وأبعد فهماً لعقلية الإنسان آنذاك.

كان يريد أن يقول : « ما دامت السُّنة قد نزلت وما دام الإسلام وليداً يحبو .. فما على المسلم إلا أن يكون حفيظ سُنته وراعي عقيدته ، لا من أجله فحسب .. بل من أجل كل من سيولد في الأحقاب التالية على هذه السُّنة » ، فجاءت صيحته نبراساً لبني الإنسان في كل عصر و مصر ، وتحت أية عقيدة انضوى ، إذ أن أهداف الأديان هي المحبة والتمسك بالفضائل لتنظيم علاقة الفرد بربه أولاً .. وبأخيه ثانياً ، فلعمري

---

(١) يرى عالم الآثار والتاريخ البريطاني وليم لوفتس .. أن الحسين بن علي قدَّم أبلغ شهادة في تاريخ الإنسانية وارتفع بمأساته إلى قمة البطولة الفذة .

أية ثورة تقوم على الحق القراح الخالي من أغراض الهوى ولا تجد لها سبيلاً إلى المهج والحنايا ؟ ألم تكن ثورته « ع » دعوة للتفريق بين الحق المتجلي والباطل المعلن .. أما قيل إعجاباً بها : « إن الإسلام بدؤه محمدي وبقاؤه حسيني » ؟

ولنطرح جانباً آراء أولئك الذين رأوا في ثورته حركة عاطفية بحتة ، ألقى فيها الشهيد المقدس بنفسه وآل بيته وصحبه الأطهار في معركة كانت معروفة النتائج سلفاً ، والتي تمثلت بوقوف ثلاثة وسبعين مقاتلاً في مواجهة خمسين ألف مقاتل ، فتلك الآراء إنما تمثل الجانب الفكري ناقص النضج ، والذي وضع حركته « ع » في إطار الثورة للثورة ولا شيء عداها ، ولم ينظر إليها كما هي وكما هدفت إليه كمنعطف خطير لمسيرة العقيدة الإسلامية ، والتي لولاها لما وجد المؤرخون شيئاً يتحدثون به عن الإسلام.

ولعل خير من وصف هذه الثورة ، كان ماربين الألماني في كتابه « السياسة الإسلامية » إذ قال : « إن حركة الحسين في خروجه على يزيد إنما كانت عزمة قلب كبير عزَّ عليه الإذعان وعزَّ عليه النصر العاجل ، فخرج بأهله وذويه ذلك الخروج الذي يبلغ به النصر الآجل بعد موته ، ويُحيي به قضية مخذولةً ليس لها بغير ذلك حياة [1] » .

من هذا الفهم يتضح أن قضية السُّنَّة كانت قضية مخذولة عندما قام الحسين « ع » بثورته ، وما كان له محيص من السير بها بالشكل الذي أعدته لها العناية الإلهية ، غير ضانٍّ بنفسه وبأنفس أهل بيته وصحبه الأطهار ، لعلمه الأكيد بأن ثورته وإن كانت ضعيفة بتركيبتها المادية .. إلا أن لها صلابة الصخر والمبدأ بتركيبتها الروحية والرمزية ، وأنه بالغ بها النصر والاستمرار للعقيدة ما لم يكن ليبلغه بإيثار السلامة من مذبحة كربلاء .

والحسين « ع » عندما ثار .. لم يثُر لأجل نوال كرسي الحكم ، إذ لم تكن منطلقاته

---

(١) السياسة الإسلامية ـ ماربين ص ٢١٣

من قاعدة فردية أو زمنية .. بل كانت أهدافها تتعداه إلى الأعقاب والأجيال القادمة ، التي ستعرف كيف كان شكل الفداء دفاعاً عن عقيدة سُلمت لها متلألئةً .

إنها عقيدة الشهداء البررة التي لا تنخدع بسراب المطامع الدنيوية ، ولا ترضى بمبدأ المساومة في ميدان العقيدة .

ورفض الخداع والمساومة مقرونٌ دوماً بالاستعداد لبذل الحياة وإطفاء شعلة النفس[1] إذا كان في إطفائها ما ينير شمعة تهدي السائرين على طريق الحق والعدل .

وهذا المبدأ المنبثق من هكذا عقيدة من الصعب إدراك مراميه في حينه ، لاسيَّما إذا كانت الموازين آنذاك هي الموازين التي نصبها حكام ظالمون لأمة تدجَّنت روحها وذبلت عقيدتها ، فما عادت تفرق بين الخطأ والصواب[2] .

وعلى هذا المقياس الذي لا يرفعه إلا الصفوة المختارة من الصالحين.. أصاب

---

(١) يقول المستشرق الإنجليزي د .ج هوكار : « دلَّت صنوف الزوار التي ترحل إلى مشهد الحسين في كربلاء والعواطف التي ما تزال تؤججها في العاشر من محرم في العالم الإسلامي بأسره .. كل هذه المظاهر استمرت لتدل على أن الموت ينفع القديسين أكثر من أيام حياتهم مجتمعة » .

(٢) يقول سعيد بن المسيبي: « لو أن حسيناً لم يخرج لكان خيراً له » ، وما قاله ابن تيمية : « لم يكن في الخروج مصلحة لا في دين ولا في دنيا ، وكان في خروجه وقتله من الفساد ما لم يحصل لو قصد في بلده ، فإن ما قصده من تحصيل الخير ودفع الشر لم يحصل منه شيء بل زاد الشر بخروجه وقتله ، ونقص الخير بذلك ، وصار سبباً لشر عظيم ، وكان قتل الحسين مما أوجب الفتن » .

هذا الرأي تبنته جماعات إسلامية عديدة وضعت فكرة الإستشهاد في ميزان الفوائد في الدين والدنيا كما ورد في فصل « نظرات في التاريخ » من كتاب بعنوان « تسليط الأضواء على ما وقع في الجهاد من أخطاء » إصدار مكتبة التراث الإسلامي بالقاهرة ـ ضمن سلسلة تصحيح المفاهيم .

فلنقارن بين رأي جماعات إسلامية تتجنى فيه على الحقائق ، وتلوي عنق الواقع التاريخي لخدمة وترتها غير المبررة .. وبين رأي المستشرقين ، فَلَيْتهم كانوا يملكون معشار ما لدى المستشرقين من ضمير حي ومنطق منصف في مقام حق مبين كضوء الشمس الساطع .

الحسين « ع » بثورته في المدى البعيد ، وأخفق في المدى القريب ، طلب إحقاق الحق في وقته .. فلم يصل إليه ، لكن أمة الإسلام أدركته بمماته ، ولم يقف الأمر عندها على مستوى إدراكه فحسب .. بل صار جزءاً من وجدانها العقائدي ، وضميراً يستصرخها ويستحثها في كل مواقف الضعف وحيال مختلف أشكال التدجين والظلم والانحراف عن السُّنة .

***

فداء الحسين
في الفكر المسيحي

الملحمة التي تمت فصولها فوق أرض كربلاء .. هل هي ملحمةٌ تخصُّ فئةً بشرية ما .. أو فئات تعتقد أنها قامت لأجلها فحسب ؟ وهل تعتبر النتائج التي تمخضت عنها ذات خصوصية لهذه الفئة أو تلك .. وأنه لا يمكن لفئات أخرى من استلهام ما قدمته وتطبيق أخلاقياتها على ممارسات ومواقف أي فرد إنساني ضمن إطار عقيدته ، وإزاء ممارسات ومواقف حكامه ومحكوميه ؟

وبمعنى أدق .. هل نرضى بحصر استشهاد الحسين « ع » بأرض كربلاء إذا ما رغبنا بوضعها في مكانها حيث جرت أحداثها الدامية .. وكذلك نخص بها أمة الإسلام على اعتبار أنها قامت من أجل حماية عقيدة الإسلام ، ونتحدث عنها في صيغة الماضي في الفترة الزمنية التي تفجرت بها ؟

تلك التساؤلات تستلزم تحديد ماهية ثورة الحسين « ع »..

هل هي ثورة أرض ..

أم هي انتفاضة على الحكم..

أم حركة تقويمية دينية ..

أم خطأ في الحركة والتوقيت ..

أم قضية خذلان بعد وثوق ؟

فلو نظرنا إلى الملحمة على أنها ثورة أرض تمَّت فوق بقعة معينة هي كربلاء.. لجاءنا جواب : أن أي بقعة فوق الكرة الأرضية من الممكن أن تكون كربلاء ثانية ما دامت واقعة بين مكانين : أحدهما يرتع به الباطل .. والآخر ينطلق منه الحق.

وإذا اعتُبرت انتفاضة على الحكم .. لجاءنا جواب : بأنها لا تزال مستمرة حتى وقتنا هذا في أي بلاد فسد بها الحكم.

أما القول بأنها حركة تقويمية دينية.. فإنها تكون حركةً حارة لم تبرد إلى عصرنا هذا طالما استُغلَّ الدين لتحقيق أغراض بعيدة عن جوهره.

وأمام الرأي القائل بأنها خطأ في الحركة والتوقيت .. فإن هذا الخطأ يحمل في ثناياه من الصواب أكثر مما يحمل الصواب من صوابية.

أما كونها قضية خذلان بعد وثوق .. فإنها وإن تكُ كذلك فإنها كانت لحكمة ربانية من العبث إثارة التساؤل حولها.

إذن فإن الثورة بماهيتها هذه ذات استمرارية خالدة ، فكل مكان يقف عليه ثائر هنا وهناك .. هو كربلاء ، وكل طعنة سيف في عاشوراء .. هي طعنة لمفاسد الحكم في أي زمان ومكان ، وكل نقطة دم أريقت فداء للحق ..استمرت تعلن فداءها في رغبة الإنسان العامرة في الاستشهاد في سبيل مبادئه.

هي ثورة بدأت ساخنة واستمرت محافظة على سخونتها طالما ثمة ظلمٌ فوق هذا الكوكب ، ولطالما ثمة فساد في الحكم وعبثٌ في العقائد ، وهي ثورة لن تبرد أبداً ، بل هي في غليان دائب ، لا سيما في هذا العصر ، عصر الضنك والظلم والاضطهاد والترويع لشعوب كثيرة ، حيث انتُهكت الحريات وبان جلياً العبث في العقائد والأديان ، بل واستغلال هذه الأديان في تثبيت المفاسد والانتهاكات البشرية.

فالحسين « ع » ثار من أجل الحق ، والحق لكل الشعوب .

والحسين « ع » ثار من أجل مرضاة اللّه ، وما دام اللّه خالق الجميع .. فإن ثورة الحسين لا تختص بأحد معيَّن ، بل هي لكل خلق اللّه.

وفي قولة النبي الكريم : « إن لقتل الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبدا» دلالة على شمولية ثورة الحسين «ع » ، فقولة رسول اللّه « ص » لم تقتصر على المسلمين ، وإلا للفظها لسانه الكريم بهذا المعنى .. لكنها شملت كل المؤمنين قاطبةً تحت أية عقيدة انضووا ، وفوق أية بقعة على الأرض وجدوا ، وخصَّتهم بنصيب من هذه الحرارة السَّنية التي لا تبرد في قلوبهم لقتل الحسين.

المظلومون والمضطهدون والمقهورون والمروَّعون من كل العقائد والبقاع يتجهون في كل رغباتهم إلى جوهر ثورة الحسين « ع » ، ففي اتجاههم الفطري ورود إلى منبع الكرامة والإنصاف والعدل والأمان .

وما دامت قد تحددت ماهية ثورة الحسين « ع » بهذه الأطر .. أفلا يجدر بنا اعتبار الحسين شهيداً للإسلام والمسيحية واليهودية ، ولكل الأديان والعقائد الإنسانية الأخرى ؟

فإذا كان من البَدهي الإجابة بـ « بلى».. فما هي إذن رؤية الفكر المسيحي المتفرع من شجرة الفكر الإنساني لملحمة استشهاد وفداء الحسين « ع » هذا الفكر الذي يرى في ركني الاستشهاد والفداء والتضحية .. الأعمدة التي تقوم عليها معتقداته المؤطرة بشمولية إنسانية ؟ فعيسى بن مريم ما جاء إلى الناس إلا فادياً ومستشهداً من أجل بشارة الحق [1].

وثمة تقارب كبير بين حركتي الفداء والاستشهاد اللتين أقدم عليهما عيسى والحسين عليهما السلام ، مع الإقرار بالفوارق البيِّنة في أسبابهما وكيفيتيهما ، لا في جوهرهما وأهدافهما.

فأوجه الشبه بين عيسى والحسين « ع » ، تتجلى في مولدهما وسير ة حياتهما. فقيل : « **لم يولد مولود لستة أشهر وعاش إلا الحسين وعيسى بن مريم** ».

واعتلَّت فاطمة لما ولدت الحسين وجفَّ لبنها ، فطلب رسول اللّه مُرضعة فلم

---

(١) يوحنا ١٤/ ٦

يجد ، فكان يأتيه فيلقمه إبهامه.. فيمصُّه ، ويجعل اللّه في إبهام رسوله غذاء الطفل الوليد ، ففعل ذلك أربعين يوماً بلياليها ، فأنبت اللّه سبحانه وتعالى لحمه من لحم رسول اللّه[1] ، وهذا ما يفسر قول الرسول الكريم : « حسين مني وأنا من حسين » ، وهكذا كان الحسين الرضيع غذيُّ النبوة ، كما كان عيسى مولود النفحة السماوية بمريم «ع» غذيُّ القوة الإلهية.

قسيس مسيحي قال : « **لو كان الحسين لنا لرفعنا له في كل بلد بيرقاً ولنصبنا له في كل قرية منبراً ولدعونا الناس إلى المسيحية باسم الحسين** ».

مثل هذا الكلام لا يصدر على عواهنه ، بل يُقصد به أن الفداء والاستشهاد اللذين يشكلان ركن الدين المسيحي الأساسي .. قد جسدهما الحسين «ع » خير تجسيد في استشهاده ، هذا الاستشهاد الذي لا يقدم عليه إلا المبشرون بالأديان السماوية أو المتصدون لانحرافها ، وكان الحسين « ع » واحداً منهم.

ولنعد إلى نقاط التشابه والاختلاف بين الشهيدين العظيمين للإسلام والمسيحية ، فنجد أنهما حتى في اختلافهما في بعض نقاط .. ثمة تشابه غير مباشر يقرِّبهما من بعضهما ، فعيسى «ع» أوتي قدرة مخاطبة الناس وهو في المهد صبياً ، والحسين «ع» أوتي مَلَكة الخطابة .. من طلاقة لسان وحسن بيان وغنَّة صوت ورشاقة إيماء.

وعيسى اضطُهد وأهين وضُفر جبينه بالشوك وحوكم وقُتل وطُعن وبُصق عليه وجُرد من ثيابه.

والحسين شُرِّد وحوصر وأعطش وأهين وذبح وسُبيت عياله وجُرِّد من ثيابه وسُلبت حلله ووُطيء جسده الطاهر بحوافر الخيل.

عيسى قال : « **روح اللّه نازلٌ عليَّ لأنه مسحني وأرسلني لأبشر الفقراء وأبلغ المأسورين إطلاق سبيلهم وأفرج عن المظلومين وأعلن سُنة مرضية لدى الرب**[2] »

---

(١) أبو الشهداء للعقاد ص ٥٤

(٢) لوقا ٤/ ١٨ ـ ١٩ ، أشعيا ٦١/ ٢ ، متى ٣/ ١٦

والحسين قال :

« وإني لم أخرج أشراً ولا بطِراً ولا مفسداً ولا ظالماً ، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جديَ :

أريد أن :

أ ـ آمر بالمعروف

ب ـ وأنهى عن المنكر

ج ـ وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب » .

عيسى قال لتلاميذه :

« فإذا اضطهدوني يضطهدونكم أيضاً

سيُنزلون بكم ذلك كلّه من أجل اسمي

لو لم آت وأكلمهم لما كتبت عليهم خطيئة[1] » .

والحسين قال لصحبه قبل بدء المعركة عشية التاسع من محرم : « إني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي ولا أهل بيت أبرَّ وأوصل من أهل بيتي ، فجزاكم اللّه عني جميعاً ، ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء غداً وإني قد رأيت لكم فانطلقوا جميعاً في حلٍّ ليس عليكم مني ذمام ، وهذا الليل قد غَشيكم فاتخذوه جملاً وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ، فجزاكم اللّه جميعاً خيراً وتفرقوا في سوادكم ومدائنكم فإن القوم إنما يطلبوني ، ولو أصابوني لذهلوا عن طلب غيري[2] » .

عيسى أنكره أقرب تلامذته « بطرس » ، والحسين خذله أنصاره الذين استدعوه من المدينة .

---

(١) يوحنا : ١٥/ ٢١ - ٢٢

(٢) الطبري : ج ٦ ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ ، وكامل ابن الأثير ج ٤ ص ٣٤

عيسى اقتُسمت ثيابه بعد موته إلى أربعة أنصباء ، لكل جندي نصيب ، وأخذوا القميص أيضاً وكان غير مخيط منسوجاً كله من أعلاه إلى أسفله ، فقال بعضهم لبعض : « لا ينبغي أن نشقه بل نقترع عليه فنرى لمن يكون [1]».

والحسين لحقته هذه الإهانة وهو صريع متضرج بدمائه في فلاة كربلاء.. فسلبه قاتلوه ولم يوفروا حتى تكة سرواله ، وامتدت لها يد أحدهم بلا أدنى استفظاع أو تأثّم [2].

ابنُ مريم مات عطشاناً .. ففي لحظات نزاعه الأخير وقبل أن يسلم روحه ، صاح متألماً طالباً شربة ماء : « أنا عطشان [3] » فلم يُؤتَ له بماء ، بل كان هناك إناء مليء خلاً ، فوضعوا إسفنجة مبتلّة بالخل على قضيب من الزوفى وأدنوها من فيه ، فلما ذاق الخل لفظ روحه.

وابن فاطمة وهو مجندل مطعون في ترقوته ونحره وجنبه وحلقه ورأسه وجبهته وقفاه والدم ينبع ويخضِّب جسده الطاهر ويلون شيبته المقدسة ، وكان في نزاعه الأخير حينما استقى ماء ، فأبوا أن يسقوه ، وقال له رجل : « لا تذوق الماء حتى ترد الحامية فتشرب من حميمها [4] » .

والأنبياء والشهداء والمصطفون يدركون أن وجودهم المادي زائل بزوال أعمارهم لكن حُججهم ونفثات ضمائرهم هي التي ستبقى حية تسري في النفوس مسرى النار في الهشيم ، وليتردد صداها في المهج والصدور فلا يهدأ لها صدى إلا ليرجع من مكان آخر ، وهكذا فبينما يحيط جند يزيد بركب الحسين .. إذ يعتلي عليه السلام

---

(١) يوحنا : ١٩/ ٢٤

(٢) راجع اللهوف ص٧٣ ، ومقتل الخوارزمي ج٢ ص ٣٨ ، وكامل ابن الأثير ج٤ ص ٣٢ ، ومناقب ابن شهراشوب ج٢ ص٢٢٤ ، ومقتل الخوارزمي ج٢ص١٠٢

(٣) يوحنا : ١٩/ ٢٩ـ٣٠

(٤) ابن نما ص ٣٩

راحلته ويخاطبهم : « **أيها الناس أنسبوني من أنا ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها وانظروا ، هل يحلُّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي..ألست ابن بنت نبيكم وابن وصيه وابن عمه وأول المؤمنين باللّه والمصدِّق لرسوله بما جاء من عند ربه..أوليس حمزة سيد الشهداء عم أبي ..أوليس جعفر الطيار عمي..أولم يبلغكم قول رسول اللّه لي ولأخي : هذان سيدا شباب أهل الجنة ؟**».

فقال الشمر : هويعبد اللّه على حرف إن كان يدري ما يقول.

ثم قال «ع » مخاطباً الجمع الحاقد : « فإن كنتم في شك من هذا القول .. أفتشكُّون أني ابن بنت نبيكم ؟ فواللّه ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم ولا في غيركم ، ويحكم أتطلبوني بقتيل منكم قتلته أو مال لكم استهلكته .. أو بقصاص جراحة[1] ؟» .

فأخذوا لا يكلمونه وأصموا آذانهم عن سماع حديثه ، فقد تفاعل الحقد في عروقهم فأعماهم عن صوت الحقِّ الذي ينطق به لسان سيد الشهداء.

فسبحان الذي رسم لشهدائه و أبراره مثل هذه المواقف ، الشهيد والنبي والمصلح يقفون أمام الفاسدين يستعطفون قلوباً تحجَّرت وأبت إلا أن تقف إزاءهم ملؤها الشر والحقد ، وهذا ما فعله أعداء الحسين «ع » الذين التفوا حوله هازئين مستعدين للانقضاض عليه بعد وقت قصير باسم دين جدِّه المصطفى ، فكان حالهم كحال من يحارب البياض باسم السوسن ، وكحال من عنتهم تلك الآية الكريمة التي جرت على لسان المسيح : « سماعاً تسمعون ولا تبصرون فإن قلب هذا الشعب قد غلظ ، لقد ثقلوا آذانهم وأغمضوا عيونهم لكي لا يبصروا بعيونهم ولا يسمعوا بأذانهم ولا يفهموا بقلوبهم » .

وكما وقف سيد الشهداء..كذلك وقف عيسى رسول المحبة مثل وقفته بين الطوق الحاقد من اليهود الذين جاؤوا لاعتقاله ، فقال مُخاطباً الأحبار وقادة الحرس

---

(١) متى :١٣/ ١٥ رسل ٢٨/ ٢٦

والشيوخ:« **أعلى لص خرجتم تحملون السيوف والعصي ؟ كنت كل يوم بينكم في الهيكل فلم تبسطوا أيديكم إليَّ ولكن تلك ساعتكم وهذا سلطان الظلام**[1] ».

وقال أيضاً :

« ألم يعطكم موسى الشريعة ! وما من أحد منكم يعمل بأحكام الشريعة .. لماذا تريدون قتلي[2]؟».

فأجابه الجمع كما أجاب الشمر الحسين : « بك مس من الشيطان[3] » .

قال عيسى : « لماذا لا تفهمون أقوالي ، لأنكم لا تطيقون الاستماع إلى كلامي ، إنكم أولاد أبيكم إبليس..لم يثبُت على الحقِّ ، لأنه ليس فيه شيء من الحق ، لأنه كذاب وأبو الكذب ، أما أنا فلا تصدقوني لأنني أقول الحق ، أنا أعلم أنكم ذرية إبراهيم ولكنكم تريدون قتلي[4]».

صيحتان متشابهتان أطلقهما وسط غلاظ القلوب .. رسول المحبة وسيد الشهداء أمام الموت المحيق بهما ، إنها ضريبة الحق قبل أن تُؤدَّى.

كان بإمكان الشهيدين تجنب هذا الموقف وهذا الكلام ، لكنهما أديا واجب الكلمة الحقة قبل أن يؤديا واجب الشهادة ، بثا في الضمائر بذرة الخير تعمل بها وتتفاعل لتنشر عبقها في الهواء وتظلل الجميع بفيئ أوراقها النضرة ، وتكون الجرثومة التي تقتل ما فسد من أخلاق ونفوس والترياق المحيي للصدور المسممة والمهج المشرفة على الاختناق بضلالها.

وحكمة اللّه تنفح الرؤى في رؤوس الأخيار البررة فتُجري على ألسنتهم كلاماً

---

(١) لوقا : ٢٢/ ٥٢ ـ ٥٣ ـ ٥٤

(٢) يوحنا : ٧/ ١٩

(٣) راجع الفقرة ٢٠ من إنجيل يوحنا ٧ ، يجيب المسيح : « ما عملت إلا عملاً واحداً فتعجبتم كلكم » .

(٤) يوحنا : ٨/ ٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٦

يحمل معنى النبوءة ، ففي موقع الخطر وفوق أرض النهاية حيث تُتعتع أشد العقول رباطة وتتزعزع أقوى القلوب .. تظل قلوب الشهداء حية وعقولهم صافية منيرة ، ففي حومة الخطر خاطب الحسين « ع » قاتليه بما سيحل بهم وما أثبتته الأيام بالصدق ، وصوَّر لأعينهم وبصائرهم أي منقلب سينقلبون إذا ما أقدموا على قتله ، وذلك كي يكون في كلامه عظة وإنذار قبل الوقوع في الخطأ ، علَّهم يرعوون ويثوبون إلى ربهم وضمائرهم ، ولكن هيهات للضمائر التي نامت وللنفوس التي هرمت أن تعيَ عظة مقدسة حية .. فلو وعت لما قدَّمت المثل الحي على مفاسد الأخلاق وموت الضمائر ، ولارعوت بما قاله سبط النبي « ع » :

« أما واللّه لا تلبثون بعدها إلا كريثما يُركب الفرس ، حتى تدور بكم دور الرحى وتقلق بكم قلق المحور ، عهد عهده إلي أبي عن جدي رسول اللّه فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمَّة .. ثم اقضوا إليَّ ولا تنظرون أني توكلت على اللّه ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم[1] » .

ثم رفع يديه نحو السماء وقال : « **اللَّهم احبس عنهم قطر السماء ، وابعث عليهم سنين كسني يوسف ، وسلِّط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأساً مصبَّرة فإنهم كذبونا وخذلونا وأنت ربنا عليك توكلنا وإليك المصير ، واللّه لا يدع أحداً منهم إلا انتقم لي منه قتلة بقتلة وضربة بضربة ، وإنه لينتصر لي ولأهل بيتي وأشياعي[2]** »

ويقابل هذا القول ، ذلك الذي جرى قبل قرون على لسان شهيد المسيحية حينما حكم عليه علماء الشريعة اليهود بالموت إذ قال مخاطباً إياهم : « الويل لكم أنتم يا علماء الشريعة ، تحمِّلون الناس أحمالاً باهظة وأنتم لا تمسون هذه الأحمال بإحدى أصابعكم ، الويل لكم تبنون قبور الأنبياء وآباؤكم هم الذين قتلوهم ، فأنتم الشهود وأنتم على أعمال آبائكم توافقون ، هم قتلوهم وأنتم تبنون قبورهم ، ولذلك قالت

---

(١) تاريخ بن عساكر ج ٤ ص٣٣٤ ، والمقتل للخوارزمي ج٢ص٧ ، واللهوف ص٥٤

(٢) اللهوف ص ٥٦ والمقتل للخوارزمي ج٢ ص ٧ ، ومقتل العوالم ص٨٤

حكمة اللّه : أرسل إليهم الأنبياء والرسل وسيقتلون منهم ويضطهدون حتى يُطلب من هذا الجيل دم جميع الأنبياء الذي سُفك منذ إنشاء العالم ، من دم هابيل إلى دم زكريا الذي قتل بين المذبح والهيكل [1] ».

فإيراد مثل هذا التشابه في الأقوال والمواقف والمصير بين الشهيدين عيسى والحسين « ع » من شأنه إبراز نواحي عنصر الشهادة بينهما رغم أنهما جاءا في عصرين مختلفين ، وأدّيا رسالتين مختلفتين في الشكل ، متجانستين في الأهداف .

فعيسى بن مريم « ع » جاء إلى اليهود يحمل رسالة جديدة يبشر بها هي إتمام لرسالة العهد القديم التي حرَّفها اليهود ووضعوا لها شريعة الآباء ، فاضطهدوه واتهموه بما لا يُتهم به نبي ، ثم قدموه للموت ، فتقدم إليه كهدف أنفذ لأجله ، وقد فدى نفسه وحدها لتظل رمزاً للمسيحيين من بعده تذكِّرهم بمعنى افتداء نفس قرباناً للعقيدة ، فيحسون بضعفهم إذا ما ضعفت عقيدتهم ، وتكون مناسبة الفصح مناسبة للحزن والذكرى وإعادة التبصر وتقويم الضعف والانحراف في أخذ العقيدة والسير على هديها.

وبمقياس الجود بالنفس الواحدة مقابل سلامة العقيدة أو بعثها من البدء.. فإن الأنبياء موسى وعيسى ومحمد ، والشهداء زكريا ويحيى وعلي والحسن والحسين والعباس « ع » وغيرهم..أدوا رسالتهم الكاملة بما يرضي اللّه سبحانه تعالى كما رسمها لهم ، وكانت أنفسهم الطاهرة هي القربان الذي قدَّموه على مذبح الشهادة .

فإذا كانت الأديان السماوية تُنزل ويُفدى لها بنفس رسولها ، وتُنشر فيُفدى لها بنفس ناشرها ، وتُحمى فيُفدى لها بنفس حاميها .. فبأي وصف أو مقياس يمكن لنا ولأجيال المؤمنين من بعدنا أن نصف ونقيس بهما ثورة الحسين « ع » التي قدَّم فيها عترة آل البيت وصحبه الأخيار ، وكان ثمن دفاعه عن انحراف العقيدة أنفساً طاهرة هي أسرة النبي الذي أنزلت الرسالة به ، والتي حارب أعداء الرسالة سبطه

---

(١) لوقا : ١١/ ٤٦ـ ٥١

باسمها ، السبط الذي قال عنه « ص » : « الحسين مني وأنا من حسين[1] » هل يمكن قياسها بمقياس ما قدَّمت .. أم بمقياس ما زالت تقدم ؟

إذا قسناها بالمقياسين ، ولا مندوحة لنا إلا بهما .. فنجد أن ثورة ريحانة النبي هي أعظم الثورات قاطبة ، وشهادته متممة لكل الشهادات التي سبقتها ، إذ أن هذه الثورة قبلت قرباناً لها الشيخ والمرأة والطفل الرضيع ، وكانوا كلهم في ميدان واحد شهود مجزرة ومتحملي نتائجها ، فهي ثورة جعلت من مشعل أوارها : وارث آدم صفوة اللّه ، ووارث نوح نبي اللّه ، ووارث ابراهيم خليل اللّه ، ووارث موسى كليم اللّه ، ووارث عيسى روح اللّه ، ووارث محمد حبيب اللّه .

واستشهاد الحسين بهذا الشكل الدراماتيكي المؤلم .. رفعه مرتبة فوق الشهداء فصار سيدهم ومعلمهم لا سيما إذا نظرنا إلى الوسائل والكيفية التي تمت بها شهادته مختتماً بها ثورته المنتصرة رغم خذلانها.

ففي الهدف .. ثبت أن ثورة الإمام كانت دفاعاً عن كل الرسالات السماوية التي سبقتها ، ما دام هدف الرسالات تقديم المثال الحي على خلودها بالاستشهاد المعمد بالدم ، والشهيد تمم بها ما بدأه جميع الأنبياء الذين ذاقوا الاستشهاد حرقاً وقتلاً وذبحاً وصلباً .

وفي الكيفية والوسيلة .. نرى أن ليس ثمة ثورة تشبه ثورة الحسين بكيفيتها ووسائلها ، فقد كان سبط النبي « ع » مُصلحاً كبيراً انبثق من جموع الأمة ، وله صفة بشرية واحدة ، لا صفة رسولية كما للرسل ، فكان عليه إن يسلك في كفاحه مسلك

---

(١) تعبير رواه من الإمامية ابن قولويه في كامل الزيارات ص٥٣ ، كما رواه من أهل السُّنة الترمذي في جامعه « في مناقب الحسين» ، والحاكم في المستدرك ج٣ ص١٧٧ ، وابن عساكر في تهذيب تاريخ الشام ج٤ ص٣١٤ وابن حجر في مجمع الزوائد ج ٩ ص١٨١ ، وفي الصواعق المحرقة ص ١١٥ حديث ٢٣ ، والبخاري في الأدب المفرد ، والمتقي الهندي في كنز العمال ج٧ ص١٠٧ ، والصفوري في نزهة المجالس ص٤٧٨ وأمالي السيد المرتضى ج١ ص١٥٧

البشر المعذَّبين والمحاصرين ، ويلجأ إلى الوسائل البشرية المحدودة في صراعه المستميت ضد حاكم غاشم وسلطة فاسدة منكِّلة تبغي الانحراف بالعقيدة تحت لوائها ، وكانت المهمة الملقاة على عاتق سيد الشهداء غاية في الصعوبة ، فقد كان الإسلام وليداً لمَّا يزل يحبو ، وقد اجتاز فترة مولده وفتوحاته الأولى ، واسترخت الأمة الإسلامية بعدها ودب الخلاف في أوساطها ، وصارت الأطماع الدنيوية هي المحك لنفسية المسلم آنذاك بعد أن نجحت سياسة الأمويين في تدجين الأمة وتركيعها وإقامة خلافة كسروية مدعومة بأرستقراطية وثنية محرِّفة ناصبت القائمين على الإسلام العداء ، والتي نجح الرسول « ص » في القضاء عليها في حياته ، لأنها انضوت تحت لواء الإسلام واعتنقت العقيدة سعياً وراء مصالحها الشخصية .. وما كان أكثرها.

من هنا تجلت صعوبة المهمة التي أخذها الحسين على عاتقه ، وهي النهوض بأمة الإسلام من خدرها وإعادتها إلى الصراط المستقيم الذي بشَّر به جده الكريم ، صعوبة لا يحسها إلا من كان في وضع مثل وضع الحسين يعتمد على مناصرين تفتتوا بَدَداً كما لو أنهم لم يكونوا ، وكأنهم لم يرسلوا كتبهم في طلبه من المدينة ليقودهم في حركته حيال حكم طاغ له من عدده وعدته الشيء الكثير ، مدعوماً بقوى غاشمة ، بينما لا تلفت مفاسده انتباه قوى أخرى استطاع شراء سكوتها بالمال ، في حين آثرت البقية التي كانت تُحس الظلم والضنك .. السكوت والخنوع ، إما حفاظاً على مكاسب رخيصة .. أو خوفاً من بطش السلطة.

وإذا حاولنا النظر مجدداً إلى حراجة موقف الحسين في إعلانه عدم البيعة ليزيد وخروجه إلى الكوفة مع علمه بإمكانية خذلانه .. لتبين لنا بوضوح أسلوب الحركة لديه ، فهو لم يقف ليزن الأمر بميزان القدرة والاقتدار استناداً إلى الإمكانات التي بين يديه وعلى ضوء ما لدى يزيد ، كان المبدأ يعتمل في صدره يلح عليه بهواتف مجهولة لأن يتقدم ويجابه دونما خوف من مآل أو نتيجة ، فالإقدام والتصدي لقوى الظلم هما الثمرة التي ستكبر وتكبر إلى أن يحين موعد قطافها .

وإذا كان الأنبياء والرسل قد خصهم تعالى بقوى وخوارق علوية أكبر من قدرة البشر..فإن الحسين « ع » حتى لحظة استشهاده كانت وسائله بشرية صرفة لا تزيد ولا

تنقص ، عدا جوهر المبدأ فوق البشري الذي خطَّط له حركته.

ولقد أيد اللّه كل نبي بمعجزة مما هو منتشر في عصره ، ففي زمن موسى « ع » كان السحر منتشراً كل الانتشار ، فأيد اللّه نبيه موسى بمعجزة من نفس ما هو منتشر فألقى عصاه فإذا هي حية تسعى.

وفي زمن عيسى « ع » كان الطب منتشراً انتشاراً هائلاً ، فأيد اللّه رسوله عيسى بمعجزات خارقة لنواميس الطبيعة ، كإحياء الميت وإبراء الأكمه والأبرص وطرد الأرواح الشريرة ، معجزات لم تتوصل إليها علوم الطب آنذاك ، ولن تتوصل إليها في أي زمن آخر.

وفي زمن محمد « ص» كانت الفصاحة والبلاغة هما المرجع الأول ، وكل إنسان يقدَّر على قدر فصاحته وبلاغته ، فكانت تنظم القصائد وتعلق المعلقات في الكعبة ، وتقام الأسواق للمباريات في إلقاء القصائد ، فأيد اللّه نبيه محمداً « ص » بمعجزة القرآن ، الذي فاقت فصاحته كل فصاحة ، واعتلت بلاغته كل بلاغة.

وإذا كان حال الأنبياء الذين أيدهم اللّه بمعجزات فوق إعجاز البشر قد آلت إلى الاضطهاد والقتل رغم معجزاتهم ..فما هي حال الشهيد الحسين« ع » الذي لم يؤتَ إعجاز الأنبياء بل كان عليه أن يجاهد كالبشر ؟

وليس معنى هذا أن الشهيد العظيم لم يكن لديه إلا الضعف البشري فحسب.. بل كانت في صدره جوهرة الشهادة ، وكانت له قماشة الشهيد حتى قبل أن يولد ، إذ كان مُعداً لهذه الشهادة وهذا السمو ، لكن بوسائل بشرية ، كي تتم شهادته وتكون قدوة لكل البشر الذين يقنعون بضعفهم البشري عن القيام بالجهاد ، فتكون ثورة سيد الشهداء هي المثل الحي على إمكانية تحويل البشر إلى شبيهي الرسل ، بعد أن يحولهم المبدأ القوي والعقيدة الثابتة الكامنة في صدورهم .. إلى ثائرين يبحثون عن الموت ليلجوا في غمراته غير هيابين مبتغين مرضاة اللّه.

دافعت ثورة الحسين عن السُّنة المحمدية بقوة الحُجة ، وقوة الحق وبلاغته ، ولم تنتصر بقوة العضلات والأبدان ، إذ كانت ثورة موجهة إلى العقول والضمائر

والأنفس التي تقدر للحق قدره ، وتكره ما للباطل من مساوىء ومفاعيل ، لقد قال الحسين « ع » :

« أيها الناس إن رسول اللّه قال : من رأى سلطاناً جائراً لحرم اللّه ، ناكثاً لعهد اللّه مخالفاً لسُنة رسول اللّه ، يعمل في عباد اللّه بالإثم والعدوان ، فلم يغير عليه بفعل ولا قول .. كان حقاً على اللّه أن يُدخله مدخله[1] » .

وقال في خطاب آخر :

« ألا ترون إلى الحق لا يُعمل به ، وإلى الباطل لا يُتناهى عنه ، ليرغب المؤمن في لقاء اللّه محقاً ، فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً[2]» .

مثل هذا القول لا يصدر إلا عن إنسان معد للشهادة ، ينطق لسانه بما يستقر في وحيه من إيحاءات علوية ، إنسان هو بضعة من الرسول الكريم وريحانته ، ونفحة من نفحات إلهامه ، فعندما ولدت فاطمة حسيناً .. أخذه النبي بين يديه وأذَّن في أذنه كما يُؤذن للصلاة ، وأفرغ في سريرته الطفولية بعضاً من استشرافات النبوة الهادية للبشر[3].

إذن كان الحسين « ع » هو رجل المرحلة الثانية للإسلام بعد المرحلة الأولى التي بدأها جده الرسول الأعظم ، وكانت مهمته كبيرة تتصدى لإعادة مسيرة العقيدة إلى الصراط المستقيم ، ولمَ لا ؟ أليس هو خامس أهل البيت الذين صرَّح القرآن الكريم بطهارتهم .. ومن كان أجدر منه لأن يكون رجل الاستمرارية وإعادة التقويم للإسلام الذي قيل فيه : « بدؤه محمدي وبقاؤه حسيني » ؟

---

(١) الطبري جزء ٦ ص ٢٢٩ ، وكامل ابن الأثير ج ٤ ص ٢١

(٢) اللهوف ، والطبري ج ٦ ص ٢٢٩ ، والعقد الفريد ج ٢ ص ٣١٢ ، وابن عساكر ج ٤ ص ٣٣٣

(٣) أخرج أبو داود والترمذي في « السنن » عن أبي رافع مولى النبي « ص » قال : « رأيت النبي أذَّن في أذن الحسين حين ولدته فاطمة كما يؤذِّن للصلاة ، وذكر الصَّبان في إسعاف الراغبين : أنه حنَّكه بريقه وأذَّن في أذنه ، ودعا له وسمَّاه حسيناً يوم السابع وعقَّ عنه ، وذكر المفيد في الإرشاد أن النبي عقَّ عنه كبشاً .

ورجل نذر حياته للشهادة وتقدم بقوة نحو افتداء عقيدته مضحياً بنفسه وأهله ، وشهيد أعطى معنى كاملاً وتفسيراً واضحاً لمعاني تضحية الأنبياء والرسل بديناميكية ثورته وزخمها ، وسيد للشهداء أتم الشهادات العظيمة لكل الأديان ، وناقض لكل نواميس الظلم والتحريف ، ومعط ما للّه للّه ، وما ليزيد ليزيد ، تماماً كما أعطى قبله رسول المحبة وشهيد المسيحية « ما لقيصر لقيصر وما للّه للّه »..مثل هذا الشهيد الذي يذكِّر كل مسيحي برسوله ، ومثل هذا المعلم للثورة من أجل الحق ..لخليق بأن يحلَّ محله في ضمير الإنسان المسيحي ، ولجدير بالمسيحيين اعتباره شهيداً يخصَّهم كما يخص المسلمين ، وكما يجب أن يخص غيرهم من أتباع كل الديانات ، فشهادته كانت أقرب الشهادات إلى روح وجوهر العقيدة المسيحية ، وثورته بمضامينها ومراميها كانت أقرب الثورات التصاقاً بما جاء المسيح « ع » لأجله نبياً ومبشراً ومخلِّصاً للمظلومين ، فكان في شهادته من أجل الحق .. شهيداً في المسيحية التي تعصبت للحق القراح دون أي تعصب لقومية أو مذهبية أو عنصرية .

فجدير بقدسية رسالة الحسين « ع » أن يقدمها العالم الإسلامي كأنصع ما في تاريخ الإسلام إلى العالم المسيحي ، وكأعظم شهادة لأعظم شهيد في سبيل القيم الإنسانية الصافية الخالية من أي غرض دنيوي أو إقليمية ضيِّقة أو مذهبية مفرِّقة ، وكأبرز شاهد على صدق رسالة محمد « ص» وكل رسالات الأنبياء التي سبقتها.

وليس أدل على ما لسحر شهادة الحسين « ع » من قوة جذب للشعور الإنساني من حادثة رسول القيصر إلى يزيد حينما أخذ هذا ينكت ثغر الحسين الطاهر بالقضيب على مرأى منه ، فما كان منه إلا أن قال له مستعظماً فعلته : « إن عندنا في بعض الجزائر حافر حمار عيسى ونحن نحج إليه في كل عام من الأقطار ونهدي إليه النذور ونعظمه كما تعظمون كتبكم ، فأشهد أنكم على باطل [1] » ، فأغضب يزيد هذا القول وأمر بقتله ، فقام إلى الرأس الطاهر وقبَّله وتشهَّد الشهادتين ، وعندما قُتل سمع أهل المجلس من الرأس الشريف صوتاً عالياً فصيحاً يردد : « لا حول ولا

(١) الصواعق المحرقة ص ١١٩

قوة إلا بالله[1] ».

وحادثة أخرى دفعت براهب مسيحي لأن يبذل دراهم مقابل تقبيل رأس الشهيد وتطييبه بالطيب ، وكان ذلك عندما نصب الرأس على رمح إلى جانب صومعته وفي أثناء الليل سمع تسبيحاً وتهليلاً ، ورأى نوراً ساطعاً من الرأس المطهَّر وسمع قائلاً يقول : « السلام عليك يا أبا عبدالله » .. فتعجب حيث لم يعرف الحال.

وعند الصباح استخبر القوم فقالوا له : إنه رأس الحسين بن علي بن أبي طالب وأمه فاطمة بنت النبي محمد « ص » ، فقال لهم : « تباً لكم أيتها الجماعة ، صدقت الأخبار في قولها : إذا قُتل تمطر السماء دماً ».

وأراد منهم أن يقبل الرأس ، فلم يجيبوه إلا بعد أن دفع إليهم دراهم ، ولما ارتحلوا عن المكان .. نظروا إلى الدراهم وإذا مكتوب عليها :

« وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » .

فبداهة القول إن أي فكر إنساني يطَّلع على السيرة العطرة لسيد الشهداء ، لا بد وأن تتحرك في وجدانه نوازع الحب [2] لهذا الشهيد المثالي كما تحركت شبيهة هذه النوازع في قلبيْ كل من رسول القيصر والراهب ، ففي أعماق كل إنسان مؤمن لواقط خفية تلتقط أدنى إشارات العظمة والقداسة خفوتاً .. فكيف بأقواها تلك المتعلقة بشخص سيد الشهداء ، والمنبعثة رغم السنين والقرون من كل كلمة في سفر حياته وكفاحه ومقتله ، والتي تستهوي أشد القلوب ظلامة للتفاعل معها ، وتوقظ أشد الضمائر مواتاً لاستلهامها والسير على هدي أنوارها السنية ؟ فكيف بالقلوب المنوَّرة والضمائر الحية ؟

---

(١) مقتل العوالم ص ١٥١ ، ومثير الأحزان لابن نما ، وفي مقتل الخوارزمي ج٢ ص ٧٢ ذكر محاورة رسول القيصر وغفل عن ذكر كلام الرأس الشريف .

(٢) يقول المؤرخ الإنكليزي برسي سايكس : إن الإمام الحسين وعصبته القليلة المؤمنة عزموا على الكفاح حتى الموت ، وقاتلوا ببطولة وبسالة ظلت تتحدى إعجابنا وإكبارنا عبر القرون حتى يومنا هذا .

ثورة الوحي الإلهي

دأب بعض المغرضين وفاقدو نعمة التبصر من مستشرقين ومسلمين ، على الوقوع في خطأ جسيم كل مرة يتصدون فيها للكتابة عن ملحمة كربلاء ، فيخلص بعضهم إلى القول إن ثورة الحسين كانت عاطفية مرتجلة قام بها الشهيد بغية إحراج الذين خذلوه خاصة[١] وبني أمية والمسلمين عامة[٢] ، ويردُّ البعض الآخر حركة الحسين إلى رغبته في إثارة المؤيدين والرافضين على السواء ، وتحميل ضمائرهم وزر قتل آل النبي[٣] ، وحلَّلها آخرون بأنها ثورة أخلاقية كان مفجرها يبتغي من ورائها عزل العقيدة المحمدية عن مسالك تهلكتها والنجاة بها إلى طريقها الصحيح ، بينما

---

(١) ورد في صحيح مسلم أن طائفة من الجهلة قد تأوَّلوا على الحسين وقتلوه ، ولم يكن لهم قتله.. بل إجابته ، فليس الأمر كما ذهبوا إليه ، بل أكثر الأئمة قديماً وحديثاً كاره ما وقع من قتله وقتل أصحابه سوى شرذمة قليلة من أهل الكوفة ، وذكر الحافظ بن كثير في استشهاد الحسين ص١٠٧ ، أن ابن زياد لما صعد المنبر قال : إن اللّه فتح عليه من قتل الحسين الذي أراد أن يسلبهم الملك ويفرِّق الكلمة عليهم .

(٢) في كتابه « السياسة الإسلامية » يقول الفيلسوف الألماني ماربين : إن الحسين مع ما كانت له من المحبوبية في قلوب المسلمين ..كان بإمكانه تجهيز جيش جرار لمقاتلة يزيد لكنه قصد من استشهاده « الإنفراد والمظلومية » لإفشاء ظلم بني أمية وإظهار عداوتهم لآل النبي .

(٣) الذين يؤيدون هذا الرأي يستندون إلى كلام زينب « ع » في مجلس يزيد حينما قالت له : « فو اللّه لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا ، ولا يرحض عنك عارها » .

حصرها آخرون في إطار رغبة الإستيلاء[1] على الحكم والاستئثار بالخلافة [2] والذين لم يحللوها حسب رؤاهم الضيقة .. اكتفوا بوصفها بالعاطفية وعدم التخطيط وحساب ما للحرب من نتائج وأساليب ، وما يترتب عليها من نتائج .

ولو توفر لكل هؤلاء المغرضين والمستبدين بآرائهم ، البصيرة النافذة والرؤية المتبصرة التي ترد مؤشرات الأحداث إلى منابعها ، وتربط النهايات بالبدايات ، والمسار بنقطة الانطلاق ، والنتائج بالمسببات ..لما وقعوا فيما وقعوا فيه من مغالطات وتجن على الحقيقة ، تجلت في رؤية الأحداث والحقائق من وجهة نظر تفصيلية مادية ضيقة ، وربط النتائج بالأسباب بكيفة تقليدية على نحو ما اصطلح عليه العقل البشري في بعض اجتهاداته المحرِّفة سيئة المقاصد.

ولكن أنَّى لهم ذلك إذا كانت السَّوْءة في هضم الحقائق فكرياً ، هي هدفهم الأسمى الذي يسعون إليه ، ويغذون على نبراسه في دروب رؤاهم الموءودة بسكين وترتهم وضيق أفقهم وسوء نواياهم ؟

فالقائلون بأنها ثورة مرتجلة .. في قولهم كمن ينكرون تدابير الحكمة الإلهية التي هيأت الشهادة للحسين ، ويستهينون بنبوءات الرسل والأنبياء عن قتله في فلاة كربلاء ذبيحاً وعطشان ومُداساً بحوافر الخيل ، ويسفِّهون ما جاء على لسان الوصيين والأبرار الذين ما جاؤوا إلى البشرية إلا من أجل توطيد عقائدها وحفظ

---

(١) للشيخ عبدالله العلايلي في كتابه « الإمام الحسين » ص٣٤٨ رأي يقول فيه: خروج الحسين « ع » ليس فتنة ـ كما اتهموا ـ بل لمكافحة الفتنة ، فأية محاولة وثورة على الفساد في سبيل أن يكون الدين كله للّه .. نحن مأمورون بها ، فالحسين بخروجه لم يجاوز برهان ربه : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله للّه » .

(٢) للعقاد في كتابه أبو الشهداء ، رأي يقول فيه : الحسين « ع » طلب الخلافة بشروطها التي يرضاها ، ولم يطلبها غنيمة يحرص عليها مهما تكلفه من ثمن ، ومهما تتطلب من نتيجة ، وفي هذا القول شبه بما قاله ماربين من أن خروج الحسين كان عزمة قلب كبير يبلغ به النصر الآجل بعد موته ، ويُحيي به قضية مخذولة ليس لها بغير ذلك حياة ـ العقاد ص ١١٨

شرائعها العلوية السامية.

فها هو شهيد المسيحية عيسى « ع » يمر بأرض كربلاء فيُنبىء عن قتل الحسين ويلعن قاتليه ، ويصف أرض الطَّف بـ « البقعة كثيرة الخير[1] » ، ويوصي من أدرك أيامه بالقتال معه ، فيصبح كالشهيد مع الأنبياء مقبلاً غير مدبر[2].

وقد أمسك بعض المشككين بهذه الواقعة لدعم تغرُّضهم ، فذكروا أن عيسى لم يخرج من فلسطين طيلة حياته ، وأنه من غير المعقول أن يكون قد وصل إلى كربلاء في العراق ، لكن هؤلاء فاتهم تلك الفترة الغامضة منذ يفاعة عيسى حتى سنه العشرين ، إذ لم تذكر التواريخ ولا حتى الإنجيل المقدس ، أين أمضى عيسى طفولته وبعضاً من سني شبابه المبكر .. إذ هناك روايات تتحدث عن سفره إلى التبت لنهل الحكمة والطب الروحي ، ورواية أخرى تحدثت عن تنقله في كل بقاع الأرض لاختيار المواطن المناسبة لبعث ديانته ونشرها بعد نزولها عليه في فلسطين .

ونبي كعيسى أيده اللّه بمعجزات خارقة .. هل يستحيل عليه الوصول إلى كربلاء بطرفة عين ؟ وما هو غير المعقول في زيارة شهيد المسيحية إلى مسقط رأس شهادة الحسين « ع » الذي سيأتي بعد قرون ليتمم شهادة الحق والعدل التي استشهد لأجلها عليه السلام ؟ أوليس هو القائل : من يملك إيماناً بمقدار حبة الخردل ليقول للجبل : انتقل .. فينتقل ؟ فكيف بمن ملك إيماناً بمقدار جبال الأرض وأكثر ؟

فإذا كانت الطبائع البشرية قد جُبلت على تقديس الشهداء وحبهم بوحي من فطرتها الإنسانية .. فكيف بالشهداء الذين تسبق شهادتهم شهادة نظرائهم ممن سيأتون لإتمام ما بدأوه ؟

فالحواجز الزمنية التي تحول بين البشر وبين استشفاف المستقبل ليس لها حساب مع الشهداء والنبيين ، فعليهم السلام يرون قائمة الشهادة التي أعدها سبحانه وتعالى

---

(١) إكمال الدين للصدوق ص٢٩٥

(٢) كامل الزيارات ص٦٧ ابن قولويه

لمختاريه ، ويقرأون فيها أسماء من سيلي بعدهم مع صحيفة تبيِّن كيفية المقتل وأسلوب المعاناة ، مهما طالت مواقيت وقوعها.

واللّه تعالى أعطى الأنبياء والأخيار ملكة نورانية تساعدهم على استجلاء الغيب « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول [1] » ، وكان أبو جعفر يقول : « كان و اللّه محمد ممن ارتضاه ولم يبعد اللّه الخلفاء عن هذه المنزلة بعد اشتقاقهم من النور المحمدي [2] ».

فلا توافق بين الارتجال الذي نعت به البعض ثورة الحسين ، وبين نبوءات الأطهار ممن ارتضاهم اللّه ، ولا يصيبنَّ ناعت في نعت استشهاد أبي الشهداء مهما بلغت فصاحته ، لأنه مستمد من القدر الإلهي وموحى به قبل أن يولد الشهيد.

وكأني أسمع أحدهم يقول مشككاً : ولكن الحسين كان بإمكانه تجنب التهلكة التي ألقى بنفسه وآل بيته فيها عملاً بقول الآية الكريمة : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » إلا أن منطق الشهادة يبرر معنى الآية إذا كان في الحفاظ على النفس مصلحة أهم من إزهاقها ، والاقتصار على ما يقتضيه الوصف يُخرج الآية عمَّا في الشهادة من نفي للهلكة ، فإنها أعقبت آية الاعتداء في الأشهر الحرم على المسلمين ، فقال تعالى: « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا اللّه واعلموا أن اللّه مع المتقين وانفقوا في سبيل اللّه ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، واحسنوا إن اللّه يحب المحسنين » .

والحسين « ع » كان عالماً بمقتله وواعياً لكل ما سيحيق به ، وإقدامه على الشهادة إنما كان من باب الطاعة وامتثالاً للتكليف الموجه إليه من القدرة الإلهية.

وقد أعلم أم سَلَمة بقتله قائلاً لها : « **إني أعلم اليوم الذي أقتل فيه والساعة التي أقتل فيها ، وأعلم من يُقتل من أهل بيتي وأصحابي ، أتظنين أنك علمت ما لم**

---

(١) سورة الجن

(٢) البحار ج١٥ ص٧٤ ، وابن حجر في فتح الباري ج ١٣ ص ٢٨٤ كتاب التوحيد

أعلمه..وهل من الموت بد ؟ فإن لم أذهب اليوم ذهبت غداً » .

والارتجالية هي عكس معرفة كل شيء بالتفصيل كما قال الشهيد لأم سلمة حين أبدت له تخوفها من سفره ، ومعرفته بما سيحل به لم يؤخره أو يمنعه من التقدم برباطة جأش وثبات خطوة ، والتسليم للقضاء المحتوم وعدم التوسل إلى الباري تعالى في إزاحة العلة لينال الشهادة .

ولو شاء سيد الشهداء أن يدفع اللّه تعالى عنه هذ التهلكة .. لكان ذلك على اللّه أسرع من سلك منظوم انقطع ، ولرفع عنه الطواغيث ، ولكن الحكمة المتجلية في عدم طلب مثل هذا الدفع لا يعلمها إلا رب العالمين.

والأنبياء الذين قتلوا في سبيل إعلاء كلمة اللّه المبشرة بالحق والعدل .. أنظن نحن البشر بأن اللّه تعالى قد تخلى عنهم لمصائرهم..؟ كلا ، بل إنهم « ع » يتشوقون للشهادة تقرباً من قدس اللّه وتنفيذاً لمشيئته ، ولو دعوا اللّه لرَفْعها عنهم..لرَفَعها ، لكنهم يدورون مدار ما اختاره تعالى لهم من الأقضية والأقدار إذا كان في إقدامهم إبقاء على دين أو حفظ لشريعة أو إنقاذ لعقيدة.

وقد تنبأ عيسى « ع » بموته أمام تلاميذه وشرح لهم كل ما سيحدث له من تسليمه إلى الوثنيين وسخريتهم منه وجلده وقتله ، وحثَّ تلميذه الخائن يهوذا الإسخريوطي على تسليمه ، ولما اجتذبه تلميذه بطرس إليه وطفق يحذره من المضي إلى القدس.. إلتفت «ع » إليه وقال له : « اذهب خلفي يا شيطان ، إنك لي معثرة لأن أفكارك ليست أفكار اللّه بل أفكار الناس » ، ولما هوى أحد أصحابه بسيفه على أذن عبد عظيم الأحبار وقطعها.. قال له المسيح : « **اغمد سيفك ، فمن يأخذ بالسيف يهلك ، أو تظن أني لا أستطيع أن أسأل ربي فيمدني الساعة بأكثر من إثني عشر فيلقاً من الملائكة .. ولكن كيف تتم آيات الكتب التي تقول إن هذا ما يجب أن يحدث [1] ؟**».

---

(١) متى : ٢٦/ ٥٣ ـ ٥٤ ـ ٥٥

فعيسى ابن مريم كان قادراً إذا طلب من ربه أن يقضي على اليهود الذين جاؤوا لاعتقاله ، لكنه لم يفعل حتى تتم مشيئة الواحد القهار التي لا يفهمها الناس العاديون كتلميذه بطرس.

وعندما كان تلاميذه يسهرون ليلة تسليمه قال لهم : « نفسي حزينة حتى الموت » ثم أبعد قليلاً وأكب على وجهه يصلي ويقول : « يا رباه لتبتعد عني هذه الكأس إن كان يستطاع ، ولكن لا كما أنا أشاء بل كما أنت تشاء [1]».

ولم يُلح نبي المسيحية على طلب إبعاد كأس الموت عنه كما يشاء هو.. بل كما يشاء ربُه الأعلى .

وكما قال عيسى: « **لا كما أنا أشاء بل كما أنت تشاء** » ، قال سيد الشهداء مخاطباً أخاه محمد بن الحنفية : « **شاء اللّه أن يراني قتيلاً ويرى النساء سبايا** » .

فهل للمشككين بوعي ثورة الحسين من حجة بعد هذا القول : « شاء اللّه أن يراني قتيلاً » .. من وصف ثورته بالعاطفية وسوء التخطيط ، وما قولهم بمشيئة اللّه القادرالذي خطط لثورة سيد الشهداء وأجراها نبوءات على ألسنة رسله الأطهار وأنزلها وحياً على ذبيحها الذي سيكون قربانها الرئيسي .. هل سيبلغ بهم الشطط حداً لنعتها بأي نعت آخر إزاء قولة الحسين بمشيئة ربه ؟

هذه المشيئة العليا هي التي جعلت ابراهيم الخليل « ع » يحطم آلهة قومه ويدوسها غير عابىء بالنمرود صاحب البطش وبالنار التي أوقدها لحرقه حياً ، وهي المشيئة الإلهية التي دفعت بكليم اللّه موسى « ع » ليقف أمام الفرعون المتأله ملك النيل والسلطان العريض ويصيح في وجهه : « أنت ضال مُضل » .

هي مشيئة الواحد القهار التي دفعت بيحيى « ع » للصراخ في وجه هيرودس عندما أراد التزوج بامرأة أخيه قائلاً له : « إنها لا تحل لك » ، ولما رقصت ابنة هيروديا إحدى بغايا بني إسرائيل .. قدم لها هيرودس رأس يحيى على طبق من ذهب.

---

(١) مرقس : ١٤/ ٣٦ ـ ٣٧

هي المشيئة التي رسمت لعيسى « ع »مواقفه وحياته فقال لأحبار اليهود : « أنتم أبناء الشياطين » ، رغم علمه بأنه سيُقتل.

وهي المشيئة العليا التي أوحت للنبي محمد « ص » اليتيم الفقير ، لتسفيه أحلام قريش وسب آلهتم وحمل الرسالة المحمدية والاندفاع بها مهدداً كسرى وقيصر ، شرقاً وغرباً.

وقال أمير المؤمنين : « أوحى اللّه إلى داود : تريد وأريد ولا يكون إلا ما أريد فإن سلّمت لما أريد .. أعطيت ما تريد ، وإن لم تسلم لما أريد .. أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد » .

وقال : « لا تسخط اللّه برضا أحد من خلقه ، فإن في اللّه خلفاً من غيره ، وليس من اللّه خلفٌ في غيره ».

وقال رسول اللّه « ص » : « من طلب رضا مخلوق بسخط الخالق ، سلط اللّه عليه ذلك المخلوق » .

بهذه المبادىء العلوية جاء الأنبياء والرسل والشهداء إلى البشرية ، مبشرين بالأديان السماوية ، مقاتلين دون تحريفها ، باذلين الأنفس والمهج في سبيل ترسيخها في النفوس ، وعندما يقف هؤلاء الأطهار أمام أصحاب السطوة والاستطاعة .. فإنهم يقفون بقوة العزة الإلهية التي لا قوة فوقها ، ويخاطبون أهل السلطان باسم اللّه الذي أوحى لهم ما يقولون ورسم لهم أدوارهم التي بعثهم للبشرية من أجلها.

وأية اجتهادات في تفسير هذه الأدوار بغير هذا المنطق ، معناه وضع الحقائق الجوهرية في غير موضعها ، حتى لتبدو الرغبة في التضليل واضحة لدى من يقدمون على مثل هذا التحريف في تمثل منطق هذه الحقائق.

وثورة الحسين « ع » ليست وليدة ساعتها ، بل هي في سفر الوصايا الإلهية ، نُقشت عليه قبل نزول الرسالة المحمدية ، وعلم ذلك عند رب الأكوان وباعث الرسالات ، إذ كان يعلم تعالى بما ستتعرض له هذه الرسالة من اهتزاز بعد نزولها

على محمد « ص » ، فهيأ لها الحسين قبل أن يكون .

فها هو الشهيد يقول لعبدالله بن جعفر: « إني رأيت رسول اللّه في المنام وأمرني بأمر أنا ماض له ».

وفي بطن العقبة قال لمن معه : « ما أراني إلا مقتولاً ، فإني رأيت في المنام كلاباً تنهشني ، وأشدها عليَّ كلب أبقع [(١)] » .

ولما أشار عليه عمرو بن لوذان بالانصراف عن الكوفة إلى أن ينظر ما يكون عليه حال الناس .. قال « ع »: « ليس يُخفى على الرأي ولكن لا يغلب على أمر اللّه وإنهم لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي [(٢)] ».

وفي مكة حينما أراد السفر منها إلى العراق قال : « كأني بأوصالي هذه تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء فيملأُن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً ، لا محيص عن يوم خُطَّ بالقلم[(٣)] ».

فعبارة « **لا محيص عن يوم خُطَّ بالقلم** » فيها أبين دلالة على أن سيد الشهداء كان عالماً بأن مصيره قد خُطَّ بالقلم ، وأن لا مندوحة من الامتثال لمشيئة اللّه القادر دونما تساؤل عن هذا السر الإلهي ، فالأنبياء والشهداء والمصطفون لا يسألون « لماذا وكيف ؟ » بل هم يمضون في دربهم على هَدي الإيحاءات العلوية التي تنير لهم دربهم خطوة إثر أخرى .

وهذا السر العلوي هو الذي منع المجتبي الحسن بن أمير المؤمنين « ع » من السؤال حينما حلَّ الأجل تسليماً لقضاء القوة الإلهية ، ودفعه لأن يمدَّ يده بلا ارتعاش إلى جعده بنت الأشعث ليتناول منها اللبن المسموم ويرفع رأسه إلى السماء قائلاً : « إنَّا للّه وإنَّا إليه راجعون الحمدللّه على لقاء محمد سيد المرسلين وأبي سيد الوصيين

---

(١) كامل الزيارات ص٧٥

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٢٦ ، وإرشاد المفيد ، ونفس المهموم للمحدث القمي ص ٩٨

(٣) اللهوف ص ٣٣ ، وابن نما ص ٢٠

وأمي سيدة نساء العالمين وعمي جعفر الطيار في الجنة وحمزة سيد الشهداء » ، ثم يشرب اللبن المسموم وهو يدعي على جعدة بالخزي[1] .

وهذا السر العلوي هو الذي أوحى للرضا بأن منيته تكون على يد المأمون ولا بد من الصبر حتى يبلغ الكتاب أجله ، وقال أبو جعفر الجواد لإسماعيل بن مهران لما رآه قلقاً من إشخاص المأمون له : « إنه لم يكن صاحبي وسأعود من هذه السفرة » ولما أشخصه المرة الثانية قال له : « في هذه الدفعة يجري القضاء المحتوم[2] » وأمره بالرجوع إلى ابنه الهادي فإنه إمام الأمة بعده ، ولما حل قضاء اللّه ودفعت إليه أم الفضل المنديل المسموم .. لم يمتنع عن استعماله تسليماً لطاعة المولى .

وفي هذا الرضوخ للقوة العلوية تفسير في الآية الكريمة ..« وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً » .

وهذا ما يفسر أيضاً المعاناة التي ذاقها الأنبياء ، خاصة النبي محمد « ص » وآل بيته الأطهار ، وقد قال : « ما أوذي نبي بمثل ما أوذيت » وأوصاه اللّه بالصبر حيث قالت عزته : « **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل** ».

لكن ما صبر عليه الحسين وصحبه كان أشد من كل المعاناة التي حاقت بالأنبياء والرسل وأعظم هولاً وآلاماً ، وقد صبر الشهيد وطالب أهله وصحبه بالصبر ابتغاء لمرضاة اللّه : « صبراً بني الكرام فما الموت إلا قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضراء إلى الجنان الواسعة والنعيم الدائم ، فأيكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر وما هو لأعدائكم إلا كمن ينتقل من قصر إلى سجن وعذاب ؟ إن أبي حدثني عن رسول اللّه « ص » أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ، والموت جسر هؤلاء إلى جناتهم ، وجسر هؤلاء إلى جهنم ، ما كَذبتُ ولا كُذِّبت» .

وهو يودع عياله قال لهم :

---

(١) البحار ج ١٠ ص ١٣٣ عن عيون المعجزات ، والإرشاد للمفيد ، والخرايج

(٢) الإرشاد وأعلام الورى ص ٢٠٥

« استعدوا للبلاء ، واعلموا أن اللّه حاميكم وحافظكم ، وسينجيكم من شر الأعداء ، ويجعل عاقبة أمركم إلى خير ، ويعذب عدوكم بأنواع العذاب ، ويعوضكم عن هذه البلية بأنواع النعم والكرامة ، فلا تشكوا ولا تقولوا بألسنتكم ما ينقص من قدركم[1] » .

وهذا الصبر النادر العجيب الذي تحلّى به الأنبياء والشهداء فمنعهم حتى عن التساؤل عن سبب ما يبتلون به .. هوالذي يعجز تفكيرنا البشري عن إدراك ماهيته ، إلا أننا من وجهة قدرتنا المحدودة لا نملك إلا أن نفهم الحكمة الإلهية التي سنَّت لهؤلاء الأخيار سُنن الشهادة ، فكأنهم فرحون بها وفرحهم يمنعهم حتى عن التساؤل ما داموا قد أعطوا مَلَكة تبصُّر نتائج صبرهم واستشهادهم وما هيأه اللّه سبحانه وتعالى لهم من نعم وجنان.

ويحث عيسى « ع » تلاميذه الذين سيحملون رسالة المسيحية من بعده على الصبر قائلاً عندما دنت ساعته :

« الآن تؤمنون ، ها هي الساعة آتية ، وإنها قد أتت ، تتفرقون فيها فيذهب كل واحد في سبيله ، وتتركوني وحدي ، كلا لست وحدي ، إن الرب معي ، قلت لكم هذه الأشياء ، ليكون لكم بي السلام ، ستعانون الشدة في العالم ، فاصبروا لها لقد غلبت العالم [2]».

والرؤيا التي استشفها الحسين « ع » في خضم الشدائد التي حلّت به وبآل بيته وصحبه فبشرهم بتعويض بليتهم بنعم وكرامة.. هي ذات الرؤيا التي بشَّر بها المسيح رسله بقوله : « ستبكون وتنتحبون ، ستحزنون ولكن حزنكم سيتبدل فرحاً [3] » .

فما الذي يمكن لنا كباحثين ومطلعين أن ندركه من هذه الأمثولات الإلهية التي لا

---

(١) جلاء العيون للمجلسي

(٢) يوحنا ١٦/ ٣٢ ـ ٣٣

(٣) يوحنا ١٦/ ٢٠

مجال لنا إلى إدراكها أو الغوص في حكمتها المقدسة وما الرأي لدى أولئك المشككين بواقعية ووعي ثورة الحسين بكل ما سبق ذكره من أن البررة كتبت لهم حياتهم ومصائرهم في « الصحيفة الإلهية » التي يقف عليها الأنبياء فتتكشف أمامهم حُجُب الغيب وتُهتك لوعيهم سُتُر المستقبل؟

ألا يصح بموقف الذين تناولوا ثورة الحسين بمقياس الربح والخسارة والثورات العسكرية والنتائج المادية والزمانية والمكانية في حينها..ألا يصح فيهم وبسوْءة نواياهم قول الإمام أبي جعفر الباقر « ع » :

« إني لأعجب من قوم يتولونا ويجعلونا أئمة ويصفون أن طاعتنا مفترضة كطاعة رسول اللّه « ص » ، ثم يكسرون حجتهم ويخصون أنفسهم لضعف قلوبهم فينتقصونا حقنا ويعيبون ذلك على من أعطاه اللّه برهان حق معرفتنا والتسليم لأمرنا أترون اللّه تعالى افترض طاعة أوليائه على عباده ثم يخفي عليهم أخبار السماء ويقطع عنهم مواد العلم فيما يرد عليهم مما فيه من قوام دينهم؟ [1]».

***

(١) الكافي على هامش مرآة العقول ج١ ص١٩٠ باب « إنهم يعلمون ما كان » وبصائر الدرجات للصغار ص٣٣ ، والخرايج للراوندي ص١٤٣ ط الهند .

الحسين يستوحي مقتله

قبل خروجه من مكة وقف يخطب بما أوحي له في قصة استشهاده ، حتى لكأنه يقرأ مخطوطاً أمام ناظريه ، قال « ع » :

« الحمد للّه وما شاء اللّه ولا قوة إلا باللّه وصلى اللّه على رسوله خُطَّ الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة ، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف ، وخير لي مصرعٌ أنا لاقيه ، كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلاة بين النواويس وكربلاء فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً ، لا محيص عن يوم خُط بالقلم ، رضا اللّه رضانا أهل البيت ، نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين ، لن تشذ عن رسول اللّه لحمته بل هي مجموعة له في حضيرة القدس ، تقرُّ بهم عينه وينجز بهم وعده ، ألا ومن كان فينا باذلاً مُهجته موطناً على لقاء اللّه نفسه .. فليرحل معنا ، فإني راحل مصبحاً إن شاء اللّه تعالى[1] » .

وحاول جماعة من أهل بيته وصحبه صرفه عن السفر والتريث خوفاً من غدر أهل الكوفة ، لكنه « ع » كان يصارح الجميع بما كُتب له وبما يوحى إليه ، وكان شوقه للقاء أسلافه ينعكس نوراً سنياً فوق صفحة وجهه ، فكان يخيل للناظر إلى شيبته المقدسة .. بأنه لم يعد متواجداً على هذه الأرض إلا بجسده فقط ، وأن تلهفه للشهادة طار بوجدانه وفكره إلى حيث يريه اللّه تعالى مكانه في النعيم بعد قليل من

---

(١) اللهوف ص٣٣ ، وابن نما ص٢٠

الوقت ، لذا فقد أجاب ابن الزبير :

« إن أبي حدثني أن بمكة كبشاً به تُستحل حرمتها ، فما أحب أن أكون ذلك الكبش ، ولئن أقتل خارجاً منها بشبر .. أحبُّ إليَّ من أن أقتل فيها ، وأيم اللّه لو كنت في ثقب هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا فيَّ حاجتهم ، واللّه ليعتدنَّ عليَّ كما اعتدت اليهود في السبت[1] » .

وكان الوحي ينزل فوق رأسه فينقله إلى مطارح مصرعه ، ولم يشأ عليه السلام أن يتحدث برؤاه لأحد حتى يلقى ربه ذا الجلال.

ولما أقام في الخزيمية يوماً وليلة ، أقبلت إليه أخته زينب « ع » وقالت : إني سمعت هاتفاً يقول :

ألا يا عين فاحتفلي بجهدي ... فمن يبكي على الشهداء بعدي

على قوم تسوقهم المنايا ... بمقدار إلى إنجاز وعدي

فقال: « يا أختاه كل الذي قُضي فهو كائن[2] » .

ومع عبارة : « كل الذي قُضي فهو كائن » يختتم الحسين « ع » سلسلة رؤاه في كل ما سيبلوه اللّه به فوق أرض كربلاء ، والعبارة رد كاف على أهل المظنة الذين نعتوا ثورته بـ« الغضبة العسكرية » التي كان ينقصها التخطيط العسكري السليم كي تبلغ النصر في ميزان النصر ، وكأن السر الإلهي أعمى قلوب هؤلاء فحجب عن بصائرهم فهمَ مغزى الثورة على حقيقتها..وبأن قوتها تكمن في ضعفها العسكري ، وبأن نصرها منبثق من انكسارها ، وبأن فلاحها مستمد من خذلانها ، وبأن عظمتها التي ما زادتها القرون إلا تأججاً ..كانت من لحمة العظمة الربانية التي رسمتها بهذا الشكل الذي قُضيت به ، كي تكون نتائجها بالشكل الذي آلت إليه .

---

(١) تاريخ مكة للأزرقي ج ٢ ص ١٥٠

(٢) وردت في مجلد ابن نما ص ٢٣

فيا ليت أولئك المتجرئين على رد حقائق ثورة فرخ النبي وريحانته وسيد شباب أهل الجنة وأبي الشهداء في عمر البشرية إلى غير منابعها ومصبها .. يا ليتهم يرعوون ويتوبون عن غيِّهم وضلالهم ، قبل أن تُنزل بهم العناية الإلهية غضبتها نتيجة ما أوَّلوا حكمتها التي لا يرقى إليها عقل بشري ، إلى تأويلات شتى ، سداها الضعف البشري ولحُمتها الكفر بالمسلَّمات والبدهيات العلوية .

***

معجزات الشهادة

المعجزات التي تعقب الشهادات العظيمة ، ما هي إلا غضبة الخالق من عقوق خلقه الذي انتهى إلى قتل شهيده ، وسبحانه يُجري هذه المعجزات بشكل صاعق له ردة الصدمة الكهربائية العنيفة بهدف إيقاظ الضمائر لتنظر فيما جرى بقتلها هذا الشهيد الذي لم يُؤتَ على حياته بأية معجزات تنجيه من مصيره المحتوم ، فكانت المعجزات بعد مماته توكيداً على مكانته المقدسة ، وبأن ما قاله وبشَّر به هو صوت الحق الإلهي الذي يتوجب على الجميع إعادة سماعه إذا فاتهم ذلك والشهيد بينهم حي بطبيعة بشرية لم تكن كافية لمن قست قلوبهم وغلظت ضمائرهم كي تقنعهم بقوة العدل الذي جاء يبشر به ، فالأنبياء والشهداء كانوا شركاء بقواسم عديدة أفاضت على عقول الناس فيضاً من تشابه الرسالات السماوية في جوهرها الأصلي وإن اختلفت باختلاف أساليبها ، التي لو شاء المولى عز وجل لجعلها واحدة ، لكن قوة إقناعها تكمن في اختلافها ، وما دامت حياة الأبرار المختارين من اللّه تتشابه في ابتلائهم بشتى الرزايا ، وبصبرهم الواحد حيالها ، وبنهاياتهم الأليمة التي لولاها لما كان ثمة أديان حفظت لنا حتى الآن .. فإن الصدمات الإلهية التي تعقب استشهادهم ، هي من التشابه والقوة بحيث لا تدع مجالاً للشك بأنها الانطباعات الفورية والقوية على مكانة الشهيد وعظَم رسالته.

وإذا كنا في صدد الحديث عن أوجه الشبه بين شهيدي المسيحية والإسلام عيسى والحسين « ع » .. فإنَّا لواجدون هذا الشبه جلياً في نوعية المعجزات التي أعقبت

شهادتيهما بما تتلاءم مع قسوة ميتتيهما ، وإذا كنا راغبين في حصر هذا التشابه بين الشهيدين العظيمين .. فذلك انسجاماً مع بحثنا لمدى فهم الفكر المسيحي خاصة والإنساني عامة لملحمة استشهاد الحسين ، بإبراز كل نقاط التشابه التي تدنيها من ملحمة فداء عيسى .

حينما استشهد الحسين « ع » أظلمت[1] الدنيا ثلاثة أيام واسودت سواداً عظيماً حتى ظن الناس أن القيامة قامت ، وبدت الكواكب نصف النهار ولم يُرَ نور الشمس ثلاثة أيام كاملة ، حيث كان سيد شباب أهل الجنة عارياً على وجه الصعيد .

وحينما استشهد عيسى « ع » انتشر ظلام[2] شديد على الأرض كلها منذ الساعة السادسة إلى التاسعة ، حيث لفظ المسيح روحه وصرخ صرخة قوية ، وإذا ستار الهيكل قد انشق شطرين من الأعلى إلى الأسفل ، وزلزلت الأرض ، وتصدعت الصخور ، وتفتحت القبور ..

هاتان المعجزتان الخارقتان تدلان على قدسية الشهيدين ، وعلى عظم غضبة الخالق الذي أظلم الدنيا ثلاثة أيام طيلة بقاء سيد الشهداء عارياً في فلاة كربلاء ، وأظلمها ثلاث ساعات طيلة بقاء شهيد المحبة عارياً في الجلجلة ، كي لا تكشف عُريهما المقدس عين ، ومن أجل إشراك الظواهر الطبيعية التي هي إحدى العلل في مجرى الكون ، والذي أوقف هذا المجرى شهادتا عيسى والحسين غضباً على مقتلهما

---

(١) تاريخ ابن عساكر ج٤ ص ٣٣٩ ، والخصائص الكبرى ج٢ ص ١٢٦ ، والصواعق المحرقة ص ١١٦ ، والخطط المقريزية ج٢ ص ٢٨٩ ، وتذكرة الخواص ص١٥٥ ، والمقتل للخوارزمي ج٢ ص٩٠ ، وابن لهيعة عن أبي قبيل المعافري إذ قال : إن الشمس كُسفت حتى بدت النجوم وقت الظهر ، وإن الأرض أظلمت .

(٢) استنكر بعض المؤرخين حدوث مثل هذه الظواهر ، ووصفها ابن تيمية في كتابه « رأس الحسين » ط القاهرة ص ١٣٠ ، بالغلو في الإيراد ، وفي المسيحية تقدير لهذه الظواهر كجزء من علل الكون المسيَّر بعناية إلهية ، فقد ورد في أعمال الرسل ٢/ ١٩ ـ ٢٠ قول عزته : « وأجعل علواً أعاجيب في السماء ، وسفلاً آيات في الأرض ، فتتبدل الشمس بنورها ظلاماً والقمر دماً » .

وإظهاراً لغضبة الخالق على خلقه الذين اضطهدوا وقتلوا الشهيدين العظيمين.

وعن زرارة عن أبي عبداللّه « ع » أن السماء بكت على الحسين أربعين صباحاً بالاحمرار ، والأرض بكت أربعين صباحاً بالسواد ، والشمس بكت عليه أربعين صباحاً بالكسوف والحمرة[1] .

وبعد ثلاثة أيام من دفن عيسى حدث زلزال شديد وهبط ملاك الرب نازلاً من السماء ودحرج حجر القبر الضخم وقعد عليه ، وكان هذا إيذاناً بقيامة المسيح من بين الأموات صاعداً إلى السماء كما جاء في الآية التي نزلت يوم مولده[2] .

وفي ذات الليلة رأت أم سلمة رسول اللّه « ص » في المنام أشعث مغبراً وعلى رأسه التراب فقالت له : « يا رسول اللّه مالي أراك أشعث مغبراً ؟ » ، قال : « قُتل ولدي الحسين وما زلت أحفر القبور له ولأصحابه[3] » ، فانتبهت فزعة ونظرت إلى القارورة التي فيها تراب أرض كربلاء .. فإذا به يفور دماً ، وهو التراب الذي دفعه النبي « ص » إليها وأمرها أن تحتفظ به[4] ، وقد سمعت ليلتها صوتاً هاتفاً في جوف الليل ينعى الحسين « ع » فيقول :

أيها القاتلون جهلاً حسيناً ابشروا بالعذاب والتنكيل

قد لعنتم على لسان ابن داود وموسى صاحب الإنجيل

كل أهل السماء يدعو عليكم من نبي ومرسل وقتيل

---

(١) وردت في عدة مصادر مختلفة سأذكرها بدون ترقيم وهي : الخصائص الكبرى ، تاريخ ابن عساكر ، تذكرة الخواص ، الإتحاف بحب الأشراف ، المناقب لابن شهراشوب ، النجوم الزاهرة ، كنز العمال الصواعق المحرقة .

(٢) متى : ٢/٢٧ ـ ٣

(٣) راجع آمالى ابن الشيخ الطوسي ص ٥٦ ، وتهذيب التهذيب ج٢ص ٣٥٦ ، وذخائر العقبي للمحب الطبري ص ١٤٨ ، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص١٣٩ ، وسيرة أعلام النبلاء للذهبي ج٣ص ٢١٣

(٤) راجع مرآة الجنان لليافعي ج١ص١٣٤ وكامل ابن الأثير ج٤ ص ٣٨ ومقتل الخوارزمي ج٢ص٩٥

وفي يوم عاشوراء رأى ابن العباس رسول اللّه « ص» أشعث مغبراً وبيده قارورة فيها دم ، فقال له: « بأبي أنت وأمي ما هذا ؟ » قال : « هذا دم الحسين وأصحابه لم أزل ألتقطه منذ اليوم [1] ».

ويحدث دعبل الخزاعي عن جده ، أن أمَّه سعدى بنت مالك الخزاعية أدركت الشجرة التي كانت عند أم معبد الخزاعية وهي يابسة ، وببركات وضوء النبي « ص » في أسفلها .. أورقت وأثمرت كثيراً ، ولما قُبض النبي « ص » قلَّ ثمرها ، ولما قُتل أمير المؤمنين « ع » تساقط ثمرها ، وكانوا يتداوون بورقها ، وبعد برهة نظروا إليها وإذا بساقها ينبع دماً ، فأفزعهم هذا الحادث ، ولما أظلم الليل سمعوا بكاءً وعويلاً ولم يروا أحداً وقائل يقول :

يا ابن الشهيد ويا شهيداً عمه ... خير العمومة جعفر الطيار
عجباً لمصقول أصاب حده ... وفي الوجه منك وقد علاك غبار

وقد أخذ البيت الثاني أحد شعراء الشيعة ونظمه في ثلاثة أبيات يقول فيها :

عجباً لمصقول علاك فرنده ... يوم الهياج وقد علاك غبار
ولأسهم نفذتك دون حرائر ... يدعون جدك والدموع غزار
هلا تكسرت السهام وعاقها ... عن جسمك الإجلال والإكبار [2]

وإذا كانت الطبيعة والوحوش والأشياء قد انفلتت من إسارها وانفعلت حزناً على الحسين .. فإن رسول اللّه الكريم الذي قال : « حسين مني وأنا من حسين » حضر المعركة التي عُذب فيها بضعته وريحانته وشاهد ذلك الجمع الحاقد المتألب على استئصال أهله من جديد الأرض ، وبمرأى منه عويل الأيامى ونشيج الفاقدات

---

(١) تفرد به الإمام أحمد ص٢٤٢ وإسناده قوي ، وذكر في تاريخ بغداد للخطيب ج١ ص١٤٢ ، وفي طرح التثريب ص ٢٢

(٢) مناقب ابن شهراشوب ج٢ ص٣٨٠

وصراخ الصبية من الظمـأ ، وقد سمـع العسكر صوتاً هائلاً : « ويلكم يا أهل الكوفة إني أرى رسول اللّه ينظر إلى جمعكم مرة وإلى السماء أخرى وهو قابض على لحيته المقدسة » ، لكن الهوى والضلال المستحكم في نفوس ذلك الجمع المغمور بالأطماع ، أوحى إليهم : « أنه صوت مجنون » ، فصاح الجمع : «لا يهولنكم ذلك» وكان أبو عبداللّه الصادق «ع» يقول : « لا أراه إلا جبرائيل [1] » .

ولما حُمل الرأس الشريف إلى دمشق ونُصب في موضع الصيارفة وهناك لغط المارة وضوضاء المتعاملين وأراد سيد الشهداء توجيه النفوس نحوه ليسمعوا عظاته .. تنحنح الرأس تنحنحاً عالياً فاتجهت إليه الناس واعترتهم الدهشة حيث لم يسمعوا رأساً مقطوعاً يتنحنح قبل يوم الحسين « ع » ، فعندها قرأ سورة الكهف إلى قوله تعالى: « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » .

وصُلب على شجرة فاجتمع الناس حولها ينظرون إلى النور الساطع فأخذ يقرأ : «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون [2] ».

وقال هلال بن معاوية : « رأيت رجلاً يحمل رأس الحسين « ع » والرأس يخاطبه فرقتُ بين رأسي وبدني ، فرفع السوط وأخذ يضرب الرأس حتى سكت [3] » .

ويحدث ابن وكيدة أنه سمع الرأس يقرأ سورة الكهف ، فشك في أنه صوته أو غيره فترك « ع » القراءة والتفت إليه يخاطبه : « يا ابن وكيدة أما علمت أنّا معشر الأئمة أحياء عند ربهم يرزقون ؟ » ، فعزم أن يسرق الرأس و يدفنه ، وإذا الخطاب من الرأس الشريف : « يا بن وكيدة ليس إلى ذلك من سبيل ، إن سفكهم دمي أعظم عند اللّه من تسييري على الرمح ، فذرهم فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يُسحبون » .

---

(١) كامل الزيارات

(٢) ابن شهراشوب ج٢ص١٨٨

(٣) شرح قصيدة أبي فراس ص ١٤٨

وقال المنهال بن عمرو :« رأيت رأس الحسين بدمشق على رمح وأمامه رجل يقرأ سورة الكهف ، حتى إذا بلغ إلى قوله تعالى : « أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ».. نطق الرأس بلسان فصيح : « أعجب من أصحاب الكهف قتلي وحملي [1] » .

ولما أمر يزيد بقتل رسول ملك الروم حيث أنكر عليه فعلته ..نطق الرأس الشريف بصوت رفيع : « لا حول ولا قوة إلا باللّه[2] ».

وحدَّث ابن لهيعة أنه رأى رجلاً متعلقاً بأستار الكعبة يستغيث بربه ثم يقول : « ولا أراك فاعلاً » ، فأخذته ناحية وقلت : « إنك لمجنون فإن اللّه غفور رحيم ولو كانت ذنوبك عدد القطر لغفرها لك » .

قال لي : « إعلم كنت ممن ساروا برأس الحسين إلى الشام ، فإذا أمسينا وضعنا الرأس وشربنا حوله ، وفي ليلة كنت أحرسه وأصحابي رقود ، رأيت برقاً وخلقاً أطافوا بالرأس ، ففزعت ودهشت ولزمت السكوت ، فسمعت بكاءً وعويلاً وقائلاً يقول : « يا محمد إن اللّه أمرني أن أطيعك فلو أمرتني أن أزلزل بهؤلاء الأرض كما فعلت بقوم لوط » ، فقال له : « يا جبرائيل إن لي موقفاً معهم يوم القيامة بين يدي ربي سبحانه[3] ».

فصحتُ : يا رسول اللّه .. الأمان ، فقال لي : « إذهب فلا غفر اللّه لك ، فهل ترى اللّه يغفر لي [4] ؟ » .

---

(١) الخصائص للسيوطي ج٢ص١٢٧

(٢) مقتل العوالم ص١٥١

(٣) لنقرأ الدراسات الحديثة في علم الروحانيات والتلبائية والتخاطر والإيحاء ، والاختراق الذهني والروحي للبعد الزماني والمكاني ، واستشراف المستقبل ورجعة الضمير ومحاسبة الذات والحكم عليها ذاتياً ومعاقبتها بالانتحار أو جلد النفس على مدار الثواني والساعات ..

(٤) اللهوف ص ٩٨

وفي بعض المنازل وضعوا الرأس المطهَّر فلم يشعر القوم إلا وقد ظهر قلم حديد من الحائط وكتب بالدم [1] :

أترجـو أمـة قـتلت حسـيناً   شـفـاعـة جـده يوم الحسـاب؟

وقبل أن يصلوا الموضع بفرسخ .. وضعوا الرأس على صخرة هناك فسقطت منه قطرة دم ، فكانت تغلي كل سنة يوم عاشوراء فيجتمع الناس هناك ويقيمون المأتم حولها ، وبقي هذا إلى أيام عبد الملك بن مروان ، فأمر بنقل الحجر فلم يُر له أثر بعد ذلك [2].

وقد روى ابن قولويه في الكامل : أنهم كانوا يسمعون نوح الجن في الليالي التي قُتل فيها الحسين « ع » ، ومن شعرهم :

أبكي ابن فـاطمـة الـذي   من قـتله شـاب الشـعـر
ولـقـتلـه زلـزلتـمـو   ولقـتله انخـسف القـمـر

وذكر ابن نما عن أبي حباب الكلبي قال : « لما قُتل الحسين « ع » ناحت عليه الجن فكان الجصاصون يخرجون بالليل إلى الجبانة فيسمعون الجن يقولون » :

مـسح الحـسين جـبـينـه   فـلـه بـريـقٌ في الخـدود
وأبـوه مـن أعـلـى قـريش   وجـده خـيـر الجـدود

ويشير أبو العلاء المعري إلى مقتل الحسين وشهادة الدهر على إهدار دمه في قصيدة يقول مطلعها :

عـللانـي فـإن بيض الأمـانـي   فُنيت والظـلام لـيس بفـان

---

(١) مجمع الزوائد لابن حجر ج ٩ ص ١٩٩ ، والخصائص للسيوطي ج٢ص ١٢٧ ، وتاريخ ابن عساكر ج٤ص٣٤٢ ، وتاريخ القرماني ص ١٠٨ ، ومثير الأحزان ص ٥٣

(٢) نفس المهموم ص ٢٢٨ ، ونهر الذهب في تاريخ حلب ج٣ص٢٣ ، وكتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات ص ٦٦

وعلى الدهر من دماء الشهيدين علي و نجله شاهدان
فهما في أواخر الليل فجران وفي أولياته شفقان
ثبتا في قميصه ليجيء الحشر مستعدياً إلى الرحمن

ومما هو معروف أن المسيح « ع » كانت له سلطة على الجن والأرواح وجند الملائكة ، فقد كانت تأتمر بأمره فتنقله بلمحة طرف إلى أي مكان ، ويأمرها فتنفذ له ما أمرها به ، وعندما تبكي الجن على مقتل الحسين .. فإن هذه الحكمة الأعجوبة لمعجزة خارقة أُتيَ بمثلها لعيسى « ع » .

وإذا كنا قد خلصنا إلى أوجه الشبه بين عيسى والحسين « ع » وبين شهادتيهما والمعجزات الكونية الخارقة التي تلتهما مباشرة .. فإناً سنعرج على أوجه الاختلاف القليل بين الشهيدين العظيمين .

***

حكمة اختلاف الشهادتين

جاء عيسى « ع » إلى اليهودية مبشراً بالعهد الجديد بعد أن فسدت الضمائر وحُرِّفت السُّنة وسُنت الشريعة وقامت دولة الأحبار والشيوخ والفريسيين والصدوقيين ، وقد أيده اللّه سبحانه وتعالى بمعجزات لم يؤيد بمثلها نبياً قبله أو بعده ، وقد لخص « ع » بعثه إلى أمة لعبت بوصاياها وحَرَّفت شرائعها حسب أهوائها واضطهدت كل الرسل الذين جاؤوا لهدايتها ، فقال : « بمن أشبِّه هذا الجيل ومن يشبهون ؟ يشبهون أولاداً قاعدين في الساحة يصيح بعضهم ببعض : زمَّرنا لكم فلم ترقصوا ، ندبنا لكم فلم تبكوا » ، جاء يوحنا المعمدان لا يأكل خبزاً ولا يشرب خمراً فقلتم : « إن به مساً من الشيطان .. وجاء ابن الإنسان المسيح يأكل ويشرب .. فقلتم هو ذا رجل أكول سكير صديق للعشارين والخاطئين ، بيد أن الحكمة قد برَّها جميع بنيها [1] ».

وعيسى « ع » اعتقله اليهود وعذبوه وأهانوه وبصقوا عليه وضفروا رأسه بإكليل شوك وجلدوه وتهكموا عليه وسخروه بحمل صليبه على طريق الجلجلة في فلسطين وأخيراً قتلوه وطعنوا جنبه بحربة قبل أن يلفظ أنفاسه ، وكانوا سيكسرون رجليه لكنهم وجدوه ميتاً فلم يفعلوا ، لتتم الآية : « لن يُكسر له عظم [2] ».

---

(١) لوقا :٧/ ٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٣ ـ ٣٤ ـ ٣٥

(٢) يوحنا :١٩ ـ ٣٦

والحسين « ع » جاء في زمن كانت الديانة التي بشَّر بها جدَّه الكريم ، وليدة تحبو بعد أن حققت فتوحات عظيمة ، وأخضعت بقوة تعاليمها وأخلاقياتها الإجتماعية العظيمة ، الشرق والغرب ، وعندما شب عن الطوق .. لمس ما يعتري أمة جده من انحلال وتكالب على الأطماع الدنيوية بما يناقض بعثها ، فكان عليه أن يتصدى لهذا الأمر الجلل ، فكانت مهمته أعمق غوراً ورسالته أكثر تعقيداً من رسالة عيسى « ع » لاسيما إذا نظرنا إلى نوعية الوسائل التي كانت بين يديه ، إذ كما سبق وذكرنا لم تكن له « ع » صفة نبوية ، بل كان عليه أن يلجأ إلى الوسائل البشرية التي تسيِّرها قوة إلهية ، وما ذلك إلا لكي تؤدي رسالته الهدف المنشود منها ، إذ لو جرت رسالته مجرى رسالة عيسى لما كان لها هذا الوقع المفجع ، ولو قُتل وحده كما قُتل عيسى وحده .. لما كانت واقعة قتله لتؤجج كل هذا التأنيب والشعور بالذنب والإحساس بالتقصير لدى المسلم.

وبرأيي أن ظرف أمة الإسلام في ذلك الزمن كان لا بد له من تضحية فائقة تقرب من التهلكة الجماعية ، ليتسنى لها الوقوف حيال تحلل الأمة التي كان يتأكلها من الداخل.

إذن فالظرفان مختلفان بين مجيء عيسى ومجيء الحسين « ع » ، وبين ما أعدته العناية الإلهية لكل منهما ، وما زودتهما به من اختلاف السبل والإمكانات ، سواء ما كان قبل الشهادة أو بعدها.

والحسين « ع » لم يسلم عظمه كما سلم عظم عيسى ، بل إن ما حاقه فوق ثرى كربلاء المقدس ، كان أعظم من احتمال البشر ، بل كان من نوع يقرِّب سيد الشهداء إلى قائمة الرسل والنبيين.

فأي رسول زُرع في جسده أكثر من مائة نبلة وأكثر من أربعين طعنة .. وأي نبي قتله العطش مثل ما فعل بالحسين « ع » ؟ وها هو أمير الشهداء وسيدهم يُرمى بسهم في جبهته ويُضرب بحجر فيها ويُطعن على قلبه بسهم ذي ثلاث شعب ويُرمى في حلقه ويُضرب على عاتقه ويُطعن في ترقوته وبصدره وبنحره وبجنبه ويُسلب وتُبتر

إصبعه من أجل خاتم وتُقطع يده اليمنى ثم اليسرى من أجل تكة سروال ويُحتز رأسه الشريف ويُوطأ بعشر من الخيل صدراً وظهراً ، ثم يُحمل رأسه على سن رمح إلى دمشق حيث يُوضع بمهانة أمام يزيد لينكت ثناياه بالقضيب ويُعلّق في سوق الصيارفة ويُشرب الخمر حوله ويُقال الكفر أمام كرامته ..

فهل يبقى للمقارن المتمعن في هذه الميتة الأليمة .. تردد في وضع شهادة الحسين في المقام الأول بين كل الشهادات التي ذكرها التاريخ ؟

وإذا كانت قيمة الشهادة تقاس بما يتحمله الشهيد من أذى .. فمما لا مراء فيه أن الشهادة التي تمت في صحراء كربلاء ذات قيمة عليا ، لا تبلغها أية قيمة أخرى لأية شهادة ، لا سابقة ولا لاحقة.

وهي شهادة أكبر في مقياس المعاناة من شهادة عيسى « ع » ولئن تعادلت معها في مقياس النتيجة .. فإن لها وقعاً أشد على القلوب ، وإذا تذكرتها العقول .. فإن لذكراها رنة حزن وأسى تحفر في الحنايا والصدور أخاديد عميقة وأثلاماً لا تندمل مهما تقادم عليها الزمن.

وإذا كان غدر العدو متوقعاً ولا يثير وقوعه أية دهشة .. فإن غدر القريب هو الغدر الأليم الوقع ، والحسين غدره أقرب الناس إليه ، وخذلته شيعته ، وحاصرته وقتلته ومثلت به جموع مسلمة محتسبة على الإسلام ، وقد حاربته باسم الدين الذي أُنزل على جده « ص» ، بينما قَتل عيسى ، اليهود أعداء المسيحية ، وعلى الرغم من قسوتهم وتسفيههم لرسول الإنسانية .. فإنهم في مقياس الدموية والوحشية يبدون حملاناً وديعة بالمقارنة مع الذين قضوا على الحسين وآل بيته وأصحابه الأطهار ، فالوحشية التي شهدتها كربلاء ليس لها شبيه حتى بين أشد الوحوش ضراوة وكلمة « وحشية » لا تفيها حقها من الدلالة عليها فقد فاقت الوحشية بمراحل وتقدمت على الدموية بخطوات وصار لزاماً أن يوجد لها تعبير يلائمها ، لكن العقل البشري الذي وضع لكل مظهر حدوداً قصوى في الفعل والتعبير عن هذا الفعل ، ولكل موقف أقصى ما يلائمه من كلمات تدلل عليه .. لم يستطع تخطي تعبيري الوحشية

والهمجية ، مع أن ما أظهرته الواقعة خلال أحداثها وماتلاها كان يتخطاهما بمراحل شاسعة .

ولعل خير شاهد على همجية ما جرى في كربلاء وبعدها .. هذه الحادثة الصغيرة في فعلها الكبيرة في مرماها ، والتي تدلل بشكل واضح على موت كل ضمير وإحساس بشري في نفس صاحبها ، وتفاقم كل أنواع الخسة والوحشية في وجدان فاعلها.

فها هو خولي بن يزيد الأصبحي يسرح برأس الحسين بأمر من ابن سعد ، وقد غدا به إلى قصر الإمارة حيث قابل ابن زياد ووضع الرأس بين يديه وهو يقول :

إملأ ركابي فضة أو ذهباً   إني قتلت السيد المحجبا
وخيرهم من يذكرون النسبا   قتلت خير الناس أماً وأبا[1]

هذا المسلم بالإسم الذي عافه الإسلام ، يفخر بكل الخسة التي يمكن أن يعمر بها قلب بشري .. بأنه قتل السيد المحجبا وقضى على خير الناس أماً وأباً ، ويفتح باب نفسه التي باعها للشيطان ينتظر الفضة والذهب.

لكن ابن زياد الذي لا يقل عنه خسَّة وضعة .. يستاء من وصفه هذا أمام الجميع فيسأله : « إذا علمت أنه كذلك فلمَ قتلته ؟ واللّه لا نلت مني شيئاً ».

وفي إجابته هذه لا يأخذنَّ بك الظن أيها القارىء أن ابن زياد قد تحرك ضميره للحظات فنطق لسانه بما نطق..لا ، بل هو اغتاظ من وصف خولي أمام الجميع بأنه قتل خير الناس أماً وأباً ، في وقت كان ينتظر منه أن يصف ويطنب ويلفق ويسب

---

(١) اختلف المؤرخون بقائل هذه الأبيات ، فعند ابن جرير الطبري ص٢٦١ ، وابن الأثير ص٣٣ إنه سنان بن أنس ، أنشدها على عمر بن سعد ، وفي شرح المقامات للشربشي ، وفي كشف الغمة للأربلي ، ومقتل الخوارزمي ص٤٠ أن بشر بن مالك أنشدها على ابن زياد ، وفي رياض المصائب ص ٤٣٧ أن الشمر قائلها وفي العقد الفريد ص ٢١٣ سمّاه خولي بن يزيد الأصبحي وقد قتله ابن زياد لقوله هذه الأبيات .

الحسين أمامه وأمام الجمع .. لذا فقد حجب عنه الجائزة التي كان ينتظرها.

وتتالت المعجزات الخارقة بعد شهادة الحسين « ع » ، ولعل معجزات الطبيعة هي أبسطها ، فالمعجزات الحقة كانت تلك التي قلبت أمة الإسلام رأساً على عقب بعد فترة من الزمن سنأتي على ذكرها في مكان آخر من الكتاب.

وكانت المعجزات التي أنزلها اللّه تعالى بعد استشهاد عيسى والحسين « ع » البدايات الأولى المادية لما سيلي بعدها من معجزات على مستوى الروح والعقيدة والصراط ، مما يدل دلالة واضحة على أن الأنبياء والشهداء إنما أوذوا وصبروا من أجل أن يكشف سبحانه وتعالى للبشر قضايا الحق الأولى ، وأن يبرزها لبصائرهم ويعلنها لهم على اختلاف أديانهم ، على أنها قضايا واحدة لا تنفصم ، وهي لا تتغير لأن ناموس الطبيعة البشرية لا يتغير ولأن السر الإلهي كل لا يتجزأ .

وعندما ينيخ الضعف على النفوس فتغدو العقيدة ضعفاً لا يتصل بقوة بعد أن كانت قوة لا تتصل بضعف .. فإن المصلحين الشهداء ينبتون من بين المجتمع المتفكك كما تنبت الشجره الخيرة من بين العليق ، فيشدون على عوامل الضعف وينشطون العقيدة بنفحة من روح تضحياتهم التي تختتم دوماً بالجود في نفوسهم بعد أن يكونوا قدموا لوحاً جديداً لدستور أخلاقي تتفتح عليه البصائر المعمية فجأة بعد استشهادهم ، فتبدأ كيمياء هذا الدستور تفعل فعلها في النفوس والضمائر حيث مكامن العقيدة ، فتصلح العقائد ، وتسمو القلوب ، وتُدعم الشهادة التي أطلقت هذا الدستور بشهادات تليها وتشبهها قوة وعنفواناً ، وإذا بانتفاضة الإيمان الجديدة تتأجج كلهب البراكين التي سُدت عليها المنافذ قروناً فتفجرت بغتة بفعل زلزال مخلخل .

ولم تكن ثورة فرخ النبي « ع » إلا هذا الزلزال الذي خلخل كيان الأمة الإسلامية فصدع مداميك انحرافها وردم فجوات إيمانها ، فبدت ناصعة متماسكة مغسولة بزوفى الشهادة ، معمدة بدم الطهر الذي جعلها بيضاء كالسوسن ونقية كالزنبق وشفافة كوردة في صباح مشرق .

معجزات الشهادة في ضمير الإسلام

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلّوا واستهلّوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشل
قد قتلنا القرم من ساداتهم وعدلناه ببدر فاعتدل
لعبت هاشم بالملك فلا خبرٌ جاء ولا وحي نزل [1]

هذه قولة يزيد أمام ركب السبي في دمشق وأمام رأس الحسين الطاهر ، وهي قولة تدل على سدرته في كبريائه وغروره الذي عرف به ، وكان يتمنى لو أن أشياخه الذين قضوا ببدر شهدوا انتصاره هذا ، ويتنبأ بأنهم سيهلُّون ويستهلون فرحاً ويباركون يمينه ويدعون لها بألا تُشل على تعديل ميزان بدر بكربلاء.

وكانت قولة فيها من غفلة المتغافل الشيء الكثير ، يقابلها في الوعي المستشف

---

(١) الأبيات لابن الزبعري ، وقد ذكر بعض المؤرخين القدامى كالخوارزمي وابن أبي الحديد في شرح النهج ص ٣٨٣ وابن هشام في واقعة أحد ، أن عدد الأبيات ستة عشر بيتاً وليس فيها ما ذكره ابن طاووس إلا الأول والثالث ، وكان عجز الثالث في روايتهم « وعدلنا ميل بدر فاعتدل » ، وفي روايات أبي علي القالي في الأمالي ص١٤٢ والبكري في شرحه ص٣٨٧ : « وأقمنا ميل بدر فاعتدل » ، أما البيت الأخير :

لست من خندف إن لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعل

فلم يرد على لسان يزيد ، وورد في روايات أخرى .

للغد ، خطبة العقيلة زينب المستلهَمة عن لسان أبيها أمير المؤمنين «ع »:

« الحمد للّه رب العالمين وصلى اللّه على رسوله وآله أجمعين صدق اللّه سبحانه حيث يقول : ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوء أن كذبوا بآيات اللّه وكانوا بها يستهزئون..أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض و آفاق السماء فأصبحنا نُساق كما تُساق الأسارى ، أن بنا على اللّه هواناً وبك عليه كرامة..وأن ذلك لعظم خطرك عنده ، فشمخت بأنفك ونظرت في عطفك جذلان مسروراً حين رأيت الدنيا لك مُستوسقة والأمور متسقة وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا .. فمهلاً مهلاً ، أنسيت قول اللّه تعالى : « ولا يحسبنَّ الذين كفروا إنما نملي لهم خيراً لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين [1] ؟» .

وكأن زينب في ردها المفحم على يزيد كانت تصور له مستقبل الأيام وما يخبئه الغد لبني أمية من مآل ونهايات ، وتعرض أمام الحضور الجانب الواعي المستشرف لموقف يزيد المتغافل المتعامي عن رؤية الحقائق كما ستكون في القريب العاجل.

ولم تطل فرحة يزيد .. إذ لم تنقض سوى ساعات معدودة على ذيوع الخبر في بيته قبل أن ينتشر في عاصمة مُلكه وباقي الأنحاء الإسلامية..حتى كانت نساؤه تنُحن مشفقات من هول ما بلغهن ، وابن الحكم ينعي فعلة ابن زياد ويقول : «حُجبتم عن محمد يوم القيامة ، لن أجامعكم على أمر أبداً » ، وابنه معاوية يبكي بحرقة وألم وإذا سُئل عن بكائه كان يجيب بندم ظاهر : « نبكي على بني أمية لا على الماضين من بني هاشم ».

وكانت أول صرخة لوم وتأنيب بعد الشهادة تلك التي أطلقتها زينب « ع » في الكوفة ، فاهتزت لها الضمائر واستيقظت ، وما قالته ابنة علي للجموع الملتفة حول ركب السبي له وقع الفجيعة ولائمة التقصير:

« الحمدللّه والصلاة على أبي محمد وآله الطيبين الأخيار ، أما بعد يا أهل الكوفة

---

(١) جاء ذكر هذه الخطبة في بلاغات النساء ص٢١ ومقتل الخوارزمي ج٢ص٦٤

يا أهل الختل والغدر ، أتبكون فلا رقأت الدمعة ، ولا هدأت الرنة ، وإنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، تتخذون إيمانكم دخلاً بينكم ، ألا وهل فيكم إلا الصَّلَفُ النَّطف ، والعُجْبُ والكذب والشنف وملق الأماء وغمز الأعداء أو كمرعى على دمنة أو كقصة على ملحودة ، ألا بئس ما قدمت لكم أنفسكم إن سخط اللّه عليكم وفي العذاب أنتم خالدون » .

وما إن سمع الجمع هذا القول حتى أخذتهم العَبرة ونشجوا في بكاء شديد وقد لمس كلام العقيلة زينب شغاف ضمائرهم ، بينما أردفت عليها السلام مكملة وسط هنهناتهم ولومهم لأنفسهم فقالت :

« أتبكون وتنتحبون ؟ أي واللّه فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً ، فلقد ذهبتم بعارها وشنارها ، ولن ترحضوها بغسل بعدها أبداً ، وأنَّى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ومعدن الرسالة ومدرة حجتكم ومنا محجتكم وملا خيرتكم ومفزع نازلتكم وسيد شباب أهل الجنة ؟ ألا ساء ما تزرون ، فتعساً ونكساً وبعداً لكم وسحقاً ، فلقد خاب السعي وتبَّت الأيدي وخسرت الصفقة وبُؤتم بغضبٍ من اللّه ورسوله وضُربت عليكم الذلّة والمسكنة .

ويلكم يا أهل الكوفة ، أتدرون أي كبد لرسول اللّه فريتم ؟ وأي كريمة له أبرزتم وأي دم له سفكتم وأي حرمة له انتهكتم ؟ لقد جئتم شيئاً إدًّا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا .

ولقد أتيتم بها خرقاء شوهاء كطلاع الأرض وملء السماء ، أفعجبتم إن مطرت السماء دماً ؟ ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ، فلا يستخفنكم المهل فإنه لا يحفزه البدار ولا يخاف فوت الثأر ، وإن ربكم لبالمرصاد[١] » .

وكان لخطاب العقيلة المؤنب رد فعل عنيف بين الحشد المعمى بصيرته بالخداع والمطامع فحركت مكامن الخير في ضميره فما حار جواباً ، وأمام هذه البلاغة والتي

---

(١) ورد ذكر الخطبة في أمالي الشيخ الطوسي ، واللهوف ، وابن نما ، وابن شهراشوب ، واحتجاج الطبرسي .

تتالت لتوقظ الضمائر في مواقف شتى.. تتبدى حكمة اللّه تعالى الذي أوحى للشهيد الحسين « ع » بإشراك نساء آل البيت في ثورته ، إذ ما إن توجهن إلى دمشق حتى بدأن حربهن النفسية بالكلمة البليغة والبيان المؤثر ، مكملات وثبة أسد كربلاء ومواصلات إيصال صرخته في فلاتها : « أما من مغيث يغيثنا أما من ناصر يعيننا » ، لتتواصل بعدها بلا توان استجابات الضمائر النائمة كما استجاب ضميرا الأنصاريْن سعد بن الحارث وأخيه أبي الحتوف لصرخة الحسين ، فاستنصراه مستجيبيْن لها حتى قُتلا.

فإذا قيل في الإسلام : « بدؤه محمدي وبقاؤه حسيني »..فالأجدر أن يقال أيضاً : « ثورة الحسين بدؤها حسيني واستمرارها زينبي [1] » .

إذ ما كادت هذه الثورة المباركة تضع أوزارها عسكرياً بتساقط رؤوس آل البيت وسبي الحرائر والعقيلات والأطفال إلى دمشق ..حتى هبت عقيلة بني هاشم التي قيل فيها : العالمة غير المعلمة ، والفاضلة والكاملة ، وعابدة آل علي ، هبت إلى استلام راية الثورة الحمراء من يد أخيها الحسين « ع » ورفعتها فوق رؤوس الخلق بما علق عليها من دماء آل بيت النبي وهتفت من تحتها ترثي أخاها الذبيح في فلاة كربلاء الموحشة :

على الطَّف السلام وساكنيه ... وروح اللَّه في تلك القباب
نفوس قُدِّست في الأرض قدساً ... وقد خلقت من النطف العذاب
مضاجع فتية عبدوا فناموا ... هجوداً في الفدافد والروابي
علتهم في مضاجعهم كعاب ... بأردان منعمة رطاب
وصيَّرت القبور لهم قصوراً ... مناخاً ذات أفنية رحاب [2]

---

(١) هذا التعبير من وضعنا ، وقد قصدنا به التركيز بإيجاز على دور العقيلة زينب الذي لا يقل عن دور أخيها عليهما السلام .

(٢) بطل العلقمي ج٣ ص٣٣٥

وزينب الكبرى « ع » سليلة أشرف نسب في الإسلام ، فأمها فاطمة الزهراء بنت رسول اللّه « ص » وأبوها أمير المؤمنين علي عليه السلام ، وقد ولدتها أمها بعد ولادة أشرف شهيدين ، سيدا شباب أهل الجنة الحسنين «ع » ، فنشأت في بيت الوحي بعد أن رضعت القدسية من ثدي العصمة ، ونهلت العلم والحلم ومكارم الأخلاق وكل الخصال الحميدة التي اشتهرت عن آل البيت وهي لماتزل صغيرة .

وقد أثبتت حوادث ما بعد الشهادة ومواقفها خلال فترة السبي على رجاحة عقلها وقوة حجتها وحضور وحيها في أشد لحظات الخطر وأصعبها ، إذ قادت بنفسها مسيرة ما تبقى من الموكب ودافعت عنه دفاع اللبوة عن أشبالها ، فغدت مواقفها على كر الأيام وتعاقب القرون .. مثالاً يحتذى به وفخراً لثورة أخيها التي أكملتها بجهادها المستميت.

وقد ذُكر أنها « ع » كانت شديدة الحب لأخيها الحسين منذ نعومة أظفارها [1] ، وكأن السر الإلهي كان يعدهما لهدف واحد يتقاسمان أعباءه ، وهذا ما أكده تواتر الأيام ، إذ شاركته مسيرته وكانت إلى جانبه في معمعان محنته ، ولما سقط..خرجت من فسطاطها ووقفت عند جسده ثم رفعت رأسه وهتفت : « اللّهم تقبل منا هذا القربان» ، وقيل إنها كانت قد وطنت نفسها عند إحراق الخيم أن تقرّ في الخيمة مع النسوة إن كان اللّه شاء إحراقهن كما شاء قتل رجالهن ، وقد سألت زين العابدين عند اضطرام النار: « يا ابن أخي ما نصنع ؟ » مستفهمة منه مشيئة اللّه فيهن .

إنها الروح المؤمنة ذاتها التي رفعت هتافها فوق جسد الحسين الطاهر ، وتضرعت للّه أن يقبله كقربان .. صرخت في وجه يزيد المتجبر :

« أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك حرائرك وأماءك وسوقك بنات رسول اللّه سبايا قد هُتكت ستورهن ، وأبديت وجوههن وصحلت أصواتهن ، تحدو بهن الأعداء من بلد إلى بلد ، ويستشرفهن أهل المناهل والمناقل ، ويتصفح وجوههن

---

(١) الطبرسي : الكبريت الأحمر ج٣ ص١٣ عن الطراز المذهب

القريب والبعيد ، والشريف والدني ، ليس معهن من رجالهن ولي ولا من حماتهن حمي ، وكيف ترتجى مراقبة ابن من لفظ فوه أكباد الأذكياء ، ونبت لحمه من دماء الشهداء ، وكيف يستبطأ في بغضنا أهل البيت من نظر إلينا بالشنف والشنآن والإحن والأضغان ، ثم تقول غير متأثم ولا مستعظم داعياً بأشياخك ـ ليت أشياخي ببدر شهدوا ـ منحنياً على ثنايا أبي عبد اللّه سيد شباب أهل الجنة تنكتها بمخصرتك ، وكيف لا تقول ذلك وقد نكأت القرحة واستأصلت الشأفة بإراقتك دماء ذرية[1] محمد « ص » ونجوم الأرض من آل عبد المطلب .. أتهتف بأشياخك زعمت أنك تناديهم ؟ فلتردنَّ وشيكاً موردهم ، ولتودنَّ أنك شللت وبكمت ولم تكن قلت ما قلت وفعلت ما فعلت ، اللّهم خُذ لنا بحقنا وانتقم ممن ظلمنا وأحلل غضبك بمن سفك دماءنا وقتل حُماتنا .

فواللّه يا يزيد ما فريت إلا جلدك ولا حززت إلا لحمك ، ولتردنَّ على رسول اللّه بما تحملت من سفك دماء ذريته وانتهكت من حرمته في عترته ولحمته ، حيث يجمع اللّه شملهم ويلم شعثهم ويأخذ بحقهم « ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل اللّه أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » وحسبك باللّه حاكماً ، وبمحمد صلى اللّه عليه وآله خصيماً ، وبجبريل ظهيراً ، وسيعلم من سوّل لك ومكّنك من رقاب المسلمين بئس للظالمين بدلا ، وأيكم شر مكاناً وأضعف جنداً ، ولئن جرت عليَّ الدواهي مخاطبتك .. إني لأستصغر قدرك وأستعظم تقريعك وأستكثر توبيخك ، لكن العيون عبرى والصدور حرّى ، ألا فالعجب كل العجب لقتل حزب اللّه النجباء بحزب الشيطان الطلقاء ، وهذه الأيدي تنطف من دمائنا والأفواه تتحلّب من

---

(١) أوردت شخصية إسلامية غير شيعية أنها التقت بروزفلت الصغير ، ودار الحديث بينهما على الحرب وويلاتها ، وراح الرجل المسلم يشرح له آداب الحرب في الإسلام ، ويقارنها بوحشية الحروب بين الدول الغربية ، فقال له روزفلت : مهما بلغ المحاربون من الوحشية والاعتداء .. فلم يسمع عنا أننا قتلنا ابن نبي ننتسب إليه ، ولا جردنا بنات النبي وآله من ثيابهم وأخذناهم سبايا غير مكرمين .. قال : فوجمت ولم أتكلم ..

لحومنا ، وتلك الجثث الطواهر الزواكي تنتابها العواسل وتعفرها أمهات الفراعل ولئن اتخذتنا مغنماً .. لتجدننا وشيكاً مغرماً حين لا تجد إلا ما قدَّمت يداك وما ربك بظلاَّم للعبيد ، فإلى اللّه المشتكى وعليه المعول ، فكد كيدك واسْعَ سعيك وناصب جهدك فواللّه لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا ولا تدرك أمدنا ولا يرحض عنك عارها ، وهل رأيك إلا فَنَد وأيامك إلا عدد وجمعك إلا بَدَد .. يوم ينادي المنادي ألا لعنة اللّه على الظالمين ؟ فالحمد للّه رب العالمين ، الذي ختم لأولنا بالسعادة والمغفرة ولآخرنا بالشهادة والرحمة ، ونسأل اللّه أن يكمل لهم الثواب ويوجب لهم المزيد ويحسن علينا الخلافة ، إنه رحيم ودود وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

هذه البلاغة والفصاحة لا يأتي بمثلها إلا من تربى في بيت الطالبيين ، وهذه الشجاعة الفائقة لا يجسر عليها بشر حيال يزيد ، وقد جسرت عليها الحوراء فبلبلت مجلسه وأحدثت في أركانه هزة ، فلم يزد إلا أن قال :

يا صيحة[1] تحمد من صوائح ... ما أهون النوح على النوائح

ثم أمر بإخراج الحرم من المجلس إلى خربة ، حيث أقاموا فيها ثلاثة أيام يندبون وينوحون على الحسين « ع ».

وإنها لحكمة إلهية أيضاً أن يُسار بالسبي إلى الكوفة ودمشق بهذا الشكل المهين على أقتاب الجمال .. فيرى الناس في السبايا من الفجيعة أكثر مما رأوا أو سمعوا [2] في قتل الحسين ، وهذا ما هدف له الشهيد بخروجه بالنساء والأطفال والرضع ليكونوا شهوداً وألسنة تنطق بمظلمته .

---

(١) أثبتت السنوات التي اعقبت المجزرة والسبي أن صيحة العقيلة زينب ليست كما صوَّرها يزيد بختله وخداعه .. بل كانت صيحة مجلجلة في أودية الصدور تَردَّد صداها حتى تحول إلى زلزال وجداني .

(٢) لقد عمد يزيد إلى إيهام القوم بأن الذين قُتلوا في المعارك هم من الخوارج ، ولترسيخ هذا الخداع عقد مجلساً لتقبل التبريكات بهذا النصر العظيم الذي حققه للعقيدة .

وقد قامت العقيلة زينب بالدور الأكبر في ثورة أخيها الحسين بحملها لواء الحرب النفسية التي تممت حربه العسكرية وشكلت معها الوجه الآخر لهدف واحد .. ألا وهو إحقاق الحق ، وحماية السُّنة من الانتهاك ، والعقيدة من الانحراف ، والحكم من الفساد في كل زمان ومكان .

ولو لم تقم زينب « ع » بدورها الصعب الذي قامت به .. لما زادت الواقعة ونتائجها عن واقعة ونتائج أية معركة تدار فيها الأيدي والسيوف وتصهل فيها الخيل ، والرأي الأمثل في هذه الحكمة .. حكمة خروج الحسين بحرمه وما تلاه من استلام زينب لراية الكفاح .. إنما كان هو الهدف الذي سيتحقق بعده كل أهداف الثورة ، إذ لولا خروج زينب وحرائر وعقيلات آل البيت هذا الخروج الدرامي المفجع .. لما كان للهزة الضميرية هذا التوجع المؤلم ، ولم يكن ليتسنى لها الدخول على ابن زياد في قصر الأمارة لتعلن أمام الحشد صرختها التي هي في مضمونها صرخة مشتركة مع صرخة أخيها الحسين فتقول : « **الحمدللّه الذي أكرمنا بنبيه محمد ، وطهَّرنا من الرجس تطهيراً .. إنما يفتح الفاسق ويكذب الفاجر وهو غيرنا** [1] » .

ولا كان بإمكانها الوقوف أمام يزيد وهو فوق متكأ سلطانه وجبروته وإلقاء خطبتها البليغة التي تحمل عبق الصدق ، فتتآلف معها النفوس وتتألّب لها الضمائر وتتوغر بها الصدور على يزيد وطغمته ، فتكون بذلك قد بذرت بذرة الثورة في الحنايا إلى أن يحين موعد قطافها.

وسيد الشهداء « ع » كان ينظر إلى المستقبل نظرته إلى كتاب مفتوح ، وكان عالماً بأن خذلان شيعته لن يدوم أبد الدهر ، وكان في خروجه وإخراج الحرم معه إنما يراهن على حيوية الضمائر الإسلامية التي لن تجد مندوحة ولا أعذاراً في لوم نفسها على التقصير ، سواء لسكوتها على مباغي الأمويين أم في عدم نصرتها لثائر قام يحطم الوثنية الجاهلية الجديدة التي امتطت الإسلام لتحقيق مآربها ، ومحقت ذرية الرسول صاحب هذه الرسالة باسم خلافة مزيفة .

---

(١) الطبري ج ٦ ص٢٦٢ ، واللهوف ص٩٠

وهذه معجزة أخرى من معجزات شهادة الحسين « ع » معجزة تتصل بالضمائر بمنفصم وثيق العرى ، فتمسها مساً مباشراً ، فتتكهرب وتستيقظ على أمر جلل قد وقع ولا مناص لها من التبصر في كيفية وقوعه.

وعلى أنوار الشهادة السنيَّة ، يتكشف لهذه الضمائر ظروف تقصيرها ، وبأنها كانت غافلة نائمة مخدرة بأطماع وقتية ، وعلى صوت الحق المجلجل الذي رفعته السبايا..تصحو العيون والقلوب والأسماع ، فترى ما تعامت عنه وما تغافلته زمناً وما امتنعت عن سماعه ردحاً.

وهذه المعجزة وما تلاها بدأت بخطبة زينب الأولى في الكوفة وكهربتها للجموع التي أطلقت لعبراتها العنان ، وقد بانت عظمة هذه المعجزة التي حملتها وستكمل حملها الكلمات القدسية المحاجة التي اختص اللّه بها أهل بيت النبوة ، والتي بدأت في الميدان وعلى لسان الشهيد نفسه حينما دوَّى صرخته التي استمرت حتى وقتنا هذا تتردد في الضمائر : « **أما من مغيث يغيثنا .. أما من ناصر يعيننا ؟** ».

وقد لبى استجابة الصرخة الحسينية .. الحر بن يزيد الرياحي الذي توجه نحو الشهيد رافعاً صوته نادماً على خروجه لقتاله :

« **اللَّهم إليك أنيب فتُب عليَّ ، فلقد أرعبت قلوب أوليائك وأولاد نبيك ، يا أبا عبداللَّه إني تائب فهل لي من توبة**[1] **؟** » .

فهذه اللحظات التي تمثل رجعة الضمير من جُبِّ آثامه ، كان الحسين « ع » يعوِّل عليها في إيصال مبادىء ثورته ، وقد حملت زينب « ع » مهمة إيقاظ الضمائر تأهباً لرجعتها ساعدها في ذلك مشهد السبي المحزن الذي كان يفتت أشد القلوب قساوة.

فعن كتاب « المنتخب » ، أن عبداللّه بن زياد دعا شمر بن ذي الجوشن وشبث بن ربعي وعمرو بن الحجاج ، وضم إليهم ألف فارس وأمرهم بإيصال السبايا والرؤوس إلى الشام .

---

(١) اللهوف ص ٥٨ ، وأمالي الصدوق ص٩٧ ، وروضة الواعظين ص١٥٩

وقال أبو مخنف : مر هؤلاء في طريقهم بمدينة تكريت ، وكان فيها عدد من النصارى ، ولما حاولوا دخولها .. اجتمع القسيسون والرهبان في الكنائس وضربوا النواقيس حزناً على الحسين ، وقالوا : « إنَّا نبرأ من قوم قتلوا ابن بنت نبيهم » فلم يجرؤوا على دخول المدينة وباتوا ليلتهم في البرية ، وكانوا يقابلون بالإعراض والكراهية كلما مروا بدير من الأديرة أو بلد من بلدان النصارى .

ولما وصل الركب إلى « لينا » وكانت مدينة كبيرة .. تظاهر أهلها رجالاً ونساء وشيباً وشباناً ، وهتفوا بالصلاة على الحسين وجده وأبيه ، ولعنوا الأمويين وأشياعهم وأتباعهم ، وصرخوا في وجوه قوَّاد الركب : « يا قتلة أولاد الأنبياء أخرجوا من مدينتنا ».

ولما حاذوا « جهينة » بلغهم أن أهلها تجمعوا وتحالفوا على قتالهم إذا وطئوا أرضهم .. فتراجعوا عن دخولها.

وأتوا حصن « كفرطاب » فأغلق أهلها الأبواب في وجوههم ، ولما طلبوا منهم ماء ليستقوا .. رد عليهم أهل الحصن: « واللّه لا نسقيكم قطرة وأنتم منعتم الحسين وأصحابه من الماء » .

ولما دخلوا حمص كانت واقعة كبرى ، إذ تظاهر أهلها وصاروا يرددون : « أكفراً بعد إيمان وضلالاً بعد هدى » وهجموا عليهم فقتلوا ٣٦ فارساً رشقاً بالحجارة .

وكأن عقيلة بني هاشم كانت تستقرىء المستقبل وهي واثقة من ارتداد الضمائر ، إذ قالت وهي مسبية : « **المستقبل لذكرنا ، والعظمة لرجالنا والحياة لآثارنا والعلو لأعتابنا والولاء لنا وحدنا** » .

فسبحان المُنطق القادر على إيصال الوحي إلى عقول ما جال بها إلا الحق ، ومسيِّره على ألسنة ما نطقت إلا بالفصاحة القرآنية ، إذ بلغ الأمر بيقظة الضمائر بعد انتهاء المذبحة بالمقتل وعودة السبي والدفن .. أن صارت حممها تتأجج وتعلو لتنير كل ما حولها ، وإذا بالولاء لأهل البيت سُنَّة سنَّها الناس لأنفسهم ، والتبرك بعتباتهم العالية صار فرضاً على كل مؤمن ، وذكرهم يُحيَى سنة بعد أخرى وجيلاً بعد جيل

ومناقبهم تعلن من فوق المنابر ، ومزاراتهم وقبورهم وكل مكان وطئوه صارت محجات للملايين من أمم الأرض ، تهرع إليها من كل فج عميق ضارعة مستغفرة ، قارعة الصدور ندماً ، ذائبة على آل البيت حباً.

وهذه إحدى معجزات الشهادة وما تلاها من خوارق أنزلها اللّه تعالى في الضمائر فكيف استمرت نيران هذه الشرارة التي قدحها سيد الشهداء فوق أرض خلاء لا يراه فيها أحد.. كيف استمرت وتأججت وفردت سناها فوق رؤوس الخلائق في وقت انطفأت فيه نيران متأججة كثيرة ؟

أليست معجزة الخالق التي خططت لهذه الثورة بهذه الكيفية .. وما قول أولئك الذين ما زالوا بعد كل هذا الفيض من الانتصارات الذي أحرزته ثورة فرخ النبي ، يتصدون لها بمقاييس تقليدية تبعد بها أميالاً عن حقيقة جوهرها السرمدي ؟

إلا أن هذه الثورة رغم ما تعرضت له على مر السنين من مغالطات وتشويه .. ما ازدادت إلا سطوعاً وعلواً ، وهذا ما تنبأت به زينب « ع » فيما قالته لابن أخيها الإمام السجَّاد قبل أن يترك الركب أرض كربلاء في الحادي عشر من محرم :

« مالي أراك تجود بنفسك يا بقية جدي وأبي وإخوتي ؟ فواللّه إن هذا لعهد من اللّه إلى جدك وأبيك ..إن قبر أبيك سيكون علماً لا يُدرس أثره ، ولا يُمحى رسمه على كرور الليالي والأيام ، وليجتهد أئمة الكفر وأشياع الضلال في محوه وتطميسه فلا يزداد أثره إلا عُلواً [(١)] » .

وهكذا شاءت العناية الإلهية أن تكون السيدة الحوراء شاهدة على المجزرة التي لم يكن فيها خصمان بقدر ما كان فيها قاتل ومقتول ، وجزار وضحية ، وأن تكون مواقفها وكلماتها بعد المجزرة .. مواقف وكلمات المعاينة المعانية بكل أعصابها وإحساسها النسوي الأمومي ، ولم يكن كزينب أهل لهذه المهمة الصعبة تناط بها ، وهي التي شاهدت وفاة جدها الرسول « ص » ، وعاشت محنة أمها الزهراء وندبها

(١) كامل الزيارات ص٢٦١ باب فضل كربلاء وزيارة الحسين .

لأبيها في بيت الأحزان ، وانتهاك حرمتها ومنع إرثها وكسر جنبها وإسقاط جنينها ، وتلطيخ سمعتها وهي تنادي فلا تجاب .

وهي التي شاهدت قتل أبيها أمير المؤمنين ورأت مكان الضربة في رأسه ، وعاينت مظاهر سريان الدم من جسده ، واحترقت بدموعه الطاهرة تفيض من عينه وهو يقلّب طرفه فيها وبأخويها الحسن والحسين « ع ».

وهي التي شاهدت أخاها الحسن وهو يجود بنفسه مصفر اللون متهالك القوى يلفظ كبده قطعاً قطعاً من تأثير السم ، ورأت عائشة تمنع دفنه مع جده وتركب بغلة وتصيح: « واللّه لا يدفن الحسن هنا أبداً » .

أما مصيبة المصائب وخاتمة الأرزاء التي عاشتها ورأتها .. فكانت فيما عاشته إلى جانب أخيها الشهيد في كربلاء ، وفيما عانته خلال مسار سبيها برفقة العليل والنساء والأطفال ، مصائب يعجز عن وصفها لسان ، وأرزاء لا يحتملها بشر ، فاقت في قوتها وتأثيرها كل ما مر بها من محن وآلام في توالي أيامها المتخمة بالأحزان والمصائب.

فكيف عاشت العقيلة هذه التجارب .. وكيف تحملت كل هذه الآلام .. وكيف صبرت على كل هذا القدر من البلاء الذي حل بها ؟

المألوف هنا في مثل هذه المواقف أن تُتعتَع أشد العقول رزانة وتُعمى أشد البصائر رويَّة ، فتتخبط خبطاً عشواء تدل على اختلال الأعصاب التي لا تبقي على أي أثر لتعقل أو اتزان .

فهل فقدت زينب « ع »رباطة جأشها .. هل ارتجّت أعصابها فاختل توازنها.. هل تزعزعت ثقتها بنفسها وبإيمانها وبحكم ربها .. هل جدفت أو رفعت رأسها إلى السماء تتساءل : لمَ هي دون غيرها يجب أن تتحمل كل هذا .. هل فقدت حس الأمومة وإحساس القدسية والقدرة على التصرف قولاً وفعلاً ؟

أبداً ، فإن شيئاً من ذلك لم يحدث .. حفيدة النبي « ص » لم تفقد إيمانها ، ابنة

علي وفاطمة لم تتزعزع ، أخت الحسنين لم تكفر بحكمة اللّه ، بل ما زادتها المحن والآلام إلا ثبات جنان ورجاحة عقل واعتصاماً بحكمة الخالق وإذعاناً لمشيئته .

ولا عجب ، فهي غذيَّة حكمة أبيها أمير المؤمنين صاحب نهج البلاغة[1] ووارثة مبادىء آل البيت التي لقنها إياها أبوها وهي لمّا تزل طفلة تحبو ، حيث كانت تسمعه يجاهر بهذا المبدأ الذي حفر في وجدانها الغض :

« إن أشد الناس بلاء النبيون ، ثم الوصيون ، ثم الأمثل فالأمثل ، وإنما يُبتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة ، فمن صح دينه وحسُن عمله اشتد بلاؤه ، ذلك أن اللّه لم يجعل الدنيا ثواباً لمؤمن ولا عقوبة لكافر ، ومن سخف دينه ضعف عمله وقل بلاؤه ، وإن البلاء أسرع إلى المؤمن التقي من المطر إلى قرار الأرض » .

وإذا كنا قد تكلمنا حتى الآن عن معجزات الشهادة الروحية التي ردَّت إلى الضمائر إحساسها البشري وجعلتها تقف على فداحة تقصيرها تجاه الحسين « ع » وعن دور زينب « ع » في إزكاء الحمية في الرؤوس وإيقاظ النفوس الهاجعة وحمل لواء الحرب النفسية التي هي تتمة لحرب أخيها الحسين « ع » فوق ثرى كربلاء .. فإن لبقية عقيلات آل البيت أدوارهن المكملة لدور الحوراء في تبيان الحقيقة ، وإثارة شعور الندم في القلوب.

فها هي فاطمة بنت الحسين « ع » ما أن رأت عمتها زينب « ع » تنتهي من خطبتها في جموع الكوفة .. حتى وقفت تخطب في هذه الجموع وتوضح لها دورها المتخاذل عن نصرة أبيها وحقدها على رسالة النبي ، وحذرتهم ألا يشتطوا كثيراً في فرحتهم بما أصابوا من دمائهم ونبهتهم إلى توقع اللعنة والعذاب من السماء ، ولعنت الظالمين منهم .

---

(١) يصف السيد الرضي كتاب نهج البلاغة بـ « الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلهي وفيه عبقة من الكلام النبوي » والكتاب يعتبر من أعظم الكتب بعد القرآن الكريم ، إذ وصفه العظماء بأنه فوق كلام المخلوقين ودون كلام الخالق .

وما أن أتمت خطبتها..حتى ارتفعت الأصوات بالبكاء والنحيب ندماً وحزناً ، وصاحت الجموع بصوت واحد : « حسبك يا ابنة الطاهرين فقد أحرقت قلوبنا وأنضجت نحورنا وأضرمت أجوافنا[1] » .

وتلتها أم كلثوم في اللوم والتقريع وإثارة الضمائر ، قرَّعتهم على نزع الرحمة من قلوبهم وحذرتهم من لعنة الدماء الزكية التي سفكوها ومن غضبة اللّه على قتلهم خير الرجالات بعد النبي ، فضج الجمع بالبكاء ونشرت النساء شعورهن وخمشن وجوههن و لطمن خدودهن ودعون بالويل والثبور ، حتى صار الجمع بين باك ولاطم .

ولما جيء بعلي بن الحسين على بعير والجامعة في عنقه والغل في يديه إلى عنقه وأوداجه تشخب دماً .. بادر الجمع بهذه الأبيات :

يا أمة السوء لا سقياً لربعكم ... يا أمة لم تراع جدنا فينا

لو أننا ورسول اللّه يجمعنا ... يوم القيامة ما تقولونا

تسيِّرونا على الأقتاب عارية ... كأننا لم نُشد فيكم دينا

وأومأ إلى الناس .. فسكتوا ، بينما أخذ « ع » يعرِّفهم من هو قائلاً :

« أيها الناس من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، أنا ابن من انتهكت حرمته وسُلبت نعمته وانتُهب ماله وسُبي عياله ، أنا ابن المذبوح بشط الفرات من غير ذحل ولا ترات ، أنا ابن من قُتل صبراً وكفى بذلك فخراً » .

ثم أخذ « ع » يبين لهم كيف خانوا أباه حينما استصرخهم بعد أن أعطوه من أنفسهم العهود والمواثيق والبيعة ، وقاتلوه .. وسألهم بأية عين ينظرون إلى رسول اللّه

---

(١) لقد ثبت علمياً أن مشاعر الغضب والحزن والندم ، تبدل كيماوية الجسم ، فيشعر صاحبه بالحرقة في قلبه ، وبالاكتواء في حجابه الحاجز ، وبالتآكل في معدته .

بعد قتلهم لعترته وانتهاك حرمته..؟

فارتفعت الأصوات ضاجة بالبكاء وقالوا بأجمعهم :

« نحن يا ابن رسول اللّه سامعون مطيعون حافظون لذمامك غير زاهدين فيك ولا راغبين منك ، فمرنا بأمرك يرحمك اللّه ، فإنَّا حربٌ لحربك وسلمٌ لسلمك ، نبرأ ممن ظلمك وظلمنا » .

ولكن الوقت كان قد فات ولم يعد ينفع الندم وجلد الذوات .. فرد عليهم السجَّاد « ع » :

« هيهات أيها الغَدَرة المكَرة ، حيل بينكم وبين شهوات أنفسكم ، أتريدون أن تأتوا إليَّ كما أتيتم إلى أبي من قبل ؟ كلا وربِّ الراقصات ، فإن الجرح لما يندمل ، قُتل أبي بالأمس وأهل بيته ، ولم يُنس ثكل رسول اللّه وثكل أبي وبني أبي[1] » .

وكان لهذا الخطاب رد فعل قوي في النفوس ، فانفعلت معه انفعالاً عميقاً كان كفيلاً ببعث الروح النضالية الهامدة في جذوة جديدة ، وهزِّ الضمائر الميتة هزات أحيتها ، فكان أن خطت ثورة الحسين الوليدة أولى خطواتها في الدرب الذي طمحت للسير فيه ففتحت عيون الناس على زيف الحياة الروحية التي كانت تحتويهم ، وبدأ الإطار الديني المغلّف لحكم الأمويين يتزعزع ويتشقق تمهيداً لانهيار قريب ، وتنبهت النفوس إلى الروح الجاهلية التي تغلغلت في أركان الحكم وبدأ الشعور بالإثم يتفاعل داخل القلوب وبدأت معه أولى خطوات نقد الذات وتقويم المجتمع لنفسه والبحث عن مناقبية جديدة للإنسان المسلم بعد أن فقد إنسانيته فجاءت ثورة الحسين لتنبهه إلى فقدان هذه النعمة الربانية .

وقد ساهمت معركة الطف وحوادث السبي في إيقاد جذوة الإيمان من جديد في وجدان الأمة ، ساعدها في ذلك ما ظهر من وحشية الأمويين في مناجزة الحسين وقتله مع نخبة كريمة من آله وصحبه ، وما رافق ذلك من مظاهر البربرية المتمثلة في حمل

---

(١) كامل هذه الخطبة ذكرها ابن طاووس في اللهوف ، وابن نما في مثير الأحزان .

الرؤوس على الحراب إلى الشام ، والذي برهن على التجرد من كل نزعة دينية وإنسانية.

وكانت اليقظة الروحية لأمة الإسلام هي الأعجوبة الخارقة التي شكلت أساس كل المعجزات التي اجترحتها الشهادة فوق أرض كربلاء ، وكما شكلت فيما بعد المحور الذي دارت عليه المعجزات المتتالية ، الاجتماعية منها والزمنية .

إذ كما هو متفق عليه في نظريات علم النفس ، أن يقظة الضمير وتفتح البصيرة بعد موات وهمود..من شأنه أن يقلب حياة الإنسان رأساً على عقب ، ويجعله يحطم كل ما يحيط به ويذكره بهوانه وتقصيره الذي أدى به إلى ما وقع له أو به[١] .

ولعل ما زاد في تأجج عامل الندم في نفوس المسلمين..تلك الفرص التي أتاحها لهم الشهيد ، سواء ما كان منها قبل المعركة أو خلالها للكف عن قتاله وتلويث أيديهم بدماء آل البيت وتجنيبهم الندم ، كما سبق ذكره في متن الكتاب .

وعندما يبدأ التأجج ـ كما عُرف في علم الطبيعة والفيزياء ـ فإن الحمم تصب فوق بعضها وتُحمي ذرات بعضها البعض ، فيزداد اللهب وتتضاعف الحرارة .

وكما قيل فإن الإقناع يزداد كلما كان الشاهد أقرب إلى المشهود عليه[٢] ، وهذه نقطة مهمة ودالة على معجزات شهادة الحسين الروحية ، فقد كشف همجية مجزرة الطف..الجنود العائدون ، وأذاعوا تفاصيلها في طول البلاد الإسلامية وعرضها ، وكان لكلامهم وشهاداتهم أبلغ الأثر في تأجيج نار المشاعر ضد الذين فكروا وقاموا بهذه المجزرة المشينة.

وعلى الرغم من نشاط فرقة المرجئة التي أنشأها النظام الأموي لتغطية نشاطه السياسي وإسباغ صفات دينية على تصرفاته .. فإن الغضبة التي أشتعل أوارها لم

---

(١) لسيجموند فرويد رأي في كتابه « سيكولوجية الشذوذ النفسي » ص١٨٩ يقول فيه : إن يقظة ضمير الإنسان تحيل صاحبها إلى ديَّان رهيب لا يخاف لوم ذاته ومعاقبتها بأقصى العقوبات الممكنة .

(٢) السيد المسيح قال : « من فمك أدينك » .

تكن لتهدأ إلا لتثور مجدداً وبشكل أعنف.

وقد أعادت ملحمة كربلاء إلى الأذهان ما أفتى به الفقهاء الموظفون من أنه لا يجوز الخروج على الأئمة ، وقتالهم حرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين ففُتحت هذه الأذهان على عمليات التمويه الرسمية التي موَّلها حكام بني أمية لوأد كل مطالب عادلة ، والوقوف أمام كل تحريف للسُّنة ، والسكوت عن مخارف الجور والانتهاكات.

وفي مقابل تفتح الأذهان على أضاليل فرقة المرجئة ومؤسسيها .. تفتحت هذه الأذهان على مبدأ الإمام الشهيد « ع » الذي قال مخاطباً الوليد بن عتبة بن أبي سفيان :

« **أيها الأمير .. إنَّا بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة ، بنا فتح اللَّه وبنا ختم ، ويزيد رجل فاسق شارب الخمر وقاتل النفس المحرمة ، معلنٌ بالفسق ، ومثلي لا يبايع مثله**[1] » .

فهذه الكلمات على بساطتها تدل دلالة واضحة على جواز نقد الخليفة والثورة على أحكامه والخروج عليه ، وتبين في الوقت ذاته أساليب المراوغة والتحريف التي رفعها الأمويون فوق الرؤوس لإيهام الناس وإخافتهم .

وكان لا بد للفرد المسلم من المقارنة بين هذا المبدأ الحسيني ، وذلك المبدأ الأموي وما كان من نتيجتيهما .. كي يخلُص إلى نتيجة واحدة لا مزاحم لها في النهاية ، ألا وهي أن الحكم الأموي حكم يمتطي المشاعر الدينية ليغتصب باسمها البيعة والخلافة حتى لو كان الثمن تكريس مبادىء لم ترد في صلب العقيدة.

فكيف إذا كان على رأس هذا الحكم خليفة مثل يزيد يجاهر باستهتاره ويتحدى اللَّه ورسوله ويزاحم آل بيته على حق الخلافة .. فذلك معناه موافقة ضمنية على أفعاله ومساعدة غير مباشرة له على مخالفة السنن ، وعندما يعلن إمام كالحسين

---

(١) مثير الأحزان لابن نما الحلي .

منحدر من معدن النبوة : « أن يزيد رجل فاسق وقاتل النفس المحرمة [1] ومعلن بالفسق ».. فمعنى ذلك أنه إفتاء للأمة الإسلامية بجواز إسقاطه والثورة عليه ، لأن معنى المبايعة هو بيع النفس للخليفة الذي يرمز إلى الشريعة وجوهر الدين ، وحامي القرآن الكريم ، وولي عهد الرسول المصطفى « ص » على المسلمين ، وفي مبايعته إقرار ضمني بالإستماتة في سبيله عملاً بقوله تعالى: « أطيعوا اللّه والرسول وأولي الأمر منكم » فألزم على المسلم طاعة الخليفة لأنها تدخل في طاعته عز وجل .

وعندما يكتشف الإنسان المسلم أن بيعة نفسه لخليفة غير أمين على جوهر دينه كلّفه التفريط بعقيدته ، وبيع نفسه للباطل الذي يمثله هذا الخليفة ، وبالتالي كسب غضبة اللّه جرّاء عصيانه .. فإنه يحتقر نفسه ويزدري قلة تعقله حينما بايع هكذا خليفة ، ويتحرك ضميره ويتفاعل إحساسه بإزدراء نفسه ولومها ، فيثور ويحطم أصنامه ويموت دون مبدئه راضياً مؤمناً .

وبدءاً من فرضية الندم ثم مراجعة النفس والوقوف على حقيقتها وحقيقة الأمور والظروف التي دوّمتها في دوامتها ، وتبيان الحقيقة الساطعة مروراً بفترة المراجعة وكمون الأفكار والانفعالات ، ونجاحها في تحويل صاحبها من إنسان خامل بلا عقيدة إلى إنسان ديناميكي معبأ بالمبادىء ، فضلاً عن تحرك الظروف خارج نفس الإنسان وتفاعلها في نواح أخرى بما يدعم مبدأه الجديد وعقيدته المستيقظة..كل ذلك يزيد من تصميمه على استمرار الاستسلام لهتافه الداخلي الذي يقوده إلى دروب لم يكن يحلم بالمسير بها و يفتح أمام بصيرته مغاليق كانت كالسُّدِّ في وجهه ، فيندفع بإيحاء من فقدان ثقته بما كان وانسجاماً مع هتافه الداخلي ورغبة منه في تغيير الأوضاع .. إلى الثورة والتحطيم واقتلاع كل زيف من جذوره .

وشهادة الحسين « ع » في كربلاء وما تلاها من حوادث السبي ، نجحت في إيصال الإنسان المسلم إلى بدء رحلة الألف ميل نحو تحرره وتمكين جذور عقيدته في نفسه بخطوة واحدة ، إذ ما كاد ركب السبي يدير ظهره لدمشق عائداً إلى الأرض التي

---

(١) « ... ولا تقتلوا النفس التي حرَّم اللّه إلا بالحق ... » راجع النص الكامل للآية ٣٣ من سورة الأسرار .

تضم الجسوم الطاهرة .. حتى بدأ الندم يستشري في ضمير أمة الإسلام ، وبدأت معه عملية مراجعة النفس التي ستشكل محور ما سيأتي بعدها من تغيرات وانتفاضات تعم هذه الأمة التي ابتلاها اللّه بالضعف من بعد قوة ، فيتنادى للتغيير والثورة أقصاها وأدناها [1].

***

(١) شهادة الحسين « ع » في كربلاء بحاجة إلى دراسة علمية ونفسية وروحية وزمنية وافية ، على أعلى المستويات ، ففي طوايا هذه الملحمة تكمن أسس أخلاقية لو أظهرت للبشرية بشكل علمي مدروس.. لتغيرت نظريات كثيرة ، ولأعطت أجوبة شافية للعديد من المسائل الروحية والزمنية ، وكيفية الربط بينها. إن نهضة الحسين على الرغم مما قدمته حتى زمننا هذا .. لم تزل تطوي في جوهرها كنوزاً من الكيفيات والمعاني والعبر والرموز والدروس والدساتير والأساليب والنتائج ذات الصلة الماسة بمختلف الأصعدة الإنسانية بشكل عام ، وبالعديد من قضايا الإنسان المعاصر بشكل خاص ، فهل تلقى دعوتنا لهذه الدراسة تقبلاً واقتناعاً ؟

معجزات الشهادة الاجتماعية

ما إن غادر موكب السبي دمشق حتى كانت مرحلة الندم والبكاء وقرع الصدور حزناً وتأسِّياً وإحساساً بالذنب المتأتي عن التقصير .. قد بلغت مداها ، وفرَّخت مرحلة مراجعة النفس والوقوف على حقيقتها وحقيقة الأمور والظروف التي دوَّمتها في دوامتها ، وكان لا بد من نموذج للأخلاق أسمى ، إذ من المسلَّمات التي تعقب عملية اهتزاز القيم والمعايير السائدة .. أن يبدأ الفرد الذي هو ركن المجموع ، بالبحث عما ينقصه ، فتبلبله حيرة لا يعرف معها أي شكل من أشكال الاختيار التي تفتَّح عليها عقله وعرضت أمام بصيرته المتيقظة لتوها ، فيبدأ في البحث عن نموذج أخلاقي يلائم نظرته الجديدة إلى نفسه وإلى الآخرين ، وإلى مخارف الدنيا وزخرفها وزهدها ومختلف عناصرها ، ويزن مواقفه المبدئية الثابتة مع تباين ما اثبتته المواقف والأحداث وما خلَّفته من معطيات ومناقب على أرضية التجربة وتقلُّب الأحوال .

وبعد ثورة الحسين « ع » مباشرة ..كان النموذج الأخلاقي للمجتمع الإسلامي هو ذاته الذي كانه قبلها ، نموذج فيه من المثالب ما لا حصر له ، فلم يكن غريباً على المسلمين آنذاك ، السكوت على البغي والخضوع للطغي بل والمشاركة فيه ، ولم يكن مستهجناً عُرْفُ المساومة على المبدأ وبيع النفس والرضى بخنوع مذل إذا رافقه استمرار تدفق المنافع الدنيوية ، وكان يزيد وحاشيته هم المرآة التي تعكس كل هذا للمسلمين بما يغريهم لأن يكونوا على شاكلتهم ومثالهم ، سواء أكان ذلك بالترغيب أم بالترهيب .

وما كان ممقوتاً مرذولاً في صدر الإسلام من تكالب على المنافع وحب الذات وإيثار السلامة والدعة..غدا شيئاً مألوفاً ، بل ومطالباً به كهدف وغاية يسعى إليها المسلم على قدميه ، مع علمه بأن هذا المطلب الذي قدَّسه كغاية بحد ذاته .. يحمل في طياته هجر القيم الإسلامية ، والرنو إلى الأخلاق الجاهلية التي جاءت رسالة محمد « ص » فبددتها ، ووطدت مكانها قيماً سماوية .

وبعد الهزة الحسينية صار يطيب للفرد المسلم أن يعيد تذكُّر مبادىء الحسين التي أعلنها مراراً وتناقلتها الألسن فيما سبق ، دون أن تحرك في الضمائر أية إشارة لتقبُّلها حينما كان مدُّ الأطماع والغي في أقصى حدوده.

أمابعد الهزة..فصار لهذه المبادىء وقع كوقع السحر ، تذكر المسلمون معها قولة الإمام الشهيد « ع » حينما أحيطت به النوازل وقيل له بالنزول على حكم بني أمية : « **لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ، ولا أقر إقرار العبيد ، ألا وإن الدعي بن الدعي قد ركز بين اثنتين : بين السِّلة والذِّلة ، وهيهات منا الذِّلة ، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون ، وجدود طابت ، وحجور طُهِّرت ، وأنوف حمية ونفوس أبية لا تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام**[1] ».

وفي التذكرة عبرة ، لا سيما إذا كان الدأب هو البحث عن نموذج جديد للأخلاق يلائم المرحلة الجديدة ـ **مرحلة ما بعد الثورة** ـ فوعى المسلم لأول مرة هذا الخلق الإجتماعي السليم ، وتشرب معنى الأنفة في الأنوف والإباء في النفوس الذي معه يفضل المصارع على طاعة اللئام.

وبعد أن كان الفرد المسلم يصمت أمام تغير الدنيا وتنكرها وإدبار معروفها ويرضى بالصبابة كصبابة الإناء التي بقيت منها ، ويُسر بخسيس العيش كالمرعى الوبيل ويرى الحق لا يُعمل به والباطل لا يُتناهى عنه ، فلا يرى في هذه الحياة إلا سعادة ، والبقاء مع الظالمين إلا سلوى .. صار بعد تفجُّر أخلاقية الثورة ، يرى في كل

(١) تليها أبيات أنشدها الشهيد لفروة بن مسيك المرادي ، ورواها ابن عساكر في تاريخ الشام ج٤ ص٣٣٣

ماكان يرضى به من هذا.. إنكاراً لدوره كمسلم ، وإهداراً لكرامته كإنسان في هذه الحياة .. وما لبث أن صار يردد مع إمام الثوار :

« موت في عز خير من حياة في ذل ».

وصار يُحس مدى خواره وذهاب نخوته عندما بدأت أخبار المعركة تتناهى إلى علمه فيُلم بتفاصيلها ، ليرتعش بعدها برعدة الإحساس بالذنب ، ويقدر مدى تكالبه على الدنيا ورضاه بالزيف وبيعه لكرامته التي هي أثمن ما لدى الإنسان ، بحيث يفقد بفقدانها معنى وجوده.

شعر بالضَّعة حينما علم بموقف زهير بن القين عندما طالب الإمام الشهيد صحبه بالانصراف وتركه لمواجهة مصيره وحده ، وكيف أجابه : « سمعنا يا ابن رسول اللّه مقالتك ، ولو كانت الدنيا لنا باقية وكنا فيها مخلّدين .. لآثرنا النهوض معك على الإقامة فيها ».

شعر بالخجل وحقارة النفس حيال قولة بدير بن حضير: « يا ابن رسول اللّه لقد منَّ اللّه بك علينا أن نقاتل بين يديك تقطع فيك أعضاؤنا ، ثم يكون جدك شفيعنا يوم القيامة فيها » .

أحس بتخاذله وتواكله حيال قول نافع بن هلال للشهيد : « سر بنا راشداً معافى مشرقاً إن شئت أو مغرباً ، فواللّه ما أشفقنا من قدر اللّه ولا كرهنا لقاء ربنا ، وإنَّا على نياتنا وبصائرنا نوالي من والاك ، ونعادي من عاداك » .

ما عادت نفس هذا المسلم تملك إلا أن تصغر في عين ذاته حينما يقارن بين موقفه وبين موقف زهير بن القين في ميدان الطف حيث لا شيء إلا الموت : « واللّه لوددت أني قُتلت ثم نُشرت ثم قُتلت ، حتى أقتل كذا ألف قتلة وأن اللّه يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك » .

هذا المسلم المدجن أموياً ، شعر بعدم حفظه غيبة رسول اللّه وآله بالشهيد الحسين حينما نُمي إليه ما قاله سعد بن عبداللّه الحنفي لسيد الشهداء : « واللّه لا نخليك حتى

يعلم اللّه أنّا قد حفظنا غيبة رسول اللّه « ص » وآله فيك ، واللّه لو علمت أني أقتل ثم أحيا ثم أحرق حياً ثم أذر ، يُفعل ذلك بي سبعين مرة .. ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك ، فكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة ؟ » .

وحيال قولة مسلم بن عوسجة أحس هذا المسلم بالنقص الغيري : « أنحن نخلي عنك ولما نعذر إلى اللّه في أداء حقك ؟ أما واللّه لا أفارقك حتى أطعن في صدورهم برمحي وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي ، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك » .

ويتساءل هذا المسلم عما منعه من الوقوف كمثل وقفة بني عقيل لما أذن لهم الشهيد بالذهاب والاكتفاء من القتل بمسلم ، إذ قالوا : « فما يقول الناس وما نقول لهم ؟ إنّا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام ، ولم نُرمَ معهم بسهم ، ولم نُطعن برمح ، ولم نُضرب بسيف ولا ندري ما صنعوا ؟ لا واللّه لا نفعل ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا ، نقاتل معك حتى نرد موردك ، فقبح اللّه العيش بعدك[1] » .

وأخلاق الثوار هي المعدن الأصيل في كل حركة ، ومثل هذه الأخلاق هي التي منعت العباس « ع » من الشرب حينما تذكر عطش الحسين ومن معه ، فقذف بالماء وهو يقول :

يا نفس من بعـــد الحـــسين هوني وبعـــــــده لا كنـت أن تكـوني

هـــذا الحســـين وارد المنـــون وتشـــربـــين بـــــارد المعين

تاللّه مــا هذا فــعـــال ديني[2]

(١) تاريخ الطبري ج ٦ ص ٢٣٨ ، والكامل ج ٤ ص ٢٤ ، والإرشاد المفيد ، وأعلام الورى ص١٤١ ، وسير أعلام النبلاء للذهبي ص ٢٠٢

(٢) رياض المصائب ص٣١٣

وهي الأخلاق التي دفعت بالحسين الشهيد وهو مطوَّق بألف فارس وعلى رأسهم الحر الرياحي ، وقد جاؤوا لمناجزته وإقصائه إلى المدينة أو القدوم به إلى الكوفة ، كي يأمر أصحابه بإسقاء أعدائه وترشيف خيلهم عبّتين أو ثلاثاً أو أكثر[1].

هي أخلاق الثوار التي لا يسمو فوقها أخلاق ، والتي دفعت بالشهيد العظيم لأن يحني السقاء بيده ليروي علي بن الطعان ويسقي فرسه ، وهو المحارب الذي جاء مع الحر لمقاتلته.

وإذا كان للأخلاق مجاذب مغناطيسية قوية..فإنها تبلغ لدى الثوار الذين يباركونها بالدم مجاذب أقوى لا يقدر مطلق إنسان على الوقوف حيال قوة جذبها ، وهذا ما دفع بالحُر الرياحي لأن يترك قيادة الألف فارس وينضم إلى جيش الحسين قليل العدد وهو يعلن توبته له ، ويطالب بالشهادة دفاعاً عنه وعن مبادئه.

وجذب الأخلاق ما استطاع جون مولى أبي ذرٍّ الغفاري مقاومته ، فتقدم مستأذناً الحسين للقتال وهو المولى الأسود الذي ما تبعهم إلا طلباً للعافية بينهم ، ولما رفض الحسين .. وقع العبد الأسود على قدميه يقبلهما ويقول : « أنا في الرخاء ألحس قصاعكم ، وفي الشدة أخذلكم ، إن ريحي لنتنٌ وحسبي للئيم ولوني لأسود فتنفس عليَّ بالجنة ليطيب ريحي ويُشرَّف حسبي ويبيض لوني ، لا واللّه لا أفارقكم حتى يختلط هذا الدم الأسود مع دمائكم » .

فأذن له الحسين فتقدم وقاتل فقتل خمسة وعشرين قبل أن يُقتل[2].

وهكذا فإن مسلم ما بعد ثورة الحسين « ع » غدا صفحة بيضاء مفتوحة تنتظر من يخط عليها سطراً جديداً ، وفي بحثه عن النموذج الأخلاقي .. لم يكن أمامه مناص من المقارنة بين خلقي الحسين ويزيد وبين تلك المبادىء التي لقنها أبو كلٍّ منهما لابنه وفي مرحلة تفهُّم الحقيقة التي دوَّمته في دوامتها صار يسأل ويسمع ويتحدث

---

(١) تاريخ الطبري ج ٦ ص ٢٢٦

(٢) مثير الأحزان لابن نما ص٣٣ ، وتاريخ الطبري ص٢٣٩

ويتذكر..تذكر مبادىء الطرفين من المتقاتلين ، وعاود تذكر مبادىء جيل الآباء الذي سبقهم ، و في غمرة التذكر وعودة الوعي .. تذكر وصية علي لابنه الحسين في التقوى والأخلاق ومخافة اللّه والناس فيه ، حيث قال له : « يا بني أوصيك بتقوى اللّه عز وجل في الغيب والشهادة ، وكلمة الحق في الرضى والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، والعدل في الصديق والعدو ، والعمل في النشاط والكسل ، والرضى عن اللّه تعالى في الشدة والرخاء .

يا بني ما شر بعده الجنة .. بشر ، ولا خير بعده النار.. بخير ، وكل نعيم دونه الجنة محقور ، وكل بلاء دون النار عافية .

اعلم يا بني أن من أبصر عيب نفسه شغل عن غيره ، ومن رضي بقسم اللّه تعالى لم يحزن على ما فاته ، ومن سلَّ سيف البغي قُتل به ، ومن حفر حفرة لأخيه وقع فيها ، ومن هتك حجاب غيره انكشفت عورات بيته ، ومن نسي خطيئته استعظم خطيئة غيره ، ومن كابد الأمور عطب ، ومن اقتحم البحر غرق ، ومن أعجب برأيه خل ، ومن استغنى بعقله زل ، ومن تكبر على الناس ذل ، ومن سفَّه عليهم شُتم ، ومن دخل مداخل السوء اتُّهم ، ومن خالط الأنذال حُقِّر ، ومن جالس العلماء وُقر ومن مزح استُخف به ، ومن اعتزل سلم ، ومن ترك الشهوات كان حراً ، ومن ترك الحسد كان له المحبة من الناس .

يابني عز المؤمن غناه عن الناس ، والقناعة مال لا ينفذ ، ومن أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير ، ومن علم أن كلامه من عمله قلَّ كلامه ، يا بني الطمأنينة قبل الخبرة ، ضد الحزم إعجاب المرء بنفسه وهو دليل على ضعف عقله ، يا بني كم من نظرة جلبت حسرة وكم من كلمة جلبت نقمة ، لا شرف أعلى من الإسلام ولا كرم أعلى من التقوى ، ولا معقل أحرز من الورع ، ولا شفيع أنجع من التوبة ، ولا مال أذهب للفاقة من الرضى بالقوت ، ومن اقتصر على بلغة الكفاف تعجل الراحة وتبوأ حفظ الدعة ، الحرص مفتاح التعب ومطية التعب داع إلى التقحم في الذنوب ، والشر جامع لمساوىء العيوب ، وكفى أدباً لنفسك ما كرهته من غيرك ، ومن تورط في الأمور من غير نظر في الصواب فقد تعرض لمفاجأة النوائب ، التدبير

قبل العمل يؤمنك الندم ، من استقبل وجوه العمل والآراء عرف مواقع الخطأ ، الصبر جُنة من الفاقة ، في خلاف النفس رشدها .

يا بني .. ربك للباغين من أحكم الحاكمين وعالم بضمير المضمرين ، بئس الزاد للمعاد العدوان على العباد ، في كل جرعة شرق وفي كل كلمة غصص ، لا تُنال نعمة إلا بفراق أخرى ، ما أقرب الراحة من التعب والبؤس من النعيم والموت من الحياة ، فطوبى لمن أخلص اللّه تعالى علمه وعمله وحبه وبغضه ، الويل الويل لمن بُلي بحرمان وخذلان وعصيان ، لا تتم مروءة الرجل حتى لا يبالي أيَّ ثوبيه لبس ، وإلا أيَّ طعاميه أكل[1]» .

هذه الوصية التي تضمنت كل هذه المبادىء الحياتية ، من خلقية واجتماعية ودينية .. كانت بمثابة الهدي الذي قاد خطوات الحسين فيما بعد على طرق الحق والخير ونصرة المظلوم ، وإذا تذكرها مسلم وطافت فوق مكنونات سويدائه .. فبماذا تذكِّره ؟ وإذا ذكَّرته..كيف ستكون مقارنته بينها وبين وصية معاوية لابنه يزيد حينما حضرته الهلكة فدعاه ليقول له : « يا بني إني كفيتك الرحلة والترحال ، ووطأت لك الأشياء ، وذلّلت لك الأعداء ، وأخضعت لك أعناق العرب ، وإني لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذي استتب لك إلا أربعة نفر من قريش : الحسين بن علي ، وعبداللّه بن عمر ، وعبداللّه بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر .

فأما عبداللّه بن عمر فرجل قد وقذته العبادة ، وإذا لم يبق أحد غيره .. بايعك ، وأما الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه ، فإن خرج عليك فظفرت به .. فاصفح عنه فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً ، وأما ابن أبي بكر.. فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً .. صنع مثلهم ، ليس له همة إلا في النساء ولا رغبة إلا في اللهو والمجون ، وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإذا أمكنته فرصة ..وثب ، فذلك ابن الزبير ، فإن هو فعلها بك فقدرت عليه .. فقطعه إرباً إرباً » .

---

(١) راجع كتاب الإعجاز والإيجاز لأبي منصور الثعالبي ص٣٣ ، وكتاب ينابيع المودة ص٥١٩

وصيتان الفرق بينهما شاسع كالفرق بين الظلمة والضياء ، فرجل يوصي ابنه بالقناعة وذكر اللّه .. وآخر يوصيه بالطمع والتكالب على الدنيا ، ورجل يوصي ابنه باستقبال وجوه العمل والآراء تفادياً للوقوع في الخطأ.. وآخر يبلغه بالإسترخاء بعد أن كفاه الرحلة والترحال.

وصية رحومة عطوفة أخلاقية تدعو إلى خشية اللّه تقبلها شاب من أبيه فغدت له نبراساً ينير طريقه ، فمشى على هدْيها حتى غالبته الحتوف وضيَّقت عليه النوازل ، ووصية مغرورة متراخية تقطر لؤماً ولا أخلاقية قدمها طاغية مريض لابن متهور يُنبئُه فيها بصفاقة ما بعدها صفاقة .. بأنه ذلل له الأعداء وأخضع له أعناق العرب.

فشتانٌ بين وصيتين .. إحداهما تنطق بالرحمة والأخرى بالظلم ، وشتان بين كلمة علي لابنه : « ربك للباغين من أحكم الحاكمين » وبين كلمة معاوية : « وذللت لك الأعداء وأخضعت لك أعناق العرب » .

شتان بين قولة رجل لابنه : « من سلَّ سيف البغي قتل به » وبين قولة رجل آخر : « إن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إرباً إرباً » .

هذا الشتان ، هو الفارق الذي عناه علي « ع » لابنه الحسين حينما ردد على مسمعه وصيته التي تنضح حكمة وبلاغة : « ما أقرب الراحة من التعب ، والبؤس من النعيم[1] والموت من الحياة » ، فالراحة قريبة من التعب ولكنهما على طرفي نقيض ، والبؤس قريب من النعيم ولكن أين هما من بعضهما ، والموت قريب من الحياة ولكن الموت هو النقيض الصارخ للحياة.

إنها حكم إعجازية قيلت في كلمات إيجازية مكثفة ، وهي لا تخرج عما أثبته علم النفس من أن كل أمر قريب من نقيضه لا يفصله عنه إلا شعرة ، هذه الشعرة هي موقف الشخص من الأمرين اللذين يواجهانه ، تماماً كموقف شخصين عُرضت

---

(١) في كتابه « العالم كإرادة وتصور » يكشف الفيلسوف « شبنهاور » عن هذا التقارب النفسي والحسي بين الراحة والتعب والبؤس والنعيم في عرضه لعلم الأخلاق القائم على الإنسانية الرؤوفة الشفوقة .

أمامهما كأسٌ مملوءة لنصفها ماء ، فيرى أحدهما أنها فارغة حتى النصف.. بينما يراها الآخر ملآنة حتى النصف ، وقد أكدت نظريات الفلسفة أن العقل البشري يتشرب المبادىء في فترة الطفولة ثم خلال فترة الكمون التي تعقب فترة الطفولة ثم فترة الشباب المبكر.

فالطفولة أشبه بالإسفنجة الماصة التي تخزن كل تجارب ومبادىء الإنسان في عقله الباطن ، وتأتي فترة الكمون وهي الفترة التي يعرِّفهاعلم النفس بفترة تناسي كل المخزونات في العقل الباطن.. فلا تلبث هذه المخزونات أن تعلن عن نفسها بلا حس إرادي من صاحبها ، وتكوِّن مجمل أفكاره ومبادئه وتصرفاته في فترة شبابه وما يليها ، حيث توضع هذه الأفكار والمبادىء موضع التنفيذ من وحي عقله الباطن ، أي من منطقة الفطرة التي لا سلطة للإنسان عليها ، والتي لا يمكن له من تفهُّم دوافعها وبواعثها ، فيتصرف بإيحاء منها ، وكثيراً ما يقف ليسأل نفسه بعدها : « لمَ فعلت هذا وذاك من الأمور [1] ؟ ».

والحسين « ع » لا يختلف عن غيره في مروره خلال أدوار هذه المرحلة ، وكذلك يزيد ، وقد تشربا كلاهما أفكار ومبادىء والديهما واتخذاهما قدوة في مقبل أيامهما ، كذلك كان للبيئة أثرها في تكوين نفسيتيهما ، فمضى الحسين « ع » في كل مراحل حياته يعمل بوحي من بيئته الأدبية الإسلامية التي رضع أخلاقياتها مع حليب طفولته ، فلم يسمع أي إنسان عن الحسين طيلة حياته ..كلمة ، أو يعاين له موقفاًيدل على عكس السمو والنبل والأخلاق والحرص على الدين.

و في المقابل لم يسمع أي إنسان عن يزيد طيلة حياته ، كلمة أو يعاين له موقفاً يدل على عكس التهور والعبث والظلم والحرص على الدنيا.

وفي ميزان المقارنة الذي نصبه الإنسان المسلم بعد ثورة الحسين « ع » .. وضع في كفتيه كل ما يتصل بشخصي الحسين ويزيد ، ثم ابتعد قليلاً وألقى نظرة فاحصة

---

(١) وهذا ما يسمى في علم النفس بـ « الأفعال اللاإرادية » .

مقارنة حيادية تبغي الحق الذي أخذ يلح في ضميره .

رأى في كفة الحسين شمائل النبوة ومواقف الرجال الأفذاذ ، وسمع من جانبها مبادىء الحق والعدل.

رأى في كفته « ع » ميراثاً فكرياً محمدياً لا قبلياً ولا إقليمياً ، خالياً من التعصب إلا فيما يتعلق منه في مسائل العقيدة.

رأى في كفته سر النبوة ، سر الجد والسبط في آن معاً ، وتخيل الرسول يقبِّل السبط في شفتيه ويردد : « حسين مني وأنا من حسين ».

ثم رأى هذا الطفل رجلاً يرفع راية الإسلام فوق رأسه ، وتخيله يعلن بملء فيه : « من قبلني بقبول الحق فاللّه أولى بالحق » .

ورآه متخيلاً يبتعد عن مجلس أبيه علي « ع » ونفسه مترعة بقولة أبيه التي كان يسرها في أذنه كوصية : « من تكبَّر على الناس ذل » .

ثم رآه في مكان آخر يقول لبعض الناس : « أنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول اللّه ، نفسي مع أنفسكم وأهلي مع أهليكم ، فلكم فيَّ أسوة » .

رآه في مواقع العمل بالمبدأ ، فأعجب كيف عمل به بهذه الأمانة ووضع نفسه أسوة مع غيره.

رآه كأسد جائع إلى إحقاق الحق وقد قرر الزحف بأسرته الصغيرة قليلة العدد والعدة ليواجه بها عدواً له من العدد والعدة الشي الكثير مما لا قِبَل له به ، وسمعه يردد :

فإن نهزم فهزامون قدماً ... وإن نغلب فغير مغلبينا

وما إن طبنا جبن ولكن ... منايانا ودولة آخرينا

إذا ما الموت رفع عن أناس ... كلاكله أناخ بآخرينا

فأفنى ذلكم سروات قومي ... كما أفنى القرون الغابرينا

فلو خُلِّد الملوك إذن خُلِّدنا ولو بقي الكرام إذن بقينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا [1]

ورأى في كفة الشهيد كيف تحرك في وجه معاوية حينما كان يعد ابنه للخلافة ، وتخيله جالساً فوق الرمال جلسة متواضعة زاهدة وهو يخط رسالة لمعاوية يطالبه فيها بأخذ يزيد فيما أخذ فيه من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش ، والحمام السبق لأترابهن ، والقيان ذوات المعازف وضرب الملاهي وترك ما يحاول من إيهام الناس فيه ، كمن يقدح باطلاً في جور وحنقاً في ظلم.

رآه يرفض البيعة ليزيد بكلمته الشهيرة « **ومثلي لا يبايع مثله** » ورآه يتمرد على طاعة إمام مزيف.

رآه وهو يخرج من المدينة إلى الكوفة ، ورأى مواقفه الشجاعة في مواقع الخطر ، وسمع أقواله وكلماته الأخيرة أمام أشداق الموت .. فلم يجد فيها أدنى اختلاف عن تلك التي عرفها منه وهو آمن مطمئن في المدينة بعيداً عن منازل حتفه.

ثم رآه فوق ثرى الطف رابط الجأش قوياً ، يشع وجهه بنور سماوي بينما يتساقط حوله خُلُص صحبه وأهل بيته ، وتُنتهك حَرَمه على مرأى منه.

رآه يقف كالأسد الهصور وحيداً يصيح في وجه أعداء الدين يدعوهم للبراز وهو يردد :

أنا الحسين بن علي آليت أن لا أنثني
أحمي عيالات أبي أمضي على دين النبي [2]

---

(١) اختلفت المصادر في نسبة هذه الأبيات ، فنسبها ابن هشام في السيرة لفروة بن مسيك المرادي ، ونسبها الفرزدق إلى خاله العلاء بن قرظة ، أما المرتضى في الأمالي فقد نسبها إلى ذي الإصبع العدواني وفي عيون الأخبار لابن قتيبة ، وفي شرح الحماسة للتبريزي إنها للفرزدق .

(٢) مناقب ابن شهراشوب ج٢ص٢٢٣

ورآه وهو يقبل ولده الرضيع ويودعه قبل أن يلقى حمامه ، ثم وهو يرفعه فوق يديه على مرأى من وحوش بشرية تحجرت قلوبها ، ورأى حرملة بن كاهل الأسدي يرميه بسهم فيذبحه وهوبين يدي أبيه.

رآه .. ورآه .. ورآه .. في كل موقف وفي كل ميدان .. رآه كما يرى الإنسان البرق فلا يلحقه ببصره ، رآه في الميدان ممدداً وشمَّر الكلب الأبقع ينيخ على صدره ويقبض على شيبته المقدسة ويضربه بالسيف قبل أن يحتز رأسه الشريف.

وتتوالى المشاهد بعد ذلك أمام ناظري المسلم منبعثة من كفة الحسين « ع » ، فيرى رأسه فوق رمح ، ويرى موكب السبي الذي يفتت القلوب ، ويعبر مجاز خياله منظر الرأس الشريف في طبق عند أقدام طاغية وقضيب ينكت شفتيه.

ومع ما كان يراه .. كان يسمع صوت العقيلة زينب يذكره ببيعة نفسه لشيطان أطماعه الدنيوية ليشتري بثمنها مكاناً مقيماً في الجحيم ، وحينما يصل إلى هذا الحد من الرؤى المنبعثة من كفة الشهيد « ع » .. ينفطر قلبه توجعاً وتدمع عيناه ندماً فيقرع صدره ويضرب خديه وما يلبث أن يلتفت نحو الكفة الثانية ليقارن بينهما ، فماذا يرى ؟

يرى يزيد جالساً بين ندمائه يعاقر الخمرة ويعابث النساء وأمامه كلاب مسرجة بحلل من ذهب ، وبعض الجواري ممن تحلين باللآلىء يرحن ويغدون بصوان من ذهب خالص ، وأمامه صينية ملأى باللؤلؤ الناصع ، وعند رجليه شاعر معروق يقول فيه قصيدة ركيكة المعنى والمبنى .. وهو منصرف عنه يقهقه بصوت ماجن ، وأصابعه المحشوة بالخواتم تعبث بصدر جارية رومية .. وينتهي الشاعر من قصيدته فيتنبه لذلك ويعتدل لينشد بدوره :

أقول لصحب ضمت الكأس شملهم ... وداعي صبابات الهوى يترنم

خذوا بنصيب من نعيم ولذة ... فكلٌ وإن طال المدى يتصرَّم[1]

(١) راجع حياة الحيوان للدميري ج٢ص٢٧٠

وهو في مجلس شرابه وندمه .. إذ بأحد الخدم يقتحم عليه قصفه ويسرُّ بإذنه ببضع كلمات يتغير على إثرها لون وجهه ، ويهب لا مبالياً ، وقبل أن يغادر .. يطلب من وكيل جلسته أن يحشو فم الشاعر المعروق لؤلؤاً تكريماً له..ثم يختفي عن الأنظار ليظهر أمام أبيه المحتضر.

وفي صمت يتقبل منه وصيته الأخيرة ، لينطلق بعدها في عمليات لا حد لها من التهور مخالفاً بذلك وصية والده في بعض فقراتها.

رآه خلال ثلاث سنوات ، قاتلاً مفضحاً ، بدأ ولايته بقتل الحسين وفي سنته الثانية استباح المدينة ثلاثة أيام بعد أن نهبها وقتل فيها سبعمائة من المهاجرين والأنصار وعشرة آلاف من الموالي والعرب والتابعين ، وافتض ألف عذراء [(١)].

رآه يداعب قرده « أبا قيس» ويلبسه الحرير ويطرزه بالذهب واللآلىء ويركبه أتاناً في السباق ويجهد كي يجعله سبَّاقاً على الجياد .. ويقول فيه :

تمسك أبا قيس بفضل عنانها فليس عليها إن سقطت ضمان
ألا من رأى القرد الذي سبقت به جياد أمير المؤمنين أتان [(٢)]

ورآه متثاقلاً متمارضاً بينما جيش أبيه يتجه إلى القسطنطينية ، وسمعه حينما ضرب الجوع والمرض هذا الجيش في منتصف الطريق ، ينشد هذه الأبيات التي تدل على ختله وخداعه :

ما أن أبالي بما لاقت جموعهم بالفرقدونة من حمَّى ومن موم
إذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً بدير مران عندي أم كلثوم [(٣)]

---

(١) الذهبي في سير أعلام النبلاء ، ورسالة الجاحظ ص ٢٩٨ الرسالة الحادية عشرة في بني أمية ، عن المقتل للمقرم .

(٢) أمالي الزجاجي ص٤٥

(٣) الكامل لابن الأثير ج٣ ص١٩٧

ورأى معاوية حينما بلغه هذان البيتان .. يقسم ليلحقن ابنه أمير المؤمنين المزمع بالجيش تفادياً للفضيحة ودرءاً لشماتة المسلمين بعد شيوع هذا القول في مختلف الأوساط.

ورأى يزيد يطلب من ابن زياد بث عيونه خلف الحسين خلال توجهه إلى العراق وحبس الناس على الظِّنة وقتلهم على التهمة.

ورآه في حضن أمه ميسون بنت عبد الرحمن بن بجدل الكلبي بعد أن ولدته من عبد لأبيها مكَّنته من نفسها..

ورآه على شاكلة جده أبي سفيان عدو اللّه والإسلام الذي قاد الحرب ضد القرآن في بدر وأحد والأحزاب.

ورآه على شاكلة جدته هند المغرمة بحب السود ، والتي أنجبت والده معاوية بعد زواجها من جده بثلاثة أشهر .. والتي أكلت كبد حمزة عم الرسول ، ولُقبت بآكلة الأكباد.

رآه على شاكلة أبيه معاوية الذي حارب علياً في صفين وقتل عمار بن ياسر وسمَّ الحسن ومالك الأشتر وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد .

رآه ينشد: « **ليت أشياخي ببدر شهدوا** » حينما رأى رأس الحسين على سن رمح ورآه يشرف من قصره على موكب السبي المشدود بالحبال على أقتاب الجمال ، ورأى الإمام زين العابدين وفي عنقه الأغلال ، ورأى رؤوس شهداء الطف فوق أسنَّة الرماح ، وسمع قهقهته وهو ينكت ثنايا الرأس الشريف بالقضيب .

رآه يأمر.. فيتحول أمره إلى إبادة لذرية الرسول ، ويأمر.. فيُحتز رأس ريحانة الرسول ، ويأمر.. فيوطأ جثمانه الطاهر بحوافر الخيل .

رأى ، ورأى ، ورأى ، حتى كادت المشاهد تختلط ببعضها مع ما فاض في مآقيه من دمع ، وبين كفتي الحسين ويزيد أخذ بصره يتابع بحدة وسرعة كثافة الرؤى والأحداث ، فغدت هذه الرؤى كشريط ذكرى وتذكُّر يعرض أمام ناظريه بما لا

يجعله يقف طويلاً عندها بعد أن بلغت روحه التراقي ، ولم يعد بإمكان مشاعره المثلومة أن تركز على ما يعرض أمامه وما يراه بصره خلال تنقله بين كفتي الخصمين .

رأى الحسين ، ورأى يزيد ، ورأى معاوية ، ورأى علياً ، ورأى زينب ، وها هو الشريط يتسارع أمام عينه ، وها هو :

الحسين طفلاً بين يدي جدِّه ، وجدُّه يقول : « **اللّهم أحبَّه فإني أحبه** »
علي يقول لابنه الحسين : « **من سلَّ سيف البغي قُتل به** »
يزيد يرقِّص القرد كقراد..
الحسين يهتف : « **قوموا رحمكم اللّه إلى الموت الذي لا بد منه** »
يزيد يهتف : « **أسقني شربة تروي مشاشي** »
معاوية يأخذ البيعة بحد السيف..
زينب تصرخ : « **يا جداه يارسول اللّه أنا ناعية إليك ولدك أخي الحسين** » ..
يزيد بين القيان والجواري .. ووسط نساطرة الشام
الحسين يهب مال بيته للفقراء
يزيد يحشو فم شاعر باللؤلؤ
علي : « **ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه** »
زينب في وجه يزيد : « **فواللّه ما فريت إلا جلدك ولا حززت إلا لحمك** »
يزيد يقول لعلي بن الحسين : « **ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم** »
معاوية يدس السم لخصومه السياسيين
الحسين مقطوع الرأس في كربلاء
يزيد يأمر بمنع الماء عن الحسين ويشير إلى الرأس الشريف ويسأل :
« **أتدرون من أين أتى هذا ؟** »
الحسين بين أمه فاطمة الزهراء وأبيه علي
يزيد بين أمه ميسون وأبيه معاوية
معاوية يحتضر ويكذب بأن الرسول « ص » كساه قميصاً وقلّم أظفاره يوماً
الحسين يهتف : « **ألا من ناصر .. ألا من معين ..؟** »

الحسين يستعطف قوماً غلظت قلوبهم لجرعة ماء لرضيع
معاوية في غبش الرؤيا ، خفي المعالم ، غامض المبادىء والمواقف
الحسين المقتول سبط الرسول الكريم
يزيد القاتل ابن معاوية الثعلب ..
علي جامع الفضائل وحامل راية الإسلام من يد النبي
معاوية يغتصب الخلافة لابنه عنوةً
آل البيت أحق بالخلافة من بني أمية
الحسين سيد شباب أهل الجنة وطالب الإصلاح في أمة جده
يزيد جعل الخلافة الإسلامية بيد السفهاء والقيان والفهَّادين والغلمان ..
الحسين استشهد مع عترة النبي دفاعاً عن عقيدة الإسلام .

و في مثل هذه المواقف التي وجد المسلم بها نفسه ، تعصف به رياح الشك والندم فيما كان .. وقف متأملاً على مفترق عدة طرق بعد أن أججت ضميره عصفة إثر عصفة من عواصف المثل الثورية الجديدة ، فدفعته إلى التساؤل بينه وبين نفسه ، وكان يسمع إجابات داخلية ، تربِّت حيناً وتدغدغ حيناً آخر وتدق مراراً ..

وقف يسأل على مفترق طرق قبل أن يقرر سلوك إحداها ليصل إلى ما يعزم عليه وإلى الهدف الذي يتبدى له أصلح من غيره نتيجة ما يتجمع في قناعاته ، وما يتولد من أفكاره ومبادئه ، وما تفرزه الأحداث والخضات التي أصابته في الصميم ..

سأل نفسه :

● **من أنا ..؟**

أجابته نفسه :

- أنت مسلم ما بعد الثورة

● **وما كنته قبلها إذن ..؟**

- لم تكن شيئاً .. فقد بعتني للشيطان وقبضت الثمن ..

● **كيف ..؟**

- رأيت الباطل فسكتَّ عنه

• لم أكن أعرف أنه باطل!

ـ بل عرفت .. ورأيت الحق يداس فلم ترفع إصبعاً ..

• لم ألحظ هذا الأمر ..!

ـ بلى .. لحظته وتعاميت

• لم يصل إلى مسمعي ..

ـ بلى .. وصل وتصاممت

• ما كان عليَّ أن أفعل ..؟

ـ أن تهب وتقتلع

• أقتلع ماذا ..؟

ـ الزيف .. الظلم .. الضنك .. انتهاك العقيدة

• ومن أين لي القدرة وأنا الضعيف ..؟

ـ لست ضعيفاً .. بل قوياً .. تعاميك و صممك قوة

• وهل أقدر على الطغاة ..؟

ـ أجل .. بنصرتك رافعي لواء الحق

• ومن هم هؤلاء ..؟

ـ الحسين

• وأين كنت سألقاه لأنصره ..؟

ـ في قلبك وداخل مأوى عقيدتك

• لو أدركته لنصرته ..

ـ ما دمت سكتَّ عن يزيد فلن تنصر حسيناً

• وهل نصرتي كانت ستفيده ..؟

ـ عندما تنصره تضيف لسيوفه سيفاً جديداً

• لا أكذب .. فلم أعِ ذلك في حينه ..

ـ ألم أقل لك أنك تعاميت وتصاممت .. فلم تعد ترى ولا تسمع ..؟

• ولكني مسلم .. وطاعة الخليفة واجبٌ عليَّ

- الخليفة الذي قتل سبط نبيك باسم إسلام جدّه ..؟

● ...

- لقد اشتريت دنياك بآخرتك

● **أنا نادم بعد أن علمت بما جرى**

- وما يفيد ندمك الآن أيها المسلم ..؟

● **ألا يفيد بشيء ..ألا يمكنني فعل شيء ..؟**

- بلى .. يمكنك مقايضة دنياك بآخرتك

● **أنا مستعد لهذه المقايضة ..علَّ ضميري أن يرتاح**

- إذن فهل تقر بأنك لم تنصر الحسين ..؟

● **أقر ..**

- وبأنك نصرت يزيد بسكوتك على مخازيه..؟

● **أقر ..**

- وهل لديك فكرة عن كيفية إراحة ضميرك ..؟

● **بأن أنصر الحسين .. وأناجز يزيد**

- ولكن الحسين قُتل ولم يبق إلا مبادئه وشعارات ثورته

● **سأسير إذن على هذه المبادىء منذ الآن فصاعداً**

- وهل بمكنتك وأنت خارج للتو من معمعة تخاذلك ..؟

● **يا نفسي ارحميني ..كنت ضالاً فاهتديت .. وكنت طماعاً فتعافيت**

- لثورة الحسين شعارات لا يحتملها إلا المؤمن

● **أنا مؤمن .. أنا مؤمن**

- وكيف ستبرهن على إيمانك ..؟

● **بكوني مسلماً .. وبعملي بمبادىء الحسين منذ التو**

- لا يكفي هذا .. فقد كنت مسلماً حينما خذلته ..

● **يا نفسي .. رحماك .. أشيري بما يتوجب عليَّ فعله وسأفعله**

- أولاً .. أن تُلزم نفسك بكل كلمة نطق بها سيد الشهداء ..

• سأفعل ..

ـ وأن تعمل بكل مبادئه مهما لحقك من أذى ..

• لم تعد تهمني حياتي .. بل راحة ضميري كمسلم

ـ وأن تبدأ منذ الآن بهدم أصنام مجتمعك وأخلاقك ..

• سأهدمها ..

ـ وأن تنصر الحسين ..

• تقصدين مبادئه التي أعلن عنها ..؟

ـ أجل .. وقصدي أن ترعى بنفسك ما زرعه في داخلك .. وتتمم ما بدأه فيك

• هلا أخبرتني بما زرعه لأكون على بينة ..؟

ـ زرع فيك حب الخير ، وعشق الحق ، وسلامة العقيدة ، والثورة على الظلم ، والتصدي لمحرفي السنن وزارعي الفتنة ومحقري الرسالات السماوية

• ويلاه حينما ألقى وجه ربي ..كل هذا كان ونحن عنه غافلون ..؟

ـ أجل .. ولهذا ثار الحسين ولهذا قتل مع ذرية الرسول

• كفى يا نفسي .. كفى .. أكاد أذوب حسرة

ـ وأنت ساكت عن كل ذلك

• آه .. إني حزين ونادم ، ليتني أفقت قبل ذلك ، كنت نائماً مخدراً قبل أن رأيت رأس سبط الرسول على سن رمح كرأس قاطع طريق أو مجرم

ـ أتعرف من فعل ذلك ..؟

• أعرف .. أعرف .. يا ويلك يا يزيد من انتقامي

ـ لقد قُتل حفيد محمد وبضعته ، وابن علي مكرَّم الوجه ، وقرة عين المعصومة فاطمة ، وشقيق حبيبته زينب ، ووالد المشرَّفين سكينة والسجاد .. هؤلاء أخيار اللّه من عترة نبيك الذي هداك إلى رسالته

• سحقاً لك يا يزيد وسحقاً لي ولكل من سكت عنك .. ولكن صبراً فلن تفلت من انتقامنا

ـ لو قلت هذا مع حسين لما تحملت وزر دمه الطاهر

• ليتني قلته معه

- كنت خنوعاً ذليلاً وقتها ، مساوماً على إنسانيتك لشيطان أطماعك ، مؤثراً السلامة على سلامة دينك ، فقبحاً لك

• ...

صوت بكاء ونشيج ولطم على الخدود

- عشرون عاماً بعد مقتل أمير المؤمنين علي ، وأنت صامت حيال التقتيل والظلم وسرقة الأموال واستباحة الأعراض وتحريف السُّنة

• ...

صوت البكاء يعلو ويزداد لطم الخدود ..

- كنتَ مغرماً بعشق ذاتك حتى بلا اللّه خيارك ، فوجدت نفسك كاذباً في موطن ابن بنت نبيك ، فبخلت عنه بنفسك حتى قُتل أمام عينيك وأنت لا تمد لنصرته يداً ولا تجادل عنه بلسانك ولا تقويه بمالك .. فما عذرك عند ربك ساعة لقاء نبيك..؟

• ...

عويل وصراخ كصراخ الذبيح وقرع على الصدور..

- لقد ونيت وتربصت وانتظرت حتى قُتل فيك ولد نبيك وسلالته وبضعة لحمه ودمه وريحانته ، وسيد سباب أهل الجنة ، فحقَّ عليك سخط ربك

• كفى يا نفسي فأنا راغب في الموت تكفيراً عن إثمي .. فارشديني

- لا عذر لك أمام نبيك يوم القيامة إلا عندما تقتل قاتلي ابن نبيك ، فلا ترجع إلى أهلك وأطماعك الدنيوية حتى ترضي اللّه ونبيه بالانتقام من قاتلي شهيد كربلاء

• لن يهدأ ضميري حتى أقضي بما تشيرين

- هيا إذن .. أصلح مجتمعك وأخلاقك وطهِّرهما

• وهل سأكون وحدي ..؟

- عندما تخطو وحدك ستلتقي خطواتك بخطوات مسلم آخر على الدرب

• وإلى أين يقودنا الدرب ..؟

- إلى عرش يزيد وإلى صرح كل طاغية وظالم

● **وإذا سقط يزيد .. هل يصلح الإسلام ..؟**

ـ ثورة الحسين لم تقم لإسقاط عرش يزيد .. بل لدك عروش البغي في كل زمان ومكان

● **لم أفقه شيئاً ..؟**

ـ ستفقه كل ذلك بعد أن تؤدي ضريبة دينك وعقيدتك وتكفِّر عن إثمك ، وتبرهن على ندمك بخذلانك الحق والسكوت عن الباطل ، عندها ستتفتح بصيرتك وتفهم كل شيء

● **ومبادىء ابن النبي الأكرم .. لن تستعصي على ضميري اللَّهوف إلى تشربها..؟**

ـ أجل .. لن تستعصي بعد أن تفعل ما أمرتك به

● **وهذا المفترق .. بأي طريق أسلك منه لأصل إلى خلاص نفسي ..؟**

ـ اسلك هذا الطريق الذي قل السالكون فيه لأنه طريق الحق الموحش الذي عناه أمير المؤمنين علي .

● **وهذا الطريق سيمكنني من إراحة ضميري والتكفير عن تقصيري وإعادتي إلى حظيرة نبيِّ محمد والانتقام من قاتلي سبطه وذرية بيته ..؟**

ـ أجل .. وسيستردني من الشيطان الذي بعتني له .. أنا نفسك

● **وما اسم هذا الطريق ..؟**

ـ طريق الحسين .

***

معجزات الشهادة الزمنية

فيالك حسرة مادمت حياً ... تردد بين حلقي والتراقي

فلو فلق التلهف قلب حي ... لهمَّ اليوم قلبي بانفلاق

فقد فاز الألى نصروا حسيناً ... وخاب الآخرون الى النفاق[1]

هكذا كان يقول لسان حال « **مسلم ما بعد الثورة** » فهو بعد خذلانه لبطل الطف صار يحسُ نقيصةً تفري ضعفه الباطني ، جعلته يتفرس طويلاً في خيالات أولئك الأشاوس الذين قضوا فوق ثرى كربلاء دون الحق الذي رفع رايته أسد الحق وسار بها الى حيث المصارع والحمام وهو عالم بما ستؤول إليه حركته .

وحركة الحسين «ع» كان لها هدفان لا ثالث لهما ، الأول : إحداث رجَّة عنيفة في كيان الأمة الإسلامية ، وهذا هدف مبدئي وليس مرحلي أو نهائي .. والثاني : وضع الأسس النهائية والمبادىء الضرورية لحفظ كيان العقيدة إلى الأبد ، محاذراً بها أن تزل أو تضعف أو تضمحل على يد أفراد أو سلاطين ، وهذا هو هدفها الجوهري والرئيسي والأساسي .

وليس في سدى الحركة أو لحمتها ما ينبىء عن هدف ثالث ، وكل الذين وضعوا

(١) أبيات قالها عبيد الله بن الحر الجعفي ندماً على قعوده عن نصرة الحسين « ع ».

لهذه الحركة هدفاً ثالثاً .. إنما كانوا يرتدون بها من حيث لا يدرون ويقصدون إلى مسار آني مرحلي لا يملك من مبررات وجوده إلا الوقت الزائل بزوال أسبابه ، غافلين عن كنه الحركة وسرمدية كينونتها .

فما ذهب إليه مؤرخو الحركة من إسناد هدف إسقاط عرش يزيد أو حكم بني أمية لثورة الحسين كهدف بحد ذاته قامت الثورة لأجله ..كان في معظمه إسناد لا يتكىء على الحقيقة الجوهرية للثورة .

فسقوط عرش يزيد كان واحدة من معجزات الثورة الزمنية تلك المتعلقة بأشكال الحكم القائمة ، أو بالأفراد الذين يسوسون الأمة في تلك المرحلة ، وإذا كان لهذه المعجزة من سبب وهدف فليس إلا لأنها متممة للمعجزتين الروحية والاجتماعية[1] اللتين كانتا الهدف الأسمى لثورة الشهيد .

وبتحديد أدق كانت المعجزة على مستوى ضمير أمة الإسلام هي الهدف الأوحد لثورة الحسين ، الذي به قُوِّمت الأمة وعقيدتها ، والتي شكلت أساس كل المعجزات الأخرى التي لا بد وأن تتحقق من أجل استكمال صورة المعجزة الروحية بتمامها ، فتصبح لها سنداً وعضداً وعاملاً مكملاً .

فإذا نظرنا إلى ما ذهب إليه البعض من إسناد هدف إسقاط عرش يزيد بالذات إلى حركة الحسين ، وإذا قمنا بدراسة متعمقة لأفكار ومبادىء ومواقف هذه الثورة منذ انبعاثها شرارة صغيرة حتى اكتمالها حريقاً هائلاً يأكل هيكل الأمة الإسلامية المنخور ليشيد على أنقاضه بناء صلداً شامخاً ، لما وجدنا أية إشارة لكون الحركة تضع مشكلة إسقاط عرش يزيد كهدف ، سواء أكان هدفاً مرحلياً أو مبدئياً أو نهائياً ضمن أهدافها .

فالثورة لم تكن ثورة لفردية مجتمع أو لشرعية حكم ، بل كانت ثورة الإنسان

---

(١) الباحث الانجليزي « جون آشر » يقول : إن مأساة الحسين تنطوي على أسمى معاني الاستشهاد في سبيل العدل الاجتماعي .

وشرائع الفطرة الدينية السليمة ، ما دام الإنسان هو المستفيد منها ، فلا يحيد عن سُنته مهما تبدلت وتنوعت شرائع الحكم وفطرة المجتمعات ، له في هذا الناموس الإلهي مرشداً : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة اللّه التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق اللّه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون[1] ».

إن الرمز العميق في ثورة الحسين لآية تنحت في الفطرة الإلهية السرمدية التي لا زمان ومكان وأحكام تقيدها ، فإذا كان ثمة من تبدل أو إكمال لهذا الرمز في بعض مواقع وظروف .. فليس معنى ذلك صيرورته رمزاً ظرفياً أو زمنياً صرفاً ، بل إن الظرفية والزمنية تنجرفان أمامه أو تلتصقان به بحكم مروره فيهما أو فوقهما .

وعندما جاءت هذه الثورة لم تطلب من الإنسان أن يأخذ بجزئياتها وتفاصيلها ، بل دعته للنظر إليها بمنظور شمولي ، وأن يقف بعيداً عنها مسافة كافية ليتبينها جيداً ، فهي شكلت الإطار والصورة معاً ومن الإغماط لها كثورة قدسية أن ننظر إليها كصورة فحسب أو كإطار وحده .

فلو نظرنا إليها بهذه الكيفية .. لكنا كمن يخضب الفطرة الإلهية بالصنعة البشرية ، ولوجب علينا أن ننظر بمقياسها إلى موقعة كربلاء نظرة مادية صرفة تقودنا إلى اعتبارها موقعة عسكرية ليس إلا .

فهي في شكلها المادي الصرف .. موقعة عسكرية بحتة هزمت فيها الكثرة القلة ، وفي مضمونها لا تنطوي على أدنى شبه بالمعارك العسكرية .

وكرمز روحي وكعبرة زمنية موحى بها من السر الإلهي ، كانت المعركة من جانب الحسين رمزاً لوقفة الحق على ضعف وسائله لا لحمته ، ومن جانب يزيد كانت رمزاً لجولة الباطل الذي يفوز بوسائله على بطلانها .

فمن هذه النقطة بالذات يتاح لنا النظر إلى إكمال المعجزة الروحية الأساسية للثورة ، بمعجزة زمنية تتجلى في سقوط عرش يزيد بواسطة ذلك الحق ضعيف

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الروم .

الوسائل ذاته الذي كانت له الغلبة عليه في كربلاء .. بأنها عكس لدورة الحق والباطل ، وتبيان للقوة الحقيقية لكل منهما ، وفي هذا سر فوق بشري تقدمه العناية الإلهية لمن شككت نفوسهم وتهاوت عزائمهم أمام نجاح جولة الباطل ، كما حدث للضحاك بن عبداللّه المشرقي الذي لازم الحسين منذ بدء ثورته ، ولما لم يبق فوق أرض المعركة إلا اثنان كان هو ثالثهما .. استأذن الحسين بالذهاب تاركاً إياه أمام قوة الباطل ، نافذاً بجلده ، مستشعراً ضعف وسائل الحق التي يحارب بها .

وفي موقف الضحاك عكس لموقف الحر بن يزيد الرياحي الذي انضم إلى الحسين عن وعي تام بغلبة الباطل على الحق ، فترك صف الباطل المنتصر وانضم إلى صف الحق المتهيىء للهزيمة .

وفي قولة الرسول الأعظم : « **أنا وأهل بيتي شجرة في الجنة وأغصانها في الدنيا فمن تمسك بنا اتخذ إلى ربه سبيلاً** » .. دلالة كافية على حتمية التمسك بالشريعة التي هي سبيل إلى الرب لا إلى غاية زمنية أخرى .

إلا أن معجزة الشهادة الزمنية فرضتها حتمية الشهادة بذاتها ، فالحسين عندما ثار لم يقل : إني خرجت لإسقاط عرش يزيد أو دكِّ عروش بني أمية .. بل قال : « **وإني لم أخرج أشِراً ولا بطِراً ولا مفسداً ولا ظالماً ، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي** » .

خرج لطلب الإصلاح في أمة محمد ولإحقاق الحق[1] في المجتمع الإسلامي ، ولرفع الظلم والضنك عن كاهل الفرد المسلم ، ولإحلال مناقبية أخلاقية جديدة تحل محل تلك المدجنة التي ربضت في النفوس ، ولذبِّ أذى المتهكين عن العقيدة الوليدة ..كان هذا هدفه ، وكان ضمير الأمة مرمى كرته .

لم يكن عرش يزيد إذن كهدف بحد ذاته سعى الحسين بثورته إليه ، بل كان هدفاً مكملاً لهدف أسمى لا دخل له بالعروش الزمنية بقدر ما كان دخله بأنماط الحكم في

---

(١) راجع نصوص الآيات الكريمة : ١٥٦-١٥٧-١٨١ من سورة الأعراف ، و١١٠ من سورة آل عمران .

كل زمان ومكان ، وبأنماط الشخصية الإسلامية وبأساليب أخذها للسنة والعمل بها ، كما لم تكن موقعة كربلاء معركة عسكرية انتهت في العاشر من محرم بانتصار وانكسار ، بل كانت رمزاً لموقف أسمى لا دخل له بالصراع بين القوة والضعف ، بين العضلات والرماح ، بقدر ما كان ذا صلة بالصراع الحقيقي بين قوة وضعف النفوس ، بين الشك والإيمان ، بين المسلم وعوامل إبعاده عن عقيدته .

وهو رمز يصلح لكل موطن وُجد فيه حاكم ظالم ، ولكل زمن اهتزت فيه العقيدة ، ولعل أفضل ما يصور كون هذا الرمز ناموساً لكل العصور والأكوان ، هذا البيت من الشعر :

كأن كل مكان كربلاء لدى عيني وكل زمان يوم عاشوراء

ولكن القوة لا تعمل إلا في حدود القوة ولا تجد فرصتها إلا في مسالكها ، أما الشعور فبمكمن لا يتصل به طغيان طاغية ولا تحامل باطل ، وفي هذا المكمن زرعت بذرة الحسين وامتدت فروعها فصارت فيئاً يستظله المضطهدون والمظلومون فيجدون في فيئه الراحة والسكينة .

والثورة قدمت طوق النجاة للمسلم الذي يريد الفوز بمرضاة اللّه ، فصار واحداً من أولئك الذين عناهم الرسول الأعظم بقوله : « مثل أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق » .

وليس المقصود في هذا القول الكريم ، من ركبها ركوباً مادياً في حينها ، أو تخلف عنها تخلفاً مادياً في ساعتها .. بل يشمل هذا المغزى كل الأجيال التي تولد مؤمنة تستلهم سيرة أهل البيت وتسير على هديها ، فتكون كمن تركب سفينتها لتنجو في أي وقت صحَّت فيه عزيمتها .

وثورة الحسين «ع» هي السفينة التي مخرت عباب الباطل ولم تزل في اليم حتى الآن ، في رحلة بدأت أزلية وتنتهي سرمدية بانتهاء الدهور .

وعجباً أن تكون هذه السفينة في العباب كل هذه القرون ، لم تزدها حمولتها

التي تثقل يوماً بعد آخر وسنة بعد أخرى .. إلا خفة ومضاء .

وفي رغبة الإنسان ، أي إنسان كان ، أن يركب هذه السفينة .. معناه حملٌ لراية الكفاح التي رفعها الحسين ، وهي راية للمسلم كما لغيره ، فالرسول الأعظم «ص» لم يحدد هوية من يركب السفينة بالمسلم فحسب .. بل بـ « **من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق** » وفي هذا التعميم شمولية لبني الإنسان عامة .

والمعنى المجازي في قولة الرسول ينفي الحرفية الكيفية عن القولة .. فركوب سفينة آل البيت يتجلى في رغبة العمل بمبادىء ثورة الحسين ، والغرق بعيداً عن السفينة معناه السكوت عن الظلم وتحريف العقيدة والعمل بروح بعيدة عن روح ثورة الشهيد ، أما السفينة فهي المبادىء ذاتها التي نادى بها الحسين فكان لها وقع صارخ في الضمائر جعلها تهب دفعة واحدة من سباتها العميق .

وعلى الرغم من تقادم العهد منذ قيام الثورة .. فإن الإنسان يسترجعها[1] حارة أمامه إذا ما نزعت نفسه إلى أخلاقياتها ، متى دعته الحاجة وحلت به المصائب وأناخت على خلقه مظالم حكامه ، فتعود إليه كما لو كانت متفجرة لتوها ، فيشارك فيها مكافحاً بصبره على بلائه ، وبوقوفه في وجه الظالمين[2] ، وبرفضه لمنطق

---

(١) على مسافة غير بعيدة من كربلاء خيَّم الحسين بينما أحاط به أعداؤه ومنعوا موارد الماء عنه ولا تزال تفصيلات تلك الوقائع واضحة جلية في أفكار الناس إلى يومنا هذا كما كانت من قبل ١٢٥٧ سنة وليس من الممكن لمن يزور هذه المدن المقدسة أن يستفيد كثيراً من زيارته ما لم يقف على شيء من هذه القصة ، لأن مأساة الحسين تتغلغل في كل شيء حتى تصل إلى الأسس ، وهي من القصص القليلة التي لا أستطيع قراءتها قط دون أن ينتابني البكاء .. الكاتبة الانكليزية ـ فريا ستارك .

(٢) المستشرق فيليب حتي ذكر في إحدى دراساته عن كربلاء أن اليوم الذي قُتل فيه الحسين بن علي وهو العاشر من محرم أصبح يوم حداد ونواح عند المسلمين .. ففي مثل هذا اليوم من كل عام تمثل مأساة النضال الباسل والحدث المفجع الذي وقع للإمام الشهيد ، وغدت كربلاء من الأماكن المقدسة في العالم ، وأصبح يوم كربلاء وثأر الحسين صيحة الاستنفار في مناهضة الظلم ..

الهدم ، فيكون بمقياس المعنى النبوي المقصود .. مشاركاً ثائراً كالقاسم وأخيه ، والعباس وإخوته ، وآل عقيل ، وعابس ، والحجاج ، والسويد ، وبرير ، والحر ، وكل الذين جاهدوا جهاداً مادياً إلى جانب الحسين وسقوا غرسة الشهادة في صحراء كربلاء بدمائهم الزكية .

وقد أخرج ابن ماجه وأبو يعلى عن الحسين«ع» قال : سمعت رسول اللّه «ع» يقول : « **ما من مسلم تصيبه مصيبة وإن قدم عهدها فيحدث لها استرجاعاً .. إلا أعطاه اللّه ثواب ذلك** » .

وفي عصر الضنك والظلم والتحريف هذا الذي نعيشه ، ما أحرانا لأن نتشرف بالأخذ بالمبادىء الحسينية ، ونجعلها لنا قانوناً حياتياً وأخلاقياً في كل ممارساتنا وتفكيرنا ، فكم من يزيد الآن فوق سطح هذه الكرة الأرضية ؟وما أدرانا أن يكون أحدنا ابن زياد أو ابن سعد أو الشمر من حيث لا يدري إذا كان في ممارساته العصرية ما يقربه من بعيد أو قريب من أولئك الشياطين المردة[1] .. فيكون كابن زياد عصره بعزوفه عن مبادىء الحسين ، وكابن سعد زمانه بتهاونه مع الظالمين ، وكشُمر مكانه في عمله ضد مبادىء الحق والعدل .. فيقتل الحسين من جديد في كل مرة يقف فيها مع الباطل والزائف ؟

فمبادىء الثورة الحسينية ليست شكلاً للحفظ فقط ، تأخذ شاكلتها كأنها مذهب صوفي أو تعليم نظري.. بل هي شيء كالاستحواذ يتمدد في القلب ويختلط في الفكر ، فيغدو صاحبها قلباً وفكراً .

لذا فإن أول ما مسَّت هذه المبادىء من نفس الإنسان .. مسَّت شعوره الإنساني وقلبه وفكره ، وأيقظت هذه المكامن ، فأحس بشعوره .. بالندم ، وبقلبه.. بالتوبة ،

---

(١) في كثير من الأحيان نواجه نوعيات شيطانية متلبسة هيئات بشرية .. نتأكد معها بأن يزيد وشمر وابن زياد وغيرهم يتكررون مجدداً في كل عصر ومصر ، ينتهكون الحق ويحلون الحرام ويحرمون الحلال ، بينما ليس ثمة حسين واحد .. فلنتأمل هذا .

ويفكره .. بضرورة التغيير[1] .

وإذا كنت قد أسهبت في هذه المقدمة قبل الخوض في معنى معجزات الثورات الزمنية التي اجترحتها شهادة الحسين .. فذلك لأبين مدى ما تفعله طفرة الإيمان الصادق في قرارة النفس البشرية ، ولأوضح على أن من معجزات الشهادة الأخرى أنها لا تقنع من أمرها بما حققته على مستوى ضمير الأمة وروحيتها ومجتمعها .. بل هي تكمل ذلك كله بتغيير الإطار الذي غيرت في داخله هذه الصور الثلاث ، ووجهتها الكمال تبغي من ورائه رفع الحقيقة بكامل جوانبها أمام الأعين ، فلا تترك مجالاً لمشكك ولا فرصة لمتخرص.

وفي كمال الشهادة لحظة جلوة العقول والأنفس والضمائر .. آخر مرحلة من مراحل معجزاتها ، حينما تُرفع آخر غلالة شفافة فتبدو الحقائق أشد وضوحاً ، وتنيل القائمين على أخذها شعوراً بالرضى عن ذواتهم .

ونعم الرضى إذا كان فيه ما يستوجب الشهادة مجدداً ، فمعجزة الشهادة قد تتطلب شهادة أخرى أو شهادات متواترة تفعل فعل النار حول الحديد ، لا تنفك تتأجج حتى تُحمى الذرَّات وتصبح قابلة للمعالجة .

وكما بدأت الإستجابات الفورية لثورة الحسين على مستوى الشعور بالهزة المبدئي ، ثم تلتها مرحلة التبصر في النفس والظروف والدوامات إلى أن وصلت إلى فترة الانفجار بعد أن مرت بمرحلة كمون نفسي وضميري .. فإن شكل الاستجابات للتغيير الزمني اتخذ نفس مسار أصداء الثورة الأولى .

وهكذا خف المتنادون من كل مكان وفي أحداقهم بقايا الكابوس الذي ران ثم عبر ، وتوافدوا إلى مصدر النداء يذوبون في مجهوله دون معرفتهم بكنهه إلى حيث

---

(١) انظر إلى رأي المستشرق الأمريكي « غوستاف غرونيام » الذي يقول فيه : إن وقعة كربلاء ذات أهمية كونية ، فلقد أثرت الصورة المحزنة لمقتل الحسين ذلك الرجل النبيل الشجاع في المسلمين تاثيراً لم تبلغه أية شخصية مسلمة أخرى ..

يعالجون فيه داء[1] ضمائرهم في انتفاضة تعيد لها العافية ، وإلى حيث يجددون ثوابهم مع اللّه على نصرة حسينه في مبادئه التي كرستها تضحيته فائقة السمو بعد أن خذلوه في خروجه المادي للثورة .

وكان أول الملبين لنداء المجهول جماعة أطلقت على نفسها « حركة التوابين » حيث تلاقت وتشاورت وخرجت بنتيجة أنها قد أخطأت بترك الحسين دون نصرة ، ورأى أنصار هذه الحركة أن لا مندوحة لهم من التكفير عن مقتل سبط النبي ، وذلك لا يحققه إلا قتل قتلته ، وفزعوا لهذه الغاية إلى خمسة من وجهاء الشيعة بالكوفة وهم : سليمان بن صرد الخزاعي ، والمسيب بن نجبة الغزاري ، وعبداللّه بن سعد بن نفيل الأزدي ، وعبد اللّه بن وال التميمي ، ورفاعة بن شداد البجلي .

وقد تداول الفزعون والمفزوع إليهم بأمر ما كان من غرامهم بتزكية أنفسهم حتى بلا اللّه خيارهم فوجدوا أنفسهم كاذبين في موطنين من مواطن ابن بنت نبيهم بعد أن بلغتهم كتبه وقَدمت عليهم رسله وأعذر إليهم يسألهم نصرته عوداً وبدءاً ، وعلانية وسراً ، وما كان من موقفهم حين بخلوا عليه بأنفسهم حتى قُتل إلى جانبهم ، فلا هم نصروه بأيديهم ولا جادلوا عنه بألسنتهم ولا قووه بأموالهم .

وفي جلسة المقارعة هذه مع الضمائر صاح في الجمع سليمان بن صرد الخزاعي الذي تولى منصب الزعامة قائلاً :

ألا انهضوا ، فقد سخط ربكم ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى اللّه ، وما أظنه راضياً حتى تناجزوا من قتله أو تبيروا ، ألا لا تهابوا الموت فواللّه ماهابه امرؤ

---

(١) كلنا مطالبون بالثأر لدم الحسين «ع» طال بنا الزمان أو قصر ، ولا يجب لأحدنا أن يتخلى عن هذا الواجب مهما كانت المبارت ، ففي مقدورنا كل في مكنته أن يساهم في هذا الثأر ، لأننا بفرديتنا نشكل عناصر البشرية التي أخطأت بحق آل البيت الكرام وعترة الرسول .. ونقف على سطح كرة الأرض ذاتها التي شهدت الملحمة ، وفي عبارة تجسد هذا المعنى نقلها ابن قولويه في « كامل الزيارات » والعلامة المجلسي في « بحار الأنوار » نقرأ : « ضمن الأرض ومن عليها دمك وثأرك يا ابن رسول اللّه » .

إلا ذل ، كونوا كالأول من بني إسرائيل إذ قال لهم نبيهم :

« إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم » .

وكانت صيحة ابن صرد بمثابة إشارة البدء لانتفاضات لم تكن لتهدأ أو تخمد بالقوة .. حتى تتأجج في مكان آخر .

وكانت ثورة التوابين أول ردة فعل لاستيقاظ الضمائر في أمة الإسلام ، تنادى لها شيعة المدائن والبصرة وجمعت أنصاراً لها نفراً بعد آخر ، ولم تكد تمضي باستدعائها وتنظيمها فترة وجيزة .. حتى مات يزيد ، فاتخذت الدعوة شكل الجهر بعد أن كانت سرية .

حتى إذا ما انقضت أربع سنين على تنادي التوابين للثورة وخمس على استشهاد الحسين ..حتى هبوا هبة ضمير واحد ورجل واحد يتناوحون ويبكون ندماً في ليلة جمعة على قبر الحسين ، ليندفعوا بعدها نحو الشام حيث أعملوا التقتيل في جيوش الأمويين حتى أبيدوا عن آخرهم[١] .

والتهبت نار الثورات بعد حركة التوابين التي اعتبرت حركة فجرها الشعور بالتقصير والندم والرغبة الصادقة في التكفير ، فلم تكن لتهدف وهي بهذا المنطلق إلا للانتقام ، وقد شاركهم نفر من غير الشيعة آملين في تغيير الحكم الأموي البغيض .

وإذا كان لهذه الانتفاضة من تأثير .. فإنها أفلحت في شحن جماهير الكوفة وإيغار الصدور ضد الحكم الأموي ، وهذا ما تُرجم بعد تفشي خبر موت يزيد إلى ثورة على العامل الأموي في الكوفة عمرو بن حريث وإخراجه من قصر الإمارة ، وتنصيب عامر بن مسعود الذي بايع لابن الزبير ، وفي تنصيبه انحسر سلطان الأمويين لفترة من الزمن عن أرض العراق ، وبانحسار ثورة التوابين بدا أن جرائر يوم عاشوراء بدأت في تصفية حساباتها والأخذ بحقها وثاراتها .

---

(١) الطبري ٤٢٦ - ٤٣٦

ثورة المدينة

دأبت العقيلة زينب «ع» مذ وصلت إلى المدينة بعد مقتل أخيها الحسين «ع» على إلهاب الخواطر وشحن النفوس للثورة والتأليب على حكم يزيد ، مما دفع بعمرو بن سعيد الأشدق والي يزيد على المدينة لأن يكتب لسيده عن نشاط زينب معتبراً وجودها بين أهل المدينة مدعاة لتهييج الخواطر ، ووصفها له بأنها فصيحة عاقلة لبيبة[1] .

كان وجود العقيلة زينب في المدينة أحد الأسباب الرئيسية ، ولكنه لم يكن السبب المباشر للثورة ، فقد تولّد هذا السبب بعد أن وفد إلى دمشق وفد من أهل المدينة وأشرافها بأمر من عثمان بن محمد بن أبي سفيان والي يزيد ، وقد أكرمهم يزيد أيما إكرام ، ولكنهم ما أن عادوا من لدنه .. حتى أعلنوا استنكارهم لحكمه وجاهروا بشتمه ولعنه وقالوا : « **قدمنا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ويضرب بالطنابير ويعزف عنده القيان ويلعب بالكلاب ويسمر عنده الخُرَّاب ، وإنَّا نشهدكم أنَّا قد خلعناه** ».

وقام عبد اللّه بن حنظلة الأنصاري وكان زعيمهم وقال : « جئتكم من عند رجل لو لم أجد إلا بني هؤلاء لجاهدته بهم ، وقد أعطاني وأكرمني ، وما قبلت عطاءه إلا لأتقوى به » .

وهبت المدينة واشتعلت ثورتها ، فسلط يزيد على الثوار رجلاً اشتهر بقسوته وحبه لسفك الدماء ، وهو المتوحش مسلم بن عقبة المري ، وطلب منه أن يسوم الثائرين البيعة سوماً لا رخصة فيه ولا رجعة .. فلم يكذب خبراً وكأنه كان في شوق لهذا الطلب .. فبادر على الفور باستباحة المدينة ثلاثة أيام وهتك الأعراض وقتل الألوف من الأنصار والمهاجرين وافتض أكثر من ألف عذراء ،كل ذلك من أجل أخذ البيعة : « إنهم يبايعون أمير المؤمنين على أنهم خَوَل له يحكم في دمائهم وأموالهم

---

(١) هذه الرواية ذكرت في « أخبار الزينبيات » وأوردتها بنت الشاطىء في « **بطلة كربلاء** » .

وأهلهم ما شاء[1] ».

وقد وصف ابن كثير المفاسد والأهوال التي أنزلها مسلم بن عقبة بأهل المدينة بقوله : « **من المفاسد العظيمة في المدينة النبوية ما لا يحد ويوصف** » ، ولم يكتف بالقتل بل عمد إلى التنكيل وإثارة مخاوف قتلاه قبل قطع رؤوسهم بالسيف .. ويحكى أنه لما جاؤوه بمعقل بن سنان أحد أصحاب رسول اللّه ، هشَّ له وأطعمه ثم سأله بعدها : « أعطشت يا معقل ؟ حوِّصوا له شربة من سويق اللوز الذي زودنا به أمير المؤمنين » ، فلما شربها .. قال له بلؤم :

« أما واللّه لا تبولّها من مثانتك أبداً ، وضرب عنقه » .

وقد مات هذا الجزار وهو في طريقه إلى مكة ليكمل ما بدأه من وحشية وإجرام في المدينة ودفن في الطريق ، ولكن بعض الغاضبين من أهل المدينة تعقبوه واستدلوا على قبره حيث نبشوه وأحرقوا جثته .

ثورة المختار الثقفي

ولعلها أقوى الثورات قاطبة وأعنفها وأمضاها نتائج ، إذ استطاعت أن تطيح بمعظم الرؤوس التي شاركت فعلياً في قتل الحسين ، ولقد جعل لها شعاراً بهذا المعنى : « **يا لثارات الحسين** » وربطها بمحمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب ، وفعل هذا الشعارفعله في تحريك ما استقر في وجدان الثائرين من غيظ .. فاندفعوا للالتفاف حوله وقد اطمأنوا إلى عدل ثورته وتمامها .

ولقد وقع عبداللّه بن مطيع عامل ابن الزبير بالكوفة في خطأ قاتل حينما أقدم على محاربة الثائرين مع المختار بنفس الرجال الذين تولوا قتل الحسين ، بعمر بن الحجاج ، وشمر بن ذي الجوشن ، وشبث بن ربعي وغيرهم ، مما أثار في نفوس الثائرين كوامن الانتقام ، وذكَّرهم بالجريمة النكراء التي اقترفها هؤلاء في كربلاء ، فكان هذا كافياً لإثارة عنفهم الذي تبدى فيما بعد.

---

(١) الطبري « **ثورة المدينة** » ٤ / ٣٦٦ - ٣٨١

وكما وقع ابن مطيع بمقتل .. أنصف المختار بتوليه الحكم في طبقة الموالي ، وهم المسلمون غير العرب الذين كان عليهم واجبات المسلمين ولم تكن لهم حقوقهم ، وكان الأمويون يضطهدونهم ، وقد أثار إنصاف المختار لهم حفيظة الأشراف وسادة القبائل فتكتلوا ضده وأجمعوا على حربه[١] وكان تكتلهم سبباً حفز المختار للتعجيل في تتبع قتلة الحسين وآله في كربلاء ، فتعقبهم بشدة ومضاء وأعمل فيهم القتل والتنكيل ، ولم يترك منهم من أحصى عليه ضربة أو كلمة في كربلاء وما قبلها وما بعدها[٢] .

وكان عنيفاً مع أولئك الذين شاركوا في مجزرة كربلاء ، فلم يترك ضارباً أو متكلماً أو ناهباً إلا وأوقع عليه عنفه ، فقتل عبيد اللّه وأحرقه ، وكذلك فعل بشمر بن ذي الجوشن وألقى أشلاءه للكلاب وطارد المئات والألوف من جندهم وأتباعهم وأغرقهم بالنهر ، ولم ينجُ من غضبته عمرو بن الحجاج وشبت بن ربعي وغيرهما .

وكانت هذه القسوة التي تبدت في ثأر المختار إحدى حكم معجزات الشهادة التي أداها سيد الشهداء ، فكانت العدل الكامل في ثوب الإبادة ، وكانت قصاصاً بآثمي العاشر من محرم استحقت الثناء والمباركة .

وكان قصاصاً اتخذ له من أولئك الآثمين في محرم وقوداً ، وجعل من جوف الكلاب قبراً للكلب الأبقع شمر الذي رآه الحسين في منامه يشد عليه أكثر من غيره ، فسبحان القادر مسيِّر الأحوال وموحي القصاص ومدبر العدل .

ثورة مطرف بن المغيرة

ولم تنقض سنوات معدودة على ثورة المختار .. حتى كان مطرف بن المغيرة بن شعبة يثور على الحجاج بن يوسف ثورة عارمة ، ويخلع عبد الملك بن مروان واليه على المدائن ، وقد كتب إلى أنصاره يدعوهم إلى كتاب اللّه وسُنّة نبيه وإلى جهاد من

---

(١) الطبري ٤ / ٥١٧

(٢) ذكرت عدة مصادر ومنها الطبري أن المختار قتل في يوم واحد مائتين وثمانين رجلاً .

عَنَد عن الحق واستأثر بالفيء وترك حكم الكتاب ، وذلك ليظهر الحق بجلائه وليمنع الباطل بضلاله.

ولا بد للمتبصر في دعوة مطرف من ملاحظة استمدادها روح كربلاء .

ثورة ابن الأشعث

وتستمر روح كربلاء في التفاعل بين المجتمعات ، وتمتد نارها إلى تحت العروش ، فلا تستكين الجماعات حيث تصلها هذه الروح الوثابة ، ولا تبقى عروش حيث تصلها هذه النار بلظاها المستعر .

فبعد أن قُمعت ثورة المدينة وانتفاضة الكوفة.. تأججت في سنة ٨١ للهجرة ثورة بقيادة ابن الأشعث هزت الحكم الأموي الذي كان على رأسه الحجاج ، ودامت حتى عام ٨٣ بعد أن أحرزت انتصارات ضخمة قبل أن يقضي عليها الحجاج بجيوش سورية[١] .

ثورة زيد بن علي بن الحسين

وقد بدأها في سنة ١٢٢هـ على هدي ثورة جده ، مقتبساً روحها في كربلاء ، وقد رفع لها شعاراً : يا أهل الكوفة أخرجوا من الذل إلى العز ومن الدنيا إلى الدين[٢] وقد استجابت لدعوة حفيد الحسين جماهير عريضة في طول البلاد الإسلامية وعرضها فبويع على الثورة في الكوفة والبصرة وواسط والموصل وخراسان والري وجرجان ، وكان مقدراً لهذه الثورة أن تكون أكبر الثورات المتفجرة من شرارات كربلاء لولا أن تم إعلانها قبل موعد استكمال تجهيزها ، وفي توقيت مختلف عن التوقيت المتفق عليه بين زيد وأهل الأمصار التي لبت دعوته .

وقد تعرضت هذه الثورة لأخطار عدة بسبب الجيش الأموي السوري الذي

---

(١) حلل هذه الثورة المؤرخ « ولهاوزن » في كتابه « الدولة العربية » ١٨٩ / ٢٠٣، وذكرها الطبري.

(٢) مقاتل الطالبيين ١٣٩ والدولة العربية ٢٧١

كانت قواعده في العراق ، إذ ما لبث هذا الجيش المتربص أن قضى عليها قبل أن تبدأ فاعليتها.

وكان من نتيجة هذه الحركة أن تولدت منها طائفة تدعى « الزيدية » برهنت على استعدادها للاشتراك في كل ثورة ضد السلطة الغاشمة .

واستمرت الثورات هنا وهناك آخذة شرارت اشتعالها من جمرات كربلاء المتقدة أبداً ، ولم يعد للحكم الأموي من شاغل إلا التصدي لها واستنباط الوسائل للقضاء عليها .

وجاءت ثورة العباسيين لتضع الخاتمة النهائية لتفجر الثورات التي استهدفت الحكم الأموي الذي كان مثالاً لفساد الحكم والعروش .. واستطاعت بما رفعته من شعارات وتزودت به من مبادىء الكفاح الحسيني .. أن تنتصر في النهاية وتطيح بحكم بني أمية ، فإذا بالدولة الأموية العريضة ذات العدد والعدة .. تذهب بلا وناء في وقت أقل من عمر رجل مثل معاوية .

ورغم أن ثورة العباسيين لم يكن لها ذلك الدور الجذري في تبديل واقع الشعب المسلم ، فيما عدا تبديلها للحاكمين فوق العروش .. فإن بنجاحها هذا لم تتوقف الثورات بعدها ، بل استمرت مشتعلة بلا انطفاء ، إذ توفر للعروش دوما أشباه ليزيد ، بينما ثمة حسين واحد كان لعظم وخلود مبادئه أن كانت تلد في كل يوم ولكل جيل ثائرين جدداً يتصدون للعمل بنورها العلوي ، ورفع راية الجهاد الحسيني الذي أضحى سمة الجهاد في كل زمان ومكان نبت فيهما يزيد جديد يعبث بالحق عبث صبيان في دمية ، ويكرس الباطل كهدف أسمى .

وهكذا تمت معجزات الشهادة التي أقدم عليها الحسين «ع» وآله وصحبه الأطهار وبلغت مداها ـ وإن لم تتوقف عنده ـ بالثورات الزمنية التي هدت عروش الظلم وأطاحت بحكم كان من المستحيل الإطاحة به لولا ما قدمته شهادة الطف من معجزات كان لها فعل السحر في العقول والضمائر ، وتأثير القدوة في نفوس ظامئة للمثل العليا .

وإذا كانت معجزات استشهاد عيسى «ع» قد تشابهت مع معجزات شهادة الحسين «ع» في فعلها داخل الضمائر والأخلاق والمجتمع .. فإنها لم تتشابه معها في المعجزة الزمنية التي تمثلت في سقوط الحاكمين ، إذ انتهت شهادة المسيح عند حدود الضمائر والأخلاق ومناطق العقيدة ، بينما تجاوزتها شهادة الحسين إلى إتمامها بمعجزات زمنية ، وذلك لحكمة إلهية تتدبر وتسيِّر .

فمن عجائب هذه الحكمة أن تجري هذه الحوادث والثورات التي تلت الشهادة ، كلماً على لسان من وقعت بجريرة قتله ، وذلك قبل وقوعها بعشرات السنين بنفس الشكل الذي صوَّره الشهيد وكأنه يقرؤها في لوح مكشوف أمام عينيه.

فبعد أن أنزل اللّه تعالى المذلة على من أهانوا وقتلوا شهيده الحسين «ع» ، فغدوا أذل من قوم سبأ .. تذكر المسلمون نبوءة شهيدهم التي استقرأ بها مآل بني أمية في الرهيمة :

« إن بني أمية شتموا عرضي .. فصبرت ، وأخذوا مالي .. فصبرت ، وطلبوا دمي .. فهربت ، وأيم اللّه ليقتلوني فيُلبسهم اللّه ذلاً شاملاً وسيفاً قاطعاً ويسلط عليهم من يذلهم[1] حتى يكونوا أذلَّ من قوم سبأ إذ ملكتهم امرأة فحكمت في أموالهم ودمائهم[2] ».

تذكر المسلمون هذه النبوءة واسترجعوا صور الذل التي ألبسها اللّه لبني أمية ، وكيف أهينوا كسفَلَة الناس ، وشرِّدوا كمنبوذين ، وولوا هاربين متعقَّبين كلصوص وقُتلوا بأعداد هائلة كمجرمين ، ومُثِّل بهم كرعاع أوباش ، وأنزلت بهم فظاعات من التنكيل لم تكن لتخطر ببالهم ولا ببال بني هاشم يوم صُرع الحسين[3] وأرعب أهل

---

(١) أمالي الصدوق ص ٩٣ المجلس الثلاثون .

(٢) رُوي الحديث بتمامه في مقتل الخوارزمي ج ١ ص ٢٢٦ ومثير الأحزان لابن نما .

(٣) ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وغضب اللّه عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً ، الآية ٩٣ سورة النساء .

بيته في أرض الكرب والبلاء ، وأهينوا في مسيرة السبي والعودة .

وفي المواقف المتشابهة .. تبرز الكلمات التي قيلت ، لاسيما إذا كانت تحمل استشفافاً بعيداً للمستقبل ، فقد تذكر المسلمون قولة شهيدهم أمام ولده وإخوانه وأهل بيته يوم نزل بكربلاء ، إذ قال وهو يبكي : « **اللّهم إنَّا عترة نبيك محمد قد أخرجنا وطُردنا وأزعجنا عن حرم جدنا ، وتعدت بنو أمية علينا ، اللّهم فخذ لنا بحقنا وانصرنا على القوم الظالمين**[1]» .

وأخذ اللّه تعالى بحق المكروب والمبتلي بكربلاء ، وكانت أيما أخذة ، تطايرت بها رؤوس بني أمية التي تعدت على عترة النبي وأخرجتها وأزعجتها ، فلم يُرَ مظلوم أخذ حقه بمثل ما أخذ حق المظلوم الحسين من القوم الذين ظلموه[2] .

وقد روى الحاكم في مستدركه قولاً للخطيب عن ابن عباس فقال : « **أوحى اللّه تعالى إلى محمد أني قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفاً ، وأنا قاتل بابن بنتك سبعين ألفاً وسبعين ألفاً** ».

وكأن سبحانه وتعالى لما رأى عظم عذاب الحسين .. أعطاه سلطة وضع نهايات ظالميه بالشكل الذي يتصوره ويصرح به ، وهذا ما يفسره وقوع كل ما تنبأ به وحذر منه أولئك الذين لطخوا أيديهم بدمه ودماء أهل بيته .

وما قاله للذين يحيطون به من جند الأعداء في صحراء كربلاء قبل بدء المعركة.. ليدخل في عداد المعجزات التي ما أوتيت إلا لعيسى ، فكأن الزمن تصرَّم واختُزل وكأن عشرات السنين ليست بذي بال حيال ما قاله الشهيد للذين وقفوا يسمعونه ، فكان من أمرهم بعد ذلك لا يختلف مقدار شعرة عما رسمه لهم من مصائر

---

(١) لا ينهاكم اللّه عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن اللّه يحب المقسطين ، إنما ينهاكم اللّه عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم ، فأولئك هم الظالمون ٨ - ٩ سورة « الممتحنة » .

(٢) ... ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً .. راجع نص الآية ٣٣ من سورة « الأسرار» .

ونهايات وما دعا ربه ليأخذهم به جرَّاء فعلتهم النكراء بحقه .

قال لأعدائه :

أما واللّه لا تلبثون بعدها إلا كريثما يُركب الفرس ، حتى تدور بكم دور الرحى وتقلق بكم قلق المحور ، عهد عهد إلى أبي عن جدي رسول اللّه ، فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن لأمركم عليكم غمة ، ثم اقضوا إليَّ ولا تنظرون أني توكلت على اللّه ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم [1]، واللّه لا يدع أحداً منهم إلا انتقم لي منه قتلة بقتلة وضربة بضربة ، وأنه لينتصر لي ولأهل بيتي وأشياعي [2].

فماذا يمكن أن نسمي هذا القول ؟ .. نبوءة ، رؤيا ، سلطة علوية خاصة بالشهداء الأبرار ، نفحة من السر الإلهي للمختارين ؟.. وإلا فكيف دالت الأمور بعد سنوات معدودات من قول هذه الكلمات ، إلى نفس الشكل الذي حددته وبنفس الكيفية التي جاهرت بها .. فكانت القتلة بقتلة والضربة بضربة ؟

ولنسمع الشهيد يكمل استقراء مستقبل الأيام فيقول «ع» :

« **اللّهم احبس عنهم قطر السماء ، وابعث عليهم سنين كسني يوسف ، وسلِّط عليهم غلام ثقيف**[3] **يسقيهم كأساً مصبرة** » ، فكانت السنوات التي وقعت بين تاريخ مقتله وتاريخ سقوط آخر أمير أموي .. ألعن من سني يوسف ، تسلط خلالها عليهم من هم أقسى من غلام ثقيف فأذاقهم زقاً مصبرة ولم يكتف بكأس واحدة .. فتبدد شملهم واندثر ذكرهم .

وكانت صرخته التي راحت شعاراً للثورة والمظلومين : « أما من مغيث يغيثنا .. أما من مجير يجيرنا .. أما من طالب حق ينصرنا .. أما من خائف من النار فيذب

---

(١) مقتل الحسين للمقرم ص ٢٨٧ عن تاريخ ابن عساكر ج ٤ ص ٣٣٤ ، واللهوف ص ٥٤

(٢) مقتل العوالم ص ٨٤

(٣) هو المختار بن أبي عبيدة الثقفي .

عنا ؟ » .. قد أضحت أمراً لكثيرين كي يهبوا لإغاثة مبادئه ، فازداد المجيرون وكثر طلاب الحق المناصرون لحقه ، وصار عدد الخائفين من النار أكثر من عدد رمل البحر ، يذبون عن العقيدة التي تكلم باسمها وعنى بها قوله : « يذب عنا » ، فانقلبت الموازين ، وغدا شعار إغاثة الحسين وإجارته ونصرته والذب عنه .. ناموساً وشريعة لدى كل المؤمنين ، سواء أكانوا مسلمين أو تحت أيِّ دين أو عقيدة انضووا ، وفي كل عصر ومصر ، وغدا الشهيد الحسين «ع» رمزاً وشعاراً واستلهاماً وأسلوباً دواماً على مدى تعاقب حقب الزمان وأجيال عشاق الحق الإلهي.

ولئن تحدثنا عن نبوءات الحسين التي تحققت بعد ردح من الزمن .. فإننا لن نغفل ما ألهمته هذه النبوءات للعقيلة زينب «ع» ، من استقراء للمستقبل القريب وهي التي كانت قريبة على الدوام من أخيها تسمع كل ما يلفظه فوه من كلام ، وكانت تحفظ في قلبها إلهاماته وتطوي عليها جوانحها فيوحي لها بكل ما تلفظت به كاستقراء للمستقبل.

فها هي في واحدة من هذه الاستقراءات المستقبلية ، حينما وقفت أمام يزيد وقالت له : « **اللّهم خذ لنا بحقنا ، وانتقم ممن ظلمنا ، واحلل غضبك بمن سفك دماءنا وقتل حُماتنا** » .

وإذا كان في قولتها هذه دعاء عام لكل من ظلمهم وقتل حُماتهم .. فإنها هنا في هذه القولة تحدد أكثر فتقول موجهة كلامها ليزيد :

« فواللّه ما فريت إلا جلدك ولا حززت إلا لحمك ولتردَنَّ على رسول اللّه وآله بما تحملت من سفك دماء ذريته وانتهكت من حرمته في عترته ولحمته ، حيث يجتمع شملهم ويلم شعثهم ويأخذ بحقهم » .

وهكذا أيضاً لم تشذ الأمور في ما تلا من أيام عن هذا الاستلهام قيد أنملة ، فكان يزيد ممن حزَّ لحمه وفرى جلده بيده ، ودلَّت ميتته وما تلاها .. على بعض ما ينتظره في الآخرة عندما يُحشر يوم القيامة ويُسأل عما تحمله من سفك دماء عترة نبيه تحت راية خلافة مزيَّفة .

ولعل الإلهام المستقرىء للمستقبل كان في عبارة العقيلة ليزيد واضحاً محدد المعالم بشكل غريب ، إذ قالت له :

« فواللّه لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا ، ولا يرحض عنك عارها ، وهل رأيك إلا فَنَد ، وأيامك إلا عَــدَد ، وجــمــعك إلا بَدَد ، يوم ينادي المنادي ألا لعنة اللّه على الظالمين » .

وقالت وهي مسبية : « المستقبل لذكرنا ، والعظمة لرجالنا ، والحياة لآثارنا ، والعلو لأعتابنا ، والولاء لنا وحدنا » .

وقالت لابن أخيها السَّجَّاد قبل أن يترك ركب السبي أرض كربلاء : « **فواللّه إن هذا لعهد من اللّه إلى جدك وأبيك ، إن قبر أبيك سيكون علماً لا يُدرس أثره ، ولا يُمحى رسمه على كرور الأيام والليالي ، وليجتهد أئمة الكفر وأشياع الضلال في محوه وتطميسه ، فلا يزداد أثره إلا علواً**[١] .

وقد برهنت الأيام وتكرار القرون على صدق هذا الاستقراء ، فلم يرحض عار الجريمة عن يزيد حتى فتكت به وراح بجريرتها ، فكانت أيامه عدداً وجمعه بدداً .

وكان المستقبل لذكر آل البيت[٢] مرهوناً ، والعظمة لرجاله موقوفة ، والحياة لآثارهم ناصعة ، والعلو لأعتابهم يزداد ، والولاء لهم وحدهم يتعمق .

واحتل قبر الحسين الشهيد كعلم لا يدرس[٣] .. أثره في الضمائر قبل الأرض ، ولم يزده كرور الليالي والأيام إلا رسوخ رسمه ، وما زادته اجتهادات أئمة الكفر وأشياع الضلال إلا بروزاً وثباتاً ، فازداد أثره علواً .

---

(١) كامل الزيارات ص ٢٦١

(٢) المستشرق الألماني يوليوس ولهاوزن يرى أنه بالرغم من القضاء على ثورة الحسين عسكرياً فإن لاستشهاده معنى كبيراً في مثاليته وأثراً فعالاً في استدرار عطف كثير من المسلمين على آل البيت «ع».

(٣) أورد ابن طاووس في مصباح الزائر : « اللّهم احرس هذه الآثار من الدروس وأدم لها ما هي عليه من الأنس ومواصلة ما كرَّمتها به من زوار الأنبياء والملائكة والوافدين إليها في كل يوم وساعة » .

ولنجل عيوننا الآن إذا كنا في شك من تمام هذه المعجزات التي اجترحتها شهادة سيد الشهداء .. لنجلها في كل البقاع والأصقاع باحثين عن أي أثر ليزيد أو معاوية أو شمر ، فلا يمكن أن نعثر على أي أثر لهؤلاء ، فقد اندرست آثارهم وانمحى ذكرهم ، وإذا ذُكروا .. فلأجل لعنهم والدعاء لهم بنار حامية لا تنطفىء .

ولنجل أبصارنا بالمقابل إلى أي مكان فوق هذا الكوكب ، فيطالعنا خلود الحسين ونسمع اللهج بذكراه .

ففوق كل مكان .. الحسين منارة هدي ، وفوق كل يم .. الحسين طوق نجاة ، وفي كل مظلمة .. الحسين قبس من نور وحق ، وأمام كل طاغية .. الحسين ثورة لا تُبقي ولا تَذَر ، هو «ع» ملء الأبصار والأسماع ، أمل للحائرين والمظلومين ، وبلسم للمجروحين المحزونين ، وشفاء لكل علة اجتماعية وأخلاقية .

ولنرَ الآن أين أولئك الظالمون وأين قبورهم[1] وكيف يذكرون .. لنقتنع بعظمة أقوال السبط العظيم ، وبخلود مبادئه خلود الإنسان الذي كانت لأجله .

ويكفي يزيد مهانة أن يعلن ابنه معاوية الثاني أمام حشد كبير .. براءته مما جنت أيدي أبيه وجده ، ورفضه الجلوس على عرش ملوث بدماء الحسين وآل البيت ، ويكفي الحسين خلوداً وتكريماً أن يعلن ابن قاتله عن حمل شعلة ثورته والعمل بوحي من مبادئه .

---

(١) قيل أن يزيد مات أثناء تلهيه بالصيد في حوَّارين من بلاد الشام ، ولم يُعثر من جثته إلا على فخذه ، فنقلت إلى دمشق ودفنت قرب الباب الصغير اليوم في غرفة مهجورة ليس لها سقف ملأى بالقاذورات والأخشاب المحطمة وقطع الحديد الصدئة وترتع فيها القطط الضالة ويرميها المارون بالحجارة ويبصقون على العظام التي تضمها تبرؤاً من يزيد وأفعاله المنكرة بحق عترة النبي وقتله لحفيده الحسين ، ولأن أحداً لا يعرف هذا المكان المهجور.. وجدها بعض الصبية فرصة لإرشاد الراغبين في الوصول إليه لقاء إكرامية يتلقونها منهم.. وعلى مقربة من هذا القبر وعلى مبعدة قليلة منه داخل الجامع الأموي المجاور لحي النوفرة تحج الألوف إلى مكان رأس الحسين في الجامع ، حيث تُلقى فيه النذور والتبرعات من القاصدين إليه للتبرك والتذكر .. فسبحان اللّه كيف تُعلي عزته من تشاء وتُخفي ذكر من تشاء.

ولنرَ الآن كيف يكرم المؤمنون على اختلاف أديانهم الحسين«ع» ، وكيف يستلهمون ثورته في قيامهم وقعودهم[1] ، في صغائر أمورهم الدنيوية وكبائرها ، فنمجد اللّه الذي كان رفوقاً بعباده إذ أعد لهم طوق خلاصهم ، ورفع أمام بصائرهم الكليلة منارة الفضيلة والحق بشخص الحسين الشهيد .

وإنها لعبرة ودرس علوي لبني البشر كي لا يعموا بصائرهم ويصموا أذانهم عن دعوات الحق التي يرسل لها تعالى أربابها لحكمة فوق مستوى إدراكهم .

قالت عزته : « وكما علَت السماوات عن الأرض ، كذلك طرقي علت على طرقكم وأفكاري على أفكاركم[2] » .

ونهضة الحسين «ع» هي السفينة التي عناها الرسول الكريم ، فمن يركبها ينجو ، ومن يتخلف عن ركوبها يغرق .

فما أجدر بالبشرية وهي تجتاز في هذا العصر المظلم أخلاقياً واجتماعياً وسلطوياً ، درب آلامها ، لأن تتوجه نحو منارة الحسين كيلا تضل ، وتتمسك بأطواق مبادئه كيلا تغرق ، وتسترشد بصرخته كي تبعد عنها وحوش الضلالة وثعابين الظلم والإذلال .

وما أحرانا الآن أكثر من أي وقت مضى ، لأن نستدفئ بحرارة قتل الحسين المنبعثة من قلوبنا حارة لا تبرد أبداً .

وهي حارة تستوطن قلوبنا ، ولا داعي للبحث عنها بعيداً عن صدورنا ، فهي جزء من حرارة قلوبنا ، إذا كنا مؤمنين .

ولنا في قولة الرسول الكريم : « إن لقتل الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد

---

(١) ذكرى عاشوراء تجديد لهذا الاستلهام ، وإعادة لذكرى الفداء العظيم الذي أنقذ دين الإسلام من الفناء .

(٢) أشعيا : ٥٥ / ٩ – ١٠

أبداً » .. دافعاً لإدراك حقيقة جوهرية لطالما تغافلنا عنها ، وهي أن حرارة قتل الحسين قد احتلت قلوبنا وامتزجت في دمائنا وصارت خلية من خلايانا ، ولو لم تكن حرارته كذلك .. لما أعطاها الرسول الكريم صفة الحتمية التي لا تحتمل تأويلاً ، فصلوات اللّه عليه لم يقل : « **ستظل حرارة قتل الحسين حارة** » فيعطيها صفة المرحلية .. ولم يقل : « **اجعلوها حارة في قلوبكم** » ..فيعطيها صفة البدء ، ويعطينا خاصية الاختيار والتقرير بين جعلها حارة أو تركها باردة ، ولم يقل : « **يجب أن يكون لقتل الحسين حرارة** » .. فيربطها بإرادة الإنسان ، فتخضع لمبدأ الوجوب أو عدمه .. بل كان في قولته « ص» تضمين حتمي بأن لقتل الحسين حرارة لا تبرد أبداً ، وهو تضمين لا يحمل صفة التعمية أو اللّبس ، بل هو تأكيد مجزوم بأن قلب المؤمن هو مقر ومستقر حرارة استشهاد الحسين ، لأن سدى هذا الاستشهاد من لحمة إيمان قلب المؤمن ، فهو إذن لا يحيا إلا بهذه الحرارة التي لا تتأجج حيث لا تبرد أبداً .. إلا في هذا القلب[1] .

قولة نبوية فيها من إعجاز الحكمة الشيء الكثير ، لو عملنا بمقتضاها لتبدلت حياتنا ، وما أظن إلا أنّا عاملون بهذا المقتضى ، ملتفتون إلى ما فيه من جوهر ، فحتمية اندفاعتنا العصرية وما يحيق بها من مظالم وقهر .. ستؤول بنا في النهاية إلى حظيرة الحسين ، حيث نجد فيها العدل والرحمة والطمأنينة ، وننفض عن ذاتينا كل وهن وخوف وشك .

فمن أحق من المؤمن في الاستفادة من نتائج شهادة الحسين .. ومن أولى منه في الدفء المنبعث من هذه الشهادة حيث يذوب أمامه صقيع أوهامه ؟

---

(١) حرارة المشاعر في القلوب هي الملهم للفكر والمحرك لإرادة الفعل وفي استيلاء حرارة الحب في القلب المحب دافعاً لإظهار مودته وعطفه نحو محبوبه بقدر كبير من الجزل والحبور ، وحرارة قتل الحسين «ع» المستوطنة في قلوبنا تؤجج في أفكارنا إلهامات إنسانية خيرة ، وفي مهجنا التماعات قدسية عذبة ، فننحو نحوها بجوارحنا لنذوب في نداء مجهولها لتخضوضر مناطق اليبوسة في حنايانا ، وفي هذا سر الحرارة والتأجج .

فهلاَّ كنا من المؤمنين الذين كـرَّمهم تعالى بأن جعل لقتل الحسين في قلوبهم حرارة لا تبرد أبداً .. وهل نحن أهل لهذه التكرمة وجديرون حقاً بهذه الحرارة .. ؟

قبل الإجابة .. لنسأل أنفسنا أولاً :

هل وعينا هذه الحرارة .. وهل تأكدنا من وجودها في قلوبنا [١] ؟

***

---

(١) التأكد يكون بعدة مظاهر .. أولاها : القدرة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونصرة المظلوم والدعوة إلى مكارم الأخلاق وعشق الحق والخير وتكريس مناقبية العدل والرحمة .

الأسباب البعيدة للثورة

بواعث الثورة لدى الحسين لم تبدأ في عصره وعصر خصمه يزيد ، بل كان لها جذور تاريخية بدأت منذ عهد قروم عبد مناف ، ثم إلى قريش ، فالها شميون والأمويون من أرومة واحدة إلا أنهم يختلفون عن بعضهم بالأخلاق والمثل ، إذ كان بنو هاشم أخلاقيين أريحيين ، بينما كان بنو أمية نفعيين دهاة ، لا سيما من كان منهم في أصل عبد شمس من الآباء .

ولعل خير وصف للأسرتين ذلك الذي قاله نفيل بن عدي لما تنافر له عبد المطلب وحرب بن أمية ، فقال لحرب :

أبوك معاهر وأبوه عف وذاد الفيل عن بلد حرام

وكان نفيل يشير إلى فيل أبرهة الذي أغار به على مكة ، ويعني أمية بـ «**معاهر**» لما عرف عنه من تعرضه للنساء ، وما أشيع من أنه ضُرب مرة بالسيف لتعرضه لامرأة من بني زهرة .

ولعل اختلاف الأمزجة والاخلاق هو الذي حدد مسار أجيال أبناء هاشم وعبد شمس ، فقد عُرف عن بني هاشم تعلقهم وعملهم في القيادة الدينية ، بينما عُرف عن عبد شمس عملهم في التجارة والسياسة وتكديس الأموال والأرزاق .

وإذا اختلفت الأمزجة والطبائع بين البشر .. فلا بد من اختلاف النظرة إلى الأمور

وإلى كيفية أخذها تبعاً لذلك ، لذا كان من المحتم أن تقوم المواجهة السافرة حيناً ، والمبطنة حيناً آخر بين فروع العائلتين المنحدرتين من عبد مناف.

وطبيعي إذا ما تفجرت مثل هذه المواجهة وتفاقم بين الأسرتين الخلاف ، أن يعرف المطلع وقد خبر فارق الطبائع والأمزجة .. من سيكون المعتدي ، ومن سيكون المعتدى عليه ، ومن يأخذ جانب الحق .. ومن يأخذ جانب الباطل .

ولو عرضنا هذا الأمر على مطلق إنسان ، لأجاب : بأن النفعي هو ممثل الباطل ، والأريحي هو ممثل الحق ، وعلى نفس المقياس يجيب أيضاً بأن التاجر والسياسي هو مشعل فتيل الخلاف على القائد الديني وداعية الأخلاق .

وإذا كان من غير الضروري الخوض في الأسباب التاريخية لخلاف بني هاشم وبني أمية في متن كتابنا التحليلي هذا ، تاركين هذه المهمة لكتب التاريخ الصرفة التي تهتم بسرد الحوادث دونما تحليل وإبداء الرأي حولها .. فإن ذلك لن يمنعنا من تقديم نبذة بسيطة عن هذا الخلاف مذ تفجر حتى وصلت نتائجه إلى عهد الحسين ويزيد وما كان من الحوادث التي تلت .

وما دمنا لا نبغي التركيز على تلك الفترات التاريخية إلا فيما ينفعنا لمادة هذا الكتاب الذي نتوجه به للفكر المسيحي العربي والغربي أولاً ، وللفكر الإسلامي ثانياً فإن في تعريجنا السريع على تلك الفترة من شأنه إكمال الصورة المجزأة لملحمة كربلاء وما سبقها من أسباب وبواعث وأحداث ، ما دمنا قد أكملنا الأجزاء التي تلتها وصار لزاماً علينا وضع الأجزاء التي سبقتها لإكمال صورتها النهائية .

انقلاب على رسول الله

جذور الخلاف الأولى تمتد إلى صراع موروث وتخاصم حاد منذ عهد الجاهلية الأولى بشرارة بدأت بين هاشم وأمية ، وامتدت بين محمد «ص» وأبي سفيان ، واستمرت إلى عهد علي ومعاوية ، وانتهت بعهد الحسين ويزيد .

وقد جاءت وفاة النبي لتكشف عن استمرارية الروح القبلية بين المسلمين ، إذ لم

تمض ساعات على وفاة الرسول حتى بدأت المداولات هنا وهناك بمعزل عن جموع أمة الإسلام العريضة ، وكلها تبحث في مسألة الخلافة بعد النبي « ص» .

فرأى الأنصار بأن الخلافة من حقهم ، ونازعهم فريق قريشي هذا المنطق ، وكان عامل الذهول الذي أصاب المسلمين بوفاة النبي « ص » ، قد جعلهم يتناسون عهد النبي إلى علي بن أبي طالب لقيادة الأمة من بعده .

نسي المسلمون ما سبق وحدده النبي « ص» لهم من أسماء قادة الأمة من بعده وتسميته لاثني عشر إماماً ، كلهم من ذريته الطاهرة ومن أهل بيت النبوة : علي ، والحسن ، والحسين ، وزين العابدين علي بن الحسين ، والباقر ، وتسعة منهم لم يولدوا بعد .

لكن خلفيات مواقف الماضي تختلف عما آلت إليه الأمور لاحقاً ، فعندما أعلن النبي « ص» ولاية علي «ع» سمعت بطون قريش ـ مهاجرها وطليقها ـ البيان النبوي فتأثروا تأثراً بالغاً وأدركوا أن الهاشميين سيجمعون النبوة مع الملك ، وهكذا تُحرم البطون من الشرفين معاً ، ويختص بهما الهاشميون ، وأدركوا أن النبي جاد في ما يقوله ، والأعظم فإن محمداً يقول : إن هذه الترتيبات والتعيينات من عند اللّه لأنه يتبع ما يوحى إليه .

وقررت قيادة البطون ـ المهاجرون والطلقاء معاً ـ أن تتحرك ، وأن تحول دون تحقيق ذلك ، ورفعت شعاراً بدا لها معقولاً ، وعرضت قسمة لاح لها بأنها عادلة ، فقالت : لتبقى النبوة لبني هاشم لا يشاركهم فيها أحد من البطون ، ولتكن الخلافة لبطون قريش وللناس عند الاقتضاء لا يشاركهم فيها هاشمي قط .

وفي سبيل إقناع الناس « **بإجحاف قسمة اللّه ورسوله** » وعدالة قسمة البطون.. أخذ قادة البطون يبثون الدعايات والإشاعات سراً بهدف التشكيك بقول الرسول وبشخصه ، وأن الترتيبات التي أعلنها ليست من عند اللّه ، إنما هي باجتهاده الشخصي وتأويله ، إذ من غير المعقول أن يعطي اللّه النبوة لبني هاشم ثم يعطيهم المُلك ، ويجمع لهم الشرفين معاً ، واستمالت هذه الدعايات الكاذبة المنافقين

ودغدغت أحلامهم بتقويض الإسلام ، فمد هؤلاء أيديهم القذرة للبطون ، وشجعوهم ليمضوا قدماً بمواجهة الرسول ، وأدرك طلاب الدنيا أن بطون قريش[1] والمنافقين كوّنوا حزباً قوياً وأنهم قوة واقعية قد تنجح فعلاً بانقلابها وتستولي على السلطة بالقوة .

وتعاطف مع البطون طلاب الدنيا أيضاً ، وانضمت المرتزقة من الأعراب إلى هذا التجمع ، وصار هذا التحالف الواقعي السري المكون من بطون قريش وشراذم وفرق المنافقين وطلاب الدنيا والمرتزقة الأعراب والرافضين لفكرة ولاية آل البيت .. قوة هائلة .

وصارت الفئة المؤمنة الصادقة أقلية وسط بحر هذا التجمع المشبوه ، وقد سمع المؤمنون الصادقون بدعايات البطون وإشاعاتهم فظنوها نفثات الصدور ، وسمعوا بالتقارب الذي قام بين بطون قريش والمنافقين والمرتزقة من الأعراب لكنهم لم يعطوا الأمر أهمية ، فطوال تاريخ الدعوة والدولة الإسلامية كان المؤمنون أقلية ، وشكل المنافقون الأكثرية ، ولكن المؤمنين كانوا هم الفائزين ، وكلمتهم في المجتمع هي العليا وقيادة البلاد بأيديهم .

لم تخطر فكرة وجود انقلاب على بال أحد ، ولا فكرة وجود قاعدة شعبية لهذا الانقلاب وللمخططين له ، أو وجود آليات موضوعة لتنفيذه زماناً ومكاناً ، ولم يخطر ببال مسلم أن قادة الانقلاب سيواجهون الرسول « ص» وهو في بيته المقدس ويقولون له وبكل جرأة : « **لا حاجة لنا بوصيتك ولا بكتابك ، عندنا كتاب اللّه يكفينا أنت تهجر يا محمد** ».

---

(١) في تاريخ اليعقوبي ١٤٠/ ٢ أن المقداد بن عمرو قال متعجباً من فعلة قريش : « واعجباً لقريش ودفعهم هذا الأمر عن أهل بيت نبيهم وفيهم أول المؤمنين وابن عم رسول اللّه وأعلم الناس وأفقههم في دين اللّه ، وأعظمهم عناء في الإسلام ، وأبصرهم في الطريق ، وأهداهم إلى الصراط المستقيم ، واللّه لقد زوروها عن الهادي المهتدي ، الطاهر النقي ، واللّه ماأرادوا إصلاحاً للأمة ، ولا صواباً في المذاهب ، ولكنهم آثروا الدنيا على الآخرة ، فبُعداً وسحقاً للقوم الظالمين » .

ولما مرض الرسول « ص» لم يفاجأ أحد بعد أن أعلن صلوات اللّه عليه مراراً وتكراراً بأنه سيمرض في ذلك العام ويموت في مرضه لأنه قد خُيِّر فاختار ما عند اللّه ، فقال للناس في حجة الوداع : «**لا ألقاكم بعد عامي هذا** » وقال للناس في غدير خم : « يوشك أن أدعى فأجيب » ، لقد قعد رسول اللّه على فراش المرض في بيت عائشة ، وأحيط الناس علماً بأن الرسول سيموت من مرضه هذا ، كل شيء واضح تماماً ، أكمل اللّه الدين وأتم النعمة ، ولقد جرت العادة أن تجتمع الأسرة عند مريضها وتستمع إليه ، فيلخص لها الموقف ، وجرت العادة أن تجتمع علية القوم عند زعيمهم إذا مرض مَرَض الموت ليرشدهم إلى ما يتوجب فعله وتركه ، وليعبروا له بدورهم عن ارتباطهم به ، وعن تقديرهم لجهده المميز الذي بذله طوال فترة قيادته لهم ، هذا أمر طبيعي قد ألفته البشرية كلها ، وحدث ويحدث مع كل أرباب الأسر وزعماء العالم ، فكيف بسيد ولد آدم محمد رسول اللّه « ص» وهو قائد الدعوة وقائد الدولة ، العارف بماضيه وحاضره ومستقبله ، المشفق على أمته الرؤوف الرحيم بها ؟ فهو الأولى بتلخيص الموقف وإصدار توجيهاته النهائية بالوقت الذي يراه مناسباً ، ولمَ لا .. ؟ فمحمد سيبقى رسمياً رسول اللّه ومتمتعاً بحقوق الرسالة ، وكذلك سيظل قائداً للدولة وإماماً وولياً للأمة ومتمتعاً بصلاحياته كافة حتى اللحظة التي تصعد فيها روحه الطاهرة إلى بارئها[1] .

من جهة ثانية فإن عمر كان يعتقد أن قرار الرسول «ص» باختيار علي بن أبي طالب خليفة له ليس مناسباً لحداثة سن علي ، ولأن علي أثخن بقتل سادات بطون قريش وهم على الشرك ، كما كان يعتقد أنه ليس من الإنصاف أن يكون النبي من بني هاشم وأن يكون الملك في ذراريهم وأعقابهم أيضاً وهو القائل لابن عباس يوماً : «**كرهت قريش أن تجتمع النبوة والملك فيكم بني هاشم**[2]».

---

(١) من مقالة « الانقلاب الأسود على رسول اللّه » للأستاذ أحمد حسين يعقوب نشرت في المنبر عدد ١٣ ربيع الاول ١٤٢٢ هـ .

(٢) الكامل لابن الأثير ج٣ ص ٦٣ ، وتاريخ الطبري ج ٤ ص٢٢٣ ، وشرح النهج ج ٣ ص ٩٧

وهكذا وجدت الفئة المتآمرة في هذه الأقوال والمواقف مبرراً لرفض ولاية علي غاضة الطرف عن كونه «ع» أول من أسلم على يدي رسول اللّه «ص» ووقف معه حينما كان طفلاً وشاباً وكهلاً ، وهو الذي ضرب بسيفين وبايع البيعتين وهاجر الهجرتين وخاض المعارك بين يدي رسول اللّه بينما كان الآخرون يهربون منها على مرأى من الرسول ، وضحى بنفسه مراراً للدفاع عن نفس رسول اللّه وهو الذي قال فيه صلوات اللّه عليه : « علي مني بمنزلة رأسي من بدني » وقال هو «ع» في خطبته الغراء المسماة بالقاصعة : « **أنا وضعت في الصغر بكلاكل العرب وكسرت نواجم قرون ربيعة ومضر وقد علمتم موضعي من رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بالقرابة** » .

تعامت قلوبهم قبل أبصارهم وتناسوا عن عمد من انشق له الجدار ليولد في أعظم بيت ، الكعبة المشرفة ؟ ومن ضُرب في محراب المسجد ليستشهد في بيت من بيوت اللّه ، وكان طيلة عمره بينهما ، فانياً في القريبة والمنزلة الخصيصة .. « **وضعني في حجره وأنا ولد يضمني إليه ويكنفني في فراشه ويمسني جسده ويشمني عرفه وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه** ».

بهذه الروح القبلية التي تأججت يوم السقيفة تشكلت البذرة الأولى للفتنة التي نشبت بين المسلمين ، إذ مثلت الانقلاب الأسود على رسول اللّه «ص» ، وحينما تولى عمر الخلافة .. فرض العطاء على مبدأ التفضيل ، ففضل السابقين على غيرهم وفضل المهاجرين على الأنصار والعرب على العجم والصريح على المولى ومضر على ربيعة والأوس على الخزرج[1] ، ولكن عمر ما كاد يدرك أخطار مبدئه هذا .. السياسية منها والاجتماعية والدينية ويرغب في تغييره .. حتى أغتيل[2] وخلفه عثمان وسار على نفس نهجه السابق .

---

(١) ابن أبي حديد : شرح نهج البلاغة ٨/ ١١١ وتاريخ اليعقوبي : ٢/ ١٠٦ وفتوح البلدان : ٤٣٧

(٢) في تاريخ اليعقوبي ، شرح نهج البلاغة .. قال عمر : « إن عشت هذه السنة ساويت بين الناس ، فلم أفضل أحمر على أسود ولا عربياً على عجمي ، وصنعت كما صنع رسول اللّه وأبو بكر » .

وما عتمت الأحداث أن تطورت وانقسمت الأمة الإسلامية إلى صفين ، فكانت قريش ـ عدا بني هاشم ـ مع عثمان ، والأنصار مع علي ، ولعل أصدق موقفين يصوران حالة الجدل التي تفشت آنذاك واستقطبت حولها فريقين متضادين .. هذان الموقفان : فقد قال عبداللّه بن سعد بن أبي سرح الأموي : « **أيها الملأ إذا أردتم ألا تختلف قريش فيما بينها فبايعوا عثمان** » وقال عمار بن ياسر : « **إن أردتم ألا يختلف المسلمون فيما بينهم فبايعوا علياً** » ولما كان علي مرشح الأكثرية المسلمة وعثمان مرشح الأرستقراطية القرشية .. فقد فاز عثمان بالبيعة دون علي .

ومنذ ذلك اليوم دخل الأمويون في الحكم ، وكان من نتيجة فوز عثمان بالطريقة التي فاز بها .. أن صار أي مرشح يرجو الخلافة لنفسه بعد أن رشحه لها عمر ، وقد وصف علي هذه النتيجة بقوله : « **لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا عليَّ خاصة** ».

و لكن هذه الأحداث تفاعلت مع سياسة عثمان الفاسدة في المال والإدارة والحكم فبدأ الانحراف الصريح في العقيدة ومبادىء الإسلام من يومها .

وقد ضرب الفساد في عهده كل الولايات الإسلامية ، مما ألب جموع المسلمين عليه وأوجد حالة متفاقمة من التذمر على أسلوبه في الحكم وكيفية مداولته الخاصة ببيت المال ، فتنادوا إلى الثورة عليه بعد أن ضيَّق على الجميع بأعمالهم ، وبعثهم إلى أرض العدو كجنود ـ وجمَّرهم ـ أي جمدهم هناك ، وحرَّم أعطياتهم ليطيعوه ، وبدأت نزر فتنة تعلن عن نفسها ، ومن المدينة إلى كل الأمصار خيَّم جو مكفهر ينذر بشيء ما ، وانكفأ الشعب في الأقاليم يتآمر على تآمر الحكومة ، وباتت الحالة العامة تجيء في عبارة واحدة تصور الوضع الراهن : حكومة تتآمر بالشعب .. وشعب يتآمر بالحكومة[1] .

وما لبث الحال أن قامت الفتنة التي انتهت بمقتل عثمان .

---

(١) أنظر كتاب « أبو الشهداء » لعباس العقاد

ولاية علي

بعد مقتل عثمان جاءت الجموع تطالب علياً بتولي الحكم ، لكنه أبى عليهم ذلك ، لأن للحكم تبعات سيئة بعد ولاية عثمان ، لذا قال لهم :

« دعوني والتمسوا غيري ، فإنَّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان ، لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول ، وإن الآفاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت ، واعلموا أني إن أجبتكم .. ركبت بكم ما أعلم ، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب ، وإن تركتموني فأنا كأحدكم ، ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم ، وأنا لكم وزيراً خير لكم مني أميراً [١]».

ولكن المسلمين أبوا عليه هذا الرفض ، فاستجاب لهم وبويع بالحكم ، وقد بدأ بإصلاح الإدارة التي أفسدتها ممارسات العهد السابق ، وقد نجح في ذلك حيث قال بهذا الصدد :

« ولكنني آسى أن يليَ هذه الأمة سفهاؤها وفجارها فيتخذوا مال اللّه دُوَلا وعباده خَوَلا والصالحين حرباً والفاسقين حزباً ».

وقضى الإمام على الفروق الجاهلية وكان مبدأه بهذا الصدد :

« الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له ، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه » .

ولم يمض بعض الوقت حتى وضع الإمام علي الأمور في نصابها وأحق الحق وقضى على التفاوت الطبقي ، مما أثار حفيظة قريش فأرسلوا له الوليد بن عقبة بن أبي معيط يفاوضه كي يضع عنهم ما أصابوه من مال أيام عثمان على أن يبايعوه ، ولكن الإمام رفض ، فبدأت الدسائس والمؤامرات وكان أولها حركة تمرد في البصرة تحت شعار « الثأر لعثمان » ، فقمعها الإمام وفرَّ من بقي من أنصارها إلى الشام

---

(١) نهج البلاغة ١ / ٢١٨

حيث قامت حكومة برئاسة معاوية بن أبي سفيان انضوى تحت لوائها كل الموتورين الذين ساءهم إصلاح حال الأمة الإسلامية على يد علي .

ولم تدم الأيام طويلاً ، فولّدت حركة تمرد أخرى تحت شعار الثأر لعثمان ، وكانت بزعامة معاوية ، فكانت معركة صفين ، وكانت خدعة التحكيم ، ثم النهروان ، ثم مقتل[1] علي ومبايعة ابنه الحسن ، واضطراره للتخلي عن الحكم تحت ضغط الأحداث وتوالي المؤامرات والدسائس .

انتقام معاوية من شيعة علي

وصارت الأمور إلى معاوية ، وسيطر على الأمة الإسلامية كلها يسوسها بالإرهاب والتجويع والتخدير باسم الدين ، والتدجين في ظل راية القبلية والإمامية ، وكان من دهائه أن استدعى بسر بن أرطأة وقال له :

لا تنزل على بلد أهله على طاعة علي إلا بسطت عليهم لسانك حتى يروا أنهم لا نجاء لهم ، وأنك محيط بهم ، ثم أكفف عنهم وادعهم إلى البيعة لي ، فمن أبى .. فاقتله واقتل شيعة علي حيث كانوا ، وقد كتب نسخة إلى عماله بعد ما سماه بعام الجماعة يقول فيها : « إن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته » فقامت الخطباء فوق كل منبر في طول الولايات وعرضها يلعنون[2] علياً ويبرأون

---

(١) لقد حكم رسول اللّه «ص» طيلة عشر سنوات وحكم علي «ع» خلال خمسة أعوام ، يقتدي برسول اللّه خطوة بخطوة ، مجسداً قوله تعالى : « ولكم في رسول اللّه أسوة حسنة » ولقد قال «ع» كنت من رسول اللّه كالصنو من الصنو والذراع من العضد .

(٢) ابتدع معاوية هذه الكبيرة لدرجة تحولها إلى سُنَّة راسخة ، فكان الخطيب إذا نسي اللعن والسب .. يوبخه الحاضرون بقولهم : لقد نسيت السُّنة .. فأينها ..؟ وإلى ذلك أشار الشيخ أحمد الحفظي الشافعي في أرجوزته :

وقد حكى الشيخ السيوطي إنه ... قد كان فيما جعلوه سُنَّة
سبعون ألف منبر وعشرة ... من فوقهن يلعنون حيدرة

منه ، ويقعون فيه[١] وفي أهل بيته[٢] .

وقد عالن الناس منذ بداية عهده بطبيعة وأسلوب حكمه بكلمته الشهيرة : « يا أهل الكوفة أترونني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج ؟ وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحجون ، ولكني قاتلتكم لأتأمَّر عليك ، وألي َرقابكم ، وقد آتاني اللّه ذلك وأنتم كارهون » .

وقد سجل له التاريخ أنه نكل بشيعة علي بعد موت ابنه الحسن أيما نكال ، واستباح دماً كثيراً ، فكانت الأعداد في خانة الألوف ، وكانت وسائله في ذلك زمرة من السفاحين مثل زياد سمرة بن جندب الذي قتل كل من اتُهم بدم عثمان ، وسبى نساء همدان وباعهن في الأسواق مسجلاً بذلك سابقة خطيرة في بيع نساء المسلمين[٣] .

وبلغ من شدة دهاء معاوية أن جعل الكثيرين يعتقدون بسعة حلمه وكرمه وصبره ، وكان ذلك بفعل نشاط القصاصين الذين كانوا يتولون إذاعة كل مليح وحسن عنه مستشهدين بفلان وفلان ..

وقد نجح في سياسة تأليب القبائل على بعضها في الشام والعراق واليمن وإثارة العصبيات بينها لتشغل ببعضها عنه ، وقد وصف « ولهاوزن » هذه السياسة بقوله :

---

(١) بلغ الأمر بالمجتمع الأموي أنهم كانوا يجلبون لصغارهم حملان الغنم ، ولما يتعلق الطفل بالحمل ويألفه يأخذونه منه خفية ويذبحونه ويقولون له إن أبا تراب قتله .. وبهذه الطريقة كانوا يغرسون بغض علي بن أبي طالب في نفوس الصغار .

(٢) لم يكتف هذا الرهط الشيطاني بلعن علي وحسب .. لكنه بالغ وطال في لعنه الصديقة الزهراء التي قال رسول اللّه «ص» في حقها : « من آذاها فقد آذاني » فضلاً عن لعنه للحسنين اللذين وصفهما جدهما الكريم : « هما ريحانتاي من الدنيا » .

(٣) ذكرت بعض المراجع أن إرهاب معاوية دفع بالناس لإعلان زندقتهم وكفرهم على أن لا يُقال عنهم أنهم من شيعة علي .

« وأجج الولاة نار هذه الخصومة ، ولم يكن تحت تصرفهم إلا شرطة قليلة ، وفيما سوى ذلك كانت فرقهم من مقاتلة المصر، حتى إذا أحسنوا التصرف تهيأ لهم أن يضربوا القبائل بعضها ببعض وأن يثبتوا مركزهم بينهم[1] » .

وكان من نتيجة هذه السياسة أن ظهر الشعر السياسي والحزبي والقبلي ، واشتعلت حرب الهجاء والمفاخرات القبلية الجوفاء ، فانضم الأخطل إلى الأمويين ضد قيس عيلان شاعر التغلبيين ، ثم انضم الفرزدق على جرير لسان القيسية على تغلب .

استفحال خطر التحريف

وتطورت هذه الروح القبلية وصارت خطراً اتخذ شكل تأليف الأحاديث ونسبها إلى النبي « ص» .

واستفحلت حال المسلمين من السيئ الى الأسوأ ، وبدا أن الأمة في طريقها إلى الانهيار الكامل بعد أن بدأت تظهر ألوان جديدة من التحريف في أحاديث منسوبة إلى الرسول [2] مثل : « إن اللّه ائتمن على وحيه ثلاثاً : أنا ، وجبريل ، ومعاوية » وأن الرسول ناول معاوية سهماً وقال له : « خذ هذا حتى تلقاني في الجنة » و « أنا مدينة العلم وعليٌ بابها ومعاوية حلقتها » و« تلقون من بعدي اختلافاً وفتنة » فقال له قائل من الناس : فمن لنا يا رسول اللّه ؟ قال : عليكم بالأمين وأصحابه ، والأمين المقصود هنا .. عثمان .

ولتكون سياسة التدجين والإسكات تامة ، فإن حديثاً أظهره أحدهم يقول :« قال رسول اللّه «ص» : إنكم سترون بعدي أثرة وأموراً تنكرونها » قالوا : فماذا تأمرنا يا

---

(١) الدولة العربية « ولهاوزن » .

(٢) هناك فئة وجدت في كل عصر وزمن ، تلبسها دوائر السلطان العمائم كي تدعي له بدوام السيادة والملك .. وتسبح باسمه بين الخلائق ، نفاقاً وغروراً وإثارة للمخاوف وإيهاماً بالعظمة ، وقد ورد في الحديث بشأن هؤلاء : « فاخشوهم على دينكم » .

رسول اللّه ؟ قال : « أدوا إليهم حقهم وسلوا اللّه حقهم » و « من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه[1]» .

ولكن الأمة التي اضطُهدت وجُوِّعت لم تعد تستطيع الحراك وصارت في حالة مابين وبين ، تخاف الجهر بما تعتقد وتخاف التحرك بوحي من هذا الاعتقاد ولم يبق لها إلا السكوت على هذا الضيم لأن الكلام معناه القتل والتجويع والتشريد .

ولعل خير من صوَّر هذا الموقف المتذبذب الخائف للحسين ، كان الفرزدق حين سأله «ع» عن أهل الكوفة ، حيث أجابه : « **قلوبهم معك وسيوفهم عليك** » .

ولم يتأتَّ لهذه الأمة ولو معشار ما تأتّى للجيل الذي سبقها أيام عثمان ، فقد كانت ردات فعل الأمة آنذاك قوية استطاعت أن توقف عثمان عند حده ، ولكن على عهد معاوية أسقط في يد أمة الإسلام ، فمعاوية كان من الدهاء ما لم يكن لعثمان ، وقد نجح في سياسة البطش والإرهاب نجاحاً لم يبلغه سابق ولا لاحق له .

وكان في بطشه يهدف إلى جعل الحكم خلافة ملك كسروي وقد نجح في ذلك ايما نجاح لا سيما بعد نجاح الارستقراطية الوثنية بإقامة دولة كبرى ، وهذا ما تفسره عبارته المشهورة : « أنا أول الملوك[2]» .

ومقصده في هذه العبارة أنه أول الملوك في الإسلام الوليد الذي لم يعرف الملكية بهذا الشكل الرهيب الذي وضع أسسه كما يحلو له وكما يرغب في توريثه للأبناء والأحفاد من ذرية بني أمية .

---

(١) ذكر البخاري كثيراًمن هذه الأحاديث المنسوبة كما جاء ذكرها في العديد من كتب الحديث .

(٢) لقد أبطل الإسلام أنماط هذه الملكيات ، واعتبر في أوائل ظهوره جميع أنظمة السلاطين في إيران ومصر واليمن والروم غير شرعية ، وكان رسول اللّه « ص» قد كتب إلى هرقل ملك الروم وإلى ملك فارس يدعوهما إلى الكف عن استعباد الناس ، و إلى إرسالهم على سجاياهم ليعبدوا اللّه وحده ، لأن له السلطان وحده ، والحسين قام بثورته التاريخية للقضاء على أسلوب هذه السلطنات المشؤومة التي لا تتورع عن إهدار كرامة الإنسان وآدميته .

كل ذلك من ألوان الانتهاكات وتحريف روح الإسلام ومبادئ العقيدة والعودة إلى النزاعات الجاهلية التي قام الإسلام ليحاربها .. كان يتم ومعاوية سادرٌ في غيِّه يزداد بغياً على بغي والأمة الإسلامية سادرة في خنوعها وذلها ، تزداد استسلاماً على استسلام ، والحسين«ع» يرقب ذلك كله وتهاويل ثورية تعتمل في صدره ، صابراً على ما آلت إليه أمة الإسلام ، وكأنه «ع» ينتظر إتيان ساعة الخلاص ليُعطى الإشارة من لدن العناية الإلهية للقيام بانتفاضته التي ستعيد عقيدة جده إلى صراطها المستقيم الذي أنزلت فوقه ، وتعيد إزكاء شعلتها التي خبت في الصدور بفعل التدجين المنظم باسم الدين والإرهاب ، وليفتدي بمقتله إحياءها من جديد ، وليكمل الشهادات العظيمة التي كتبها اللّه تعالى على الأنبياء والوصيين والشهداء الأخيار ، فيستمر الإسلام ويبقى بشهادته كما بدأ حين أنزل على جده الرسول الأعظم ونُشر بتضحياته الكبيرة .

***

الأسباب القريبة للثورة

في عهد معاوية

لطالما تساءل الكثيرون عن السبب الذي حدا بالحسين « ع » لتأجيل انتفاضته إلى عهد يزيد .. ولمَ لم يفجرها في عهد معاوية ما دامت مفاسد هذا العهد ظاهرة للعيان ، وما دامت الأمة الإسلامية قد وصلت إلى درجة التراقي ووصل بها سيل الاضطهاد الزبى ؟

ولكثرة ما طُرح هذا التساؤل ، ولكثرة الإجابات المتشابهة في كثير من الأحيان والتي تبعد غالباً عن حقيقة هذا التأجيل وعن جوهر الهدف منه .. فإن تبصراً متأنياً واعياً في دوافع هذا التأجيل التي لا تتبدى إلا بربطها فيما سبقها وتلاها من نتائج .. لكفيل بتقديم أجوبة شافية على التساؤلات التي تثار في كل مرة يتطرق خلالها البحث عن أسباب عدم قيام الحسين بثورته في عهد معاوية .

ولا شك في أن التساؤل المُلح والأجوبة المبتورة ناقصة النضج .. من شأنها أن تزيدفي تفسير الأمر على نحو بعيد عن حقيقته الجوهرية ، وبرأيي أن كل من ساهم في وضع جواب على تساؤل بهذا الصددكان يغفل إلى حد بعيد دور العناية الإلهية في تسيير خطى الحسين في طريقها الصحيح وفي الوقت المناسب .

لأننا لو نظرنا إلى حركته على أنها أمر من اللّه سبحانه وتعالى ، سبق وأن تنبأ بها الأنبياء والوصيون .. فإننا لا نعدو الحقيقة لو سلّمنا جدلاً بأن موضوع التأجيل كان

لحكمة علوية أوحت للحسين بكيفيتها وتوقيتها كي تُؤتي ثمارها وتبلوَ مضاءها ، ولا يكون لها من الثورات التقليدية إلا اسمها فحسب ، بينما يختلف مضمونها وجوهرها اختلافاً كلياً عنها.

لم يكن الشهيد إذن يفكر من عندياته حينما جاءته كتب أهل العراق تسأله الثورة على معاوية ، وحينما أجابهم : « فليس رأيي اليوم ذلك ، فالصقوا رحمكم اللّه بالأرض ، واكمنوا في البيوت ، واحترسوا من الظنة ما دام معاوية حياً [1] » .

وبمثل هذا القول أجاب عيسى« ع » أمه حينما دعته لاجتراح أعجوبة في قانا الجليل .. إذ قال : « يا أماه لم تأت ساعتي بعد [2] ».

فلمَ يقول الحسين هذا القول ما دامت القتلة هي القتلة سواء أكانت على يد معاوية أم على يد يزيد .. وما دام غير قادر على هزيمة أي منهما عسكرياً ؟

هنا تتجلى الحكمة العلوية ، ومن هذه النقطة بالذات علينا أن نفهم سر عدم قيام الحسين في عهد معاوية ، والسر في قيامه بها على هذا الشكل الضعيف عسكرياً في عهد يزيد .

السر في عدم قيامه في عهد معاوية يكمن في كلمة « البيعة » التي وصفها بأنه كان لها كارهاً ، وكان من نبل أخلاقه أن رضخ لتصرف أخيه الحسن الذي قطع العهد مع معاوية ، ولم يشأ أن يعطل رأيه واجتهاداته في هذا الصدد ، وكان يجيب من يسأله رأيه في عهد أخيه لمعاوية : « بأن لأخيه رأياً في الموادعة ، وله هو رأي في جهاد الظَلَمة ، والرأيان رشد وسداد وأمر لكليهما من اللّه تعالى ورسوله » ، ثم يطلب من شيعته بأن يكون كل امرئ حلساً [3] من أحلاس بيته ما دام ابن هند حياً ، فإن يهلك وهم أحياء.. يرجو أن يخيِّر اللّه لهم ويُؤتيَهم رشدهم ولا يكلهم إلى

(١) الأخبار الطوال .

(٢) يوحنا : ١/ ٤- ٥

(٣) حلس بالمكان حلساً : لزمه ولم يغادره .

أنفسهم ، فيكون نصيبهم الضياع .

وفي عبارة « فإن يهلك وأنتم أحياء رجونا أن يخيِّر اللّه لنا » ، معنًى مفسراً لرأيه عدم الخروج في عهد معاوية ، ويتضح بجلاء أكبر من خلال ربطه بالجملة التي تليه مباشرة : « ويؤتيهم رشدهم » ، مما يُستدل معها على أن اللّه تعالى هو الذي سيمده بالأمر ويؤتيه رشده كي يصبح قادراً على الحركة والقيادة .

ويعطي هذا التفسير ـ انتظار موت معاوية ـ تفسيراً آخر بقوله : « والصقوا في الأرض واخفو الشخص والتمسوا الهدى » على أن فترة الكمون هذه ما هي إلا فترة تبصر بالوحي الإلهي الذي كان الشهيد يأتمر بأمره والذي كان يصور له وحده هذا الأسلوب غير المألوف في الثورات ، ويمده بالصبر إلى حين تدق ساعته ويحين أوانه ، ونفس هذا الوحي الإلهي كان يحجب عن بصائر صحبه الكيفية والأسلوب اللذين سيسبغهما على ثورته ، وهذا ما يفسره إلحاحهم عليه للسير على خطى أخيه الحسن وأبيه في الكفاح المسلح .

ولكن الحسين كان فكره في واد وفكر صحبه في واد آخر ، فهو لو قام بحركته في عهد معاوية بتكتيك عسكري سبق وأن قام به أبوه وأخوه وآخرون .. فإنه قد ينتصر على معاوية ، فيعتبره الناس بمقياس تفكيرهم في ذلك الزمن ، أنه قائد عسكري نجح في صراع القوة بما له من عدد وعدة ، ولو هُزم .. لكان اعتُبر أحد الذين نكَّل بهم معاوية وألحقهم بحتوف من سبقهم ، يثير موته الحزن في أسرته ومريديه ثم يطويه النسيان كما يطوي أي ثائر تقليدي .

ثم أن الحكمة العلوية تلعب دورها الأكيد في عدم مناجزة الحسين لمعاوية ، إذ كان معاوية من صنف أولئك الحكام الذين كان الشعب ينظر إليهم نظرة احترام خاصة ممزوجة بالحقد المقيت عليهم ، وما كان مستبعداً وقد عرفنا ما جُبل عليه من دهاء وخسة أن يُلصق بالحسين تهماً باطلة بواسطة فرق المرجئة وقصاصيها النشطين فتؤدي حركته إلى نتيجة عكسية من حيث كانت تهدف العكس ، لذا فقد أوصى عليه السلام صحبه باللصوق بالأرض وإخفاء شخوصهم ، وهذا التكتم وهذه التقية

كانا لسر آخر ، فقد عاصر «ع» حروب الجمل وصفين والنهروان ، وخبر دسائس معاوية وقدرته على اختراق ستار الكتمان ليصل إلى خصومه بكل الطرق ، وأشهرها السم الذي قتل به أخاه الحسن [1] ، والذي كان فريداً لوحده بأساليب استخدامه ، وبإطلاقه تلك التسمية العجيبة عليه بقوله : « إن للّه جنوداً منها العسل[2]».

لذا جاءت تقيته لتؤدي غرضاً آخر من أغراض صبره ، ولم تكُ هذه نتيجة لخوف من معاوية أو أساليبه ـ وهذا ما برهن عنه خلال مواقفه ـ بل كان نتيجة خوفه من أن يقضي عليه معاوية قبل أن يحين أجل قيامه بثورته التي ستختلف كلية عما سبقها من ثورات وحروب ، والتي ستنحو منحى جديداً أمضى بكثير من المنحى العسكري ، والتي بها سيتحقق الوعد الإلهي بإعادة الدين الإسلامي إلى أشكال بدايته السليمة .

وللذين لا يقيمون أدنى دور لهذا الوعد .. من الأجدر لهم أن يعيدوا قراءة وتمعن كل الأحداث التي مر بها الإسلام الوليد منذ أن أنزل على خاتم الرسل والأنبياء محمد « ص» وكيف هدى هذا الوعد الرسول الكريم لتوقيع صلح الحديبية مع مشركي مكة ، ومحوه من العقد كلمة بسم اللّه الرحمن الرحيم ومحمد رسول اللّه ، وكيف رضي علي«ع» بالتحكيم بعد خدعة المصاحف في صفّين ، وكيف صالح أخوه الحسن معاوية الذي اغتصب الخلافة وحرَّف الدين .

وهذا السر الإلهي الذي لا يستطيع تفسير كوامنه إلا المبصرون .. لا يهتم كثيراً بالظروف الوقتية أو الطارئة إذا كان فيها منجى للعقيدة مؤقتاً ، أو فيها استعداد لقفزة ثانية لهذه العقيدة ، ولذا فإن اللّبس يخيم على عقول كثيرة ، وتكون الدهشة والاستنكار هما الثمن لعدم فهم هذه العقول لحكمة السر الإلهي في إظهار بعض

---

(١) ذكر أبو الفرج الأصفهاني في مقاتل الطالبيين : « لما أراد معاوية البيعة لابنه يزيد .. لم يكن شيء أثقل عليه من أمر الحسن وسعد بن أبي وقاص ، فدس لهما سماً ، فماتا منه » .

(٢) عيون الأخبار ١/ ٢٠١

أمور بمظهر عكسي .

وثمة عامل آخر وإن كان أقل أهمية من العامل الذي سبقه ، وهو أن مجتمع العراق الذي أنهكته الحروب وفتَّت في عضده الخسائر والهزائم .. لم يكن مستعداً لأدنى مناجزة يشهرها في وجه معاوية بالذات .

وعامل آخر يضاف إلى جملة العوامل الثانوية ، وهو أن قيام الحسين في عهد معاوية لو تم .. قد يكون مبرراً لمعاوية كي يصوِّره بصورة المستغل الناقض لعهده وميثاقه ، والحسين لا يسعى إلى هذه الصورة وإن كانت من باب التجني الواضح عليه ، وهو ماكان يربأ أن يُعرف به ، لأنه في جوهره بعيد عن الاستغلال ونقض العهود .

كان «ع» يحسب لكل أمر حسابه في ميزان النتيجة ، أما الهدف الذي كان يرنو إليه في سكوته على زمن معاوية .. فكان محوره تعبئة نفوس أهل العراق خاصة والمسلمين عامة على مخازي أمية ، وبذلك يكسب مزيداً من الوقت لنجاح هذه التعبئة النفسية ، حتى إذا ما قام بحركته التي هي في جوهرها حرباً نفسية وروحية أكثر منها حرباً عسكرية .. يكون قد وجد لها أرضية ممهدة وضمن نتائج إيجابية لأهدافها [1] .

ثم وهو الذي خَبر معاوية ، كان ينتظر موته كي يتولى يزيد الخلافة فيفضح بتهوره وعدم حرصه ..كل المخازي التي ارتكبها ويرتكبها الأمويون باسم الخلافة ، إذ كان معاوية أستاذاً لا يبارى في إخفاء حقيقته ، وكان كتوماً حريصاً على الظهور بعكس خبيئته ، حتى أنه أفلح في خداع أكثر الناس تبصراً وملاحظة [2] .

---

(١) يقول « ماربين » الألماني : إن الحسين كان يبث روح الثورة في المراكز الإسلامية المهمة كمكة والعراق وأينما حل ، فازدادت نفرة قلوب المسلمين التي شكلت مقدمة الثورة على بني أمية .

(٢) نفسه : الحسين بمبلغ علمه وحسن سياسته بذل كمال جهده في إفشاء ظلم بني أمية وإظهار عداوتهم لبني هاشم .

ورجل هذا شأنه .. سيعرف الحسين بأنه من قبيل المغامرة القيام على عهده ، فهو لن يفلح معه عسكرياً وليست له أساليبه في الخداع والتحايل ، ففضل الانتظار والصبر على مكارهه على أن يقدم على خطوة ليس لها نتائج أوقد تؤدي إلى نتائج عكسية حيث كان يرغب العكس .

وإذا كان الحسين قد فضل التريث والانتظار حتى يقضي اللّه أمراً كان مفعولاً .. فإن التزامه بالعهد الذي قطعه أخوه الحسن ، كان التزاماً صحيحاً لا مفتعلاً في ظاهره وباطنه ، إذ لو كان راغباً في التنصل من هذا الالتزام .. فما كان أسهله عليه لو تحجج بأنه لم يساهم به ولم يكن راضياً عنه ، فيتجنب الملامة .

ويدعم رأينا هذا بأن الحسين «ع» كان ملتزماً فعلاً لا قولاً بموقفه من البيعة بعد موت أخيه ، وذكره للذين كتبوا له من شيعته بالعراق بأنه ملتزم بالعقد مع معاوية ، ولا يجوز له نقضه حتى تمضي المدة ويموت معاوية ، وكأنه يقول لهم : وبعد ذلك لكل حادث حديث .

وصح حدسه «ع» ، فها هو معاوية يلجأ أكثر من مرة لاستباق الزمن واستغلال حُرمة العهد في نفوس المسلمين ونفسه بالذات ، فيلوح بها في أحد كتبه له مشيراً إلى نشاطه في تعبئة المجتمع الإسلامي على الحكم الأموي ، وكأنه يخشى من قيامه بنقض هذا العهد وفضحه ، وقد كتب إليه قائلاً :

« أما بعد ، فقد انتهت إليَّ أمور عنك ، إن كانت حقاً فإني أرغب بك عنها ، ولعمر اللّه إن من أعطي عهد اللّه وميثاقه لجدير بالوفاء ، وإن أحق الناس بالوفاء من كان مثلك في خطرك وشرفك ومنزلتك التي أنزلك اللّه بها ونفسك فاذكر ، وبعهد اللّه أوف ، فإنك متى تنكرني أنكرك ، ومتى تكدني أكدك ، فاتق شق عصا هذه الأمة[1] » .

ولنلاحظ في كتاب معاوية ، الرغبة في استباق الزمن والاحتراس مسبقاً من

---

(١) الشيخ المفيد : الإرشاد ٢٠٦ وأعلام الورى ٢٢٠ والسيوطي في تاريخ الخلفاء ٢٠٦

نقض العهد من قبل الحسين ، لذا فقد أسرع بالكتابة إليه حتى إذا ما نقض العهد كان كتابه وثيقة تبرر بطشه به أمام المسلمين الذين تثيرهم قضية العهد والثبات على الميثاق ، فيكون بذلك قد أسقط في يده سلفاً ووضع الكرة في مرماه .

وفي كتاب آخر أرسله إليه يقول بلهجة مهددة :

« وقد أنبئت أن قوماً من أهل الكوفة قد دعوك إلى الشقاق ، وأهل العراق ممن قد جرَّبت ، قد أفسدوا على أبيك وأخيك ، فاتق اللّه ، واذكر الميثاق[1] » .

في هذين الكتابين نلمح نقراً مكثَّفاً ومتعمداً على وتر الميثاق .. « إن من أعطى عهد اللّه وميثاقه لجدير بالوفاء » و« أتق اللّه واذكر الميثاق » و « نفسك فاذكر وبعهد اللّه أوف » .

وعلى الرغم من هذا التكتيك المقصود به تسجيل سابقة على الحسين فيما لو فكر بنقض العهد .. فإن الحسين كان قد بدأ برد هذه الحرب النفسية في سلسلة كتب لمعاوية ضمَّنها كل الشكوك والريبة التي كانت تعتمل في نفوس المسلمين وضمائرهم حيال ممارساته للسلطة ، وكانت هذه الكتب « الردود » إيذاناً ببدء التمهيد للثورة بأسلوب نفساني ، كان يقصد منها «ع» تعبئة النفوس بشكل نهائي وتفجير الخلاف بينه وبين معاوية كي لا يُلام على أمرين .. أولاهما : على نقضه للميثاق ، وثانيهما : على السكوت حيال المباذل والانتهاكات التي كان يأتيها الخليفة المزعوم دون أن يُرفع إصبع أمامه بالنقد .

بدأ الحسين بهذه الحرب بعد أن نُمي إليه عزم معاوية على التمهيد للبيعة ليزيد ، وبعد أن ورده كتابه بشأن الميثاق وذكره لما نُمي إليه في الشام بشأن قوم الكوفة الذين أنبأوه بتحرك شيعته في العراق ، وما كان من أمره معهم حينما دعاهم للتريث والالتصاق بالأرض .

---

(١) ذكر فيليب حتي في « تاريخ العرب » ٢/ ٢٥٢ أن أهل الكوفة كانوا قد بايعوا الحسين بعد موت أخيه ، بينما الواقعة الصحيحة تشير إلى عدم استجابة الحسين لهذه البيعة .

ولعل كتاب الرد الذي بعث به الحسين يعتبر وثيقة تاريخية دامغة على عهد معاوية البغيض ، ومن الإغماط لها أن نختصرها أو نتحدث عنها بصيغة الغائب في كتابنا هذا .. إذ أنها صورة وافية موضحة لشخصية معاوية وحكمه كما رآهما وعاصرهما الحسين «ع» ، ومن المناسب تثبيتها في هذا المتن ليطلع عليها كل من يتوفر على قراءة هذا الكتاب ، فمهما جهد المحللون والمؤرخون في البحث عن مثالب معاوية ، فإنهم لن يجمعوا معشار ما ثبته الحسين في كتابه هذا .

ومن جهة أخرى فإن الكتاب يوضح تماماً موقف مرسله من قضايا الحكم والانتهاكات التي كان يمارسها معاوية ، ويكشف في الوقت ذاته عن مدى نسبة تعاظم الخلاف بينهما في أخريات عهده قبل البيعة ليزيد بقليل ، وكيف كان موقف الحسين من هذه المسألة ، وفيه أيضاً تفسير بيِّنٌ لسياسة التكتُّم والصبر والانتظار التي كان يمارسها الحسين غير هياب ولا وجل ، والتي كان على استعداد لتحويلها في أية لحظة إلى نقيضتها في الجهر والإقدام على النقد والإشارة بالاتهام المباشر البعيد عن التَقيَّة التي دعا إليها ، وفي هذا مثل واضح على أصالة موقفه وعلى عمق مبادئه القادرة على احتواء كافة الأبعاد ، وهضم كافة المتناقضات ، وفهم المعطيات المتاحة لتبدو أخيراً بالشكل الذي يبتغيه لها صاحبها .

فقد كتب «ع» لمعاوية يقول له في جرأة نادرة[1] :

أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر فيه أنه انتهت عني أمور أنت لي عنها راغب ، وأنا بغيرها عندك جدير ، وأن الحسنات لا يُهدي لها ولا يسدد إليها إلا اللّه تعالى .

أما ما ذكرت أنه رُقي إليك عني .. فإنه إنما رقاه إليك الملاقون المشّاؤون بالنميمة ، المفرقون بين الجمع ، وكذب الغاوون ، ما أردت لك حرباً ولا عليك خلافاً ، وإني لأخشى اللّه في ترك ذلك منك ، ومن الأعذار فيه إليك وإلى أوليائك القاسطين ..

---

(١) راجع الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج١ ص ٢٨٤ وأخبار الرجال لأبي عمر الكشي ، واختيار الرجال لأبي جعفر الطوسي ج ٣٢

حزب الظَلَمة .

ألست القاتل حجر بن عدي أخا كندة وأصحابه المصلين العابدين الذين كانوا ينكرون الظلم ويستفظعون البدع ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا يخافون في اللّه لومة لائم .. ثم قتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد ما أعطيتهم الإيمان المغلظة والمواثيق المؤكدة ، جراءةً على اللّه واستخفافاً بعهده ؟

أو لست قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول اللّه «ص» ، العبد الصالح الذي أبلته العبادة فنحل جسمه واصفر لونه ، فقتلته بعدما أمنته وأعطيته من العهود ما لو فهمته العُصم لنزلت من رؤوس الجبال ؟

أو لست بمدعي زياد بن سمية المولود على فراش عبيد ثقيف ، فزعمت أنه ابن أبيك ، وقد قال رسول اللّه « ص» : « الولد للفراش وللعاهر الحجر » ، فتركت سُنة رسول اللّه تعمداً وتبعت هواك بغير هدى من اللّه ، ثم سلطته على أهل الإسلام يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم ويسمل أعينهم ويصلبهم على جذوع النخل كأنك لست من هذه الأمة وليسوا منك ؟

أو لست قاتل الحضرمي الذي كتب فيه زياد إليك ، أنه على دين علي «ع» ، فكتبت إليه : أن اقتل كل من كان على دين علي ، فقتلهم ومثَّل بهم بأمرك ، ودين علي هو دين ابن عمه الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه ، ولولا ذلك لكان شرفك وشرف أبائك تجشم الرحلتين .. رحلة الشتاء والصيف ؟

وقلت فيما قلت : « انظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد ، واتق شق عصا هذه الأمة وأن تردهم إلى فتنة » وإني لا أعلم فتنة أعظم على هذه الأمة من ولايتك عليها ، ولا أعظم نظراً لنفسي ولديني ولأمة محمد أفضل من أن أجاهرك ، فإن فعلت.. فإنه قربة إلى اللّه ، وإن تركته .. فإني أستغفر اللّه لديني وأسأله توفيقه لإرشاد أمري ، وقلت فيما قلت : « إني إن أنكرتك تنكرني وإن أكدك تكدني » فكدني ما بدا لك ، فإني أرجو ألا يضرني كيدك وأن لا يكون على أحد أضر منه على نفسك ، لأنك قد ركبت جهلك وتخرَّصت على نقض عهدك ، ولعمري ما وفيت

بشرط ، ولقد نقضت عهدك بقتل هؤلاء النفر الذين قتلتهم بعد الصلح والإيمان والعهود والمواثيق ، فقتلتهم من غير أن يكونوا قاتلوا أو قَتلوا ، ولم تفعل ذلك بهم إلا لذكرهم فضلنا وتعظيمهم حقنا مخافة أمر لعلك لو لم تقتلهم..متَّ قبل أن يفعلوا أو ماتوا قبل أن يدركوا ، فابشر يا معاوية بالقصاص واستيقن بالحساب [1] واعلم أن للّه تعالى كتاباً لا يغادر صغيرةً ولا كبيرة إلا أحصاها ، وليس اللّه بناس لأخذك بالظنة وقتلك أولياءه على التهم ، ونفيك إياهم من دورهم إلى دار الغربة ، وأخذك للناس ببيعة ابنك الغلام الحدث ، يشرب الشراب ويلعب بالكلاب ، ما أراك إلا قد خسرت نفسك وتبَّرت دينك وغششت رعيتك وسمعت مقالة السفيه الجاهل وأخفت الورع التقي ، والسلام .

والمتمعن في هذا الكتاب لا بد أن يلاحظ رغبة الإمام الحسين «ع» في فضح معاوية ورد سهامه إلى صدره ، فمعاوية يتهمه بشق عصا أمة الإسلام ، فيجيبه : « **إني لا أعلم فتنة أعظم على هذه الأمة من ولايتك عليها** [2] ».

ويهدده بقوله : « اتق اللّه واذكر الميثاق » فيجيبه «ع» : لقد نقضت عهدك بقتل ذاكري فضلنا بعد الصلح والإيمان والعهود والمواثيق .

ويلوِّح له بالعهد قائلاً : « ونفسك فاذكر وبعهد اللّه أوف » فيجيبه بجسارة : ولا أعظم نظراً لنفسي ولديني ولأمة محمد أفضل من أن أجاهرك .. فإن فعلت فإنه قربة إلى اللّه[3] .

وحيال تهديده له ، يجيبه «ع» : « كدني ما بدا لك » وفي إجابته هذه تحدٍ نهائي

---

(١) إن الذين يكفرون بآيات اللّه ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم ٢١ من سورة آل عمران .

(٢) «... والفتنة أشد من القتل » من سورة البقرة .

(٣) يقول أمير المؤمنين علي «ع» : « وإنما عا ب اللّه ذلك عليهم لأنهم كانوا يرون من الظَلَمة الذين بين أظهرهم المنكر والفساد فلا ينهونهم عن ذلك رغبة فيما كانوا ينالون منهم ، ورهبة مما يحذرون » .

وواضح ، أتبعها بعبارة أخرى أشد جرأة : « فابشر يا معاوية بالقصاص واستيقن بالحساب ».. فحدد «ع» لخصمه نهاية مظالمه وكيده لأمة الإسلام كما ستكون عليه في مقبل الأيام .

وكي نفهم معاوية من خلال ردة فعله حيال كتاب الحسين .. فإننا نراه وقد ركن إلى السكوت بعد ورود هذا الكتاب عليه ، ولم يسجل التاريخ حادثة تنم عن غضبه مما جاء فيه ، وفي هذا إثبات أكيد على دهائه .. فلو جاء هذا الكتاب ليزيد بدلاً منه .. لما توانى عن شن حرب جنونية على الحسين [1] .

وفي عبارة الحسين « **فكدني ما بدا لك** [2] » إحراج لمعاوية ، كان يعني بها وضع خصمه حيال اتهاماته له ، فلم يقل له : « **كدني بما تريد** » بل بما بدا لك مني .. أي أن ما بدا منه «ع» حتى مجيء كتاب معاوية له ، لا يعدو كونه خيالات وأوهام أو رغبة في استباق الأمور وتسجيل مواقف مسبقة عليه بقصد استغلالها ضده فيما بعد ، فلو قام يكيد له بما بدا له منه .. فلن يجد ممسكاً واحداً يكيد له به ، وهذه ألمعية نادرة من غذي الفصاحة الطالبية ، تفوقت بصدقها وعفويتها بمراحل على خبث معاوية ودهائه ، استطاع «ع» بها أن يعيد له الكرة التي دحرجها إلى مرماه ، ويكيل له أضعاف ما كال به إليه ، وبالتالي إسكاته إلى حين .

وثمة حقيقة واضحة لمسها المسلمون في كل مرة حاول معاوية فيها الكيد للحسين واتهامه بما لم يفعله .. وهي أن الحسين«ع» برغم كل ما أوذي به من معاوية وما ناله من دهائه .. لم يستبح لنفسه الخروج عليه ، وفاء صادقاً بعهده ، على الرغم من جواز خروجه بعد خروج معاوية على كل العهود والمواثيق بالشكل الذي اتهمه فيه من خلال كتابه .

---

(١) ثمة تحليل واف ووصف واسع لشخصية يزيد في كتاب البلاذري « أنساب الأشراف » ٤ القسم الثاني / أ .

(٢) يعيب اللّه تعالى على المفرطين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوفاً وطمعاً لا رجاء برحمة حيث يقول عزته : « ولا تخشوا الناس واخشوني » .

ولم تكُ خلّة الوفاء بالعهد هي خلّة الحسين الوحيدة .. بل كانت البارزة في حيز صراعه النفسي مع معاوية ، وليس أدل من تعاظم شأن هذه الخلة المحمودة في نفس الحسين ، من أنه وقد اتهم معاوية بقتله لمن كان على دين أبيه علي «ع» والتمثيل بهم ، لا لشيء إلا لذكرهم فضل بني هاشم وتعظيمهم حقهم .. فإنه لم يتحرك ليزاحمه مجلسه الذي أجلسه فيه دين علي الذي هو دين ابن عمه الرسول «ص» ، والذي لولاه ـ كما ذكر له في كتابه ـ لكان شرفه وشرف آبائه ، تجشم الرحلتين .

ولو نادى الحسين بخلع معاوية آنذاك .. لتنادى له الكثيرون بنفس مناداته ، إذ كان معاوية معروفاً بنقضه للمواثيق واستخفافه بعهد اللّه ، وقتله للحسن وحجر بن عدي والحضرمي وللكثيرين ممن يفوقون الحصر ، ولكن الإمام الذي كانت تعده العناية الإلهية للشهادة العظمى .. اكتفى بأن جاهر خصمه بما ينفي عنه كل صفة إسلامية أو قومية بقوله : « **كأنك لست من هذه الأمة وليسوا منك** » .

وتكر الأيام ..والحسين ومعاوية على سكوتهما إلا من بضعة كتب كانت تتطاير بينهما بين الفينة والأخرى ، وقد حاول معاوية شراء أو ضمانة سكوت الحسين عن يزيد..فلم يفلح ، وحاول جس نبضه حينما أخذ يفكر بتوليته ، ولكن الحسين الذي كان ينتظر موت الأب ليخرج على الابن أجابه في أحد كتبه إليه : [1]« ... وفهمت ما ذكرت عن يزيد من اكتماله وسياسته لأمة محمد ، تريد أن توهم الناس في يزيد كأنك تصف محجوباً أو تنعت غائباً أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص ، وقد دلَّ يزيد من نفسه على موضع رأيه ، فخذ ليزيد فيما أخذ فيه من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش والحمام السبق لأترابهن والقيان ذوات المعازف وضرب الملاهي .. تجده باصراً ، ودع عنك ما تحاول فما أغناك أن تلقى اللّه من وزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه ، فواللّه ما برحت تقدح باطلاً في جور وحنقاً في ظلم حتى ملأت الأسقية وما بينك وبين الموت إلا غمضة » .

ولما يئس معاوية من حمل الحسين على البيعة لابنه يزيد ، عمد إلى حرمان بني

---

(١) الإمامة والسياسة ١٩٥ - ١٩٦

هاشم من أعطياتهم حتى يجبره على البيعة .

ولكن الكبر والمرض فتَّ في عضده ولم يفت في طموحاته ولم يخفف من غلواء دهائه ، فهاهو على فراش النزع الأخير يلجأ إلى أحابيله ويعمد إلى تمثيلياته .. فيأمر أجراءه كي يحشوا عينيه إثمداً ويطلسوا رأسه دهناً ويوسعوا له كي يجلس ، ثم يأمرهم بإسناده والإيذان للناس ليسلموا عليه قياماً دون السماح لهم بالجلوس ، وهكذا رآه الناس متكحلاً مدهَّناً ، ومنهم ابن عباس الذي جاء يعوده ويتأكد مما سمعه عن مرضه .. فعجبوا من الإشاعات التي تناقلت خبر مرضه ، وما كادوا يخرجون من لدنه .. حتى أنشد يقول :

وتجلدي للشامتين أريهم إني لريب الدهر لا أتضعضع

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

وأخيرا أرسل إلى مروان عامله على المدينة كتاباً قرأه على الملأ وقال فيه :

« إن أمير المؤمنين قد كبر سنه ودق عظمه ، وقد خاف أن يأتيه أمر اللّه تعالى فيدع الناس كالغنم لا راعي لها ، وقد أحب أن يعلم علماً ويقيم إماماً » .

ولما وافقه الناس ، كتب بذلك إلى معاوية ، فأجابه : « إن سمِّ يزيد » ، فسماه لهم ، فقام عبد الرحمن بن أبي بكر وقال له : « كذبت واللّه يا مروان وكذب معاوية معك ، لا يكون ذلك ، لا تجعلوها هرقلية وتحدثوا علينا سُنة الروم ، كلما مات هرقل قام مكانه هرقل[1] » .

وأنكر الحسين وتبعه عبداللّه ابن الزبير ، ولكن معاوية لم يهتم وكتب إلى عماله أن يمهدوا البيعة ليزيد في الأمصار ويرسلوا الوفود إليه في الشام لإعلان بيعتهم .

ولكن المدينة لم تبايع كما بايعت الشام والعراق ، فقدم معاوية إلى المدينة حيث استقبله أهلها وعلى رأسهم الثلاثة الذين أنكروا البيعة ، فسبَّهم ، ولما أقام بالمدينة

---

(١) راجع النوادر لأبي علي القالي ص ١٧٥ - ١٧٦

وكان وقت الحج..خرج حاجاً ، فقدموا إليه ثانيةً وقد ظنوا أنه تغير .. فأكرم وفادتهم وطلب لكل منهم دابة ، ثم طلبهم فدخلوا عليه حيث دعاهم إلى بيعة يزيد ، فقال ابن الزبير : اختر منا خصلةً من ثلاث ..

قال معاوية : إن في ثلاث لمخرجاً

قال : إما أن تفعل كما فعل رسول اللّه «ص»

قال : ماذا فعل ..؟

قال : لم يستخلف أحداً

قال : وماذا ..؟

قال :أو تفعل كما فعل أبو بكر فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بني أبيه ، فاستخلفه ، أو افعل كما فعل عمر بن الخطاب إذ جعلها شورى في ستة من قريش ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه .

قال :ليس فيكم مثل أبي بكر وأخاف الاختلاف ، هل عندك غير هذا ؟

قال : لا

قال : ألا تسمعون .. إني قد عوَّدتكم على نفسي عادة وإني أكره أن أمنعكموها قبل أن أبيِّن لكم ، إن كنت لا أزال أتكلم بالكلام فتعترضون عليَّ فيه وتردون ، وإني قائم فقائل مقالة .. فإياكم أن تعترضوا حتى أتمها ، فإن صدقت .. فعليَّ صدقي ، وإن كذبت .. فعليَّ كذبي ، واللّه لا ينطق أحد منكم في مقالتي إلا ضربت عنقه .

ثم وكل بكل رجل من القوم رجلين يحفظانه لئلا يتكلم ، ثم قام بمواجهتهم خطيباً فقال : « إن عبد الله بن زبير والحسين بن علي وعبد الرحمن بن أبي بكر قد بايعوا ، فبايعوا ».

فانجفل الناس عليه يبايعونه ، حتى إذا اطمأن إلى أخذ البيعة.. ركب رواحله وقفل عائداً إلى الشام ، فأقبل الناس على الحسين وصاحبيه يلومونهم دهشين ..

فقالوا لهم : « واللّه ما بايعنا ولكن فعل بنا وفعل » .

فقالوا : وما منعكم أن تردوا على الرجل برفض البيعة بعد أن زعمتم لنا بأنكم لا تبايعون ؟

قالوا : كادنا وخفنا القتل

وهكذا تمت البيعة ليزيد إغفالاً وقسراً وخداعاً .

ولم يطل المرض بمعاوية بعد هذه الحادثة إلا قليلاً ، فلما اشتد عليه وقرب به من حافة النزع الأخير .. ألقى لمن حوله بآخر تلفيقاته التي لكثرة ما رددها صار يصدقها هو نفسه كما لو أنها وقعت حقاً ، فقال :

« إن رسول اللّه « ص» كساني قميصاً .. فرفعته ، وقلّم أظفاري يوماً .. فأخذت قلامته فجعلتها في قارورة ، فإذا مت فالبسوني ذلك القميص ، وقطعوا تلك القلامة واسحقوها وذروها في عيني وفي فيَّ ، فعسى اللّه يرحمني ببركتها ، ثم تمثل ببيتين من الشعر[1]» :

إذا مت مات الجود وانقطع الندى ... من الناس إلا من قليل مصرد

وردَّت أكف السائلين وامسكوا ... من الدين والدنيا بخلف مجدد

ولما اعترضت إحدى بناته أكمل متمثلاً :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع

ثم راح بإغماءة أفاق منها للحظات ، فتفوه بهذه العبارة : « اتقوا اللّه عز وجل فإن اللّه سبحانه يقي من اتقاه ، ولا واقي لمن لا يتقي اللّه » وما لبث بعدها إلا قليلاً حتى قضى .

وكان ذلك في الشهر السابع من سنة ٦٠ للهجرة .

---

(١) من قصيدة للأشهب بن رملة .

وبموته انقضت مرحلة مشبعة بالدسائس والمؤامرات ، لوَّنها بدهائه الذي عرف به ، وأنهاها حتى الرمق الأخير بشتى ضروب الفتن[1] والإيقاع بين المسلمين ، واستعدت الولايات الإسلامية لاستقبال عهد جديد كانت بوادره تلوح في سماء الأمة فتدفع بالغصص إلى أشد الحلوق تفاؤلاً ، فيزيد ليس إلا معاوية ناقصاً بعض خصاله ، زائداً بعض خصال أبشع[2] ..

واستعد الحسين «ع» فقد دقت الساعة وآن الأوان .

***

---

(١) أبو الشهداء ، العقاد .

(٢) عُلم عن يزيد بأنه كان مرسل العنان في بني كلب أخواله ، مطيته الشباب والفراغ والجده ، وكان سلوكه متجاوزاً بمراحل ما جاء في الأخبار ، وكانت له هوايات شاذة كاللعب بالكلاب والتصيد بالفهود والتلهي بالقرود ، ذكر ذلك كل من المسعودي في مروج الذهب ، وأحمد بن يوسف القرماني في أخبار الدول ، والدميري في الكلام على الفهد ، وابن الطقطقي في الفخري .

في عهد يزيد

لئن جرت لفظة التوحيد في فمه فسيفه بسوى التوحيد ما فتكا
قد أصبح الدين منه يشتكي سقماً وما إلى أحد غير الحسين شكا

هذا ما وصف به أحد الشعراء عهد يزيد الذي استقبله المسلمون بقلوب واجفة وبأعصاب مشدودة ، فلا موت معاوية أشعرهم بالحزن .. ولا تولي يزيد أشعرهم بالفرح ، وصار حالهم كحال من عناهم أحد الشعراء بقوله :

الحمد لله لا صبر ولا جلب ولا عزاء إذا أهل البلا رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد وآخر قام لم يفرح به أحد[1]

إلا أن مشاعر المسلمين بعد موت معاوية وتولي ابنه يزيد لم تقف عند حدود عدم الحزن أو الفرح ، بل تعدتهما إلى شعور الخوف والترقب من عهد لم يعرفوا له لوناً بعد .. إذ كان معاوية قد استطاع أن يقيم توازناً ذكياً بين ما كان عليه وبين ما ظهر منه للأمة ، وكان التكتم هو وسيلته الناجعة في إحداث هذا التوازن ، فقنع الناس بهذا الحد من الإرهاب والتنكيل ولم يعودوا يجرؤون على الجهر بأكثر من الصمت .

---

(١) هذه الأبيات للشاعر دعبل بن علي الخزاعي ، وقد قالها لما جاءه نعي المعتصم وقيام الواثق ، وقد ثبتناها هنا للمطابقة .

وكانت هذه الخشية التي جاشت في قلوب المسلمين من عهد جديد بدأ ولم تتحدد أبعاده بعد .. نابعة من معرفتهم لشخصية يزيد كما سمعوا عنها ، ورأوا ما رأوه منها .

فيزيد كان مثالاً لابن السلطان المدلل المنحرف ، وكان كما تروي الكتب عنه أحمق حاقداً [1] مغروراً ، زاده التهور سطحيةً في التفكير وبعداً عن الحيطة والتكتم ، وكان أسلوبه في التصرف ومعالجة الأمور أسلوب من يركب كل مركب ومطية دون النظر في عواقب فعلته.

وكان على النقيض من أبيه معاوية .. فكل التكتم عند أبيه كان يقابله عنده الجهر والانفلاش ، وكل تكتيك يقابله تهور واضح واندفاعة هوجاء .

وهذه الشخصية المتهورة في مقياس علم النفس توصف بالشخصية العصابية وخصائصها هي ذات الخصائص التي عُرف بها يزيد ، ومن صفاتها الاستجابة الفورية والسريعة والعنيفة لردود الفعل ، وخفة الشخصية وسرعتها في الانقياد للآراء الجديدة ، سواء أكانت صائبة أم خائبة ، وصاحب هذه الشخصية إنسان فتاك يغدر بأقرب المقربين إليه ، ولا يتورع عن امتطاء أبشع الوسائل للوصول إلى غرضه.

ويصفه سيجموند فرويد : « بأن صاحب الشخصية العصابية إنسان ذو فائدة لعدد من الناس الأذكياء ، يدغدغون عصابيته ويبتزون منه الفوائد [2] ».

وهذا الوصف كان ينطبق إلى حد بعيد على شخصية يزيد إذ كان القرادون والفهادون والقيان والقوادون وسمسارو الجواري والعاهرات وشعراء النفاق

---

(١) هناك عبارة للمفكر « فردنان برودويل » يقول فيها : « المستقبل يملكه من يعرف كيف يحقد ويتجاهل الآخر وينكره ».. وهذا ما يتطابق مع نصوص الجاحظ التي يساند فيها ضرب الآخر كضرورات للحكم ، في حين أن نصوص ابن خلدون تحمل في متونها حضور الآخر .. ولم يكن خطاب يزيد الديني والسياسي إلا تعبيراً عن فشله الفكري في المجتمع الإسلامي آنذاك .

(٢) سيكولوجية الشذوذ النفسي ص ١٢٩

يشكلون طبقة عريضة مستفيدة من أعطياته التي كان يحجبها عن المحتاجين من أمته ويغدقها بسخاء ما بعده سخاء عليهم طالما هم يمتعونه ويؤمنون له الاستمرارية في مباذله ومجونه.

كان موفر الرغبة في اللهو والقنص والخمر والنساء وكلاب الصيد ، حتى كان يلبسها الأساور من الذهب والجلال المنسوجة فيه ، ويهب لكل كلب عبداً يخدمه ، وساس الدولة سياسة مشتقة من شهوات نفسه[1].

ورجل هذه صفاته كان من غير الممكن أن يسكت عن معايبه رجل كالحسين«ع» عرف بالتقوى وخوف اللّه والبذل للمحتاجين والاقتطاع من فمه وإطعام أفواه الجياع.

ورجل كهذا لا يمكن له من معالجة أموره مع الحسين كما عالجها أبوه ، إذ كان الفرق شاسعاً بين الاثنين ، وكان منتظراً أن يتم التصادم في عهده ، بل في مطلع هذا العهد.

فلم يكن ثمة ما يمنع الحسين بعد موت معاوية من إعلان ثورته على يزيد ، فالنفوس عُبئت عن آخرها ضد هذا الخليفة الجديد.

فمن جهة يزيد ، ساهمت الانتهاكات المكشوفة للدين في إيغار الصدور ضده إذ لم تكن له قدرة أبيه على الاحتفاظ بالغشاء الديني الذي كان يسبغه على أقواله وأفعاله.

ومن جهة الحسين ، ساهم موت معاوية في تحلله من العهد والميثاق ، ولم يعد ملتزماً أمام أحد ليبرر قعوده ، وهاهو يزيد يقدم له إشارة البدء بما بدأ به من رعونة وحماقات في مستهل عهده.

فما أن ووري معاوية التراب .. حتى عجَّل يزيد بأخذ البيعة لعهده من زعماء

---

(١) راجع الفخري لابن طباطبا المعروف بابن الطقطقي ص ١٠٣ والبلاذري في أنساب الأشراف .

المعارضة ، مدعياً أنه رأى في منامه كأن بينه وبين أهل العراق نهراً يطرد بالدم جرياً شديداً ، وقد جهد ليجوزه .. فلم يقدر حتى جازه بين يديه عبيد اللّه بن زياد وهو ينظر إليه ..

وكانت هذه أكذوبة افتتح بها عهده كما اختتم أبوه عهده وحياته بأكذوبات مماثلة تحدث فيها عن رؤى قدسية لم تجُل إلا في خياله الغرائبي الأطوار .

وما لبث أن كتب إلى الوليد بن عتبة واليه على المدينة يخبره فيه بموت أبيه ، ومرفقاً بالكتاب صحيفة صغيرة ذكر له فيها :

« **أما بعد ، فخذ الحسين وعبداللّه بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبداللّه بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليس فيه رخصة[1] ، ومن أبى .. فاضرب عنقه وابعث إليَّ برأسه[2]** ».

وما جاء في هذه الصحيفة يعطي دلالة واضحة على شخصية مرسلها .. إذ في أول كتبه لأحد ولاته يطلب منه أخذ الحسين وجماعته بالشدة ، ويأمره بقطع رؤوسهم وإرسالها له إن أبوا بيعته.

وهاهو بأول تحرك له يخالف آخر وصية لأبيه على فراش الموت حينما قال له فيما قال :

« إن خرج الحسين من العراق وظفرت به ، فاصفح عنه فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً وقرابة من محمد ، فإن قدرت عليه فاصفح عنه فإني لو أني صاحبه عفوت عنه ».

ولكن يزيد صاحب الشخصية العصابية التي تفتك بأقرب الناس دون أن يرف لها جفن .. لم تكن لتهمه كثيراً قرابة الحسين من محمد «ص» ولا تهزه قرابة الرحم

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣/ ٢٣٦

(٢) مقتل الخوارزمي ج ١ / ١٧٨ - ١٨٠

الماسة ، إذ أن كل همه الشدة وإلا كان قطع الرؤوس هو البديل للإذعان لهذه الشدة[1] .

ولكن الحسين «ع» الذي انتظر هذه الفرصة طويلاً وصبر على معاوية حتى أيس منه أغلب صحبه .. هب سريعاً وكانت ردة فعله مدروسة ، إذ قال للوليد لما فاتحه بكتاب يزيد :

« مثلي لا يبايع سراً ، ولا يجتزئ بها مني سراً ، فإذا خرجت للناس ودعوتهم للبيعة ودعوتنا معهم كان الأمر واحداً [2]».

فاقتنع الوليد ، لكن مروان قال له :

« لئن فارقك الساعة ولم يبايع ، لا قدرت منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلة بينكم وبينه ، فاحبس الرجل حتى يبايع أو تضرب عنقه .

فوثب له الحسين قائلاً : « ويلي عليك يا ابن الزرقاء ، أنت تأمر بضرب عنقي أم هو ؟ كذبت ولؤمت وأثمت[3]» .

وارتد إلى الوليد وقال : « أيها الأمير ، إنَّا أهل بيت النبوة ، ومعدن الرسالة ، ومختلف الملائكة ، بنا فتح اللّه ، وبنا ختم ، ويزيد فاسق فاجر شارب الخمور وقاتل النفس المحرمة معلن بالفسق ومثلي لا يبايع مثله ، ولكن نصبح وتصبحون وننظر وتنظرون أينا أحق بالخلافة [4].

فأغلظ الوليد في كلامه وتطايرت الكلمات ، فهجم تسعة عشر رجلاً جاؤوا مع

---

(١) كان يزيد « سيكوباتياً » وفي علم النفس السيكوباتية تعني توقيع الأذى رغم معرفة مقترفها بالقانون والأعراف ، إذ أن لذة المقترف الكبرى تتجلى في إتيان ما يعرفه أنه جريمة تمام المعرفة .

(٢) الطبري ج ٦ ص١٨٩

(٣) تاريخ الطبري وابن الأثير والإرشاد وأعلام الورى ، نقلاً عن المقرم .

(٤) مثير الأحزان لابن نما الحلي .

الحسين منتضين خناجرهم وأخرجوه [1].

فقال مروان للوليد : « عصيتني فواللّه لا يمكنك على مثلها » .

قال الوليد :

« وبخ غيرك يا مروان فقد اخترت لي ما فيه هلاك ديني ، أقتل حسيناً إن قال لا أبايع ؟ واللّه لا أظن امرؤاً يحاسب بدم الحسين إلا خفيف الميزان يوم القيامة [2] لا ينظر اللّه إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم [3] .

وهكذا فبعبارة « **ومثلي لا يبايع مثله** » ختم الحسين «ع» صيحة تحديه ليزيد وبدأ بالخطوة الأولى في رحلة الألف ميل نحو مصارع شهادته.

وهذه العبارة فيها من الإيجاز ما لا يستوعبه مجلد بالشرح المستفيض ، فقوله «**ومثلي**» معناه أن من كان مثله على دين الحق وسلالة النبوة « **لا يبايع مثله** » من كان على باطل الأباطيل وسليل مغتصبي حق آل البيت .

وحينما ألقاها .. ارتفع من أمامه آخر الحواجز النفسية والزمنية ، ووضعته العناية الإلهية أمام دوره العظيم في مسيرة الدين الإسلامي ، فصار منذ هذه اللحظة بطل هذه العناية وخادمها ، ومنفذ إيحاءاتها العلوية التي ستقوده إلى قدره المكتوب والمحتوم.

في تلك الليلة خرج «ع» زائراً قبر جده الرسول « ص» وقد أثقله الدور الذي سيقوم به والذي شعر بأنه صار إليه منذ أعلن كلماته أمام الوليد ومروان ، فسطع له نور من القبر فناجى جده قائلاً :

« السلام عليك يا رسول اللّه ، أنا الحسين ابن فاطمة فرخك وابن فرختك

---

(١) مناقب ابن شهراشوب ج٢ ص ٢٠٨

(٢) تاريخ الطبري ج ٦ ص ١٩

(٣) اللهوف ص ١٣

وسبطك الذي خلفتني في أمتك ، فاشـهد عليهم يا نبي اللّه أنهم خـذلوني ولم يحفظوني وهذه شكواي إليك حتى ألقاك[1]» .

وفي الليلة الثانية خرج إلى القبر يصلي ويدعو اللّه بحق القبر أن يختار له ما يرضى به عنه ولرسوله رضى ، ثم بكى وما لبث أن أغفى على القبر ، فإذا برسول اللّه قد أقبل في كتيبة من الملائكة عن يمينه وشماله وبين يديه فضم سبطه بين يديه إلى صدره وقبَّل عينيه وقال :

« حبيبي يا حسين ، كأني أراك عن قريب مرملاً بدمائك مذبوحا بأرض كرب وبلاء من عصابة من أمتي ، وأنت مع ذلك عطشان لا تُسقى، وظمآن لا تُروى ، وهم مع ذلك يرجون شفاعتي ، لا أنيلهم شفاعتي يوم القيامة ، حبيبي يا حسين إن أباك وأمك وأخاك قد قدموا عليَّ وهم مشتاقون إليك ، وإن لك لدرجات في الجنان لا تنالها إلا بالشهادة » .

فجعل الحسين ينظر إلى جده ويقول : « يا جداه لا حاجة لي في الرجوع إلى الدنيا ، خذني إليك وادخلني معك في قبرك » .

وعبارة الحسين «ع» الأخيرة تصور أدق تصوير هول ماسيصيبه ، مما جعله يطلب من جده إدخاله إلى قبره ، وهذا التصوير يدل على همجية الذين سيؤذونه أكثر مما يصور شعوره من هذا الإيذاء ، وعلى قسوة ما سيناله لا على خوفه منه.

ولعل التصوير الأشد بروزاً لهذه الهمجية .. ما جاء في قول جده « ص» له عند قبره ، من أنه سيراه قريباً مرملاً بدمائه مذبوحاً من عصابة من أمته.

فوصف « **عصابة من أمتي** » فيه إشارة إلى نوعية أولئك الذين سيتولون الذبح ، فهم عصابة .. والعصابة تتكون من مجموعة أشرار غلاظ الضمائر والقلوب ، قساة الصدور والأنفس ، وقد حددهم « ص» بـ « **أنهم من أمتي** » أي تلك الطغمة الفاسدة من الأمة الإسلامية ، الخارجة عن العرف والقانون والأخلاق ، مثلها مثل عصابات

---

(١) أمالي الصدوق ص ٩٣

السرقة والإجرام وانتهاك الحرمات.

وبهذا المعنى فإن العصابة التي ذبحت الحسين لم تقتصر على يزيد وعمر بن سعد والشمر ، وإنما شملت كل طغمة الشر في الأمة ، أولئك الذين مهدوا الطريق للجريمة البشعة منذ بذرتها الخفية في يوم السقيفة[1] ومروراً بما تلاها من ممارسات مخزية ، وصولاً إلى عهد يزيد الخارج عن الملّة.

ثم يصور الرسول الكريم شناعة موقف هذه العصابة بقوله لسبطه : « وأنت مع ذلك عطشان لا تُسقى وظمآن لا تُروى » ويبسط أمام البصائر وحشية العصابة التي تذبح حفيده ، والتي لا تكتفي بالذبح .. بل تتركه أيضاً عطشان وظمآن لا يُسقى ولا يُروى ، وبهذا الفعل الاضطهادي لا تعطيه الحق البسيط الذي يعطى لأعتى المجرمين قبل إعدامه حينما يُسأل عن آخر رغباته والتي يكون أبسطها السقي والإرواء .

ويعطف النبي «ص» هذه الفعلة على ما بعدها والتي ستكون من جانبه «ص» إذ يكمل :

وهم مع ذلك يرجون شفاعتي لا أنيلهم شفاعتي يوم القيامة [2] .

فعبارتا « **وأنت مع ذلك** » و « **هم مع ذلك** » فيهما ربط النتائج بالمسببات ، ورد الفعل إلى النية في فعله ، وإبراز الفرق بين ما يجب أن يكون وبين ما لا يجب أن

---

(١) للقاضي أبو بكر بن قريعة قصيدة بهذا المعنى يصف فيها ما جرى يوم السقيفة ، والمؤامرة التي تعرض لها آل البيت ، يقول في آخر أبياتها :

لولا اعتداء رعية	ألقى سياستها الخليفة
وسيوف أعداء بها	هاماتنا أبدى نقيفة
لنشرت من أسرار	آل محمد جملاً طريفة
وأريكم أن الحسين	أصيب في يوم السقيفة

(٢) في سفر التكوين ١١/٣ أنه حين قتل قابيل أخاه هابيل كلّمه اللّه قائلاً : « فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دماء أخيك من يديك ».

يكون ، أو كان فعلاً خارجاً عن المألوف وحدود الكينونة الطبيعية التي عرَّفتها القوانين الإلهية ، وكذلك القوانين الوضعية .

فالقتل في عرف القانون هو جريمة لها حدودها المادية والقانونية والشخصية والدينية ، فإذا تم ضمن هذه الحدود .. اعتبر قتلاً في خانة الجريمة الصرفة ، أما إذا سبقه تعذيب .. فيعتبر في عرف القانون جريمة أخرى تسبق الجريمة الحقيقية من شأنه مضاعفة العقوبة لها ، وإذا ما تبع القتل تمثيل بالجسد .. فإن هذا الفعل يعتبر أيضاً جريمة أخرى لا تقل بشاعتها عن بشاعة جريمتي القتل والتعذيب .. بل يعتبرها كثير من المشرعين أنها أشنع منهما بمراحل [١] ، لأن التمثيل بالجسد صنيعة الخالق هو إهانة لمخلوقه ، وتعذيب لروحه التي لا تترك مسرح مصرعها إلا بعد أن توارى الجثة التراب ، كما يرى بعض الروحانيين [٢] .

وهكذا فإن التعذيب والقتل والتمثيل تعتبر جرائم ثلاثاً في عرف القانون ، فإذا نظرنا بهذا المنظار القانوني إلى مقتل الحسين ، وكيف عُذِّب قبل الذبح ، ثم ذُبح ومُثِّل بجسده الطاهر أشنع تمثيل وأشده مهانة .. لتفسرت لنا قولة النبي « ص» لسبطه بهذا الشكل من التعبير [٣] .

---

(١) يرى فيكتور ماسيون المشرع الفرنسي بأن التمثيل بالجسد جُرم أكبر من جرم القتل ويعتبر أن للميت حرمة لا يجوز إهانتها فإذا أهينت اعتُبرت إهانة للرب خالق الإنسان ومكوِّنه على صورته ومثاله .

(٢) للروحاني الفرنسي الكبير « نوستراداميس » علم خاص في بقاء روح الإنسان حائمة فوق الجسد الذي تركته لساعات أو لأسابيع لا تقوى على فراقه تأسياً عليه ، وخوفاً من انفلاتها طليقةً ، وللروحانيين الشرقيين آراء عدة في هذا الصدد ، ومنها أن البكاء حول الميت يحزنه ، لأن روحه تحوم وتراقب ولا تبرح بعيداً عن الجسد حتى يوارى التراب ، واللّه أعلم .

(٣) القتل يستجلب لعنة اللّه وقد جاء النهي عنه في التوراة والإنجيل والقرآن على قدر خطورته الدينية والاجتماعية والإنسانية ، لأن الإنسان مخلوق على صورة اللّه ومثاله ، وقتله معناه تغييب لصورة اللّه ومثاله فيه ، وإزهاق لوديعة غالية أودعها في هيكله البشري فكيف إذا كان المقتول قبساً من النبوة وبضعة من الرسولية وجزءاً كبيراً من محبة اللّه للإنسان ونفحة قوية من إلهاماته وسره ؟

والرسول الأعظم « ص» لم يترك ولده يعاني خوف الشهادة وهو الذي رآه يبكي على صدره ويسأله بتوسل إدخاله في قبره لزهده في العودة إلى الدنيا وما فيها ، فقال «ص» له :

« لا بد أن ترزق الشهادة ليكون لك ما كتب اللّه فيها من الثواب العظيم ، فأمك وأبوك وعمك وعم أبيك تحشرون يوم القيامة في زمرة واحدة حتى تدخلوا الجنة ».

إذن فإن انتظار الحسين كل هذه المدة وصبره على مكاره معاوية لم يكن كما فسره الملفقون من أنه جبن وتردد .. وخروجه إلى الشهادة بالشكل المأساوي الذي خرج به لم يكن كما أوَّله المخرِّصون من أنه خروج عاطفي لا يحسب لصراع القوة والمجالدة حساباً ؟

فالحسين «ع» لم يأت بأمر من عندياته ، بل كان مسيَّراً ليس له خيار ، فما قول الذين قالوا بعكس ذلك بكلمة الرسول « ص» لسبطه: « لا بد أن ترزق الشهادة ليكون لك ما كتب اللّه فيها » وهل بعد تنبؤ الأنبياء .. ادعاء ، وهل بعد تقريرهم .. نقض ؟

وأولئك الذين وضعوا ويضعون شهادة الحسين على مشرحة الحروب العسكرية والصراعات البشرية من أجل مغانم زمنية مؤقتة .. أما علموا أن حركته كانت استشهاداً وفداءً من حيث كان يقصد بها ذلك قبل أن يبدأها بزمن بعيد كما حللنا ذلك في مطلع كتابنا .. أما لفت بصيرتهم كون الشهادات العظيمة تشابهت في الشكل والوسائل والنتائج ، وأنها دوماً كانت تبدأ من أضعف المواقف حيث يستلزم القوة ، ومن أقوى المواقف حيث يستلزم الضعف .. أما قرأوا نبوءات الرسل والوصيين عن الشهداء الذين سيأتون بعدهم لإنقاذ العقائد وبني البشر من غيهم وضلالهم وانتشالهم من بؤر الظلم إلى شمس الحق فيوفروا على أنفسهم اجتهادات تؤول مصائرها إلى الرياح تذروها بدداً حيال سطوع وتجلي الحقيقة الإلهية الجوهرية التي لن يعلو على سناها سناء ولا على إشعاعها إشعاع؟ فهي كالشمس واجتهادات المحرِّفين عُميِ الأبصار والبصائر الذين يرون الحقيقة فيشيحون بوجوههم عنها .. هي

كظلال باهتة لأشجار عُرِّيت من أثمارها وورقها وعصفت بها أرياح الشتاء.

فما أعجب أولئك الموتورين الذين كفروا بنعمة اللّه تعالى الذي أعطاهم نعمة الكلمة ، فألصقوا بها المعايب والسوءات وسكبوها على الورق تحريفاً لكلام اللّه وكلام رسله وأوصيائه ، فمن لهم بشفيع يوم القيامة ومن لهم بمنقذ من هواتف صدورهم إذا ما استيقظت ضمائرهم وهتفت في دواخلهم تطلب ماء الرحمة والإيمان لتبرد به جحيمها ..؟

يا ليت من يمنع المعـروف يمنعـه — حتى يذوق رجال غبَّ ما صنعوا
وليت للناس خطاً في وجـوههم — تبين أخلاقهم فيه إذا اجتمعوا
وليت ذا الفحش لاقى فاحشاً أبداً — ووافق الحلم أهل الحلم فابتدعوا [1]

***

(١) هذه الأبيات لأبي دهبل الجمحي ، وقد ثبتناها هنا للاستشهاد بمعناها المتوافق مع معاني الرأي الذي سبقها .

الفصل الثالث

الخروج والمقتل



الخروج
إلى مكة

ألا يا عين فـاحـتـفلي بجـهـد ومن يبكي على الشـهـداء بعـدي
على قــوم تـسـوقـهـم المنايا بمقـدار إلى انجـاز وعـد

هذا الهاتف سمعته العقيلة زينب وركب الخروج على مشارف الخزيمية قرب الكوفة ، وأعلمت به أخاها الحسين ، ولكن الشهيد الذي كان في هذا الوضع امتثالاً لأمر جده .. لم يزد جوابه على كلام أخته عن القول : « **يا أختاه كل الذي قُضي فهو كائن** [1] » .

وبجواب الحسين يضع ما كُتب له في الصحيفة الإلهية موضع التنفيذ بامتثاله للوعد الذي قُدر له إنجازه ، فكان كل ما قُضي بالنسبة إليه هو كائن لا محالة ، وتأكيد جده الرسول الأعظم على ضرورة أن يرزق الشهادة .. فيه توكيد وأمر غير مباشر له كي لا يقف أو يتردد ، بل يقدم عن وعي وتبصر بالنتائج ، وهذا ما كان منه بعد تلقي التوكيد الأمر من جده « ص» ، إذ جمع عائلته وصحبه وأنبأهم برؤياه ، فتخوف عليه الجميع ونصحه عمر الأطرف بالمبايعة ليزيد وإلا سيُقتل ، وقال له محمد بن الحنفية ناصحاً :

« تنح ببيعتك عن يزيد بن معاوية والأمصار ما استطعت ، ثم ابعث برسلك إلى

---

(١) راجع ابن نما ص٢٣

الناس ، فإن بايعوك .. حمدت اللّه على ذلك ، وإن اجتمعوا على غيرك .. لم ينقص اللّه بذلك دينك ولا عقلك [1]» .

فاستصوب الحسين نصيحة ابن الحنفية وعزم على الخروج إلى مكة ، ودخل المسجد وهو ينشد :

لا ذعرت السوام في فلق الصبح — مخبراً ولا دعيت يزيدا
يوم أعطى مخافة الموت ضيماً — والمنايا يرصدنني أن أحيدا [2]

وقبل أن يترك المدينة كتب وصية تعتبر دستور الخروج ، أجمل فيها مبدأه وهدف خروجه وقال فيها ضمن ما قال :

« وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً ، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي « ص» ، أريد أن آمر بالمعروف ، وأنهى عن المنكر ، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب ، فمن قبلني بقبول الحق .. فاللّه أولى بالحق ، ومن ردّ عليّ هذا .. أصبر حتى يقضي اللّه بيني وبين القوم وهو خير الحاكمين [3] ».

وخرج «ع» من المدينة متوجهاً إلى مكة لليلتين من رجب سنة ٦٠ للهجرة وحوله أهل بيته وإخوته وبنو أخيه وهو يقرأ متخوفاً طالباً من ربه تخليصه من القوم الظالمين ، ولزم الطريق الأعظم ، فقيل له : « لو تنكبت الطريق كما فعل ابن الزبير كيلا يلحقك الطلب » ، فأجاب : « لا واللّه لا أفارقه حتى يقضي اللّه ما هو قاض ».

---

(١) اللهوف ص١٥ ط صيدا

(٢) أنساب الأشراف ج٤ ص٦٦

(٣) للشيخ محمد عبده رأي يقول فيه : خروج الإمام الحسين «ع» على إمام الجور والبغي يزيد كان من باب خذل حكومة جائرة عطلت الشرع الإسلامي ، وللشيخ عبدالله العلايلي في كتابه « الإمام الحسين » ص ٣٤٤ رأي مماثل يقول فيه : الحسين «ع» لم يخرج على إمام وإنما خرج على عاد فرض نفسه فرضاً أو فرضه أبوه بدون ارعواء ، وهذا مأخذ نيابي وغلطة سياسية من معاوية أعد المجتمع للثورة إعداداً قوياً حينما عهد إلى يزيد .

وفي مكة مكث أربعة أشهر يدرس أحوال ناصريه وشيعته ، وكانت ترده كتبهم تعلن له البيعة وتطلب منه الظهور ، وكان أهل الكوفة وأعمالها قد وعدوه بمائة ألف مقاتل إن هو طلب البيعة[1] .

ولكن الحسين تمهل لتبيان جلية الأمر وآثر قبل التوجه إلى الكوفة أن يرسل ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب ليهيء له الأرضية المناسبة لإعلان البيعة ، ولهذه الغاية كتب إلى رؤساء الكوفة كتاباً يقول فيه :

« أما بعد .. فقد أتتني كتبكم وفهمت ما ذكرتم من محبتكم لقدومي عليكم ، وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي ، مسلم بن عقيل ، وأمرته أن يكتب إليَّ بحالكم وأمركم ورأيكم ، فإن كتب إليَّ أنه قد أجمع رأي ملئكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت عليَّ به رسلكم وقرأت في كتبكم .. أقدم عليكم وشيكاً إن شاء اللّه ، فلعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط[2] والدائن بالحق ، والحابس نفسه على ذات اللّه ، والسلام » .

وبينما «ع» في مكة .. كان موسم الحج قائماً ، وقد غصت مكة بجمع كبير من المعتمرين المسلمين من كل الأنحاء ، وكانت أخبار خروجه قد وصلت إلى الأمويين معلنةً غضبته وعلنية حركته مع ما وافاهم به جواسيسهم المبثوثة من عقد الأندية لمؤازرته وكثرة اجتماعاته مع المسلمين المتواجدين في مكة ، إضافة إلى ما تناقلته الإشاعات والتكهنات من أقوال وآراء حول هياج أهل الكوفة وغليان نفوسهم بعد موت معاوية .

وكان أن قرر الأمويون اغتيال الحسين في مكة حتى ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة ، فأرسلوا فرقة يطلق عليها « شياطين بني أمية » مؤلفة من ثلاثين رجلاً لتنفذ

---

(١) وردت تفاصيل هذه الكتب وأعدادها وصيغها في كتاب ابن نما ص١١ ، وفي الخوارزمي ج١ ص١٩٣ تفصيل آخر لاجتماع أهل الكوفة وكتبهم إلى الحسين ـ عن المقتل للمقرم .

(٢) يقول الكتاب العزيز : « واقسطوا إن اللّه يحب المقسطين » سورة الحجرات .

عملية اغتياله .

وقد هدف يزيد من وراء اغتيال الحسين ضرب عصفورين بحجر واحد ، فمن جهة يتخلص من خصمه .. ومن جهة أخرى يكون مقتله ذريعة مناسبة لإعدام المئات تحت ستار البحث عن قتلته ممن يود اجتثاثهم وتصفيتهم .

وكان قد بلغ الحسين أن مسلماً قد بايعه في الكوفة ثمانية عشر ألفاً ، فقرر التعجيل بالسفر إلى الكوفة لسببين : أولهما .. من أجل التفويت على اغتياله والمحافظة على حرمة الحرم ، و ثانيهما .. من أجل المبادرة إلى المبايعين قبل أن يتفرق شملهم وتبرد هممهم من طول الانتظار .

وحاول البعض نصحه بالتريث أو العدول عن السفر إلى الكوفة ، ومنهم عبدالله بن عباس إذ سأله :

ـ إن الناس أرجفوا أنك سائر إلى العراق .. فما أنت صانع ؟

أجاب :

ـ قد أجمعت السير في أحد يومي هذين .

فأعاذه ابن عباس باللّه من هذا العزم وقال له مشفقاً :

ـ إني اتخوف عليك من هذا الوجه الهلاك ، إن أهل العراق قوم غدر ، أقم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا .. فلينفوا عدوهم ثم اقدم عليهم ، فإن أبيت إلا أن تخرج .. فسر إلى اليمن فإن بها حصوناً وشعاباً ولأبيك بها شيعة[١] .

فقال له الحسين :

ـ يا ابن عم إني أعلم أنك ناصح مشفق ولكني قد أزمعت على السفر وأجمعت

---

(١) ابو مخنف في المقتل ص٤١

على السير .

قال ابن عباس :

ـ إن كنت لا بد فاعلاً فلا تُخرج أحداً من ولدك ولا حرمك ولا نسائك ، فخليق أن تُقتل وهم ينظرون إليك كما قُتل ابن عفان .

ولكن صحب الحسين وخلصائه لم يعوا تماماً كما وعى هو أمر أن يتوجه إلى العراق حيث مصرع شهادته ، وكانوا حتى وصوله إلى كربلاء مازالوا ينظرون إلى الخروج على أنه مناجزة عسكرية ، وكان هذا الفهم المغلق سراً من الأسرار العلوية لم يتفتح إلا لبصيرة الحسين وحده .

إلى الكوفة

في الثامن من ذي الحجة خرج الحسين قاصداً الكوفة موطن المعارضة لأمية ، وكانت أخبار تنادي الشيعة لكتبه والتفافهم حول مسلم بن عقيل بانتظار قدومه قد بلغت يزيد ، فاستشار أنيسه سرجون الرومي بما يجدر عليه فعله .. فأشار عليه بعزل والي الكوفة النعمان بن بشير وتولية عبيدالله بن زياد والي البصرة(١) .

وما أن جاء الأمر لإبن زياد حتى تعجل المسير إلى الكوفة ودخلها متخفياً بثياب يمنية وعمامة سوداء ، فكان الناس يظنونه الحسين ويحيونه بقولهم : «مرحباً بابن رسول الله » وكان الغيظ يحرق صدره ويدفعه إلى إسراع الخطى حتى وصل إلى قصر الأمارة ، فأطل عليه النعمان من عل وقال له : « ما أنا بمؤد إليك أمانتي يا ابن رسول الله » فقال له ابن زياد : « افتح فقد طال ليلك » .. فعرفه ابن النعمان(٢) .

---

(١) كان عبيد الله بن مرجانة مجوسياً ، وعند ابن كثير في البداية ، وعند العيني في عمدة القارئ ، وفي شرح البخاري أن والدته سبية من أصفهان ، ويقال إن عبيد الله كان أكولاً ولا حد لشراهته ، وفي المعارف لابن قتيبة ص ٢٥٦ أنه كان طويلاً جداً لا يُرى ماشياً إلا ظنوه راكباً .

(٢) الطبري ج ٦ ص ٢٠١

وكان أول عمل قام به في الصباح أن جمع مشايخ المدينة في الجامع الأعظم وخطبهم وحذَّرهم ومنَّاهم بالأعطيات قائلاً : « أيما عريف وُجد عنده أحد من بغية أمير المؤمنين ولم يرفعه إلينا .. صُلب على باب داره[1] » وكان يقصد بـ« بغية أمير المؤمنين » الحرورية وأهل الريب .

وأحدث قدوم ابن زياد اضطراباً بين الناس وانتشر الرعب في المدينة وسرت إشاعات بأن جيش الشام على الأبواب ، فأمسكت القبائل بزعمائها حفظاً لهم من فتك ابن زياد ، وبقي البعض يتردد على مسلم بن عقيل بحذر وتكتم تحت مراقبة أموية شديدة .

وعلى الرغم من تضارب الوقائع فيما تلا من أيام بعد وصول ابن زياد إلى الكوفة فإن من المسلم به أنه لقي مقاومة وسجالاً في مغالبة مسلم وشيعته ، وقد قيل إنه هرب مرة من المسجد واعتصم بقصره هرباً من ناصري مسلم الذين تصايحوا ضده .

ويقال إنه اجتمع لمسلم أربعة آلاف نصير ، فأمر بمن ينادي في الناس بشعار المسلمين يوم بدر : « **يا منصور .. أمت ؟** » ثم تقدم إلى قصر الأمارة مع أنصاره ولم يكن فيه إلا ثلاثون رجلاً من الشرطة وعشرون من أهل الكوفة ، فلما شعر ابن زياد بأنه في خطر لا نجاة منه .. تحايل على الموقف وأنفذ عيونه وأنصاره يبثون الإشاعات في أنحاء المدينة عن قرب وصول المدد من الشام ، ويهددون بأخذ البريء بالمذنب والغائب بالشاهد .

وأثمرت حيلته ، فصارت الزوجات يتعلقن بأزواجهن كي يمنعنهن من الخروج ، وفعل ذلك الإخوة والأمهات[2] .

وكان أن انفض جند مسلم إلا خمسمائة ، وما أن صلَّى المغرب حتى كان وراءه ثلاثون أخذوا يتسللون رويداً رويداً حتى بقي وحيداً في المسجد .

---

(١) الإرشاد

(٢) راجع تاريخ الطبري ج ٦ ص ٢٠٧

ولما سمع عبيد اللّه سكون الجلبة .. أرسل حملة القناديل ليفتشوا في المسجد مخافة أن يكون هذا السكون مكيدة ، فلما اطمأن إلى تفرق أتباع مسلم ..دعا إلى الصلاة ، ولما اجتمع الناس رقي المنبر وقال :

« إن ابن عقيل قد أتى ما قد علمتم من الخلاف والشقاق فبرأت الذمة من رجل وجدناه في داره ومن جاء به فله ديَّته » .

ثم أمر رئيس شرطته الحصين بن نمير أن يفتش السكك والدور وتوعده بالقتل إن أفلت مسلم وخرج من الكوفة .

وعند الصباح وشى ابن امرأة تدعى طوعة كانت قد آوت مسلماً .. بمكان اختبائه ، فأرسل ابن زياد ، ابن الأشعث في سبعين من الشرطة فقبضوا عليه بعد معركة دامية دافع خلالها ابن عقيل دفاع الأبطال وقتل العديد من مهاجميه[1] .

ولما جيء به إلى ابن زياد ، رأى مسلم على باب القصر قلة ماء مبردة ، فطلب شربة منها ، فقال له مسلم بن عمرو الباهلي : « واللّه لا تذوق منها قطرة حتى تذوق الحميم في نار جهنم » .

ولما مثل بين يدي عبيد اللّه .. لم يحيه ، فقال له ابن زياد : « لقد خرجت على إمامك وشققت عصا المسلمين وألقحت الفتنة » .

فقال مسلم : « كذبت .. إنما شق العصا معاوية وابنه يزيد ، والفتنة ألقحها أبوك[2] » .

ونظر مسلم إلى جلساء ابن زياد فرأى بينهم عمر بن سعد ، فناشده بحق القربى بينهما ليصغين منه إلى وصية ينفذها له ، فأبى عمر .. فأذن له عبيد اللّه ، فقام إلى مسلم بحيث يراهما ابن زياد ، فأوصاه بأن يقضي ديناً عليه بالكوفة سبعمائة درهم

---

(١) يقال أنه قتل واحداً وأربعين رجلاً على ما ذكر ابن شهراشوب في المناقب ج٢ ص ٢١٢

(٢) ابن نماص ١٧ ومقتل الخوارزمي ص٢١١

بعد أن يبيع سيفه ودرعه ويستوهب جثته من ابن زياد ويدفنها ، ويكتب إلى الحسين بخبره .

ولكن رجل عبيد اللّه كان أميناً مع نذالة نفسه ، فأفشى لسيده بسر مسلم ، فطالبه بالتكتم على هذا السر وأمر بإخراج مسلم إلى أعلى القصر حيث تراه الجموع المنتظرة في الخارج ، وطلب من رجل شامي أن يضرب عنقه .. فسقط رأسه إلى الرحبة وألقيت جثته إلى الناس ، ثم أرسل برأسه إلى يزيد مع رؤوس بعض أنصاره ممن كان يأوي إليهم ، وفي مقدمتهم رأس هانيء بن عروة ، ثم أمر بسحب مسلم وهانيء بالحبال من أرجلهما في الأسواق وصلبهما بالكناسة منكوسين[1] .

حينما قُتل مسلم كان قد مضى على خروج الحسين من مكة يوم كامل ولم يكن قد علم بمقتل ابن عمه ، وكان يغذ السير تاركاً وراءه الدساكر والقرى ووجهته الكوفة ، ومن بطن الحاجر أراد «ع» أن يستوثق من بقاء شيعته على مساندتهم له ، فأرسل لهم كتاباً يطالبهم فيه بالجد والانكماش في أمرهم ، وأنفذ للمهمة قيس بن مسهر الصيداوي الذي ما أن وصل القادسية حتى وقع في قبضة الحصين بن نمير الذي سيَّره إلى ابن زياد ، حيث خرق أمامه الكتاب الذي زوده به الحسين ، فسأله ابن زياد عن سبب تمزيقه للكتاب وطلب منه إخباره عما به .. فأبى قيس ، فأمره عبيد اللّه بصعود المنبر وسب الكذاب ابن الكذاب الحسين بن علي ، ففعل وقال : « أيها الناس .. إن الحسين بن علي خير خلق اللّه ، وقد خلفته في موضع الحاجر فأجيبوه ، والعنوا ابن زياد وأباه » .

فما كان من ابن زياد إلا وأمر بقذفه من أعلى القصر فتحطمت عظامه .

---

(١) في التاريخ نجد كثيراً من قصص الصلب مع إنكاس الرأس.. ففي صدر المسيحية صلب نيرون مجنون روما ، بطرساً وبولساً تلميذي المسيح منكوسين جزاء إدخالهما المسيحية إلى روما ، وفي كتاب حياة الحيوان أن ابراهيم الفزاري قُتل وصُلب منكساً بعد أن أفتى فقهاء القيروان بذلك جزاء هزئه باللّه والأنبياء ، كما أنّا واجدون حتى في التاريخ الحديث قصص صلب مماثلة جرت باسم الثورات الشعبية في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية قبل أن تظهر حقيقتها كحركات ديكتاتورية قمعية حطت من آدمية شعوبها.

وكان الحسين خلال سيره يسأل الناس عن أحوال الكوفة .. فيجمعون على القول بأن قلوب أهل الكوفة معه وسيوفهم عليه ، وكان يجيب القائلين : « بأنهم لن ينصرفوا حتى يقضي اللّه أمراً ، وتتصرف بهم الأمور في عاقبة » .

ولما وصل إلى الثعلبية .. بلغه مقتل مسلم وهانيء ، فتلقى ذلك بصبر وسأل آل عقيل عما يرون فعله بعد مقتل ابنهم ؟ فأبوا الرجوع حتى يذوقوا ما ذاقه مسلم .

وتوالت الأنباء المزعجة .. فقد ورده نبأ مقتل عبداللّه بن بقطر رسوله أيضا إلى الكوفة ، حيث كانت ميتته مثل ميتة مسلم ، ملقى به من علٍ مدكوك العظام .

بعد هذه المستجدات لم ير «ع» مندوحة من أن يعلن لمن معه تقلب الأوضاع لغير المشتهى وخيَّرهم بين البقاء أو الانصراف قائلاً :

« **وقد خذلنا شيعتنا .. فمن أحب منكم أن ينصرف فلينصرف ، ليس عليهم منا ذمام** » .

فتركه معظمهم إلا أهل بيته وخُلُص أصحابه .

وما إن أشرف الركب على جبل ذي حسم .. حتى برزت طلائع جيش عبيد اللّه بقيادة الحُر ، حيث كان هذا الجيش يجوب القفار بحثاً عن ركب الحسين ، ولما كان الوقت ظهيرة والقيظ يخنق الأنفاس .. أمر «ع» فتيانه بإسقاء الجيش المعادي وترشيف الخيل ترشيفاً[1] .

ولما علم «ع» بأن جيش الحر قد جاء لصده وأخذه إلى عبيد اللّه في الكوفة .. أمر مؤذنه بالآذان لصلاة الظهر ، ثم خطب بالقوم الذين جاؤوا يطلبونه فأخبرهم بأنه لم يأت حتى أتته كتبهم ورسلهم ، وسألهم أخيراً بقوله :

« فإن تعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم .. أقدم مصركم ، وإن لم تفعلوا أو كنتم لقدومي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذي جئت منه إليكم» .

---

(١) تاريخ الطبري ج ٦ ص ٢٢٦

فسكتوا جميعاً ، وبعد الصلاة عاد الحسين إلى مخاطبة الجيش فأجابه الحر : « إني أمرت ألا أفارقك إذا لقيتك حتى أقدمك الكوفة على ابن زياد » .

فقال الحسين : « الموت أدنى إليك من ذلك » ، وأمر أصحابه بالركوب ، فحال الحر بينهم وبين الانصراف ، فقال الحسين له : « ثكلتك أمك ما تريد منا ؟ » .

قال الحر : « أما لو غيرك من العرب يقولها لي وهو على مثل هذا الحال .. ما تركت ذكر أمه بالثكل كائناً من كان ، واللّه مالي إلى ذكر أمك من سبيل إلا بأحسن ما نقدر عليه ، ولكن خذ طريقاً نصفاً بيننا .. لا يدخلك الكوفة .. ولا يردك إلى المدينة ، ريثما أكتب إلى ابن زياد ، فلعل اللّه أن يرزقني العافية ولا يبتليني بشيء من أمرك » .

ثم حذر الحسين بقوله : « لئن قاتلت لتقتلن » .

فقال «ع» : أبالموت تخوفني ؟ بماذا أرد عليك إلا بما قاله أخو الأوس لابن عمه وهو يريد نصرة رسول اللّه :

سأمضي وما بالموت عار على الفتى … إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلماً

وواسى رجالاً صالحين بنفسه … وخالف مثبوراً وفارق مجرماً

فإن عشت لم أندم وإن مت لم ألم … كفى بك ذلاً أن تعيش وترغما

فتنحى الحر عن الحسين وأخذ يسايره بجيشه انتظاراً لوصول كتاب ابن زياد بعد أن أرسل يخبره بالعثور على الركب ، وما أن وصلوا إلى مشارف نينوى وهم على هذه الحال .. حتى وصل رسول يحمل للحر أمر ابن زياد الذي يقول فيه : « أما بعد فجعجع [1] بالحسين حتى يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي ، فلا تنزله إلا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء » .

---

(١) ذكر الأصمعي في شرحه أن الجعجعة معناها الحبس ، وجعجع به معناها : احبسه ، ومنه قول أوس بن حجر « إذا جعجعوا بين الإناخة والحبس » .

ولما فرغ الحر من قراءة الكتاب .. دفعه للحسين يقرأه ، ولما فعل .. طلب «ع» منه أن يسمح لهم بالنزول في نينوى أو الغاضريات ، فرفض الحر متعللاً بأن لابن زياد عيناً عليه[1].

وأشار زهير بن القين على الحسين بمقاتلة جيش الحر قبل أن يأتيهم من الجند ما لا قِبَل لهم بهم.

فقال الحسين : « ما كنت أبدأهم بقتال » .

وطلب الحسين من الحر أن يسمح لهم بالمسير قليلاً ، فإذن لهم ، فساروا جميعاً حتى وصلوا إلى أرض كربلاء ، فوقف جواد الحسين فجأة ولم يتحرك ، فسأل «ع» عن اسم الأرض التي يقف فوقها .. فقال زهير :

« **هذه أرض الطف** » .

فسأل «ع» : وهل لها اسم غيره ..؟

قال زهير : تعرف بكربلاء .

فدمعت عيناه وقال : اللّهم أعوذ بك من الكرب والبلاء ، ههنا محط ركابنا وسفك دمائنا ومحمل قبورنا ، بهذا حدثني جدي رسول اللّه .

في كربلاء

في عشية اليوم الثاني من المحرم سنة إحدى وستين ، كان نزول الحسين وركبه في بطاح كربلاء ، ومنذ هذا التاريخ تبدأ الفصول الأشد حسماً وصعوبة في رحلة الخروج الدامية .

وقد ضرب«ع» خيامه في هذه البقعة ، وضرب الحر معسكره قريباً منه ، وما هي إلا فترة بسيطة حتى كان الخبر يهز الكوفة ، فاهتزت وماجت فيها القوى على اختلاف مشاربها ، وبدا أن العناصر الموالية للحسين تنقصها القيادة التي توجهها نحو

---

(١) إرشاد المفيد .

هدفها المنشود .

وأسرع ابن زياد فأطلق النفير العام معلناً التعبئة والتجنيد العام بعد أن أرسل إلى الحسين كتاباً قال له فيه : « أما بعد يا حسين ، فقد بلغني نزولك كربلاء ، وقد كتب إليَّ أمير المؤمنين يزيد أن لا أتوسل الوثير ولا أشبع من الخمير أو ألحقك باللطيف الخبير ، أو تنزل على حكمي وحكم يزيد ، والسلام » .

وقرأ الحسين هذا الكتاب وألقاه على الأرض وهو يقول : لا أفلح قوم اشتروا مرضاة المخلوق بسخط الخالق .

وقال لرسول ابن زياد : ما له عندي جواب لأنه حقت عليه كلمة العذاب .

وبجواب الحسين هذا تقرر فيه كلُّ ما سيلي ، وانقطع آخر خيط في الحوار الذي كان دائراً بينه وبين جماعة يزيد .

ولما أخبر الرسول ابن زياد بما قاله أبو عبد اللّه «ع» ، ثار ثورة شديدة[1] وأمر عمر بن سعد بالخروج إلى كربلاء وكان معسكراً بـ« حمام أعين » في أربعة آلاف محارب ليسير بهم إلى دستبي بأرض همذان لقمع ثورة الديلم ، وقد وعده بولاية الري وثغر دستبي والديلم[2] بعد تحقيق النصر .

ولكنه استمهل ابن زياد للمراجعة ، فنصحه ابن أخته ابن المغيرة بن شعبة وهو من أعوان معاوية ، بألا يقبل بمقاتلة الحسين ، وقال له : واللّه لئن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض لو كان لك ، خير من أن تلقى اللّه بدم الحسين ، وبات ابن سعد ليلته مفكراً وسُمع يردد :

أأترك ملك الري والري رغبتي   أم أرجع مذموماً بقتل حسين

وفي قتله النار التي ليس دونها   حجاب وملك الري قرة عيني ؟

---

(١) البحار ج ١٠ ص ١٨٩ ومقتل العوالم ص ٧٦

(٢) الطبري ج ٦ ص٢٣٢

وفي الصباح أتى ابن زياد وطلب إنفاذه على أن يرسل إلى الحسين بعض أشراف الكوفة وسمى له بعضاً منهم .

فأبى ابن زياد إلا أن يسير إلى مقاتلة الحسين أو ينزل له عن ولاية الري ، فلما رآه ملحاً .. سار بجنده وانضم إليه الحر فيمن معه ، وأنفذ ابن سعد ، قرة بن قيس الحنظلي لسؤال الحسين عما جاء به إلى هذه الأرض .. ولما عاده بالجواب .. كتب إلى ابن زياد فجاءه جوابه :

أعرض على الحسين وأصحابه البيعة ليزيد ، فإن فعلَ رأيْنا .. رأيَنا .

وكان ابن سعد قد ذكر لابن زياد أن الحسين أعطاه عهداً بأن يرجع إلى المكان الذي أقبل منه ، أو يسير إلى ثغر من الثغور ، أو أن يأتي يزيد فيضع يده في يده.

والمرجح أن عمر بن سعد نقل عمداً هذا الكلام عن لسان الحسين تخلصاً من المهمة الصعبة التي أنيطت به .

وقد حاول عبيد اللّه أن يأخذ جانب الليونة بعد ورود كتاب ابن سعد ، إلا أن الشمر نهاه وأوغر صدره على عمر واتهمه بمحادثة الحسين طوال الليل بين المعسكرين.. فمال ابن زياد لرأي شمر وأنفذه بأمر أن يضرب عنق عمر إن هو تردد في تسيير الحسين إلى الكوفة أو مقاتلته ، وكتب لعمر كتاباً غاضباً يقول له فيه :

« فإني لم أبعثك إلى الحسين لتكف عنه ولا لتمنيه السلامة والبقاء ، ولا لتطاوله ولا لتعتذر عنه ، ولا لتقعد له عندي شافعاً ، انظر .. فإن نزل الحسين وأصحابه واستسلموا .. فابعث بهم إليَّ مسلماً ، وإن أبوا .. فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فإنهم لذلك مستحقون ، فإن قُتل الحسين فاوطىء الخيل صدره وظهره فإنه عاقٌ مشاق قاطع ظلوم ، فإن أنت مضيت لأمرنا .. جزيناك جزاء السامع المطيع ، وإن أنت أبيت فاعتزل جندنا وخلِّ بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر » .

وهكذا انتشر في فلاة كربلاء خمسة وعشرون ألف مقاتل يحاصرون ثلاثة وسبعين نفراً وبضعة نسوة وأطفال .

وقد حدث التاريخ على أن وسائل النقل في الكوفة قد عجزت عن حمل هذا الجيش إلى كربلاء ، وقد بقي الحدادون في الكوفة يعملون ليل نهار لمدة عشرة أيام متواصلة في صقل السيوف وبري النبال ، كانت نارهم خلالها مضرمة على الدوام .

ورقم الجيوش التي أنفذت لمقاتلة الحسين لم يدخل في خانتها عدد الرماة والفرسان الذين كانوا مع الحصين بن نمير وعزرة بن قيس ، ولو أحصيت لوصل العدد[1] إلى ما فوق الثلاثين ألفاً .

وعلى قعقعة أسلحة هذه الجيوش استعدت كربلاء لاستقبال شهيدها ، ومع اضمحلال غسق ليلة التاسع من محرم استعد الشهيد الحسين «ع» لتقديم ذاته على مذبح العناية الإلهية قرباناً فداء للإسلام .

***

---

(١) في أمالي الصدوق ذُكر الرقم بـ « ٣٠ ألفاً » ، وفي مطالب السؤول ذُكر بعشرين ، وفي هامش تذكرة الخواص بمائة ، وفي أسرار الشهادة بستة آلاف فارس وألف راجل ، وفي تحفة الأزهار بثمانين ألفاً .

آخر أقوال سيد الشهداء

نادى ابن سعد عشية الخميس لتسع خلون من المحرم فأمر جيشه بالزحف نحو معسكر الحسين ، وكان أبو عبدالله جالساً أمام بيته فرأى رسول الله يقول : « إنك صائر إلينا عن قريب » وسمعت زينب أصوات الرجال وقالت لأخيها : « قد اقترب العدو منا » .

فقال الحسين لأخيه العباس :

« اركب بنفسي أنت حتى تلقاهم واسألهم عما جاءهم » .

ففعل العباس مع عشرين فارساً ، فقالوا له : «جاء أمر الأمير أن نعرض عليكم النزول على حكمه أو ننازلكم الحرب[1]» .

فعاد العباس «ع» يخبر الحسين بينما انصرف أصحابه إلى عظة القوم ، وما لبث أن عاد طالباً منهم استمهالهم العشية ، فأجابه ابن سعد لهذا الطلب .

وقرب المساء خطب الحسين «ع» بصحبه ، مخبراً إياهم بأن جده « ص» أخبره بأنه سيساق إلى العراق فينزل أرضاً يقال لها عمورا وكربلا ، وفيها يستشهد وقد

---

(١) راجع روضة الواعظين ص١٥٧ والإرشاد للمفيد ، والبداية لابن كثير ج ٨ ص ١٧٦ ، والطبري ج ٦ ص١٣٧

قرب الموعد [1] .

وأذن لهم بالانصراف ودعاهم للانطلاق في حل من ذمامه بأن يأخذ كل منهم بيد رجل من أهل بيته ويتفرقوا في سوادهم ومدنهم ، لأن القوم إنما يطلبونه ولو أصابوه لذهلوا عن طلب غيره [2] .

ولكن الجميع رفضوا إلا الموت بين يديه .

وقد رُوي عن محمد بن الحنفية أنه قال : قُتل مع الحسين سبعة عشر رجلاً كلهم من أولاد فاطمة ، وعن الحسن البصري : قُتل مع الحسين ستة عشر رجلاً كلهم من أهل بيته ، وما على وجه الأرض يومئذ لهم شبهٌ .

وتحُدث المصادر [3] بأن جيش الحسين كان مؤلفاً من خمسمائة فارس من أهل بيته وصحبه ونحو مائة راجل ، وفي قول آخر [4] أن ستين شيخاً من أهل الكوفة هم جيش الحسين وقد قاتلوا حتى قُتلوا معه ، إضافة إلى التحاق الحر وأخيه وولده ومولاه وبعض جنده ، كما أضيف إليهم بعض من عسكر ابن سعد المتسللين إلى معسكر الحسين .

ولما وثق الحسين من صدق نيتهم .. أراد أن ينبههم إلى ما ينتظرهم في الغد ، فقال لهم :

---

(١) راجع إثبات الرجعة .

(٢) يرد الفيلسوف الألماني « ماربين » طلب الحسين « ع» من أولاده وإخوانه وبني إخوته وبني أعمامه وخواص صحبه ، الانصراف وتركه وحيداً إلى رغبته في فضح بني أمية بقتل هؤلاء المعروفين بين المسلمين بجلالة القدر وعظم المنزلة ، مما سيجعل من قتلهم معه مصيبة عظيمة وواقعة خطيرة ، وفي هذا دلالة على حسن سياسته وقوة قلبه وتضحية نفسه وأهله في سبيل الوصول إلى المقصد الذي كانت العناية الإلهية تعده له .

(٣) راجع مروج المسعودي

(٤) أورده ابن عساكر

« إني غداً أقتل وكلكم تُقتلون معي ولا يبقى منكم أحد ، حتى القاسم وعبداللّه الرضيع ، إلا ولدي علياً زين العابدين .. لأن اللّه لم يقطع نسلي منه وهو أبو أئمة ثمانية » .

فرفع الجميع أصواتهم مجدداً شاكرين اللّه الذي كرَّمهم بنصرته وشرَّفهم بالقتال معه .

وفي تلك الليلة سمع علي بن الحسين أباه يقول وهو يصلح سيفه :

يا دهر أف لك من خليل ... كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحب وطالب قتيل ... والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليل ... وكل حي سالك سبيل

وقد أخبر عمته زينب بما سمعه فجاءت إلى أخيها تصيح :

« واثكلاه ليت الموت أعدمني الحياة[1] » .

وبكت النسوة معها فقال لهن الحسين :

« **يا أختاه ، يا أم كلثوم ، يا فاطمة ، يا رباب ، انظرن .. إذا قتلت فلا تشققنَّ علي جيباً ولا تخمشنَّ وجهاً ولا تقلن هجراً**[2] » .

ثم أوصى عليه السلام أخته زينب بأخذ الأحكام من ابنه علي وإلقائها إلى الشيعة ستراً عليه .

وفي السحر من تلك الليلة خفق الحسين ثم استيقظ وأخبر أصحابه بأنه رأى في منامه كلاباً شدت عليه تنهشه ، وأشدها عليه كلب أبقع ، وأن الذي يتولى قتله من هؤلاء رجل أبرص .

---

(١) مقاتل الطالبيين لأبي الفرج ص ٤٥ وكامل ابن الأثير ج ٤ ص ٢٤ ، ومقتل الخوارزمي ج ١ ص ٢٣٨

(٢) الإرشاد .

وقد صدق حدسه «ع» إذ ما أن رأى شمراً الأبرص حتى قال :

« هو الذي يتولى قتلي » .

وصف ابن رسته في الأعلاق النفيسة شمراً بقوله : كان الشمر بن ذي الجوشن قاتل الحسين أبرص ، وفي كامل ابن الأثير ذكر أن الشمر أبرص يُرى بياض برصه على كشحه ، وفي عجالة المبتدي في النسب للحافظ الهمداني ذكر أن شمراً اسمه شور بن ذي الجوشن ولأبيه صحبة ورواية روى عنه ابنه شور .

وكان الحسين «ع» يحدث أصحابه في كربلاء بما قاله جده « ص» ، فكان يقول : « كأني أنظر إلى كلب أبقع يلغ في دماء أهل بيتي » .

***

مقتل الحسين

قام الشهيد الحسين «ع» في صبيحة اليوم العاشر فصلى بأصحابه صلاة الصبح ، ثم قام بهم خطيباً فقال :

« إن اللّه تعالى أذن في قتلكم وقتلي في هذا اليوم فعليكم بالصبر والقتال[1] ».

وأحاطته جيوش عمر بن سعد ، فلما رأى «ع» كثرتهم رفع يديه إلى السماء وقال :« أللّهم أنت ثقتي في كل كرب ورجائي في كل شدة وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة[2] » .

ثم ارتحل راحلته وخطب في الجيش خطبته الأولى ، فلم يُسمع متكلم قبله ولا بعده أبلغ منه في منطقه ، حذرهم فيها من أنهم زحفوا إلى ذرية الرسول وعترته يريدون قتلهم .

ثم طلب منهم أن ينسبوه من هو .. ويرجعوا إلى أنفسهم يعاتبونها وينظرون ، هل يحل لهم قتله وانتهاك حرمته ؟

وذكَّر بعضهم بالكتب التي أرسلوها إليه يخبرونه بها بأن الثمار أينعت ، والجند مجندة .

---

(١) ابن قولويه والمسعودي ، وإثبات الوصية ١٣٩ ، وكامل ابن الأثير ج ٤ ص ٢٥ ، وتاريخ ابن عساكر ج ٤ ص٢٣٣

ولما أنكروا .. طلب منهم أن يدعوه ينصرف عنهم إلى مأمن في الأرض يلوذ به مع أهله .. فقالوا له : « أولا تنزل على حكم بني عمك ؟ » فرد «ع» : «**والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ، ولا أقر إقرار العبيد**[1] » .

ثم دارت مساجلات كلامية بين أصحابه وجند ابن سعد أنهاها أبو عبد الله بنشر مصحف فوق رأسه وإلقاء خطبته الثانية[2] التي أوضح لهم فيها كيف خذلوه بعد أن استصرخوه ، وكيف يؤثر مصارع الكرام على طاعة اللئام ، وأنشد شعراً[3] حذرهم بعده من مغبة آخرتهم ، ثم رفع يديه نحو السماء ودعا الله أن يحبس عنهم قطر السماء ، وينتقم منهم قتلة بقتلة وضربة بضربة ، ويبعث عليهم سنين كسني يوسف ، ويسلط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأساً مصبَّرةً .

وتحدث «ع» مع ابن سعد كلاما مؤنباً ولما سمع الحُر كلامه .. ضرب جواده وانضم إليه تائباً ، ثم ما لبث أن استأذنه بإسداء نصيحة لأهل الكوفة .. فأذن له .

ومع السهام الأولى التي بدأت تتساقط .. هتف الحسين : « قوموا رحمكم الله إلى الموت الذي لا بد منه فإن هذه السهام رسل القوم إليكم » .

وبدأت المعارك تتوالى .. سهام متراشقة ، ومبارزات بين اثنين وأربعة ، ولما رأى الحسين كثرة القتلى من أصحابه .. صاح وهو يقبض على شيبته المقدسة صيحته الداوية في عمر الدهور : « **أما من مغيث يغيثنا .. أما من ناصر يعيننا .. أما من طالب حق ينصرنا ؟**

وسمع الأنصاريان سعد بن الحارث وأخوه أبو الحتوف استغاثة الحسين ، فمالا بسيفهما على أعدائه يعملان بهم القتل حتى قُتلا .

---

(١) راجع ابن نما في مثير الأحزان ص ٢٦

(٢) تذكرة الخواص ص ١٤٣

(٣) أبيات فروة بن مسيك المرادي :

فإن نهزم فهزامون قدما ... وإن نهزم فغير مهزمينا

ولما استشهد الحر الرياحي قام الحسين إلى الصلاة ، ولما فرغ قال لأصحابه :

« يا كرام هذه الجنة قد فتحت أبوابها واتصلت أنهارها وأينعت ثمارها ، وهذا رسول اللّه والشهداء الذين قتلوا في سبيل اللّه[1] يتوقعون قدومكم ، فحاموا عن دين اللّه ودين نبيه وذبوا عن حرم رسول اللّه ».

واشتد القتال ثانية ، وتساقط أصحاب الحسين أمام عينيه الحزينتين ، وكان «ع» ينحني فوقهم ويقبلهم ويبكي لهم ، ويأذن للأحياء منهم بالقتال ، وكانت الأهوال التي تُعرض أمام عينيه من الفظاعة بحيث لا يقوى على معاينتها إلا عظام الرجال ، وقد كُتب على سيد الشهداء أن يظل واقفاً حتى آخر رجل في المعمعة الدامية ، يرى بعينيه ويعيش بوجدانه وقلبه هذه المآسي المهولة التي أنزلتها السماء في هذا اليوم العاشر من محرم .

أهل البيت في الميدان

ولما لم يبق من أصحابه أحد بقتل سويد بن عمرو ، عزم أهل بيت الحسين النزول إلى ميدان الشهادة ، وكان أولهم علي الأكبر ، ولما رآه والده في فك الحتوف .. رفع رأسه إلى السماء وقال :

« **أللّهم اشهد على هؤلاء فقد برز إليهم أشبه الناس برسولك محمد خَلقاً وخُلقاً ومنطقاً[2]**».

ولما قطعته السيوف .. انحنى الحسين فوقه واضعاً خده على خده وهو يقول : على الدنيا بعدك العفا ما أجرأهم على الرحم وعلى انتهاك حرمة الرسول[3] .

---

(١) الذين آمنوا يقاتلون في سبيل اللّه والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً . الآية ٧٦ سورة النساء

(٢) مثير الأحزان لابن نما ، ومقتل الخوارزمي

(٣) اللهوف ص ٦٤ ، وتاريخ الطبري ج ٦ ص ٢٦٥

وتوالى بعد علي الأكبر ضراغمة أهل البيت ، فقُتل عبداللّه بن مسلم بطعنة في قلبه ، فحمل آل أبي طالب حملة واحدة على أعدائهم .

ولما سقط العباس عاد الحسين إلى المخيم كسيراً يكفكف دموعه[1] فنادى : « أما من مغيث يغيثنا .. أما من مجير يجيرنا .. أما من ذاب عن حرم رسول اللّه ؟ » ولما استفسرت الحرائر عن القتيل .. صاحت زينب «ع» : « وآ أخاه وآعباساه وآضيعتنا بعدك » .

سيد الشهداء في الميدان

بموت العباس ظل الحسين «ع» وحيداً في الميدان بين أهله وأصحابه المجزرين كالأضاحي المذبوحة المشوهة ، فعلا بكاؤه على هؤلاء الأبرار الذين ماتوا دون مبدئهم وعقيدتهم ، وكانت أصوات النساء ترتفع بالعويل فترددها تلك الأنحاء القفر كرجع صدى لظلم الإنسان وجبروته الشيطاني ، وتبعث في الجسد قشعريرة وفي النفس أسى لا يُحد .

في هذا الجو الصعب كان الحسين «ع» يقف ويتطلع تارة إلى الجيوش المهاجمة وتارة إلى أرض المعركة حيث الأشلاء ، وتارة أخرى إلى خيم الأيامى والأطفال ، ولفت نظره خروج السجاد «ع» يتوكأ على عصا ويجر سيفه لكثرة مرضه ، فصاح الحسين بأم كلثوم كي تحبسه لئلا تخلو الأرض من نسل آل محمد .

ثم ودع «ع» عياله وطلب ثوباً لا يرغب فيه أحد ، ودعا بولده الرضيع يودعه .. فجيء به فحمله وأتى به نحو القوم يطلب له الماء ، إلا أن الخسة المستوطنة في صدور جند عبيد اللّه ، دفعت بحرملة بن كاهل الأسدي لأن يرمي الرضيع بسهم ثلاثي الشُعب فيذبحه في الحال ، فتلقى الحسين دمه بكفه ورمى به نحو السماء فلم تسقط منه قطرة واحدة ، وسمع «ع» قائلاً يقول :

« دعه يا حسين فإن له مرضعاً في الجنة » .

---

(١) راجع المنتخب ص ٣١٢

ودفنه مرملاً بدمه[1] وارتد على القوم مصلتاً سيفه مكثراً فيهم القتلى ، فصاح عمر بن سعد حيث انطلقت بعد صيحته أربعة آلاف نبلة ناحية الحسين .

واشتد القتال واشتد بالحسين العطش ، فحمل من نحو الفرات على عمرو بن الحجاج وكان في أربعة آلاف مقاتل ، فكشفهم عن الماء واقتحم الفرس إليها ، فأبت الفرس الشرب ، ولما مد «ع» يده ليشرب .. ناداه رجل : « أتلتذ بالماء وقد هُتكت حرمتك؟ » فرمى الماء وقفل عائداً إلى الخيمة[2] .

وفي الخيمة ودع الشهيد أهله ثانية ، واغتنمها ابن سعد فرصة فأمر رجاله بالشد عليه طالما هو مشغول بأهله ، فتصدى لهم «ع» واتقى السهام بصدره .

وعطش فطلب الماء ، إلا أن الشمر أبى عليه ذلك ، ورماه أبو الحتوف الجعفي بسهم في جبهته ، ورماه آخر بحجر فوق عينيه ، فأخذ ثوبه يريد مسح الدم ، فرماه آخر بسهم ذي ثلاث شعب وقع على قلبه ، فقال «ع» :

« بسم اللّه وباللّه وعلى ملّة رسول اللّه ، إلهي أنك تعلم أنهم يقتلون رجلاً ليس

---

(١) يصف الفيلسوف الألماني « ماربين » حمل الحسين لطفله الرضيع وصفاً رائعاً فيقول : أتى الحسين في آخر ساعات حياته عملاً حيَّر عقول الفلاسفة ، ولم يصرف نظره عن ذلك المقصد العالي مع تلك المصائب المحزنة والهموم المتراكمة وكثرة العطش والجراحات ، وهو قصة عبداللّه الرضيع ، فلما كان الحسين يعلم أن بني أمية لا يرحمون له صغيراً .. رفع طفله الصغير على يده أمام القوم تعظيماً للمصيبة ، وطلب الماء له ، فلم يجيبوه إلا بالسهم ، ويغلب على الظن أن غرض الحسين من هذا العمل تفهيم العالم بشدة عداوة بني أمية لبني هاشم ، ولا يظن أحد أن يزيد كان مجبوراً على تلك الأعمال المفجعة لأجل الدفاع عن نفسه ، لأن قتل الطفل الرضيع في تلك الحال وبتلك الكيفية .. ليس هو إلا توحش وعداوة سبعية منافية لقواعد كل دين وشريعة ، وهذه كانت كافية لافتضاحهم واتهامهم بالسعي بعصبية جاهلية إلى إبادة آل محمد وجعلهم أيدي سبأ .

(٢) البحار ج١٠ ص ٢٠٤ ، ومقتل العوالم ص ٣٨ ، ونفس المهموم ص ١٨٨ ، والخصائص الحسينية ص ٤٦

على وجه الأرض ابن بنت نبي غيري » .

ثم أخذ من دمه الذي كان يشخب كالميزاب ولطخ به رأسه ووجهه ولحيته وقال :

« هكذا أكون حتى ألقى اللّه وجدي رسوله « ص» وأنا مخضب بدمي وأقول : يا جدُّ قتلني فلان وفلان[1] » .

وأعياه النزف فجلس يستريح ، فانتهى إليه مالك بن النسر ، فشتمه وضربه بالسيف على رأسه .

وانطرح «ع» على الأرض منهوكاً ، ولم يكن أحد يجسر على قتله وهو في هذه الحال ، فصاح الشمر بهم :

« ما وقوفكم والرجل أثخنته السهام والرماح[2] ؟» .

وكأنهم كانوا ينتظرون هذه الإشارة الصريحة ، فهجموا كالضباع المفترسة ، فضربه زرعة بن شريك على كتفه ، ورماه الحصين في حلقه ، وضربه آخر على عاتقه ، وطعنه سنان بن أنس في ترقوته ورماه بسهم في نحره ، وطعنه صالح بن وهب في جنبه[3] .

وطلب أن يُسقى ماء ، فبخلوا عليه بشربة ، ولما اشتد به الحال .. رفع طرفه إلى السماء وراح في دعاء أخير قال فيه : « **أللّهم احكم بيننا وبين قومنا فإنهم خذلونا وغدروا بنا وقتلونا ونحن عترة نبيك** [4]».

ولما سقط وعاد الفرس إلى الخيمة ، ونظرنه النساء مخزياً والسرج عليه ملوياً ، خرجن من الخدور ناشرات الشعور يلطمن وجوههن ، وصرخت زينب العقيلة

---

(١) مقتل الخوارزمي ج٢ ص ٣٤ ، واللهوف ص ٧٠

(٢) مناقب ابن شهراشوب ج٢ ص ٢٢٢ ، ومقتل الخوارزمي ص ٣٥

(٣) راجع الأتحاف بحب الأشراف ص ١٦

(٤) مصباح المتهجد والإقبال وعنهما في مزار البحار ص ١٠٧

وهي تندفع رافعة يديها حزناً على مصرع توأم روحها وحبيبها : « **وآمحمداه وآأبتاه وآعلياه وآجعفراه وآحمزتاه ، هذا حسين بالعراء صريع كربلاء** » .

ووصلت إلى الحسين وقد دنا منه عمر بن سعد فصاحت به : « أي عمر.. أيقتل أبو عبداللّه وأنت تنظر إليه ؟ » فصرف بوجهه عنها وهو يبكي ، ثم صاح برجاله : انزلوا إليه وأريحوه ، فبدر له شمر ورفسه برجله وجلس على صدره ممسكاً بيده على شيبته المقدسة ، وضربه بالسيف اثنتي عشرة ضربة ، واحتز بعدها رأسه المقدس[1] .

إن في إيراد وصف الحادثة كاملة في هذا المقام من كتابنا المكرس للتحليل والمقارنة ، لأمر ضروري لاكتمال صورة الهمجية واللا إنسانية التي واجهها الحسين الشهيد في لحظاته الأخيرة ، والتي تشكل لوحدها فصولاً ملحمية تحمل شحنات درامية لا تقوى أقسى القلوب على احتمال مؤثراتها ، فكيف بأرقها تلك المحبة للشهيد المظلوم ، المذبوح بوحشية سبعية لم يسجل لها التاريخ شبيهاً ..

فلنقرأ معاً هذا الوصف لتلك اللحظات الدموية الأخيرة من عمر السبط : وبقي الحسين «ع» مكبوباً على الأرض ملطخاً بدمه ثلاث ساعات وهو يقول : «صبراً على قضائك ، لا إله سواك ، يا غياث المستغيثين » فابتدر إليه أربعون رجلاً كل منهم يريد حز نحره الشريف ، بينما عمر بن سعد يصرخ فيهم : ويلكم عجِّلوا عليه .

وكان أول من ابتدر إليه شبث بن ربعي وبيده السيف ، فدنا منه ليحتز رأسه .. فرمقه الحسين «ع» بطرفه ، رمى بعدها السيف من يده وولّى هارباً وهو يقول :

« ويحك يا بن سعد ، تريد أن تكون بريئاً من قتل الحسين وإهراق دمه .. وأكون أنا مطالبٌ به ؟ معاذ اللّه أن ألقى اللّه بدمك يا حسين ».

فأقبل سنان بن أنس متجاسراً وقال : ثكلتك أمك وعدموك قومك لو رجعت عن قتله ، فقال شبث : يا ويلك إنه فتح عينيه في وجهي فأشبهتا عيني رسول اللّه فاستحييت أن أقتل شبيهاً لرسول اللّه ، فقال له : يا ويلك أعطني السيف فأنا أحق

---

(١) مقتل العوالم ص ١٠٠ ، ومقتل الخوارزمي ج ٢ ص ٣٦

منك بقتله ، فأخذ السيف وهمَّ أن يعلو رأسه ، فنظر إليه الحسين نظرة ارتعدت لها فرائصه وسقط السيف من يده وولّى هارباً وهو يقول : معاذ اللّه أن ألقى اللّه بدمك يا حسين .

فأقبل عليه شمر[1] وقال : ثكلتك أمك ما أرجعك عن قتله ؟ فقال : يا ويلك إنه فتح في وجهي عينيه ، فذكرت شجاعة أبيه فذهلت عن قتله ، فقال الشمر : يا ويلك إنك لجبان في الحرب هلم إليَّ بالسيف فواللّه ما أحد أحق مني بدم الحسين ، إني لأقتله سواء شبه المصطفى أو علي المرتضى .. فأخذ السيف من يد سنان وركب صدر الحسين «ع» فلم يرهب منه ، وقال : لا تظن أني كمن أتاك ، فلست أرد عن قتلك يا حسين ، فقال له الحسين «ع» : من أنت فلقد ارتقيت مرتقىً صعباً طالما قبله النبي « ص» ، أجاب : أنا الشمر الضبابي ، فقال «ع» : أما تعرفني؟ فقال ولد الزنا : بلى أنت الحسين وأبوك المرتضى وأمك الزهراء وجدك المصطفى وجدتك خديجة الكبرى ، فقال له : ويحك إذ عرفتني فلمَ تقتلني ؟ قال : أطلب بقتلك الجائزة من يزيد ، فسأله «ع» : أيما أحب إليك .. شفاعة جدي رسول اللّه .. أم جائزة يزيد ؟ أجاب بنذالة خسيس : دانقٌ من جائزة يزيد أحب إليَّ منك ومن شفاعة جدك وأبيك ، فقال له «ع» : إذا كان لا بد من قتلي فاسقني شربة من الماء .

فقال : هيهات هيهات واللّه ما تذوق الماء أو تذوق الموت غصة بعد غصة وجرعة بعد جرعة ، ثم قال : يا ابن أبي تراب ألست تزعم أن أباك على الحوض يسقي من أحب ..؟ أصبر قليلاً حتى يسقيك أبوك .. ثم قال : واللّه لأذبحنك من القفا ، ثم أكبه على وجهه الشريف وجعل يحز على أوداجه بالسيف[2] ، وكلما قطع منه عضواً

---

(١) المستشرق الهولندي « دينهارت دوزي » يصف ما فعله الشمر بقوله : إن الشمر لم يتردد لحظة وأقدم على قتل حفيد الرسول حينما أحجم غيره عن هذا الجرم الشنيع وإن كانوا مثله في الكفر .

(٢) تقول الباحثة الإنجليزية « اليانورا ستيفنس» لقد ذكرت الروايات أن الشمر قتل الحسين لذا تصب عليه اللعنات دوماً وعلى كل من قاد القوات الأموية ضد شهداء كربلاء ، فالشمر صنو الشيطان في الإثم والعدوان من غير منازع .

نادى «ع» :

« وآمحمداه وآعلياه وآحسناه وآجعفراه وآحمزتاه وآعقيلاه وآعباساه وآ قتيلاه وآ قلة ناصراه وآغربتاه » .

واحتز[1] الشمر رأسه الشريف وعلاه على قناة طويلة ، فكبَّر العسكر ثلاث تكبيرات ، ولم يكتف هذا الرهط الشيطاني بما فعل بل تكالبوا على الجسد المدمى المفصول الرأس يسلبونه سترته حيث لم يتورعوا عن قطع إصبعه ويده اليمنى من أجل خاتم وتكة سروال .

ونظرت سبط محمد في كربلاء فرداً يعاني حزنه المكظوما

تنحو أضالعه سيوف أمية فتراهم الصمصوم فالصمصوما

فالجسم أضحى في الصعيد موزعاً والرأس أمسى في الصعاد كريماً[2]

وحركت مطامع الري والديلم رجس ابن سعد الكامن في صدره ، فنادى : « ألا من ينتدب إلى الحسين فيوطىء الخيل صدره وظهره ؟ » وعلى الفور تنادى له عشرة لا يقلون عنه ضعةً وموات ضمير وخسة طبع ، فداسوا بحوافر خيولهم جسد الحسين الطاهر صدراً وظهراً حتى ألصقوه بالأرض ، وبعد أن انتهوا من مهمتهم الشائنة .. أقبلوا على ابن زياد يتقدمهم أسيد بن مالك يرتجز شعراً يتباهى به بما اقترفته يداه الآثمتان :

نحن رضضنا الصدر بعد الظهر بكل يعبوب[3] شديد الأسر

فأمر لهم بجوائز كل على قدر ما أظهر من خسة في جريمته النكراء .

---

(١) أورد أبو مخنف في مقتله ص ٩٠ وصفاً لذلك الظرف العصيب الذي عاشه الحسين في لحظات نزعه الأخير ، وما ارتكبته الطغمة الشيطانية من الأفعال التي تعف عنها وحوش الغابات .

(٢) أبيات من مرثية في الحسين لديك الجن

(٣) اليعبوب الفرس السريع الطويل

إن ما فعلته هذه الطغمة بوطئها الخيل جسد الحسين ، ما لم يفعل في جميع الأمم بأشرار الخلق ، من القتل بالسيف والرمح والحجارة وإجراء الخيول[1] :

وقد وصف أحد الشعراء هذه الفظائع التي عانى منها الحسين في آخر لحظات حياته من همجية قطيع الوحوش المتكالبة على الشر ، بقوله :

فليت أكفاً حاربتك تقطعت وأرجل بغي جاولتك جذام

وخيلاً غدت تردى عليك جوارياً عقرن فلا يلوى لهن لجام

ورضت قراك الخيل من بعد ما غدت أولو الخيل صرعى منك فهي رمام

أصبت فلا يوم المسرات نير ولا قمر في ليلهن تمام[2]

***

(١) راجع ما ذكره البيروني

(٢) جرى وصف كامل لهذه الفعلة النكراء شعراً على لسان أبي ذيب شيخ القطيفي المتوفى عام ١٢٠٠ هـ

من يرفع الراية ؟

وهكذا استشهد الحسين ، وهكذا قُتل
استشهد راضياً مرضياً
معمداً شهادته بالدم الزكي
فادياً عقيدة جده
رافعاً راية ثورة بلون الدم
ثورة كل مظلوم ضد كل ظالم
لم يخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً
بل طالباً الإصلاح في أمة الرسول
صاح في وجه المستأثرين بالفيء : أن ارعووا
عمل بالقول والفعل أمام ناكثي عهد اللّه
نصح مظهري الفساد ومعطلي الحدود
قال لهم : أنسبوني من أنا ..
هل يحق لكم قتلي وانتهاك حرمتي ..؟
لكن الضمائر التي ماتت
والأطماع التي عصفت بالعقول
أصمت الآذان وأعمت البصائر
فتكالبوا على ريحانة الرسول

كبواشق كاسرة
أحدهم يحلم بالمال
وآخر بملك الري والديلم
والباقون باعوا أنفسهم للشيطان
سيف الحق ما ارتفع إلا بذراع الحسين
شعار العدل
لم يُسمع إلا من فم أبي عبداللّه
كلمة الإنصاف
ما لفظتها إلا شفتا سيد الشهداء
الموت دون العقيدة محط هواه
الذود عن الإسلام مهوى فؤاده
إيقاظ ضمير المسلم هدف نهضته
إحقاق الحق مرمى ثورته
وقف التحريف والزيف مبدأه
توليد إسلام جديد رسالته
الاستشهاد في سبيل اللّه قدره
ما كانت له عقلية كسرى
ولا كانت له نفسية سلطان
ما فكر كإمبراطور
ولا عمل كفرعون
ما غرَّته مطامع مُلك
ولا رقَّت جفنه الدنيويات
كان يصبو إلى العلا
حيث مثوى الشهداء والأخيار
وكان يعرف بأنه قتيل وذبيح ومُهان
فتقدم

السر الإلهي رسم خطواته
وحكمة الرب كتبت مصيره
وجعلته مثالياً أوحد
لم تنجب مثيله كل الأديان
كان نسراً أعطي وسائل بشرية
وكان شهيداً لا نبياً
أخذ من الأنبياء آلامهم وعذاباتهم
ولم يوهب مثل معجزاتهم
فكانت وسائله أرضية
ما استعان بعدد وعدة
فثورته فريدة بوسائلها
لم تكن ثورة العضلات والسيف
بل ثورة الروح والضمائر
خلّدتها الأزمان
وقدّستها الدهور
ونزّهتها تكريماً الأجيال
هي ثورة لا تزال مدوية
ترجع صداها الأكوان
توصل هتافها الأزمان
تبرز نبلها الأنفس
هي رمز لقبول الحق
نهضة لي ولك ولكم
وله ولها ولهم
طالما كرهنا الظلم وعشقنا الحق
طالما نبذنا الانحراف
وأحببنا الصراط المستقيم

هي ثورة لي ولك وله
طالما نحن مؤمنون
سكنها في قلوبنا
لا تبرد أبداً
طالما في حنايانا رحمة
وبين أضلعنا إيمان
فإذا تعاملنا بالعدل
فنحن حسينيون
وإذا حافظنا على عقيدتنا
فنحن جند في ثورته
وإذا دفعنا ظلماً عن أحد
فنحن كمسلم بن عقيل
وإذا رفضنا ظلماً على أحد
فنحن كقيس بن الصيداوي
وإذا ذدنا المتصدين للعبث
فنحن كسعد وأبي الحتوف الحارث
وإذا تبنا عن غينا
فنحن كالحر الرياحي
فلنسأل أنفسنا إذا كنا مؤمنين :
هل تصلنا صيحة سيد الشهداء..؟
هل نصغي لاستغاثته ..
هل نبصر رايته المرفوعة أبداً ..
أما عصفت بنا يوماً نعرة يزيدية ..
أما كنا عمر بن سعد في لحظة ما ..
أما تشابهنا مع ابن زياد في موقف ..
أما فعلنا كالشمر في مسيرة دنيانا ..

أما قرَّبنا شيء إلى حرملة الأسدي ..
أما شعرنا بدنو من الحصين بن نمير ..
أما رمينا الحسين بسهم قط ..
كما فعل أبو الحتوف الجعفي
أما ضربناه بسيف كمالك بن النسر ..
أما كنا أبداً كزرعة بن شريك ..
أو سنان بن أنس
أو صالح بن وهب
أو ابن حويه ..؟
كيف لا ونحن نصبر على ظالم ..؟
ونرضى بالظلم على مستضعف ..
ونبيع آخرتنا بدنيانا ..
ونسلم تسليم الذليل ..
ونقر إقرار العبيد ..
فلمَ قام الحسين بثورته ..؟
ألنظل هكذا ..
التدجين يأكل نخوتنا ..
والزيف يغلف حياتنا ..
والأطماع تلوِّن أخلاقنا ..
لمَ ذبح الحسين في فلاة كربلاء ..؟
ألأجل أن نظل كما كنا..
نُسام العسف ، فنسكت ..
وننام على الضيم ، فنحلم ..
أمن أجل كل هذا
وطىء الخيل صدره وظهره ..
أمن أجل أن نكون كما نحن..

رُفع رأسه على رمح ..
أمن اجل نومتنا نهض ..
أمن أجل خنوعنا ثار ..
أمن أجل قعودنا تحرك ..
أمن أجل فرارنا تقدم ..؟
لعكس كل ذلك فعل ما فعل
فلننهض ولنتحرك
ولنثر على الظلم
ولنقتلع من أجسادنا أشواك الضيم
ولنا في ثورة سيد الشهداء نبراس
وفي شعاراتها هديٌ ودفع
وفي عنفوانها حماسة وإباء
ولنردد مع معلم الثوار :
« الموت أولى من ركوب العار
والعار أولى من دخول النار »
ولننصره إذا استصرخنا
كما نَصَرنا حينما استصرخناه
ولا ننس أنَّا خذلناه
ففي تذكُّرنا عبرة وتقريع
يعيد صور تقصيرنا
وعشقنا لذواتنا وأطماعها
وبُعدنا عن الدرب الصحيح
وضلالنا في أثمن ما نملك
فإن فعلنا كما أمرنا الحسين
وإن مشينا خلف ريحانة الرسول
ضمنَّا راحة القلب

ورضى الخالق الرحوم
فلنمض إلى الجهاد
إلى أن ينقرض نسل يزيد
ولننزل رأس الحسين من على سن الرمح
ولنستشهد كل يوم في كربلاء ذواتنا
فما بالموت عار على الفتى
إذا خالف مثبوراً وفارق مجرماً
فإذا عشنا لم نندم
وإن متنا لم نُلم
فالحسين ليس مرحلة فحسب ..
بل مسيرة
وليس وسيلة ..
بل غاية
وليس أسلوباً ..
بل نتيجة
وليس تظاهرة ..
بل مبدأ أزلياً
فسلام على سبط محمد
سلام عليه يوم ولد
ويوم مات
ويوم يبعث حياً
سلام عليه
نبراساً لنا وموئلاً
وقدوة وملاذاً أخيراً
في رحلة أحزاننا
من المهد إلى اللحد .

الفصل الرابع

الجريرة والسقوط

جريرة أسقطت أمية

ليس ثمة من سبب لسقوط عرش أمية إلا واتصل بجريرة كربلاء ، وليس أقل تبصراً لدى بحث أسباب سقوط أمية ، من ردها إلى عوامل أخرى تبعد أو تقرب من كربلاء ، حتى في أخذ المؤرخين لهذه العوامل بالتسجيل أو التحليل .. يأخذونها على أنها عوامل منفصلة بحد ذاتها ، لها خصائصها الكاملة التي إذا اجتمعت شكلت عاملاً وسبباً لما جرى .

ولكن المدقق البصير لهذه العوامل التي تبدو للعيان متباعدة لا تمت لبعضها بصلة .. يجد أن ثمة خيطاً رفيعاً غير منظور يربط بعضها إلى بعض ، ويشدها لتكون في النهاية سلسلة واحدة متعددة الحلقات ، لكل حلقة خصائصها المميزة التي لا تنفلت عن الأخرى ، بل ترتبط بها برابط موضوعي من لحمة واحدة .

ورد أسباب سقوط أمية إلى عوامل تبعد عن جرائر كربلاء .. لهو إغماط لقدسية هذه الملحمة ، وكفر بيِّن لعلل العناية الإلهية ، وإلغاء عمدي لكل الشهادات التي سبقتها ، وعدم إيمان بنبوءات الرسل والأوصياء .

وسنعرض بالتفصيل للآراء التي تصدت لتحليل أسباب سقوط العرش الأموي ، ولكن قبل أن نخوض في هذه الآراء سنذكر لكل من سبق واطلع عليها ، بأن إحدى معجزات استشهاد الحسين كان سقوط أمية ، وهي معجزة زمنية لم تكن هدفاً بحد ذاتها لشهادة الحسين بل لحقت فيما لحقت به من معجزات أكبر منها ..

ففي ميزان الإعجاز ، أيهما أعظم أثراً .. المعجزة التي حققتها هذه الشهادة في ضمير الأمة الإسلامية .. أم معجزة سقوط أمية ؟ طبعاً الجواب سيدور حول عظمة المعجزة الأولى ، فهي الأصل الذي هدفت له ملحمة كربلاء ، أما المعجزتان اللتان تقدمتها إحداهما ولحقت بها الأخرى ..[1] فهما معجزتان كان لابد من حدوثهما تأثراً مسبقاً أو لاحقاً بالمعجزة العظيمة التي كان مسرحها الضمائر وميدانها الأفكار لمجموع أمة الإسلام .

وهنا لابد من طرح إجابة على سؤال من الممكن أن يجول في الأذهان ، وهو سؤال ذو ثلاث نقاط :

١ ـ لماذا هُزم الحسين عسكرياً ؟

٢ ـ لماذا تأخر سقوط أمية ؟

٣ ـ لماذا ثار الحسين في عهد يزيد بالذات ؟

للإجابة على السؤال الأول ، لابد من النظر بعين الاعتبار إلى كون هزيمة الحسين ما كانت لتتم على عهد يزيد إلا لأن هذا العهد كان الظرف المناسب لإظهار تناقضات السلطة الممثلة بيزيد كخليفة على المسلمين يزاحم آل البيت حقهم في هذه الخلافة ، ولو شاءت العناية الإلهية لأنفذت لمهمة الاستشهاد حسيناً في غير هذا العهد ، فيما سبقه أو لحقه من عهود ، ولكانت أمدته بقوى أسعفته في حينه ، فينتصر ولا يستشهد ، ويسجل التاريخ نصره إلى جانب الانتصارات العسكرية التي تحفل بها صفحاته الكثيرة .

أما لماذا تأخر سقوط أمية بعد استشهاد الحسين ما دامت عوامل هذا السقوط تكونت بإعجاز من هذا الاستشهاد واختمرت بخميرته ؟ فذلك لسر آخر أعدته الحكمة العلوية لكي تطول فترة الندم ، وتتفاعل عوامل النهوض في ضمير الأمة الإسلامية ، حتى إذا ما هبت .. التهبت كبركان اختزن سخونته طويلاً فكانت ثورته

---

(١) غضب الطبيعة والأفلاك والجن بعد المقتل مباشرة ، وسقوط أمية بعد عدد من السنين .

حتى عنان السماء[1] .

أما لماذا ثار الحسين في عهد يزيد بالذات ؟ ففي العودة إلى متن الكتاب إجابة عن هذا السؤال ، إذ كان مقدراً أن تكون ثورة الشهيد وشهادته في هذا الوقت بالذات وفي هذا العهد بعينه ، لا من أجل إظهار عورات و سوءات العهد إياه فحسب .. بل من أجل جعله كمثال لسوءات كل العهود التي يضيع فيها الحق ، وترتفع خلالها رايات الباطل ، وما كان أجدر بعهد يزيد لتمثيل هذه العهود ؟

ولنعرض الآن لجملة آراء حول أسباب سقوط أمية ، المباشرة منها وغير المباشرة .

في كتاب[2] للعقاد رأي يقول : إن مصرع الحسين هو الداء القاتل الذي سكن جثمان الدولة الأموية حتى قضى عليها .

وفي كتاب له عن معاوية ، يرد العقاد ضياع الدولة الأموية إلى النزاع بين المضرية واليمانية الذي ابتدأ منذ أيام مؤسس الدولة الأموية معاوية .

وللمسعودي[3] رأي يقترب من هذا المعنى يذكر فيه أن التفاخر بين نزار قيس واليمن وتحرك العصبية في البدو والحضر أديا إلى انتقال الدولة من بني أمية إلى بني هاشم .

ويرى المستشرق «جولد تسهير» أن عمر بن عبد العزيز أحد أمراء أمية الذين تربوا في بيئة صالحة والذي كان جاهلاً بالأمور السياسية عجَّل بسقوط العرش الأموي .

ويصف الحكيم «ماربين» إقدام يزيد على قتل الحسين بأعظم خطأ سياسي صدر

---

(١) كما هو معروف في علم الطبيعة أن كل ما يحصر دون متنفس تزداد قوة انفجاره ، وهذا ما ينسحب على علم النفس ، إذ أن هذا الموضوع يشكل عنصراً مهماً في عيادات الطب النفسي ويعرف بالكبت أو الكمون النفسي الذي يتبعه انفجار ، إما أن يكون إيجابياً .. فيبني ، أو سلبياً .. فيهدم ، للهدم لا للبناء .

(٢) أبو الشهداء ص ١٨٩ طبعة القاهرة

(٣) مروج الذهب ص ٢٤٨ طبعة بيروت

من بني أمية ، فجعلهم نسياً منسياً ولم يبق منهم أثر ولا خبر .

ويرى بعض المؤرخين أن سقوط الدولة الأموية كان بفعل نشاط المعتزلة لإحلال العباسيين محلهم ، مما أدى بخلفاء العصر العباسي الأول للأخذ بمذهبهم كالمأمون والمعتصم والواثق ، وحاولوا جعله مذهباً رسمياً للدولة .

ونزع البعض إلى اعتبار مصرع الوليد بن يزيد إيذاناً بنهاية الدولة الأموية بعد أن انتشرت دعوة الخوارج في سورية مع غياب هيبة الخلافة بفعل خلفاء أمية .

فإذا نظرنا إلى هذه الآراء بتجرد ، لما وجدنا الأسباب التي اعتبرتها كعوامل رئيسية لسقوط أمية لتخرج عما اتصلت به أهداف ثورة الحسين ، فعليه السلام تحرك ليقف في وجه الانحراف الذي بدأ على عهد عثمان ووصل إلى عهد يزيد والذي استمر إلى آخر خليفة أموي ، بحيث لم تتغير الأرضية التي يرتكز عليها الحكم ، وبالتالي ظلت الخصائص هي ذاتها لم تتبدل بتبدل الوجوه ، وظلت الآفات تنخر في هيكل العرش الأموي ، بل ازدادت فاعليتها في أواخر هذا الحكم حينما أخذت الخلافة تنتقل بقوة السيف كما فعل يزيد الثالث ومروان الثاني واستفحلت العصبية القبلية حتى أصبحت مرقاة لكل طامح بالعرش .

وإذا لم تكن جريرة قتل الحسين وآل البيت هي السبب الرئيسي الذي قوَّض الدولة الأموية[1] فأي جريرة أكبر من هذه الجريرة يمكن أن تتفاعل داخل المجتمعات الإسلامية وتسبب كل هذه الثورات التي تلتها ، والتي كان من نتائجها اجتثاث النظام الذي ارتكبها والتي بسببها قُتل حفيد الرسول «ص» وآل بيته الأطهار ؟

---

(١) مما يؤكد الرأي القائل بأن سقوط أمية كان نتاجاً خالصاً مائة في المائة من إعجاز كربلاء ، أن الدولة الأموية بعد أن جعل مروان الجعدي مركز خلافتها بعيداً في حران بجوار قيس ، ومحاولته إنشاء عاصمة جديدة في عز مجدها الحربي وحتى عصر هشام سنة ١٢٥هـ ، كانت الدولة متينة البنيان لم تصمد لأكثر من سبع سنوات بعد هذا التاريخ وسقطت سقوطاً غير متوقع جعل الدهشة هي القاسم المشترك لكل من خبر قوتها وعاين إعجاز سقوطها المريع .

فها هو معاوية الثاني يقول : « **أيها الناس إن جدي معاوية نازع الأمر أهله ومن هو أحق منه لقرابته من رسول اللّٰه «ص» وهو علي بن أبي طالب** » .

وعندما يتفاعل الندم مع لوم النفس في صدر ابن القاتل .. أفلا يجدر تفاعله في ضمير رجل الشارع الذي اعتبر نفسه مسؤولاً عن خذلان الشهيد ابن الشهيد وأبو الشهداء الحسين «ع» ، وتركه بلا نصير مقابل مغانم زالت وبقي له الندم وتبكيت الضمير ؟

ولم يقف هذا التبكيت على رجل الشارع .. بل تعداه إلى أفراد الأسرة الأموية غير معاوية الثاني ، فإذا بعبد الملك يكتب للحجاج :

« لا تعرض لمحمد بن الحنفية ولا لأحد من أصحابه ، جنبني دماء آل أبي طالب فليس منها شفاء من الحرب » .

وهذا علي بن عبداللّٰه بن عباس جد أبي العباس وأبي جعفر ، يقتطعه بنو أمية قرية الحميمة في إقليم البلقاء بالأردن ، حيث أنزله بها الوليد بن عبد الملك معززاً مكرماً مستجاب المطلب .

ولم يقف حدود تبكيت الضمير عند فرد من بني أمية ، ولا عند حدود فعل واحد .. فها هو هشام بن عبد الملك بعد أن علم بمقتل زيد بن علي وولده يحيى ، حزن عليهما حزناً شديداً وردد : « وددت أني كنت افتديتهما » .

ويأتي مروان آخر خلفاء أمية قبل اندثارهم ليمتنع عن شتم ولعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب .

وفي مواقف خلفاء بني أمية الذين اعتلوا العروش بعد ثورة الحسين ، دلالة كافية على أنهم بمواقفهم هذه ، كانوا يقدمون على فعل مسبق لما كانوا يحدسون تفجره بين يوم وآخر بدوام تذكر الناس مأساة آل البيت ، لهذا قال عبد الملك : « جنبني دماء آل أبي طالب » ولأجله امتنع مروان عن لعن أمير المؤمنين وبسببه تنصل معاوية الثاني من فعلة جده معاوية وأبيه يزيد .

حتى يزيد نفسه لما رأى حزن أهل[1] بيته على قتل الحسين وسمع تقديسه مع أولاد علي وعظمتهم ومظلوميتهم بين الناس ، صمت وأراد تبرئة نفسه مما جنت يداه بإلقاء المسؤولية على عماله بالرغم مما أشاعه عماله عن تعمده إيصال خلافه مع الحسين الى الطريق المسدود الذي وصل إليه ، وقد سُمع ذات يوم يقول : « إن سلطنة الحسين كانت أهون عليَّ من هذا المقام العالي الذي فاز به آل علي وبنو هاشم ».

وها هو يحيى بن الحكم يقول لبني أمية لما بلغه قتل الحسين : «حُجبتم عن محمد يوم القيامة ، لن أجامعكم على أمر أبداً[2] » .

ويذكر عن يزيد أنه أمر النعمان بن بشير على مسمع من قواد جيشه أن يبعث مع السبايا إلى المدينة رجلاً أميناً معه رجال وخيل ، ويكون علي بن الحسين معهن ، ثم أنزل النساء عند حريمه في دار الخلافة ، فاستقبلهن نساء آل معاوية بالبكاء والنواح على الحسين ، ثم أقمن للناحة ثلاثة أيام وكان يزيد لا يتغدى ولا يتعشى إلا ومعه علي بن الحسين وأخوه عمر ، فقال يزيد يوماً لعمر ـ وكان صغيراً جداً ـ : أتقاتل هذا ؟ ـ وأشار إلى ابنه خالد ـ يريد بذلك ممازحته ، فقال عمر : اعطني سكيناً واعطه سكيناً حتى نتقاتل ، فأخذه يزيد وضمه إليه وقال : شنشنة أعرفها من خزم ، هل تلد الحية إلا حية ؟

ولما ودعه قال لعلي بن الحسين :

---

(١) لما رأت زوجة يزيد هند بنت عمرو بن سهيل الرأس المصلوب على باب دارها ، وشاهدت الدم الطري يتقطر منه ، عظم المصاب في قلبها ، فدخلت على يزيد في مجلسه سافرة الحجاب وهي تصيح : « رأس ابن بنت رسول اللّه مصلوب على دارنا ؟ » فغطاها وقال لها : « أعولي على الحسين فإنه صريخة بني هاشم عجل عليه ابن زياد » .

(٢) ورد ذكر هذه الحوادث وما يليها في كتاب « رأس الحسين » لابن تيمية ط القاهرة ص١٦١ وما بعدها وعلى الرغم من محاولة المؤرخ تبرئة يزيد مما فعل وإيجاد المسوغات لجريمته النكراء .. إلا أنه يعود إلى ذكر ما قيل بما يتفق وما تناقله الرواة بأسانيد قوية ، ويعلق عليه بأنه اختلاق وبهتان وأن يزيد لم يعلم بقتل الحسين ولم يكن يريده .

« قبّح اللّه ابن سمية[1] أما واللّه لو أني صاحب أبيك ما سألني خصلة إلا أعطيته إياها ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي ، ولكن اللّه قضى ما رأيت » .

ثم جهّزه وأعطاه مالاً كثيراً ، وكساهم وأوصى بهم رسولاً أميناً ، وقال له : كاتبني بكل حاجة تكون لك .

وتحدث الروايات أنه لما دخلت النساء عليه قالت فاطمة بنت الحسين وكانت أكبر من سكينة :

يا يزيد بنات رسول اللّه سبايا ..

فقال : يا بنت أخي أنا لهذا كنت أكره

قالت : واللّه ما تركونا إلا خرصاً

فقال : ابنة أخي .. ما أتى إليك أعظم مما ذهب لك .

ثم أدخلهن داره وأرسل إلى كل امرأة منهن يستطلعهن عما فقدنه ، فليس منهن امرأة واحدة تدعي شيئاً بالغاً ما بلغ إلا ضاعفه لها .

فهل بعد هذه الوقائع والتصرفات من مزيد لمن أبعد أسباب سقوط أمية عن فعل معجزة شهادة الحسين بكربلاء ؟

---

(١) ظن يزيد أنه بكلامه عن القبيح ابن سمية يبعد تهمة قتل الحسين عنه لإعماء عيون المسلمين عما اقترفه بحق سبط النبي وآل بيت النبوة ، وقد رُوي عنه أنه قال بعد أن دمعت عيناه : « كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين ، لعن اللّه ابن سمية ، أما واللّه لو إني صاحبه لعفوت عنه » يقول هذا متناسياً عن عمد كتابه إلى واليه الوليد بن عتبة الذي أمره به أن يأخذ الحسين أخذاً شديداً ليس فيه رخصة وإن أبى فليضرب عنقه ويبعث إليه برأسه ! لكن المسلمين لم ينسوا هذا كله ولم يقنعوا بحزن يزيد المصطنع الذي بدل أن يقتص من قاتلي الحسين بإعدامهم أو اقصائهم بأضعف الإيمان .. جزاهم وقرّبهم وهذا ما فعله بابن زياد فلم يعزله ولا عاقبه ولا أرسل يعيب عليه « رأس الحسين لابن تيمية ص١٣٢ - ١٨١ » .

وكيف لا تصل الأمور إلى ما وصلت إليه بعدها عبر ما كان قبلها ، انطلاقاً من مسلّمات اتصال أول الشيء بآخره ؟

وما عذر أولئك الذين ابتعدوا عن جوهر الحقيقة وتعاموا عن نتائج ما جرى ليردوا سقوط عروش أمية إلى تعصب بني أمية للعرب ، بشكل أدى إلى تنمية الحقد في نفوس الموالي ـ المسلمون غير العرب ـ ؟

وأية حجة تبرر آراء بعض المحرفين الذين جردوا كربلاء من كل إعجاز مخالفين بذلك الحجج الإلهية[1] ، وذاكرين أن الأطماع السياسية لفئة منظمة مستغلة نجحت في اتخاذ مقتل الحسين ذريعة للعبث وستاراً أشبه بقميص عثمان تلوِّح به لإزالة الدولة الأموية ؟

وسواء رد بعض المؤرخين سقوط أمية إلى التفاخر بين قيس واليمن ، أم إلى مصرع الوليد بن يزيد ، أم إلى دعوة الخوارج ، أم إلى جهل عمر بن عبد العزيز بأصول السياسة ، أم إلى أي سبب آخر .. تظل خطيئة قتل الحسين التي اقترفها يزيد هي المؤشر الأوحد الذي بدأت منه بداية العد العكسي لسقوط الحكم الأموي[2] ، إذ ظل المسلمون ينظرون إلى خلفاء بني أمية نظرتهم إلى مختلسين سرقوا الخلافة بوسائل القهر والإذلال ، وقَتَلة لعترة النبي المقدسة التي راحت في سبيل رفع الظلم عن كاهل الأمة الإسلامية ، وحفظ روحانيتها من العبث .

وكان المسلمون يسمعون قبل استشهاد الحسين هذه الأبيات التي تصور لهم الإلهام السماوي الذي أوصل بني أمية إلى الحكم [3] :

---

(١) يشير علم النفس الحديث إلى أن هناك فئة من الناس يطلق عليها تسمية « أعداء الحقيقة » لا يسعدها سوى ليِّ عنق الواقع وتجاهل منطقية الأمور .

(٢) يرى المؤرخ البريطاني « ك جيبون » أن مذبحة كربلاء هزت العالم الإسلامي هزاً عنيفاً .. ساعد على تقويض دعائم الدولة الأموية .

(٣) للأخطل قصيدة مطولة في فضل بني أمية وأحقيتهم في الخلافة ونكران أي دعوة تدعي غير ذلك ..

تمت جـــدودهـم واللّه فـــضّلهـم وجـد قـوم سـواهـم خـامل نكد

هـم الذين أجــاب اللّه دعــوتهـم لما تلاقت نواصي الخيل واجـتلدوا

ويوم صـفين والأبصـار خـاشـعـة أمــدهـم إذ دعـوا من ربهـم مـدد

على الألى قـتلوا عـثـمـان مظلمـة لم ينهـهـم نشـد عنه وقـد نشـدوا

وبعد استشهاد الحسين صاروا يسمعون كل ما يصور مثالب خلفاء بني أمية[1]:

يبـيت النشـاوي من أمـيـة نوَّمـاً وبالطف قـتلى لا ينام حـمـيـمـهـا

ومـا ضـيَّع الإسـلام إلا قـبـيلة تأمـر نوكـاها ودام نعـيـمـهـا

واضــحت قناة الدين في كف ظالم إذا اعـوج منهـا جـانب لا يقـيـمـهـا

فـأقـسـمت لا تنفك نفـسي حـزينة وعـيني تبكي لا يجف سـجـومـهـا

حـيـاتي أو تلقى أمـيـة خـزية يذل لهـا حـتى الممـات قـرومـهـا

وكانت هذه المعادلات الشعرية المتضادة سبباً في إيقاظ العقول الخاملة ، فقد حملت هذه الاشعار بعد المقتل روح الإحساس بالظلم الفادح من خلافة بني أمية[2] ، وكشفت عن فهم تام لما كان وإلى ماآلت الأمور إليه ، فكان أن بدأت مرحلة من الندم الجماعي تتفاعل بين أفراد المجتمع الإسلامي تُرجمت إلى مواقف وكلمات أظهرتها حالة المقت التي سادت في مختلف عهود الأمويين.

وإذا قالها قائل .. فذلك أهون الشرين ، أما إذا قالها خليفة أموي فلا معنى لها إلا تفسير « وشهد شاهد من أهله » وهذه صورة للحكم الأموي كما صوره أحد خلفاء

---

(١) قصيدة لعبيد اللّه بن الحر الجعفي يتوقع فيها نهاية أمية .

(٢) يرد العالم الإيطالي« الدوميلي »كراهية المسلمين لبني أمية إلى موقعة كربلاء وما خلفته وراءها من هزة قوية أظهرت الأسرة الأموية في مظهر سيء ، ولم يكن هناك ما يستطيع أن يحجب آثار السخط العميق في نفوس المسلمين على السلالة الأموية والشك في شرعية ولا يتهم .

بني أمية ، إذ قال[1] :

فــدع عنك أدكــارك آل ســعــدي　　فنحن الأكــثــرون حــصى ومــالا

ونحن المالكون الناس قـســراً　　نســومــهــم المذلة والنكالا

ونوردهم حــيــاض الخــسف ذلا　　ومــا نألوهم إلا خــبــالا

فأي شاهد أبلغ من هذا على كل التساؤلات حول هوية الحكم الأموي .. وأي شهادة على تمزق الأسرة الأموية أدل من قولة العباس بن الوليد لأخيه بشر حينما حرضه على خلع الوليد والبيعة ليزيد : « يا بني مروان إني أظن أن اللّه قد آذن في هلاككم » ؟ وقوله شعراً :

إني أعــيــذكم باللّه من فتن　　مــثل الجــبــال تسامى ثم تندفع

إن البــرية قــد ملّت ســيــاستكم　　فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا

لا تبــقــرن بأيديكم بطونكم　　فــثم لا حــســرة تغني ولا جــزع

ومهما كانت المثالب التي آل إليها حكام بني أمية حتى اندثرت دولتهم وآلوا إلى الفناء .. فإن يزيد قد حوى عهده ما لم يحوه حكم خليفة لا قبله ولا بعده .

ففي الصحيح[2] أورد قول النبي «ص» : « هلاك أمتي على يدي أغيلمة من أمتي» ، وفي قول آخر[3] : سمعت رسول اللّه «ص» يقول : « هلكة أمتي على يدي غلمة من قريش » وعنه أيضاً[4] : « أول من يبدل سُنّتي رجل من بني أمية يقال له يزيد » .

---

(١) هو الخليفة الوليد بن يزيد

(٢) كتاب الفتن عن صحيح البخاري ج ١ ص ٢٢٣

(٣) عن أبي هريرة

(٤) الصواعق المحرقة ص ١٨٠ عن مسند الروياني عن أبي الدرداء .

وفي مصادر أخرى[1] أن رسول اللّه «ص» قال : « إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه » .

ومما ذُكر أن أبي هريرة كان يمشي في السوق[2] ويقول : « أللَّهم لا تدركني سنة ستين ولا أمارة الصبيان » وكان يشير بذلك إلى خلافة يزيد .

لكن الأمة الإسلامية التي تجاهلت قول النبي « ص» ولم تمتثل له بقتل معاوية حينما ارتقى منبره ، وارتضت برشح الأطماع الذي كان يطرش فوق عيونها من ميزاب معاوية فيعمي منها البصر .. تفتحت بصيرتها لكن بعد فوات الأوان .

وإذا كان المسلم بعد استشهاد الحسين يتذكر شيئاً .. فإنه لن ينسى تذكر قتل يزيد للحسين وعترة آل البيت ، وحمل رؤوسهم على أسنة الرماح ، وسبي حرم رسول اللّه « ص» إلى دمشق ، ونكته لثنايا ريحانة الرسول «ع» بقضيبه ، وترديده ذلك البيت الشنيع : « ليت أشياخي .. ألخ » .

وإذا لم ينس هذه الشناعة .. فلأنه تمثل وجدانياً وفكرياً خطورة قتل مسلم لمسلم بدون حق ، وشناعة إيذاء مؤمن لمؤمن ، وخطيئة ثلم أمر الأمة القائم بالقسط .. فكيف إذا كان هذا المسلم المقتول بمكانة سبط النبي .. وهذا المؤمن المؤذَى هو الحسين بن علي ، حبيب الرسول وريحانته وسيد شباب أهل الجنة ؟

هنا يتخذ القتل بعداً فوق بعده اللا إنساني .. فزوال الدنيا لأهون من قتل مسلم لمسلم من دون حق ، فكيف بقتل مسلم لحفيد نبي الإسلام ؟ حيث كان يقصد في قتله قتل الحق الإلهي الذي يمثله ، فيكون قد أضاف إلى قتله بدون حق .. جريمة قتل الحق أيضاً ، المتمثل في تعاليمه وثورته « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ[3] »

---

(١) معاوية ومقتل الحسين للخوارزمي ، وتاريخ أبي الفدا ، وكنوز الدقائق للمناوي ، وتاريخ الطبري وكتاب صفين .

(٢) فتح الباري ص ٢٣٢ ط بغداد .

(٣) الآية ٩٢ من سورة النساء .

وفي إيذاء المسلم لمؤمن.. إيذاء للنبي ، وإيذاء النبي.. إيذاء للّه ، وفي إيذاء الحسين نحى الآذون منحى يتجه إلى العناية الإلهية التي أعدت الشهيد وهيأت له سبل الدعوة إلى حقها الأسمى ، فلم يعد الإيذاء مقصوراً هنا على « مؤمن ما » بل اشتمل على قاعدة الإيمان ذاتها والتي وضع ركيزتها سيد من آمنوا وحافظوا على إيمانهم ، وسيد من استشهدوا في سبيل بقاء الإيمان مترعاً في الصدور والحنايا .

وفي قولة الرسول الأكرم : « إن لقتل الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً » ، تفسير مؤكد لمعنى ما سبق ، ففي قلوب المؤمنين فحسب أودع قتل الحسين حرارة لا تبرد أبداً مهما اشتد صقيع الضلالة حول القلوب ، ومهما علا جليد الانحراف فوق الصدور ، إنها حرارة قتل المسلم لمسلم بدون حق ، بل بظلم لم يسبقه ويلحقه ظلم ، وهي اكتواء أذية غير المؤمن للمؤمن ، المستمدة طاقتها السرمدية من غضبة النبي وغضبة اللّه تعالى لغضبة رسوله .

حرارة لا تبرد لأنها مستمدة من نار قتل سيد الحق بدون حق ، وحرارة لا ينضب دفؤها لأنها كوت قلوب المؤمنين التياعاً لإيذاء سيد المؤمنين ظلماً وقسوة .

فمهما نسى المسلم فلن ينسى كل هذا الذي تمثل خير تمثيل في تجبر يزيد ودمويته وموقفه الشامت من آل البيت ، حينما أشرف ركب السبي على ثنية جيرون وإنشاده لتلك الأبيات المستلة من غمد حقد أعمى والمغمَّسة بنقيع كفر ليس بعده كفر :

لما بدت تلك الحمول وأشرقت   تلك الشموس على ربى جيروني

نعب الغراب فقلت قل أو لا تقل   فلقد قضيت من النبي ديوني

فمعنى « قضيت من النبي ديوني » أنه قتل للنبي « ص» ما سبق وقتل له « ص» يوم بدر ، فوضع بهذه العبارة الزنيمة نفسه بتوازٍ مع شخص الرسول الأعظم ، وهو الفاسق الشرير الذي قال فيه الرسول « ص» :

« لا يزال أمر أمتي قائماً بالقسط حتى يكون أول من يثلمه رجل من بني أمية يقال له يزيد » .

وقد رأى المسلمون نبوءة رسولهم تتحقق في شخص يزيد الذي ما أن عُقدت له تلك البيعة الشاذة .. حتى هب ينهب المدينة ، ويرمي الكعبة بالمنجنيق ، ويقتل الحسين وأهل بيته ويمثل بجسده الطاهر في فلاة كربلاء ويحمل رأسه على رمح إلى دمشق .

وكان خليفة ماكراً ، افتتح عهده بشناعة كبيرة تجلت في قتل الحسين ، وختمه بوقعة الحرة ، قبل أن يقتله داء الجنب في مطلع شبابه[١] .

فلو أرجعنا كل الحركات التي ناوأت الحكم الأموي إلى مصدر واحد .. لوصلت إلى حيث تنطلق المظالم والانحرافات التي بدأت بسيطة وكبرت وتنوعت أساليبها مع كل خليفة أموي جديد ، ولو وضعنا إصبعنا على مكمن هذه الحركات .. لاتضح لنا أنها تستقي كلها من نبع واحد ، أوله في كربلاء حيث ينبع وآخره في الزاب حيث صب جارفاً أمامه كل الركام من قش الحكام الظلمة الذي نصبه خلفاء بني أمية في درب أمة الإسلام باسم دينهم الذي هو منهم براء ، فانقرضت عروشهم وسقطت دولتهم سقوطاً مروعاً وكأنها لم تقم .

وبقيت عقيدة الإسلام التي تكالبوا عليها قرناً من الزمان ، وأعملوا فيها تشويهاً واستغلالاً وتنكيلاً باسمها حتى ضاق الإسلام ذرعاً بهؤلاء المسلمين المحسوبين عليه اسماً ، الهادمين له من الداخل قولاً وفعلاً ، فلا السيف نفعهم ولا الهدم ولا التنكيل والإرهاب وارتدت سهامهم إلى نحورهم وكانوا بأفعالهم إنما يحفرون قبور نهاياتهم بأيديهم .

ولم تكُ كلمة الشهيد قبل مصرعه بكربلاء صيحة تطلق في الهواء جزافاً .. بل كانت نبوءة تحمل في معانيها مسلّمات المستقبل ، حينما خاطب قاتليه مبيناً لهم قرب نهاياتهم بقوله :

« أما واللّه لا تلبثون بعدها إلا كريثما يُركب الفرس ، حتى تدور بكم دور الرحى

---

(١) اختلفت الروايات في موته .

وتقلق بكم قلق المحور » .

فلم يلبثوا بعدها بالفعل إلا كما قال الحسين ، فدارت بهم الأحوال دور الرحى ، وانتقم اللّه منهم قتلة بقتلة وضربة بضربة .

وكان من فضل المعجزات الإلهية أن اقتلعت بغضبتها عروش أمية وامحت ذكرهم إلى الأبد فلم يُعثر لهم على أثر ولم يرد لهم ذكر إلا في باب الغدر والضلالة وقتل ذرية نبي الإسلام ، وظل ذكر الحسين وآل البيت يرتفع وينتشر كالضياء فيغمر بسناه وفوحه العاطر .. الدهور والأزمان والأكوان والضمائر والقلوب ، وصار كل مكان وطئته أقدامهم الطاهرة أعتاباً يقدسها[1] الملايين من البشر يزداد عددهم يوماً بعد آخر .

وغدت مبادىء الحسين دستوراً لكل مظلوم وثائر وطالب حق فوق سطح هذه الأرض ، تحت أي لواء انضوى وبأي لغة تحدث وأي عقيدة اعتنق .

ومن يمجد آيات اللّه يقنع بأن الشهادة التي أقدم عليها الحسين « ع » ، قد خسرت في العاشر من محرم خسارة زمنية جسيمة ، وكسبت بعده كسباً دينياً أزلياً ، فكانت الخصم الأقوى بعوامل ضعفها ، وكانت القوة الغاشمة التي صارعتها .. الخصم الأضعف بعوامل قوتها .

شهادة خاسرة في التو والآن ورابحة في القادم والآت ، لأن الحق سيفها والباطل ميدانها .

ونهاية المطاف هي خواتم الأمور ، لأن الأمور مرهونة بخواتيمها لا ببداياتها ، وقد تُخذل البدايات وتُجزى الخواتم خيراً عميماً .

---

(١) يصف المستشرق الفرنسي « هنري ماسيه » هذا المآل بقولة : لقد جاء الحسين إلى العراق عبر الصحراء ومعه منظومة زاهرة من أهل البيت وبعض مناصريه .. وكان أعداؤه كثرة من هراطقة يزيد قطعوا عنه وعن مناصريه مورد الماء .. واستشهد ومن معه في مشهد كربلاء في أفجع مآسي الإسلام طراً وأصبح مسرحها منذ ذلك اليوم مبكى القوم وموطن الذكرى المؤلمة كما غدت تربتهم مقدسة ..

غُـــررتم لئن صـــدقــتم أن حـــالة　　تـدوم لـكم والـدهـر لـونـان أخـــرج
لـعل لـهم في منطوى الـغــيب ثائـراً　　سيسمو لكم والصبح في الليل مولج
يود الذي لاقـــوه أن ســـلاحـــه　　هـنالك خلخـــال عـليـــه ودملج
فـــيــدرك ثأر اللّه أنـصـــار دينه　　ولـلّه أوس آخـــرون وخـــزرج
ويقـضي إمـام الحق فـيكم قـضـاءه　　مـبـيناً ومـا كل الحـوامل تـخـدج[1]

***

(١) من أبيات لأبي العباس علي بن الرومي وقد أوردناها للتوافق .



المسيح
هل تنبأ بالحسين ؟

أيهـا القـاتلون جـهـلاً حـسـيناً　　أبشـروا بالعـذاب والتنكيل
قـد لعنتم على لسـان ابن داود　　ومـوسى وصـاحب الإنجـيل

لقد لعن المسيح قاتلي الحسين وأمر بني إسرائيل بلعنهم ، وقال : « **من أدرك أيامه فليقاتل معه ، فإنه كالشهيد مع الأنبياء مقبلاً غير مدبر ، وكأني أنظر إلى بقعته وما من نبي إلا وزارها وقال إنك لبقعة كثيرة الخير فيك يدفن القمر الزاهر**[1] » .

في هذا الإيراد ثلاث نقاط ذات دلالة وأهمية :

---

(١) يشكك البعض بأن هذا القول لم يرد نصه في الإنجيل بل هو منسوب إلى السيد المسيح «ع» عند ابن قولويه في كتابه « كامل الزيارات » ص ٦٢ ، ويعجب المرء لهذه الانتقائية في أخذ الحقائق والروايات التاريخية .. فإذا كان بمقدور النبي عيسى «ع» إحياء الميت وشفاء الأكمه وإبراء الأبرص بلمسة أو كلمة ، وله السلطة على الجن والشياطين .. فهل عسير عليه المرور بكربلاء والتنبؤ بمن سيصرع فوق أديمها من الشهداء والمصطفين بعد قرون من الزمن ؟ أو ليس الأنبياء أولاد علاَّت ، والشهداء والمصطفون إخوة في أسرة واحدة أعدها اللّه تعالى لتحقق وعده للبشر .. فكيف وهي على ما هي عليه نجسر على نكران ما خصَّها تعالى به من تبصر ونورانية وقدرة على اختراق حواجز الزمان والمكان وكشف غيب أفرادها .. وهل من الإيمان في شيء أن يخوض البعض في هذه التجليات الإلـهية ويفسروها بمنطقهم البشري القاصر ورؤاهم العاجزة ؟ !

١ ـ لعن المسيح لقاتلي الحسين ، وأمره لبني إسرائيل بلعنهم .

٢ ـ الحث على المقاتلة معه بإيضاح أن الشهادة في هذا القتال كمثل نظيرتها مع الأنبياء .

٣ ـ التوكيد على زيارة كل الأنبياء لبقعة كربلاء ، بالجزم التام على أن « ما من نبي إلا وزارها » .

وتذكر بعض المراجع التاريخية[1] أن عيسى بن مريم « ع » مر بأرض كربلاء وتوقف فوق مطارح الطف ، ولعن قاتلي الحسين ومهدري دمه فوق هذه الثرى .

ولما مر أمير المؤمنين بكربلاء في مسيره إلى صفين .. نزل فيها وأومأ بيده إلى موضع منها وقال : « ههنا موضع رحالهم ومناخ ركابهم » ، ثم أشار إلى موضع آخر وقال : « **ههنا مهراق دمائهم ، ثقلٌ لآل محمد ينزل ههنا**[2] » ثم قال : « واهاً لك يا تربة ليحشرنَّ منك أقوام يدخلون الجنة بغير حساب » ، وأرسل عبرته وبكى من معه لبكائه ، فأعلمهم بأن ولده الحسين يقتل ههنا من عصابة ، هو وأهل بيته وصحبه .

وفي المقاييس البشرية المتعارف عليها ، أن كل فرد ذي صفة معينة لا بد وأن يتواجد أو يزور الأماكن التي يرتادها أو يجتمع فيها نظراؤه ، أو التي من المنتظر أن يقدم إليها شبيهٌ له ، وفي مقاييس العزة الإلهية كانت ودائع النبوءات والشهادات تتردد في أفواه النبيين وتدور على ألسنة الوصيين ، فيمهدون للأمر ويدربون النفوس على تقبل الشبيه المنتظر لهم الذي سيتمم ما بدأوه في المجال الذي انتدبتهم العناية الإلهية له .

ونبي كعيسى وشهيد كابن مريم « ع » لا بد وأن يقف على أمر الشهيد الذي سيليه بعد أحقاب من الزمن ، ليتم ما بدأه من إحقاق للحق ونصرة للمظلوم ،

---

(١) ومنها إكمال الدين للصدوق ص ٢٩٥

(٢) رجال الكشي ص ١٣

وإسعاد للبشرية المعذبة وتخليصها من نير العبودية .

والصحيفة التي قرأ بها عيسى عن مجيء الحسين ، قرأ بها يحيى عن مجيء المسيح قبل أن يأتي ، وألهمها قولاً واضحاً ونبوءة محددة ، فقال «ع» : «سيأتي من بعدي من لست أهلاً لأن أحل له سير نعليه [1]» .

وفي الآية الكريمة « وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً » ، ما يدل على أن ميثاق النبيين والشهداء مأخوذ منهم قبل أن يكونوا ، وأن لا مفر من الرضوخ لهذا الميثاق كما تشاء العزة الإلهية .

وفي إنجيل يوحنا يبشر المسيح تلامذته بإرسال مؤيِّد لشهادته يكمل من بعده رفع راية الحق الإلهي فوق الخطيئة والبر والحكم ، فيقول «ع» :

إني ذاهب الآن إلى الذي أرسلني

وما من أحد منكم يسألني : إلى أين تذهب ؟

غير أني أقول لكم الحق

من الخير لكم أن أمضي

فإن لم أمض لا يأتكم المؤيِّد

أما إذا مضيت فأرسله إليكم

ومتى جاء أخزى العالم على الخطيئة والبر والحكم [2] .

وقد فسر بعض اللاهوتين اسم المؤيِّد بـ « **الروح القدس** » لكن المعاني التي تدل عليها لفظة الروح القدس جاءت في الأناجيل الأربعة مغايرة لمعنى اسم المؤيِّد ، إذ لو تصفحنا صفحات الإنجيل المقدس ، وتمعنا في عظات المسيح وأمثاله ، لتبين لنا

---

(١) يوحنا : ١/ ٢٧ـ ٢٨

(٢) يوحنا : ١٦/ ٥ـ ٦ـ ٧ـ ٨

عدم تفوهه بكلمة المؤيِّد إلا قبل رحيله ، وبأنه ذكر في كل عظاته الروح القدس ، بالروح القدس ، ولم يسمه باسم آخر حتى يحتمل تأويل وتفسير المؤيِّد بالروح القدس .

ففي إنجيل يوحنا يحادث المسيح المرأة السامرية بقوله :

ستأتي ساعة يعبد فيها العباد الصادقون الآب بالروح والحق [1]

إن اللّه روح فيجب على العباد أن يعبدوه بالروح والحق .

فهنا إشارة واضحة بأن الروح هو الحق ، وحينما يكشف المسيح عن سر الروح لنيقوديموس يقول : مولود الجسد يكون جسداً ، ومولود الروح يكون روحاً [2] .

وفي إنجيل لوقا تحديد أكثر إيضاحاً لمعنى الروح القدس إذ يقول المسيح لتلاميذه : « وعندما تساقون إلى المجامع والحكام وذوي السلطة ، فلا يهمنكم كيف تحتجون أو ماذا تقولون لأن الروح القدس يلهمكم فيما ينبغي أن تقولوا [3]».

ففي عبارة « الروح القدس يلهمكم » إشارة إلى أن الروح القدس شيء هيولي غير ملموس أو مرئي وحينما يحضر .. فإنما يحضر إلهاماً وإيحاءً لا كجسم مادي .

وهذا ما أكدته قولة المسيح لتلامذته في الناصرة : « روح الرب نازل عليَّ لأنه مسحني» وكان بإمكانه « ع» أن يستعيض بكل ما تفوه به عن الروح القدس ، بكلمة المؤيِّد فيقول : «المؤيِّد يلهمكم» بدل الروح القدس ولقال أيضاً : « المؤيِّد نازل عليَّ » بدل روح الرب إذ أنه في كل عظاته يتكلم عن الروح القدس فيصفه بصيغة الأقوى والأعلى ويضع نفسه دوماً في موضع « الأدنى والمنفذ » فروح الآب نزل عليه وروح القدس يلهم تلاميذه ، أما في قولته : « إذا مضيت أرسل لكم المؤيِّد » صار معنى الروح القدس يفسر على أنه إحدى مقدرات المسيح ، يرسله متى يشاء بما يخالف

---

(١) يوحنا : ٤/ ٢١ـ ٢٤

(٢) نفسه : ٣/ ٦

(٣) لوقا : ١٢/ ١١ـ ١٢

المعاني السابقة التي كان يتكلم فيها عن الروح القدس ويصفه بأبيه السماوي الذي أرسله وألهمه ويلهم تلاميذه ، لا سلطة له عليه ، وإنما سلطة الروح هي العليا فوقه وما عليه إلا الرضوخ لها .

إذن فالفرق واضح وبيِّن بين عبارتي «الروح القدس يلهمكم» وبين « إذامضيت أرسل لكم المؤيِّد» فالروح القدس في الأولى هو نفح هيولي يتمدد في الفكر والضمير[1] ولا سيطرة للمسيح عليه ، بل هو يخضع له .. والمؤيِّد في الجملة الثانية كائن مادي له أبعاده ، ولعيسى سيطرة على إرساله للبشر .

ولتوكيد هذا المعنى ، معنى أن الروح القدس نفح هيولي لا كما فُسِّر بأنه المؤيِّد.. هو ما جاء في مطلع نشيد زكريا : « وامتلأ أبوه زكريا من الروح القدس[2] فأنبأ وقال » الخ .

وأيضاً .. فإن مريم بنت عمران عندما كانت مخطوبة ليوسف ، وُجدت قبل أن يتساكنا حاملاً من الروح القدس ، أي بنفحة من اللّه تعالى وبأمر من لدنه .

وفي القرآن الكريم : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي » .

وأيضاً : « وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيَّدناه[3] بروح القدس[4] » .

---

(١) أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيَّدهم بروح منه سورة المجادلة الآية ٢٢

(٢) لوقا : ١/ ٦٧ وما بعدها

(٣) فعل أيَّد في القرآن ورد بمختلف صيغه ثماني مرات وهي على التوالي ـ المائدة ١١٠ ـ الأنفال ٦٢ ـ الانفال ٢٦ ـ الصف ١٤ ـ البقرة ٨٧ ـ البقرة ٢٥٣ ـ التوبة ٤٠ ـ المجادلة ٢٢ ـ آل عمران ١٣ ، ثلاث منها تتناول الروح القدس ، ومن المفيد إيرادها لبلوغ المبتغى « إذا أيدناك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين » « وأتينا عيسى بن مريم البينات وأيَّدناه بروح القدس » ٨٧ البقرة وقد وردت بالصيغة نفسها في الصورة نفسها في الآية ٢٥٣ ونصل إلى أن القرآن قد أورد فعل التأييد حين تكلم عن الروح القدس ، وكلمة المؤيِّد في إنجيل يوحنا ليست إلا صيغة المجهول لفعل أيَّد الواردة في القرآن الكريم .

(٤) الآية ٨٧ من سورة البقرة

وفي إنجيل متى عبارة : هو الذي يعمِّد بالروح القدس ، وفي إنجيل لوقا عبارة : إن الآب السماوي يمنح سائليه الروح القدس ، وأيضاً بنفس الإنجيل : إن الروح القدس سينطق بلسانكم في الاضطهاد ، وفي إنجيل يوحنا : الروح القدس يرشدكم إلى الحق ، وسيخزي الروح القدس العالم ، وخذوا الروح القدس .

وكلمة « المؤيِّد » لم يرد ذكرها إلا في آخر الأناجيل الأربعة ، وقد فُسرت في متن بعضها بالروح القدس بما لا يدع مجالاً للشك بأن التفسير قاصر لا يبلغ مبلغه في قولة المسيح إذا وضعنا في الاعتبار أن تعبير الروح القدس[1] قد ذُكر بالنص الواضح الصريح في مواضع كثيرة من الأناجيل ، وجاء في معاني الآيات بما يخالف طبيعة المؤيِّد من حيث درجتيهما ومجال قدرتهما .

فلو أضفنا إلى اسم المؤيِّد عبارتي : « أرسله لكم » و « متى جاء أخزى العالم على الخطيئة والبر والحكم » .. لاتضح لنا أن المؤيِّد بشر وكيان مادي ، يؤيده عيسى ويعطيه راية الحق التي استشهد من أجلها .

وبعد المسيح «ع» جاء محمد « ص» خاتماً للانبياء ، وبعد رسالة الإسلام ما نزل للبشر رسل ولا هادون .

فهل كان المسيح يتنبأ بقدوم الحسين .. ؟

من خلال التفسير السالف عرَّفنا المؤيِّد بكائن مادي يؤيد شهادة عيسى«ع» ، وتأييد الشهادة لا يكون إلا بأخرى مشابهة لها ، تستمد آلامها وشكلها من قسوة النفوس في زمن حلولها ، ولو نظرنا لرأينا أن ليس ثمة من شهادة عظيمة أعقبت

---

(١) لم يفسر مجمع نيقيه الأول المعقود عام ٣٢٥ م ماهية الروح القدس ، وزعم مقدونيوس أن الروح ليس إلهاً وإنما الإله هو الآب والابن فقط ، ولأجل هذا التفسير عُقد مجمع القسطنطينة وحضره ١٥٠ أسقفاً ، وخطب فيهم بطريرك الاسكندرية تيموثاوس وفنَّد أقوال مقدونيوس قائلاً : ليس لروح القدس معنى إلا أنه روح اللّه ، فإذا قلنا إنه مخلوق فمعناه أن حياته مخلوقة ، وإن قلنا ذلك فقد زعمنا أنه غير حي ، وإذا زعمنا هذا فقد كفرنا به .

شهادة عيسى بعد مماته ، سوى شهادة ريحانة الرسول الأعظم ، وسليل النبوة وغذيِّها ، وهي شهادة جرت على لسان شهيد المسيحية وأخذته إلى مطارحها في كربلاء قبل أن تكون بقرون .

وشهيد المسيحية عيسى«ع» لما تمثلت له أهوال شهيد الإسلام الحسين«ع» فوق الأرض التي زارها والتي صارت مسرحاً لشهادته .. قد تأثر ولعن قاتليه ، وأمر بني إسرائيل بلعنهم ، وحث الذين سيدركون أيامه على القتال معه .

فما هو الحجم المقياسي لشهادة الحسين في سفر المسلَّمات الإلهية والمعادلات البشرية على ضوء ما قدمته من تضحيات عادت على العقيدة بما عادت ؟

كشهادة .. قرُبت بعظمتها وخطر نتائجها وعظمها .. إلى حدود النبوة ، وقربت شهيدها إلى حدود ما في النبوة من قدسية وخلود ، فكانت ظلاً للنبوة ، وكان الحسين «ع» شبيهاً بالرسل .

ولا عجب في هذا المقتضى ما دام لم يخرج عما أوصى به عيسى«ع» بني إسرائيل وما حثهم عليه من القتال مع الحسين ، بوصف الشهادة معه « كالشهادة مع الأنبياء » .

ولا عجب أيضاً في تشبه الحسين بالرسل ، ما دام لم يخرج عما أعلنه الرسول الكريم من قولته : « حسين مني وأنا من حسين » مبتدئاً إعلانه بالتركيز على كون الحسين منه ، قبل أن يكون هو من حسين .

ولنلق مزيداً من نور البصيرة والتبصر على تسمية المؤيِّد الذي وعد المسيح بإرساله ليشهد للحق وليحفظ خاتمة الرسالات من العبث بسُننها .. فنلاحظ بأنه وصفه بالمؤيِّد بكسر الياء ، وليس بالمؤيَّد بفتحها .

وفي قاموس اللغة يعني اسم المؤيِّد ، الذي يثبِّت ويقوِّي ويعضد غيره ، وفي القولة « أيَّد فلان فلاناً » معناها وافقه ودعم رأيه وموقفه أمام الآخرين .

و المؤيَّد بفتح الياء وشدها ، يعني ذلك الشخص المدعم المعضد رأيه وموقفه ،

وهو يمثل في هذا الموضع اسم « المفعـول به » بينـمـا يمثل المؤيِّد بكسـر اليـاء « اسم الفاعل » .

ولو ذكر عيسى «ع» اسم المؤيَّد ، لصار «ع» هو المؤيِّد له في مكان الفاعل ، ولمثَّل هذا الذي سيرسله اسم المفعول به .

وفي الأصل اليـوناني للإنجـيل جاءت اللفـظة باسم « بارا كلتس[1] » أي المعـزِّي والمؤيِّد ، ومعنى المعزي في العربية يجيء في نفس معنى المؤيِّد .

فلا يصح إذن تفسير المؤيِّد بالروح القدس ، لأن في سلطة المسيح على إرسـاله ليشـهد له .. معنى منافياً لهذا التفسير ، ومغايراً لسلطة الروح القدس على المسيح ، وهذا ما أكده «ع» لتلاميذه في العشاء الأخير إذ قال لهم :

الحق الحق أقول لكم

ما كان عبد أعظم من سيده

ولا كان رسول أعظم من مرسله[2]

لأن الذي أرسله اللّه

يتكلم بكلام اللّه .

وفي موقف آخر له ذكر يوحنا على لسانه قوله : « إن الروح القدس أعظم مني » وفي صـلاته يقـول«ع» مـخـاطبـاً ربه : « أنت الإله الحق وحـدك ، ويعرفـون الذي أرسلته يسـوع المسيح » وأيضاً : ليؤمن العالـم بأنك أنت أرسلتني وعرف هؤلاء أنك أرسلتني[3] .

وإنَّا لواجدون في أعمـال الرسل توكـيداً قـاطعاً على كون الروح القدس هو اللّه

---

(١) بارا كلتس المترجَم بالمؤيِّد شُرح شرحاً يتطابق مع ما ورد في القرآن الكريم .

(٢) يوحنا : ١٣/١٦

(٣) يوحنا : ١٧/ ٢١ـ٢٥

تعالى بقدرته وجلاله ، بحيث لا تحتمل تسميته تفسيراً قاصراً كالذي فُسر به ، ولا تأويلاً آخر من المحتمل ظهوره .

فقد كُتب : « يا حنانيا لماذا ملأ الشيطان قلبك حتى تكذب على الروح القدس ؟ إنك لم تكذب على الناس بل على اللّه[١] » .

هنا نتبين في كلمتي « الروح القدس » و « اللّه » أنهما تأتيان متناوبتين مترادفتين تعطيان مدلولاً واحداً ، وتشيران إلى الطبيعة الواحدة للروح القدس ، واللّه ، وبأن أحدهما هو الآخر .

والدلالات على كون الروح القدس هو اللّه تعالى ، وأن له السلطة العليا على الرسل ، وأن لا سلطة للرسل عليه .. كثيرة ومتواترة في الإنجيل ، ففي مطلع فعل الإيمان قول : « وبالروح القدس الرب المحيي مسجود له وممجَّد الناطق بالأنبياء » .

فـ « **الناطق بالأنبياء** » تعني : « مرسل الأنبياء » على اعتبار أن النبي هو كلمة اللّه المتجسدة ، ونطقه يعني إرساله .

وفي الآية القرآنية الكريمة عبارة : « **ذلك عيسى بن مريم ، قول الحق**[٢] » .

ويذكر يوحنا بأن اللّه روح ، والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا .

وروح اللّه في العهد القديم يشير إلى الريح : « وكانت الأرض خربة وخالية ، وروح اللّه يرف على وجه المياه[٣] » ويشير إلى النفس : « لو استرجع اللّه إليه روحه ونسمته .. لفاضت روح كل جسد في الحال ولعاد الإنسان إلى التراب[٤] » فالروح

---

(١) أعمال الرسل : ٥/ ٣ـ٥

(٢) سورة مريم : ٣٤

(٣) سفر التكوين : ١ / ٢

(٤) أيوب : ٣٤/ ١٤

بصفته ريحاً .. يعني السر والقوة ، وبصفته نَفَساً إلهياً .. يعني العنصر الحيوي الذي يُحيي اللحم والدم ، فروح اللّه هو الحي المحيي .

وفي الإشارة إلى بعث الرسالات السماوية من لدنه تعالى ، حينما تستولي عزته على مختاريه فيلهمهم ويرسلهم لإتمام رسالة تحريرية أو نبوية لبني البشر .. قال الرب لأرميا : « ها أنذا جعلت كلامي في فمك » وفي أشعيا النبي جاء عن بعث عيسى : « فيستقر عليه روح الرب روح الحكمة والفهم ، روح المشورة والقوة [1] » .

وهكذا يكون روح اللّه صادراً عن اللّه فهو إذن روحٌ قدسٌ ، وفي عمادة المسيح توكيد لهذا المعنى ، وفي الحمل به من العذراء مريم تكريس له ، فقد أنبئت العذراء : « إن الروح القدس يحل عليك ، وقوة العلي تظللك ، فالقدوس المولود منك يدعى ابن اللّه » .

ويجيء مقصد الإرسال الإلهي للرسل متمماً في هذا القول ليوحنا : « لأن الذي أرسله اللّه يتكلم بكلام اللّه » وتؤيد هذه القولة قولة أخرى لعيسى «ع» حينما أنبأ تلاميذه بخيانة يهوذا إذ قال لهم :

الحق الحق أقول لكم

من قبل الذي أرسله قبلني

ومن قبلني قبل الذي أرسلني [2] .

فهنا ثمة تعبيران واضحان لا لبَس فيهما ، يؤكدان أن ثمة قوة عليا لا سيطرة للمسيح عليها .. هي التي أرسلته ، وهي قوة الروح القدس التي عناها «ع» بأنها قوة أعظم منه ، بينما يؤكد المعنى الثاني على أن ثمة من هو تحت سيطرته وقدرته ، بحيث يتمكن مع هذه القدرة على إرساله بنفسه للبشر كما أرسله هو الروح القدس بدوره ، فالكتب السماوية تعلمنا بأن اللّه ليس مادة ، بل هو خالق المادة والروح معاً

---

(١) يوحنا : ٣ / ٣٤

(٢) أرميا

وهو نور السموات والأرض ليس كمثله شيء لا تحيط به الأبصار ولا تدركه العقول ، لا يحده زمان ولا مكان ، وليس فكرة تعيش في العزلة بغير قابلية اتصال بالناس بل لسره تعالى إعلان يفصح عن أزليته ، كلّم به مختاريه ، وفوّض إليهم مهمة إبلاغ كلمته للبشر ، وطريقة القدرة الإلهية في هذا الإعلان تختلف باختلاف المواقف والظروف والموضوعات .

فبعضهم كلّمه تعالى بوساطة الرؤيا والحلم : « إن يكن فيكم نبي للرب فبالرؤيا أتعرف له في الحلم أخاطبه » وكلّم آخرين بوساطة إلهام داخلي : « فكانت كلمة الرب إليّ قائلاً [1] » أما موسى «ع» فكلّمه تعالى مواجهة : « أما عبدي موسى فليس هكذا ، بل هو أمين في جميع بيتي ، فماً إلى فم أخاطبه وعياناً لا بألغاز [2] » .

وكان الأنبياء والمصطفون على يقين أن اللّه هو المتكلم ، فكانت كلمته تجتاح نفوسهم بقوة وتعبىء إمكاناتهم بشكل عجيب حتى أنهم يعزون مصدرها إلى عمل الروح القدس ، وفي هذا المعنى يقول القديس بطرس: « لم تأت النبوءات قط عن إرادة بشر بل إنما تكلم رجال اللّه القديسون محمولين بإلهام من الروح القدس » .

والوحي الإلهي يتضمن دائماً موضوعاً دينياً ، فاللّه يعلن عن سر تدبيره وما يريده للبشرية ، ويحدد للإنسان طريق خلاصه ، كما يعلن عن ذاته ليتمكن الإنسان من الالتقاء به .

ويعلن اللّه عن وجوده من خلال الكون ، ويعلن أيضاً عن ذاته بنوع خاص من خلال مخلوقه الإنسان ، فأعماله تبين من هو : إنه الإله الرهيب الديّان والإله الرحيم المعزي ، ومعرفته هذه تُملي على البشر موقفهم منه ، وهو موقف إيمان وثقة وموقف رهبة ومحبة .

وقد امتاز مختارو اللّه بالتنفيذ الأمين والمطلق لما كشفه تعالى لهم وأمرهم به وقد

---

(١) أرميا

(٢) سفر العدد : ١٢/ ٤

قاموا بمهمتهم بإلهام من الروح القدس ، وفي عملهم لم يكونوا مجرد أدوات صماء غير مسؤولة .. ولم يقفوا منه موقف المحايد المتفرج .. إنما كانوا أشخاصاً أحراراً اختارهم اللّه لتلقي الوحي الإلهي وتقديمه للأجيال التالية ، فكانوا في الفكر والقول والفعل يعملون بتحريك من الروح القدس وبعون منه ، إذ كان ينير عقولهم ويقوي إرادتهم ويستخدم مَلكاتهم الفكرية والأدبية في التعبير عن الوحي الإلهي ، ويسدد خطاهم ساعة يحل أجل المسيرة الملهمة .

والحسين سبط الرسول وسيد شباب أهل الجنة وأبو الشهداء في عمر البشرية.. كان واحداً من أولئك الذين خصَّهم تعالى بذلك الإلهام الداخلي ، وأنفذهم بوحي منه لمعالجة موضوع ديني ، وقيادة بشر ضلوا عن طريق خلاصهم ، فتقدم بثبات إلى حيث مصرعه وموطن استشهاده .

ومن مقتضى هذه القدرات التي اختص بها تعالى مختاريه..نجد بأن المؤيِّد الذي تلفَّظ المسيح باسمه ، هو اسم يُستدل به على كائن بشري مختار يختلف بتركيبه ورتبته كلية عن خاصية اسم الروح القدس المستدل به على ذات اللّه العليا ، وبهذا ينتفي التفسير القاصر الذي يدعي بأن المؤيِّد هو الروح القدس ، لأنه من غير الممكن ولا المعقول أن يقصد المسيح بقولته بأنه سيرسل من لدنه ، ربه الأعلى ، كذلك من غير المنطقي أيضاً أن يكون قصده «ع» إرسال رسول آخر مثله ، لكن الاستدلال الأقرب إلى التفسير المنطقي المعلن عن عقلانية .. هو قدرته «ع» على إرسال من هو أدنى رتبة منه كنبي .

فلفظتا « الذي أرسله » و « الذي أرسلني » ، معطوفتان على لفظة المؤيِّد ، المعطوفة بدورها على عبارتي « هو يشهد لي » و « أرشدكم إلى الحق كله » ، لتعرِّف بوضوح وتحدد مهمة المؤيِّد الرئيسية والوحيدة ، والمتلخصة في تأييد شهادة عيسى «ع» والإرشاد إلى الحق كله الذي بشر به ، وهذا التأييد لا يمكن إلا أن يكون من ذات لحمة الهدف الذي يرمي إليه ، فالشهادة لا تؤيد إلا بشهادة مماثلة ، ولا تؤيد البطولة إلا بالبطولة ، وعلى هذا المقياس تتجانس الأمور ذات الخصائص الواحدة لتصل إلى ما ترمي إليه وما تتطلع لتحقيقه من أهداف شمولية .

فإذا ما قرنَّا كل ما سبق من عبارات بعبارة الحسين «ع» « فمن قبلني بقبول الحق فاللّه أولى بالحق ».. فإن تساؤلاً عقلانياً تدعمه قناعة بدهية تلج في خاطر الدلالات المنطقية ، ليخرج منه أكثر شفافية ونصوعاً طارحاً هذا السؤال : هل كان عيسى «ع» يقصد الحسين «ع» في حديثه عن المؤيِّد ؟

وقبل أن يستدل عقلنا البشري ووحينا الداخلي على منطقية جواب لهذا السؤال يجدر بنا أن نمضي في تفسير لمدلول قولة عيسى حول رسالة المؤيِّد ، لعلنا نصل في خاتمة هذه الرحلة مع المنطق والعقل إلى فهم باطني ووجداني وعقلي واضح لماهية المؤيِّد ..

فقد قال عيسى : « ومتى جاء أخزى العالم على الخطيئة والبر والحكم » ..

فعلى الخطيئة .. فلأن الخطيئة ستسود وتصبح من المسلَّمات في وجدان الكائن البشري الفرد ، وفي سويداء الحاكم على أمور هذا الفرد ، بحيث تصبح هذه الخطيئة من الفداحة بمكان في زمن مجيء المؤيِّد حيث يمحوها بشهادة مدوِّية .

وعلى البر .. فلأن البر لا يُعمل به ، والحق تحيد عنه النفوس ، ويُلزم الناس طاعة الشيطان ويتركون طاعة الرحمن ، ويُظهرون الفساد ، ويُحلون حرام اللّه ويحرِّمون حلاله .

وعلى الحكم .. فلأن الحكم يكاد أن ينجح في اقتلاع جذور دين اللّه الواحد على زمن الرسالة الإلهية الثالثة ولا بد من إعادة هذه الجذور إلى تربتها الإلهية .

ولنتبصر في كلمة الحسين الشهيد التي هتف بها ضد هذا الاقتلاع : « يأبى اللّه لنا ذلك ورسوله والمؤمنون » .. لتزداد القناعات قرباً من أذهاننا وتغلغلاً في دواخل صدورنا .

ولئن جرت لفظة الحق ومؤيِّده على لسان عيسى «ع» .. فذلك أدعى لنا كي نتبصر ملياً في « قبول الحق » ذلك التعبير الذي جرى أيضاً على لسان الحسين «ع» فالحق للّه تعالى وعزته أولى به ، وقد حملت لواءه الرسالات السماوية الثلاث وكان

القاسم المشترك الأوحد الذي دعت إليه وأنزلت لأجله.

وفي هذا السر تكمن كلمة الشهيد الحسين « اللّه أولى بالحق » فهو لم يقل : محمد ، أو عيسى ، أو موسى .. ولا عنى الإسلام ، أو المسيحية ، أو اليهودية .. بل قال : «اللّه» ، لأنه تعالى باعث الرسالات من لدنه ، ومنظم قولة الحق وأفعاله ، ومختار حَمَلته وشهدائه .

وما قال «ع» عبارته هذه إلا بعد أن رأى بعينه وسمع بأذنه ولمس لمس اليد ، كيف أن الحق لا يُعمل به والباطل لا يُتناهى عنه .

وقد دعا «ع» إلى الحق الإلهي بالحسنى والقدوة المنزهة ، فقال : « أدعوكم إلى إحياء معالم الحق ، فإن تجيبوا تهتدوا سبل الرشاد » .

والمسيح «ع» حينما حدث تلاميذه واعداً إياهم بإرسال « المؤيِّد » ، روح الحق ويعدهم بالشهادة له وإرشادهم إلى الحق لم يكن ليعنيهم هم بذاتهم كتلامذة له .. بل كان القصد مجازياً من خلالهم على سُنَّة الأمثال التي ألقى بها عظاته وتعاليمه ، وحينما حثَّهم كان يحدث البشرية من خلفهم وكل المضطهدين من بعدهم ، فعليه السلام جاء مبشراً وهادياً لمجموع الجنس البشري وليس فحسب لأثني عشر تلميذاً عمَّر أكبرهم حتى الثمانين .

وفي زيارته «ع» لكربلاء حيث مصارع الحسين.. تنبأ باستشهاد هذا الشهيد ولعن قاتليه وطالب من يدرك أيامه بالقتال معه ، وقبل موته وعد بإرسال مؤيِّد يشهد له بين البشر ، وذلك كي تبلغ رغبة العلي القدير مرقاتها السرمدية وتتم نبوءات الأنبياء وتأخذ الرسالات السماوية الثلاث مستقرها في الضمائر ، وتتمدد هيولية الدين الكلي الواحد في ذرات الصدور وحنايا الأضلع بشكل نهائي ، فلا تقوى كل الضلالات على زحزحتها .

وهذا ما اثبتته الشواهد الزمنية والبشرية وما رسخه تكرار الدهور ، فتسامت الرسالات فوق قوى الشر وتعاظمت العقائد الدينية في النفوس واستقرت في الحنايا فلم يعد سهلاً اجتثاثها .

ونظرة واحدة إلى الملايين المؤمنة من البشر التي تؤم قبر الحسين ومزارات آل البيت في كل مكان .. لكافية كي تدعم الرأي بتعاظم قوة العقيدة وتمكنها من النفوس ، ورغبة المؤمنين في أن يظل لقتل الحسين حرارة متأججة لا تبرد في قلوبهم أبداً ، طالما هم مؤمنون وصراطهم مستقيم .

فكيف سيكون ما كان لولا الذي كان من استشهاد سيد شباب أهل الجنة ، وإزهاق الباطل الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله : « إن الباطل كان زهوقاً » ؟

وكيف كان وسيكون من خلق هذا الشهيد العظيم لولا اختيار العناية الإلهية له ، ولولا تعهد جده النبي الأكرم بتنشئته تنشئة نبوية ؟ فارتقت إنسانيته إلى حيث نبوة الجد « أنا من حسين » وهبطت نبوة الجد إلى حيث إنسانيته « حسين مني » .

ولا عجب في ذلك فالخصائص الوراثية تنتقل من الجد إلى الأب والأم فالحفيد ، والحسين في هذا ورث خصائص جده من حيث الغيرة على الدين والاستعداد لبذل كل ما هو غال في سبيله .

وعبارتا الرسول « حسين مني وأنا من حسين » و « أللّهم أحبه فإني أحبه » فيهما شهادة وتكليف .

شهادة .. بأن النبي « ص» قد عهد براية الإسلام الذي أنزل عليه ، إلى سبطه الحسين الذي هو بضعة منه .

وتكليف .. للابن الذي أحبه وطلب من ربه أن يحبه ، بالاستشهاد صوناً للعقيدة ودفاعاً عن روح الدين من العبث والاستهتار اللذين كادا يؤديان إلى اضمحلاله ، فكانت هذه الشهادة وهذا التكليف هما العنوان الضخم والراموز الخالد لنهضة الابن المجدد في سبيل عقيدة الجد المبلّغ ، حتى استحق عن جدارة مغزى قول : « الإسلام بدؤه محمدي وبقاؤه حسيني » .

فالحسين البضعة الرسولية قام بمهمة لا تقل خطراً وأهمية عن مهمة جده ، فأبقى على الإسلام كما بشّر به جده الكريم ، وأودع في صدور المسلمين وديعة ثمينة

تنبههم في نومهم وقعودهم بوجوب الحفاظ عليها كأندر وأغلى ما يملكون .

فالعقيدة ككل علم ..عامل يزدوج بالحياة ، فينفعل بها ليحيا ، ويمضي معها لترقى ، فإذا لم يتفاعلا .. ظلت الحياة فاجرة حمقاء ، وظلت العقيدة لهباً قُلب فوقه مكيال فانطفأ نوره وحُجبت حرارته ، بدل أن تكون منارة ساطعة يهدي ضياء نورها عميَ البصائر والمهج والحنايا .

وتظل اجتهادات البشر ضئيلة الحظ من الجدوى والفاعلية إذا لم تضئها التماعات من الحلم السماوي ، وتظل الحقيقة في منأى عن تهمة مغالطة نفسها وتسمو بعلوها فوق شبهات الوساطة والاقتراع ، وحسب معلنها ومتبنيها ..حسبه اللّه ملهماً وغمر سناها هادياً ، وصدق كلمها مجرى للسانه ، وهيولية جوهرها وعظمته سدىً ولحمةً .. موئلاً لقلبه وملاذاً لضميره اللهوف إلى السماويات وإلى رضوان الخالق ومباركته.

نعم .. إنها الحقيقة الكاملة مانحة السعادة الصادقة للواصل إلى أعتاب ملكوتها ، ملكوت اللّه تعالى ، الحقيقة غير المرئية للأبصار ، والحقيقة المرئية للبصيرة والعمق الوجداني المؤمن .

فهل نبت الحسين غرسةً في حديقة النبوة والشهادة بلا تربة ممهدة ؟ وهل ثار وتحرك بلا سر علوي .. وهل نجح ذلك النجاح الساحق اعتماداً على تخطيط بشري أم أن ما كان ، كان واجباً فرض عليه تأديته داعياً إلى سبيل اللّه بينما جمْعُ الناس على الباطل إلبٌ ؟

لنقرأ :

« إن اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل اللّه ، فيَقتلون ويُقتلون ، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من اللّه ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم [1]» .

---

(١) سورة التوبة .

وهكذا كان الحسين الشهيد أقرب الشهداء شبهاً بالمسيح ، وكانت شهادته أقرب الشهادات إلى جوهر المسيحية ، وبها اختتمت الشهادات الكبيرة ذات الفاعلية المحوِّلة في مسار الأديان وعقائد البشر .

فهل كان المسيح يتنبأ بالحسين .. حينما تحدث عن مؤيِّد ؟

لنتأمل .

***

كربلاء
الأرض المقدسة

همس النبي « ص» في أذن ريحانته الحسين «ع» حينما كان غافياً فوق قبره في الليلة التي أعلن بها ثورته على يزيد ، وقال : « **حبيبي يا حسين كأني أراك عن قريب مرملاً بدمائك مذبوحاً بأرض كربلاء** » .

ولما وصل سيد الشهداء بركبه إلى أرض كربلاء سأل عن اسم الأرض التي يقف عليها .. فقيل له : تُعرف بكربلاء ، فقال : « اللّهم أعوذ بك من الكرب والبلاء [1] » .

وقيل عنها قديماً « كور بابل » ثم اختُصرت إلى اسم كربلاء تسهيلاً للفظها .

وبابل كما جاءت في نبوءة أشعيا هي « صحراء البحر » وكانت في سهل متسع يقطعه الفرات[2] ، وفيها غدران كثيرة حتى ليظن الناظر إليها بأنها صحراء طافية فوق بحر ، فأطلق عليها هذا الاسم .

وفي هذا التفسير شيء من المعقول ، إذ أن كربلاء منطقة صحراوية حارة ، وفيها الفرات وبعض الغدران ، وتسمية صحراء البحر فيها شبه كبير بتسمية «كور بابل » فالكور معناه في العربية هو ذلك الجهاز الذي ينفخ الهواء فوق جمر الحداد لإحماء الحديد ، وبابل هي « الصحراء الحارة » فصار اللفظ كور بابل يعني لهب صحراء

---

(١) راجع البحار ج١٠ ص ١٨٨

(٢) سفر أيوب ص ٨٧٠ فصل ٢١ نبوءة أشعيا .

بابل كلهب كور الحداد .

وكربلاء تقع على بعد عدة كيلو مترات من مشرعة الفرات شمال غرب الكوفة[1] وكانت في عهد البابليين معبداً ، والاسم محرف من كلمتي « كرب » بمعنى معبد أو مصلى أو حرم و« أبلا » بمعنى إله باللغة الآرامية ، فيكون معنى الكلمة «حرم الإله » .

وفي تعوذ الحسين من الكرب والبلاء مرادف لفظي آخر جاء متطابقاً إلى حد كبير مع لفظة كربلاء موصولة ، فالكرب هو الشدة المصحوبة بالألم ، والبلاء هو النهاية وبلوة الموت .

ولو نسبنا اللفظة إلى مرادف آخر ، لوجدناها تصح بلفظة « كر ـ وبلاء » ومعنى « الكر» هنا هو الهجوم في المعارك ، أما « الفر» فهوالتقهقر ، ويُقال في وصف معركة تجمع المعنيين النقيضين : « قتال بين كر وفر » أي بين إقدام وهروب .

أما لفظة بلاء فمعناها متمم لمعنى لفظة كر ، وبلاء هنا بعد لفظة كر غير تلك البلاء بعد لفظة كرب ، فاللفظتان إذا عُطفتا على ما قبلهما فسَّرتا معنى ما سبقهما ، فالبلاء بعد كرب تعني الشدة والموت ، وبعد الكر تعني المضاء والنجاح في القتال والهجوم ، وهكذا يقال في وصف أحد الشجعان : « أبلى بلاءً حسناً » أي قاتل بشكل جيد وماض .

وعلى هذا المقياس تُفسر لفظة كر ـ بلاء بمعنى : إقدام وبسالة ، وفي مجلد « سفر أيوب » نقرأ هذا الوصف لنبوءة[2] :

« عند نهر الفرات في بابل قال الرب : هيئوا المجنَّ والمجنب وازحفوا للقتال ، وشدوا على الخيل واركبوا أيها الفرسان وانتصبوا بخوذكم ، اصقلوا الرماح والبسوا

---

(١) تقع كربلاء على خط الطول ٤٣ درجة و ٥٥ دقيقة شرقي غرينتش ، وعلى خط العرض ٣٤ درجة و٤٥ دقيقة شمال خط الاستواء في المنطقة المعتدلة الشمالية .

(٢) نبوءة إرميا : ٤٦ / ٣ ـ ٧ ـ ١٠ ص ٤٨٧ ـ ٤٨٨

الدروع ، ما بالي رأيتهم قد فشلوا ونكصوا إلى الوراء ؟ قد كسر جبابرتهم وانهزموا انهزاماً ولم يلتفتوا ، هول من كل جهة يقول الرب ، الخفيف لا يهرب ، والجبار لا يفلت ، في الشمال بجانب نهر الفرات عثروا وسقطوا ، في هذا اليوم يأكل السيف ويشبع ويُروى من دمائهم ، لأن للسيد رب الجنود مذبحة في أرض الشمال عند نهر الفرات » .

هذه الرؤيا رآها إرميا ولا نجد لها تفسيراً معقولاً ، وقد ثبتناها هنا لورود كلمات فيها مثل : بابل ، مذبحة عند نهر الفرات ، ولا ندعي إمكانية تحليل هذه الرؤيا ، لأنها ليست موقفا أو حدثاً حتى نجمع أجزاءها ونركّبها ونخرج منها برأي ما ، ولكنها رؤيا تقع في خانة ما يحلم الإنسان به وما يتراءى له في نومه أو يقظته ، وهي تدخل في باب الرؤى لأفراد غير عاديين مثل إرميا ، ولا بد أنّا واجدون بها قبساً من واقع تحقق بشكل أو بآخر ، قريب الشبه بها غير بعيد عن إمكانية كينونته كما تراءى في زمن من الأزمان .

وفي الرؤى أحداث تاريخية وقعت بعدها بسنين ، بل وقرون ، وبها أسماء لم تزل إلى يومنا هذا موجودة ، مثل : النيل ، الفرات ، بحر القلزم ، شيلو ، أريحا ، دمشق ، أرض الكلدانيين ، آشور ، سدوم وعموره ، صيدا ، الناصرة ، وقد لا تكون هذه الرؤيا ـ على هذا القياس ـ ببعيدة عما حدث لاحقاً فوق أرض بابل كربلاء بجانب نهر الفرات من مذابح وتنكيل .

وتظل بقعة كربلاء المقدسة هي الرمز الأسمى لملحمة عقيدة الإسلام الكبرى ، وهي لم تكن كذلك قبل أن تُروى بدماء آل البيت الزكية .

وقد تعددت الأقوال في موطن رأس الحسين الشريف ، وهل هو في كربلاء مدفون مع الجسد الطاهر أم في مكان آخر ؟

فقد ذُكر أن رأس الحسين أعيد إلى بدنه في كربلاء[1] ، وفي قول آخر أن الرأس

---

(١) انظر رسائل المرتضى ص ١٨٩

رد إلى الجسد في العشرين من صفر[١] ، وفي رواية أخرى إن إعادة الرأس تمت بعد أربعين يوماً[٢] .

وقد أسند عدد كبير من المؤرخين عودة رأس الحسين إلى جسده ما بين العشرين والأربعين يوماً بعد المصرع[٣] ، وحدثت روايات أخرى[٤] بأنه دفن بدمشق عند باب الفراديس بعد أن وُجد بخزانة يزيد بعد موته ، وفي إحدى الروايات[٥] أن الرأس أرسل إلى عمرو بن سعيد والي يزيد على المدينة فدفنه بالبقيع بجوار قبر أمه فاطمة الزهراء ، وقيل أيضاً إنه طيف به حتى وصل إلى عسقلان فدفن بها ، ولما استولى عليها الإفرنج في الحروب الصليبية.. رُد الرأس إلى القاهرة أواخر العصر الفاطمي ودُفن بالمشهد الحالي المعروف بالمشهد الحسيني قرب خان الخليلي[٦] وقد أكدت هذه الرواية من الثقاة وحدد لها سنة خمسمائة وتسع وأربعين[٧]وفي رواية أخرى أن الرأس دفن بمسجد الرقة على الفرات وأنه أرسل إلى هناك بناءً على أمر يزيد الذي قال : « لأبعثنه إلى آل أبي معيط عن رأس عثمان » ، ولما وصلهم دفنوه في بعض

---

(١) عجائب المخلوقات للقزويني ط بغداد

(٢) الشنبراوي

(٣) ومن هؤلاء ابن نما الحلي في كتابه مثير الأحزان ، والطبرسي في أعلام الورى ، والفتّال في « روضة الواعظين » وابن شهراشوب في المناقب ، وابن حجر في شرح همزية البوصيري ، وابو الريحان البيروني ، والمناوي .

(٤) ابن أبي الدنيا

(٥) رواية محمد بن سعد

(٦) قيل في بعض المصادر إن المشهد المشهور في مصر بني بعد سنة ٥٠٠ هـ ويدعى بـ « تاج الحسين » ويقال إن الرأس الشريف أنزل أول الأمر إلى حديقة قصر المعز لدين اللّه الفاطمي الذي بناه جوهر الصقلي مقابل جامع الأزهر ، ثم حُمل إلى السرداب بمقر الشرق ، وبعدها دُفن عند قبة الديلم بباب دهليز الخدمة وبقي مدفوناً في قصر الزمرد حتى أنشئت له قبة هي المشهد الحالي .

(٧) السائح الهروي .

دورهم ، ولكن أقرب الروايات إلى الإمكانية هي تلك القائلة بأن زين العابدين «ع» طلب من يزيد الرؤوس .. فلم يمانع ، ودفع له رأس الحسين ورؤوس آل بيته وصحبه ، فعاد بها إلى مصارعها حيث دفنها مع أجسادها[1] .

وأياً كان مدفن الرأس فإن لهذه التباينات حكمة ربانية هدفت إلى وضع الحسين وأهل بيته موضع الإجلال والتعظيم في أكثر من مكان ، وحتى تكون واجبات زيارة هذه الأماكن الشريفة فريضةً على كل مؤمن ويكون هذا التباين وحياً يحضره الإنسان في وجدانه سواء قرب أم بعد من القبر أو مدفن الرأس ، وفي هذا تجلة وحكمة عليا نقف عن الخوض في ماهيتها إجلالاً وتكريماً لها .

ولعل أبلغ تصوير لهذا المغزى ، أبيات لأبي بكر الآلوسي يقول فيها :

لا تطلبوا رأس الحسين بشرق أرض أو بغرب

ودعوا الجميع وعرِّجوا نحوي فمشهده بقلبي

ولدعبل في مرثيته العينية للحسين أبيات بنفس المعنى يقول فيها :

رأس ابن بنت محمد ووصيه يا للرجال على قناة يرفع

والمسلمون بمنظر وبمسمع لا جازع من ذا ولا متخشع

أيقظت أجفاناً وكنت لها كرى وأنمت عيناً لم تكن بك تهجع

كحلت بمنظرك العيون عماية وأصم نعيك كل أذن تسمع

ما روضة إلا تمنت أنها لك مضجع ولخط قبرك موضع

وكربلاء جارة نينوى ظلت أرضاً بلقعاً خواء إلى أن قُدر لها استقبال ركب الحسين ، فتقدست من دماء آل البيت .

---

(١) كانت العرب على عادة .. إذا قتلوا من ليس منهم سلموا رأسه وبدنه إلى أهله ، وقد فعل الحجاج هكذا بابن الزبير إذ سلمه لأهله بعد قتله .

وقيل إنه عليه السلام اشترى أربعة أميال من جهات قبره الشريف من أهالي نينوى والغاضرية بستين ألف درهم وتصدق بها عليهم ، واشترط أن يرشدوا إلى قبره ويضيفوا من يزوره ثلاثة أيام[1] .

وكان حرم الحسين الذي اشتراه أربعة أميال في أربعة أميال ، فصار حلالاً لولده ومواليه وحراماً على غيرهم .

وفي الحديث عن الصادق «ع» أن أهل نينوى والغاضرية لم يفوا بشرط الحسين بوجوب الإرشاد إلى قبره وإضافة زائريه ثلاثة أيام .

وذُكر أن الماء لما أجري على قبر الحسين «ع» ليُمحى أثره .. جاء أعرابي من بني أسد فجعل يأخذ قبضة قبضة من التراب ويشمها[2] حتى وقع على قبر الحسين فبكى وقال : « بأبي أنت وأمي ما كان أطيبك وأطيب تربتك » وأنشد قائلاً :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه   وطيب تراب القبر دلَّ على القبر

ورغم كل ذلك ظل قبر الحسين ومدفن رأسه محجة يتنسم في أفيائها متعبو الأرض ومضطهدو العروش .

وصارت كربلاء بعد مقتل الحسين وعترة آل البيت وصحبه الأطهار.. الأرض ذات الثرى الطاهر والذرات القدسية بعد أن كانت صحراء خواء ترتع في فلاتها العسلان والذئاب .

صارت ملجأ للمعذبين المظلومين بعد أن عُذب وظُلم فوق أرضها البررة الأخيار ، فسبحان اللّه كيف يجعل من أرض العذاب والظلم ملاذاً للمعذبين والمظلومين !

---

(١) راجع كشكول الشيخ البهائي ط القاهرة نقلاً عن كتاب الزيارات لمحمد بن داود القمي ، وحكى عنه ابن طاووس في مصباح الزائر .

(٢) من كتاب البداية والنهاية لأبي الفداء .

كـــأن ضـــريحك زهر الربيع ... مـــر عليـــه نســـيم الخـــريف
أنشـــرك مـــا حـــمل الزائرون ... أم المسك خـــالط ترب الطفـــوف[1]

ولعل أبلغ وصف لكربلاء ذلك الذي قالته الحوراء زينب الكبرى ترثي به أخاها الشهيد وإخوته وصحبه بما يتناسب والمكانة الجليلة التي صارت إليها أرض الطف بما احتوته من أجساد ورؤوس طاهرة رفعتها إلى مرتبة من القداسة لم تبلغها أعتاب أخرى[2] ، فقالت :

على الطف السـلام وسـاكنيـه ... وروح اللّه في تلك القبـــاب
نفـوس قـدست في الأرض قـدسـاً ... وقـد خلقت من النطف العـذاب
مـضاجع فـتيـة عـبدوا فناموا ... هجـوداً في الفـدافـد والروابي
علتـهم في مـضاجـعـهم كـعـاب ... بأردان منعـــمـــة رطاب
وصـيَّـرت القـبـور لهم قـصـوراً ... مناخـاً ذات أفنيـة رحـاب[3]

***

---

(١) أبيات للمهيار الديلمي

(٢) تشرفت بزيارة كربلاء المقدسة عام ١٩٧٤ ووقفت خاشعاً أقرأ قول الرسول الكريم المنقوش على قفص ضريح سيد الشهداء «ع» وقد جاء فيه : بورك لولدي الحسين في ثلاث : ولده وقبره ومشهده ، ألا وأن بين قبري وقبر الحسين روضة من رياض الجنة ، ألا وأن كربلاء روض من رياض الجنة ، ألا وأن قبر الحسين على مترعة من ترع الجنة ، الشفاء في تربته والإجابة تحت قبته والأئمة من ذريته .

(٣) من أعذب وأرق المدائح التي قيلت في رثاء الشهيد «ع» وصحبه ، إنها انسيابات نفس حنون لأخت مفجوعة بذبح أخيها ، هي التي شهدت أحزانه وعايشتها معاينة معاينة ، وهي التي سفحت آلامها ودموعها فوق جسد أخيها المفصول الرأس وقدمته قرباناً للّه الذي شاء له هذا الاستشهاد .



الفصل الخامس

خفق الوجدان

سمو الشهادة في علم الجمال

شاعرية النفس التي تتعلق بعالم المثل وكمال الأخلاق هي التي تبحث عما في هذا العالم من جماليات تزحم بعضها بعضاً في منولوج منوع من المعاني والصور الخلابة ، لتترجم ما يحتويه من رموز غيبية ، وخَلْب عقلي ، ورواء نفسي .

وهذا العالم من المثل والأخلاق ، تقلص متلبساً شخصية ، ووزع سناه كما توزع بلّورة صافية ضوء الشمس المنعكس عليها .

هذه الشخصية التي جسدت هذا العالم هي شخصية الحسين «ع» بما احتضنته من إعجاز اللّه في خلقه وفي أفكارهم وأفعالهم ، فكانت خلقتهم وخلقهم ومواقفهم صورة أمينة لما استودعه تعالى فيهم من سر هذا الإعجاز .

هي شخصية غزت القلوب واقتحمت النفوس واستوطنت الحنايا بمقدار ما ظهر فيها من شعاع الخالق وما حوّطتها به نعمته واختياره .

وهي قدوة التقت فيها شعلة النبوة المقدسة بالمثالية البشرية التي ما تركت قلباً إلا ومسته ولا فكراً إلا وألهبته .

ومن آيات القلب والفكر أن يعشقا الجمال ويتحديا المنافع الأرضية ويؤثرا مواقف البطولة على إيثار السلامة .

وإذا تجانست مواقف القلوب والأفكار على صعيد واحد .. جعلت من أصحابها

شعراء وأدباء يرسمون بالكلمات عالماً من الجماليات لا يحد ولا تلحق بإيحاءاته إلى الأفئدة والعقول أشد الأخيلة جموحاً .

وفي هتاف القلوب ورسم الأفكار ، صدى لما استعر فيها من أصوات رجافة ، انبعثت لها من أعماق الدهور حية تنثال إلى مواطن الجمال فيها ، فتمسها وتكهربها وتخط على صفحة أعماقها الصافية خط حنان واستذكار .

فشهيد كالحسين انتهت إليه كل سمات العظمة ، قمين بأن تستوحيه العقول والأفئدة إلهاماً دواماً ، امتدت أنوار قدسيته أجيالاً وأعقاباً وما زالت تمتد إلى ما وراء الأزل متممة حكمة الإله في سر اختياره وإبداعه « ويأبى اللّه إلا أن يتم نوره » .

فالحب لا يتم كماله إلا إذا صاحبه الإخلاص والوحدانية حتى يغدو المحب متيماً بحبيبه ، يستعذب من أجله كل هوان وألم .

وقد ذهب شاعر[1] مذهب العاشق المتيم بالحسين وأهله حتى أسقمه التفكير بحبيبه ، فصار النسيم لديه سموماً والكرى هاجراً أبدياً ، فقال في هذا المعنى يرثي الشهيد :

أصبحت ملقى في الفراش سقيماً	أجد النسيم من السقام سموما
ماء من العبرات حرَّى أرضه	لو كان من مطر لكان هزيما
وبلابل لو أنهن مآكل	لم تخطىء الغسلين والزقوما
وكرىً يروعني سرى لو أنه	ظل لكان الحر واليحموما
مرت بقلبي ذكريات بني الهدى	فنسيت منها الروح والتهويما
ونظرت سبط محمد في كربلا	فرداً يعاني حزنه المكظوما

(١) ديك الجن .. وكان لا يُرى إلا هائماً بعشق سيرة أهل البيت ، لا يتحرك لسانه إلا لمديحهم وإعلاء مناقبهم .. ويكتفي من الطعام ببلغة تقيم أوده حيث كان يردد على الدوام : حبكم دائي ودوائي .

تنحـو أضـالعـه سـيـوف أمـيـة　　فتراهم الـصـمصوم فالصـمصوما

فالجسم أضحى في الصعيد موزعاً　　والرأس أمسى في الصعاد كريما

وفي إحدى مرثياته عن الحسين يقول :

ياعين في كربلا مقابر قد　　تركن قلبي مقابر الكرب

مقابر تحتها منابر من　　علم وحلم ومنظرٍ عجب

من البهاليل آل فاطمة　　أهل المعالي السادة النجب

وفي رثاء الحسين قيل الكثير من الأشعار والأقوال تضيق بها الأسفار لو جمعت[1] ، وكانت هذه الأشعار إذا ما تطرقت إلى وصف ملحمة الطف .. تنحو باللائمة على أنفس أصحابها ، وتصور شعورهم حيال ذكراها ، وتستمطر اللعنات على مرتكبيها .

ففي سماء حب أهل البيت انطلق كالشهاب الوامض ، نجم شاعر[2] فحل تسامعت به العربية .. مدَّاح في فضائل أنجم هاشم ، طعَّان في أعدائهم ، هجَّاء في الملوك ، وكان يقول : « مكثت نحو الستين سنة ليس من يوم ذر شارقه إلا وأنا أقول فيه شعراً » .

وكان يرتجل أشعاراً مقزعة ، فيُسأل عن مستحقيها .. فيقول : « لم يستحقها أحد بعينه بعد ولسوف يستحقها كثيرون » .

---

(١) راجع كتاب « المدخل إلى الشعر الحسيني » لسماحة الشيخ المحقق محمد صادق الكرباسي ـ دار المعارف الحسينية ـ ج١ ـ طبعة لندن عام ٢٠٠٠ وهو كتاب جامع لكل ما قيل من أشعار عن الحسين «ع» قديمه وحديثه ، والكتاب جهد لا يماثل ويجب قراءته للإحاطة بكل النفثات الفكرية التي صنعت عالماً من الجماليات الهيولية المستمدة من عظمة كربلاء ومواقف بطلها وأنوارها القدسية المتجددة على مر القرون والأجيال ، وقد استعرضنا ملامح كتاب المدخل في صفحات تالية .

(٢) هو دعبل بن علي الخزاعي وقد أوقف موهبته الشعرية على الإخلاص والولاء لأهل البيت .

ففي إحدى مراثيه للحسين يقول :

إن كنت محزوناً فما لك ترقد ... هلا بكيت لمن بكاه محمد

هلا بكيت على الحسين وأهله ... إن البكاء لمثلهم قد يحمد

لتضعضع الإسلام يوم مصابه ... فالجود يبكي فقده والسؤدد

فلقد بكته في السماء ملائك ... زهر كرام راكعون وسجد

إلى أن يقول :

هذا حسين بالسيوف مبضع ... متلطخ بدمائه مستشهد

عار بلا ثوب صريع في الثرى ... بين الحوافر والسنابك يقصد

يا جَد من ثكلي وطول مصيبتي ... ولما أعافيه أقوم وأقعد

ولدعبل قصيدة عظيمة في رثاء الحسين ومدح آل البيت ، مكونة من مائة واثني وعشرين بيتاً ، قال عنها أبو الفرج في الأغاني :

قصيدة دعبل « مدارس آيات خلت .. إلخ » من أحسن الشعر وفاخر المدائح المقولة في أهل البيت عليهم السلام ، قصد بها علي بن موسى الرضا «ع» بخراسان قال : دخلت على علي بن موسى فقال : أنشدني .. فأنشدته « مدارس آيات » حتى انتهيت إلى قولي :

إذا وتروا مدوا إلى واتريهم ... أكفاً عن الأوتار منقبضات

فبكى حتى أغمي عليه ، و أومأ إليَّ الخادم كان على رأسه : أن اسكت ، فسكتُّ فمكث ساعة ثم قال لي : أعد .. فأعدت حتى انتهيت إلى هذا البيت أيضاً فأصابه مثل الذي أصابه في المرة الأولى ، وأومأ الخادم إلي : أن اسكت ، فسكت ، وهكذا ثلاث مرات ، فقال لي : « أحسنت » ثلاث مرات ، ثم أمر لي بعشرة آلاف درهم مما ضُرب باسمه ولم تكن دُفعت إلى أحد قبل ، وأمر لي من منزله بحلي كثير أخرجه إليَّ الخادم ، فقدمت إلى العراق فبعت كل درهم منها بعشرة اشتراها مني الشيعة ،

فحصل لي مائة ألف درهم ، فكان أول مال اعتقدته .

مـــــدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مـقـفل العـرصـات

لآل رســول اللَّه بالخـيف من منى وبالبـيت والتـعـريف والجـمـرات

ديار علي والحـسين وجـعـفـر وحـمـزة والسـجـاد ذي الثـفنات

ديار لعــبــداللَّه والفـضل صنوه نجي رســــول اللَّه في الخلوات

وسـبطي رسـول اللَّه وابنيْ وصيِّـه ووارث علم اللَّه والحـــسنات

إلى أن يقول :

قـبور بجنب النهر من أرض كـربلا مـعـرسـهم فـيـهـا بشط فـرات

توفـوا عطاشى بالفـرات فليـتني توفـيت فـيـهم قـبل حين وفـاتي

إلى اللَّه أشكو لوعــة عند ذكـرهم سـقـتني بكأس الثكل والفظعـات

حتى يصل إلى الأبيات المؤثرة الضاجة بالتفجع التي أبكت علي بن موسى الرضا «ع» فيقول :

مـــلامك في آل النبي فـــإنهم أحـبـاي مـا دامـوا وأهل ثقـاتي

بنفـسي أنتم من كـهـول وفـتـيـة لـفك عـناة أو لحـــــمل ديات

فـيـا عين بكيـهم وجـودي بعـبـرة فـقـد آن للتـسكاب والهـمـلات

ألـم تراني من ثلاثين حـــجـــة أروح وأغـــدو دائم الحــســـرات

ديار رسـول اللَّه أصـبـحن بلقـعـاً وآل زياد تسكن الحـــجــــرات

وآل رســول اللَّه تدمى نحـــورهم وآل زيـاد آمـنـو الـســـــربـات

وآل رســول اللَّه تـسـبى حـريمهم وآل زياد ربَّـة الحـــجـــــلات

إذا وتروا مــــدوا إلى واتريـهـم أكــفـاً عن الأوتار منقـبـضـات

وإذا كان عاشقو الجمال وكارهو القبح قد جعلوا همهم رثاء الحسين والتفجع على صفوة آل البيت فيما أقبل من أيام وسنين بعد الفاجعة التي شهدتها كربلاء .. فإن شاعراً [1] جريئاً كان قد وقف موقفاً متفاعلاً مع مصاب آل البيت ، حينما أدخل ركب السبي والرؤوس على يزيد ، وكان حاضراً وقتها حيث هاله ما رآى فأنشد ملتاعاً :

لهام بجنب الطف أدنى قرابة　　من ابن زياد العبد ذي الحسب الوغل

سمية أمسى نسلها عدد الحصى　　وبنت رسول اللّه ليست بذي نسل

فما كان من يزيد إلا أن ضربه في صدره وقال : اسكت ، وفي رواية أنه أسرَّ إليه وقال : سبحان اللّه في هذا الموضع ما يسعك السكوت ؟

ومن دلالات جرأته أنه لما وُلِّي أخوه مروان الخلافة ـ وكان يلقب خيط باطل ـ أن انشده هذ البيت :

لحا اللّه قوماً أمَّروا خيط باطل　　على الناس يعطي ما يشاء ويمنع

والنفوس النزاعة إلى مثوى الحسين تطلب السكينة والسلوى إنما تتمثل في نزوعها آيات الحب والجمال ورضى القلب ، وقد قال الإمام الصادق «ع» لأبي عبدالله جعفر بن عفان الطائي :

« ما من أحد قال في الحسين شعراً فبكى وأبكى به..إلا أوجب اللّه تعالى له الجنة وغفر له » .

وكان الشاعر ابن عفان النزَّاع إلى قدسية كربلاء ينشد شعراً في مجلس الإمام الصادق «ع» عن الحسين أبكى منه الجميع ، حينما قال له الإمام :

« يا جعفر واللّه لقد شهدت ملائكة اللّه المقربين ههنا يسمعون قولك في الحسين

---

(١) هو الشاعر يحيى بن الحكم الذي قال البلاذري عنه في « أنساب الأشراف » بأنه كان والياً لعبد الملك على المدينة .

ولقد بكوا كما بكينا وأكثر » .

ومن شعره في رثاء الحسين :

ألا يا عين فـــابكي ألف عـــام	وزيدي إن قـــدرت على المزيد
إذا ذكـــر الحـــسين فـــلا تملي	وجـودي الدهر بالعـبرات جـودي
فـقـد بكت الحـمـائم من شـجـاها	بكت لأليـفـهـا الفـرد الوحـيـد
بكـين ومـــا درين وأنـت تـدري	فكيف تهم عـينك بالجـمـود
أتنسى سـبط أحـمـد حين يمسي	ويصـبح بين أطبـاق الصـعـيـد

ولشاعر العربية أحمد شوقي بيتان في قصيدته « الحرية الحمراء » يقول فيهما :

في مــهـرجـان الحق أو يوم الدم	مــهج من الشـهـداء لم تتكلم
يبـدو عليـهـا نور نورْ ُدمـائهـا	كـدم الحـسين على هلال محـرم

وفي قصيدة أخرى له يقول فيها :

وأنت إذا مـــا ذكـــرت الحـــسين	تصـــامـت لا جـاهلاً مـوضـعـه
أحب الحـــــسين ولـكـنـني	لســاني عليـه وقلبي مـعـه
حـبـست لســاني عن مـدحـه	حـــذار أمــيـــة أن تقطعـه

وللعلامة الشيخ عبدالله العلايلي قصيدة في ذكرى الحسين تقول أبياتها :

عـرى الدين من أحـلاس شـر وفـتنة	دواهي طغت وازور من وقعها الهدى
فـهـاج إمـام الحق من كل وجـهـة	وهاج إمـام الدين من كل منتـحى
فمـا قرَّ في وجه الظلوم وما التوى	على مـرَّة الظلام أو شـدة الهـوى
أرادوا به ذلاً فـكـان جـــوابه	زئيـراً كليث الغـاب حُفـز للشـرى
سـرى جـاهداً يستندب الروع بغـيـة	كـأن الردى في الذل والعيش في الردى

إلى أن يقول :

فيا كربلا كهف الإباء مجسماً ... ويا كربلا كهف البطولة والعلا
ويا كربلا قد حزت نفسا نبيلة ... وصُيِّرت بعد اليوم رمزاً إلى السما
ويا كربلا قد صرت قبلة كل ذي ... نفس تصاغر دون مبدئها الدنا
ويا كربلا قد حزت مجداً مؤثلاً ... وحزت فخاراً ينقضي دونه المدى
فخار لعمري سطرته ضحية ... فكان لمعنى المجد أعظم مجتلى
فللمسلم الأسمى شعار مقدس ... هما قبلتان للصلاة وللإبا

وللشاعر محمد مهدي الجواهري[1] عينية شهيرة بعنوان « آمنت بالحسين »

يقول في مطلعها :

فداءٌ لمثواك من مضجع ... تنوَّر بالأبلج الأروع
بأعبَقَ من نفحات الجنان ... رَوْحاً ومن مسكها أضوع
ورَعياً ليومك يوم الطفوف ... وسَقياً لأرضك من مصرع
وحزناً عليك بحبْس النفوس ... على نهجك النيِّر المهْيَع
وصوناً لمجدك من أن يُذال ... بما أنت تأباه من مبدع
فيا أيها الوترُ في الخالدين ... فذّاً إلى الآن لم يُشفع
تعاليت من صاعق يلتظي ... فإن تدْجُ داجية تلمع
تأرَّم حقداً على الصاعقات ... لم تُنْء ضيراً ولم تنفع
ولم تبذُر الحب إثر الهشيم ... وقد حرَّقته ولم تزرع
ولم تُخْل أبراجها في السماء ... ولم تأت أيضاً ولم تُدقع
ولم تقطع الشر من جذْمه ... وغلَّ الضمائر لم تَنْزع

---

(١) من عينية الجواهري كُتب منها ١٥ بيتاً على الباب الذهبي في مشهد الحسين «ع» بكربلاء المقدسة .

إلى أن يقول :

شـــمـــمت ثراك فـــهبَّ النســـيم ... نســـــيمُ الكرامــــــة من بلقع

وعَـفـرتُ خـدي بحيث استـراح ... خـــدٌ تفـــرَّى ولـم يضـــرع

وحـــيث سنابك خـــيل الطغـــاة ... جـــالت عليـــه ولم يخـــشع

وطُفت بقـــبـــرك طوْفَ الخـــيـــال ... بصـــومـــعـــة الملهم المبـــدع

وللشاعر عبد العزيز العندليب قصيدة رائعة في ذكرى[1] كربلاء يقول فيها :

مـا زال صوتك في الطفـوف مـدوياً ... وبمســـــمع الدنـيـــا لـه تـرديد

في يوم عـــاشـــوراء إذ أعلنتـــهـــا ... بصـــراحـــة هي دأبك المعـــهـــود

أنا في ســـبـــيل الحق أخـــرج ثائراً ... ورضـــا المهـــيـمن وحـده المقـصـود

وســلاحي الإيمان ليس يخـيـــفني ... لا البطش لا الإرهاب لا التـــهـــديد

تمضي القـــرون ويومك المشـــهـــود ... غض بشـــتى المعطيـــات جـــديد

يوم الطفـــــــوف وإنما تاج العلى ... والعـــز فـــوق جـــبـــينه مـــعـــقـــود

يوم أغـــر من الزمـــان مـــحـــجلٌ ... يومٌ عظيمٌ في الدهور مـــجـــيـــد

إلى أن يقول :

للَّه نهـضـتك العظيـمـة .. إنهـا ... دســـتـــور حق للأنام فـــريد

أعليت شـأن الدين في طيـاتهـا ... ولشـأنك التكريم والتـمـجـيـد

ورســمت للإنســان درب حــيـاته ... ليـعـيـشـهـا مـادام وهو سـعـيـد

ذكـــراك رمـــز للإباء على المدى ... وعلى فم الأحـــرار أنت نشـــيـــد

---

(١) قصيدة بعنوان « في ذكراك يا أبا عبد اللّه الحسين » نشرت في عدد القبس ٢٤ مارس ٢٠٠٢ وللشاعر العندليب قصائد لا تحصى في مدح الحسين تعد من مفاخر عيون الشعر الحسيني .

وللصوفي الباكستاني الشاعر محمد إقبال قصيدة يقول فيها :

في الكعبة العليا وقصتها نبأ يفيض دماً على الحجر
بدأت بإسماعيل عبرتها ودم الحسين نهاية العبر

ولعل أجود ما قيل من فاخر المراثي الحسينية في العصر الحديث .. تلك التي دوَّنها بولس سلامة الشاعر المسيحي الفذ في ملحمته الشعرية الفريدة والمعروفة باسم « عيد الغدير » والمؤلفة من ثلاثة آلاف بيت والتي كان الشاعر ينظمها في غرفة مظلمة مسدلة الستائر ، حيث كانت دموعه وهنهناته تتسابق مع كلماتها ، وحيث كان يجيب إذا سُئل عن سر بكائه : « إن ملحمة كربلاء هي ملحمتي الذاتية كفرد إنساني » .

يقول في إحدى قصائد الملحمة :

كسر النسر طرفه إعياء بعدما قرح الجفون بكاء
لو أصاب الفرات رزء حسين لانطوى النهر كالرداء انطواء
ولغاضت شطآنه واستطار الرمل في خاطر الأثير هباء

إلى أن يقول :

يا ضياء الغروب في كربلاء دونك الشمس في الغروب ضياء
كيف باتت والكوكب الضخم يهوي مثلما تسقط الجبال انكفاء
يا سليل المطيبين جدوداً يفضح الشمس عزة وانتماء
مجدكم صيَّر النبيل نبيلاً وحباه من العلى ما شاء
دمك السمح يا حسين ضياء في الدياجير يلهم الشعراء
أي فضل لشاعر منك يعتام اللآلىء ، يصوغ منها رثاء
شاعر مقعد جريح مهيض كل أيامه غدت كربلاء

وفي قصيدته كربلاء يقول :

كـربلاء سـتـصـبـحين مـحـجـاً وتصـيـرين كـالهـواء انتـشـارا
ذكـرك المفـجع الأليم سـيـغـدو في البـرايا مثل الضيـاء اشتـهـارا
فـيكون الهـدى لمن رام هدياً وفـخـاراً لمن يروم الفـخـارا
كلمـا يذكـر الحسين شـهـيـداً مـوكب الدهر ينبت الأحـرارا

وللكميت بن زيد الأسدي الذي قيل فيه أنه أشعر الأولين والآخرين قصيدة يقول في أولها :

ومن أكبر الأحداث كانت مصيبة علينا قـتـيل الأدعـيـاء الملحب
قـتـيل بجنب الطف من آل هاشم فـيـالك لحـمـاً ليس عنه مـذبب
ومنعـفـر الخـدين من آل هاشم ألا حـبـذا ذاك الجـبين المتـرب
ومن عـجب لم أقـضـه أن خـيلهم لأجـوافـهـا تحت العـجاجـة أزمل
همـا هم بالمسـتلئـمين عـوابس كـحـدآن يوم الدجن تعلو وتسـفل
يحلئن عن مـاء الفـرات وظله حـسيناً ولم يشـهـر عليـهن مُنصل
كـأن حـسـيناً والبـهـاليل حـوله لأسـيـافـهم مـا يخـتلي المتـقـبِّل

وهناك شاعر[١] قيل فيه إنه من أشعر الناس ما جاراه شاعر قط في رثاء أهل البيت إلا ديك الجن ، وله في قصيدة رثاء للحسين أبيات يقول فيها :

أمـرُر على جَـدَث الحـسين وقل لأعظمـه الزكـيـة
يـا أعـظـمـاً لا زلـت مـن وطفـاء سـاكـبـة رويَّة
مـا لذ عـيش بعـد رضِّك بالجـيـاد الأعـوجـيـة

(١) السيد الحميري وقف موهبته الشعرية على مدح آل البيت ولم يقل شعراً في غيرهم طوال حياته

يا عين فـابكي مـا حـييت على ذوي الـذمم الوفـيـة
لا عـــذر في تـرك الـبكـاء دمـــاً وأنـت بـه حـــرية

وله أبيات في الحسين حينما خاطب أصحابه يقول فيها :

لست أنســاه حين أيقن بالموت دعـاهـم وقـام فـيـهم خطيـبـاً
ثم قـال ارجــعـوا إلى أهلكم ليس ســوائي أرى لهم مطلوبا

وللشاعر المسيحي اللبناني العقيد حبيب غطاس الذي كان قائداً عسكرياً رفيع المنصب في عهد الرئيس فؤاد شهاب ، وكان ولاؤه للحسين وآل البيت ضريبة فقده لمنصبه .. قصيدة جميلة في رثاء الحسين يقول فيها :

أنت الشـهيـد الذي أدميت أفـئـدة لولاك لم يدمـهـا واللّه بتـار
صـدوك عن مـورد الماء المبـاح فلا سالت بأرضهم سحب وأنهار
يا كـربلاء سـقـتك المزن هاطلة على رفـاة حـسين وهو مـغـوار
يلقى المنيـة عطشـاناً ومبـتـسمـاً إن المنيـة في عـينيـه أقـدار
روحي فـداك حـسين مـا بدا قـمـر بالليل أو أشـرقت في الصـبح أنوار

فإذا صنع عشق الشهداء شاعراً .. فإن الندم على نصرتهم صنع شاعراً[1] فحلاً ما قال بيتاً بعد مصرع الحسين إلا وضمنه ندمه لعدم نصرته لما جاء يستصرخه بنفسه للخروج معه ، وما كان من رفضه هذا وعرضه فرسه على الحسين للنجاة عليها ، وما كان من إعراض الشهيد وقولته له : « لا حاجة لنا فيك ولا في فرسك وما كنت متخذ المضلين عضداً » .

هذا الشاعر كان قائداً من شجعان العرب ، عمل مع عثمان ومعاوية وتغيَّب عن معركة كربلاء عمداً ، وبعدها صار يُرى على الدوام فائض النفس ضارباً يداً فوق

---

(١) هو عبيد الله بن الحر الجعفي .

أخرى ، محادثاً نفسه ومردداً : « ماذا فعلت بنفسي؟ » ومنشداً بأسى وحسرة ندمه ، قائلاً :

فيا لك حسرة مادمت حياً ... تَرَدد بين حلقي والتراقي
حسين حين يطلب بذل نصري ... على أهل الضلالة والنفاق
غداة يقول لي بالقصر قولاً ... أتتركنا وتزمع بالفراق
ولو أني أواسيه بنفسي ... لنلت كرامة يوم التلاقى
مع ابن المصطفى نفسي فداه ... تولى ثم ودع بانطلاق
فلو فلق التلهف قلب حي ... لهمَّ اليوم قلبي بانفلاق
فقد فاز الألى نصروا حسيناً ... وخاب الآخرون ذوو النفاق

ولما طلبه ابن زياد وسأله تبرير تغيبه عن موقعة كربلاء .. غافله وركب فرسه وانطلق بها ، ولما حضرت شرطة ابن زياد خلفه .. طلبوا منه إجابة الأمير ، فرفض مغلظاً كلامه لهم ، ثم أجرى فرسه حتى وصل كربلاء فنظر إلى مصارع الحسين «ع» ومن قتُل معه واستغفر لهم ثم مضى إلى المدائن وقال في ذلك[١] :

يقول أمير غادر وابن غادر ... ألا كنت قاتلت الحسين ابن فاطمه
ونفسي على خذلانه واعتزاله ... وبيعة هذا الناكث العهد لائمه
فيا ندمي أن لا أكون نصرته ... ألا كل نفس لا تسدِّد نادمه
وإني لأني لم أكن من حماته ... لذو حسرة ما أن تفارق لازمه
سقى اللّه أرواح الذين تبادروا ... إلى نصره سقياً من الغيث دائمه
أهم مراراً أن أسير بجحفل ... إلى فئة زاغت عن الحق ظالمه

---

(١) راجع التاريخ الكامل .

ولكن الموت عاجل هذا الشاعر النادم على خذلانه الحسين وقد تعددت الروايات عن موته .. فمنها ما ذكر أنه أغرق نفسه في الفرات خوفاً من الوقوع في أسر مصعب بن الزبير ، وفي رواية أخرى أنه قتل في الأنبار وأن مصعب نصب رأسه في الكوفة ، وفي رواية ثالثة أنه بقي في منزله على شاطىء الفرات إلى أن مات يزيد وكيفما كانت حياة هذا الشاعر المتخاذل أو ميتته فإنه بندمه الذي أفاض على نفسه كان ممن عناهم اللّه بقوله :

« قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » .

وللشاعر محمد فيصل الدرازي قصيدة[1] مطولة تقطر أبياتها شوقاً لكربلاء يقول في مطلعها :

من كربلاء دم الثوار معطار   كأنها روضة والجرح نوّار

يضمخ الأفق أفق الثائرين بها   فكربلاء رياحين وأزهار

ومن ثراها يطير الشعر ليس له   إلا الكواكب في الآفاق أوكار

مس المشاعر فانثالت على شفتي   له من القلب والأعماق أشعار

تحكي ملاحم أبطال قد انتفضوا   فأرخصت مهج منهم وأعمار

إلى أن يقول :

يوم الحسين لأنت الشمس بازغة   لها مدى الدهر في الآفاق أنوار

علمت كيف يرد الحق مغتصباً   وكيف يُهزم بالأبطال كفار

---

(١) ألقاها الشاعر وأهداها للمؤلف بمناسبة زيارته للبحرين للمشاركة في مهرجان « صرخة الحسين في القدس» الذي أقيم في قرية « القدم » بمناسبة أربعينية الحسين عام ٢٠٠٥ وشارك فيه سماحة الشيخ عيسى أحمد قاسم والرادود عبدالأمير البلادي .

وكـيف يُنصـر إن همَّ الطغـاة على | سلب الحـقـوق بنصـر اللّه مـغـوار
وكـيف تصـرخ فـوق الظلم حنجـرةٌ | تتلو الجـهـاد بصـوت وهـو هدَّار
أنت الذي نـهلَتْ من فـيض ثورتـه | وأشـعلَتْ سُـرُجـاً للحق ثوَّار

إلى أن يقول :

يا أيهـا الوتْر في الدنيـا وقـد عقـمَتْ | قـبلٌ وبعـدٌ وأزمـانٌ وأدهارُ
يا ظامـئـاً وفـرات الماء مـشـرَعـةٌ | هذا عطاؤك في الأجـيـال زخَّـار
وهل يجف نميـر منك سلسَلهُ | أم كـيف ينضب نبعٌ منك فـوَّار
يا ابن الأمـيـر أمـيرِ المؤمنين ومَنْ | حسـامُـه في صـفـوف البـغي بتَّـار
إن كـان حيدرُ في صفين ضيغمَها | فـأنت في الطفِّ شـبل منه زئَّارُ
إن لم نكن لك ممن بايعـوا سلفـاً | فـإننا لك هـذا اليـوم أنصـارُ

وهذا وذاك شاعر تبهلل نفسه مخارف الدنيا وبُلَهْنِيَّة العيش .. تراه في موضع يذكر فيه الحسين وقد تحول إلى ناسك متبتل يقنع بالبلغة تستقر في حلقه ، لا تغادره لجفافها إلى فوق أو تحت .

وهذا وذاك شاعر لا تتحرك كوامنه إلا للفح من المشاعر المكثفة الصارخة .. تجده ينفعل بأخفت شعور يصله من علياء أهل البيت ، فيعطي أبلغ ما عنده من فصاحة ، ويرسل أفصح ما لديه من بلاغة شعراً ونثراً .

وشاعر يبخل بمدحه للملوك يملأ بعده جرابه ذهباً .. نراه يسخو أيما سخاء في مدح الحسين وآله على غير أمل في درهم واحد ، وعلى توقع نوال الأذى والمشقة والإحن .

وشاعر آخر لم تكن أهوال الدنيا ومقاتلها لترف له جفناً ، لكنه كان يبكي كطفل كلما نزعت أفكاره إلى ذكرى كربلاء ، فيرسل الدمع الهتون أسى وحرقة .

هكذا شاعر الحسين «ع» عندما تحوطه هيولية الاستشهاد فيحلق في فضائها كنسر جائع إلى الحقيقة وصفاء النفس ، فيتخلص من متعارفات العيش وفرضيات الأهواء والنوازع الأرضية .

وفي فضاء الشهداء تكمن المثل الحقة والأريحية ، فلا مناص من التقرب منها إلا بجناحين قويين تسوقهما ريح خفية مجهولة إلى حيث يكون ما يجب ، وإلى حيث تتردد أنشودة العظمة مذ ارتفعت في العاشر من محرم ، أنشودة وضعها الحسين على الشفاه فما ملّتها قط ، بل زادها كرور الأيام اشتياقاً لها ، وهي أهزوجة للعز استوطنت حناجر الأجيال ، تطرب لها العقول وتحنو عليها الأضلع والصدور كدرة ثمينة لا منجى لها بدونها .

فالدماء الزكية التي أهرقت فوق ثرى كربلاء منذ أربعة عشر قرناً ، سجلت للبشرية مجدها[١] ، والشهادة التي أقدم عليها الحسين علّمت الإنسان كيف يكون مظلوماً حتى ينتصر[٢] .

وعلّمت المشاعر كيف تلتهب وتتفاعل مع المواقف النبيلة والمبادىء السامية فتهتز لتفاعلها القرائح ، اهتزاز الصب المستهام بصورة حبيبه ، وتخلدها كَلماً وشعراً وجمالاً ، إلى جانب ما خلده التاريخ منها سرداً وتسجيلاً ، لتكون أخلد سيرة لأعظم شهادة ، وأجمل قول لأكمل صورة .

تجاوبت الدنيا عليك مآتماً نواعيك فيها للقيامة تهتف

فسلام عليه سيداً للشهداء ، سلام عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حياً .

***

---

(١) قول لجبران خليل جبران

(٢) للمهاتما غاندي رأي في المظلومية .. فإذا كانت لامرىء نصرته في محصلة النتائج .

ضمير الأديان
أفضال وألقاب

الشخصية هي محصلة التربية والمربَت[1] في عهد الطفولة الغضة ، حيث الفتى بمكوناته النفسية يشبه الإسفنجة الماصة التي تختزن في مسامها ما تمتصه لتفرغه مجدداً متى عُصرت .

ففي أمسية من أماسي شعبان .. ولدت فاطمة حسيناً ، فأخذه النبي « ص » وأذَّن في أذنه كما يؤذن للصلاة ، أذان من فم نبي سرى كهمس قدسي في أذن غضة لم تع بعد ماهية الأصوات وموحياتها ، ونداء من شفاه منزهة سمعها مخلوق كأول ما سمع .. « اللّه أكبر .. لا إله إلا اللّه » فانطبعت في سويدائه واختلطت في دمائه وبذرت في ضميره تلك البذرة القدسية التي أعطت للإسلام الكثير .

بعدها بأشهر اعتلت فاطمة وجف لبنها ، فكان النبي « ص » يأتي الطفل ويلقمه إبهامه .. فيمصُّه ، فيجعل اللّه في إبهام رسوله غذاء الطفل الوليد إلى أن أنبت تعالى لحمه من لحم رسول اللّه .

هام النبي الأكرم بحفيده هياماً لا يوصف إذ كان يرى فيه ظل نبوته ، وكان من هيامه أن كان يردد أنّى جلس وقام ما كان يحبه من ترداد بقوله : « حسين مني وأنا من حسين» .

---

(١) كلمة من وضع الشيخ عبداللّه العلايلي ، وهي من مادة « ربَت » أي طبطب على كتف الطفل لينام .

السبط الوليد كان يعده الجد النبي لتحمل عبء ثقيل بعد رحيله عن الدنيا ، حينما تهتز الأرض من تحت أقدام المسلمين ، وتميد الدنيا بالإسلام بفعل الضلالات والظلم والتحريف .

« أللَّهم أحبه فأني أحبُه » كلمة رجاء من نبي لربه في أن تلتفت عزته إلى ما سيزرع في سبطه من فضائل نبوية فذة ، فيباركه من عليائه ويهديه بإلهاماته ليتم رسالته بما يرضي العناية الإلهية .

جاء عنه في أخباره « ع »أنه كان صورة تشكلت من صورة جده النبي « ص » له شبهه[1] في الخلق والخلقة ، تطلع إليه الجد فرأى في مخايله سيماء مستقبل الأمة وسؤددها وحامل لوائها من بعده .

السبط النبوي ـ تطلع إلى جده فرأى فيه معنى الدين ومعنى العقيدة ، استشف من الأذان الذي كبَّره في سريرته وهو لما يزل رضيعاً .. رؤى المستقبل الآت .

سيد الشهداء ـ سما في شهادته فوق سمو الشهادات التي آتاها أرباب الديانات وشهداؤها منذ زكريا ويحيى والمسيح ، فكان إمام حق وسيد شهداء الحق .

سيد شباب أهل الجنة ـ أتم حجة اللّه في خلقه وفي دينه الحنيف ، وأبرز مظلومية آل محمد ، وأعاد دين النبي الذي بشَّر به إلى صراطه المستقيم ، فأفنى ذاته وأهله في هذا السبيل ، رخص نفسه الغالية فأغلى له تعالى نفسه على أنفس ساكني جنة خلده ، فصار سيدهم بما ضحَّى ، وصار أحب أهل الأرض إلى أهل السماء .

أبو الضيم ـ كان يوم ضيمه في عاشوراء أعظم المصائب ، وصفه الإمام الصادق بيوم أعظم مصيبة من جميع سائر الأيام ، وذلك أن اصحاب الكساء الذين كانوا أكرم الخلق على اللّه تعالى ، كانوا خمسة ، فلما مضى عنهم النبي« ص » بقي أمير

---

(١) أثبت علم الوراثة أن الجينات الوراثية تحمل في خصائصها لا التشابه في الشكل الخارجي فحسب .. بل تتعداه إلى التشابه في الأخلاق والنفسية والمشاعر الإيمانية ، حتى في الصوت واللفتات والحب والكراهية وتفضيل ألوان معينة وروائح وأشكال بعينها .

المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين «ع» فكان فيهم للناس عزاء وسلوة ، فلما مضت فاطمة.. كان في أمير المؤمنين والحسن والحسين عزاء وسلوة ، فلما مضى أمير المؤمنين كان للناس في الحسن والحسين عزاء وسلوة ، فلما مضى الحسن كان للناس في الحسين عزاء وسلوة ، فلما قُتل عليه السلام .. لم يكن بقي من أهل الكساء أحد للناس بعده عزاء وسلوة ، فكان ذهابه كذهاب جميعهم عليهم السلام كما كان بقاؤه كبقائهم أجمعين ، فلذلك صار يومه أعظم مصيبة وكان يوم ضيمه أعظم أيام الضيم .

ريحانة الرسول ـ التي بذرها صلوات اللّه عليه بذرة وتعهدها فسيلاً في حديقة النبوة فأزهرت وأينعت وأفاحت ضوعها في الصدور ، ونشرت عبق الحق الإلهي في أجواء العقيدة الإسلامية ، فكان ريحانة طيبة لرسول اللّه طاب من بعد طيب الأصل فارعه .

صعد النبي «ع» المنبر يوماً ما وكان مغموماً كئيباً يرتسم على وجه هم مكتوم ، وأصعد معه الحسن والحسين ، ووضع يده اليمنى على رأس الحسن واليسرى على رأس الحسين وقال : « **أللّهم إن محمداً عبدك ورسولك ، وهذان أطائب عترتي وخيار أرومتي وأفضل ذريتي ومن أخلفهما في أمتي ، وقد أخبرني جبريل أن ولدي هذا مخذول مقتول بالسم ، والآخر شهيد مضرج بالدم ، أللّهم فبارك له في قتله واجعله من سادات الشهداء** » .

إرث لنبوة حمله حبيب النبي الحسين «ع» في رحلة سرمدية إلى دنيا الخلود ، بعد أن زرعه خلية خلية في قلوب المؤمنين .

والذي نعلمه عن المربَت أنه ينمي ما يكون في الخلال الأصلية ، ويزرع ما يجد مناسباً زرعه لاكتمال غايته ، والحسين «ع» حينما أخذه جده «ص» بالتربية .. أخذ معه الجسم والعقل والنفس وجعل من ذاته السامية قدوة [1] له في حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله.

---

(١) القدوة الشخصية أجلُّ ألوان التربية وأعمقها أثراً في نفس الطفل .

ذكر أبو رافع مولى النبي « ص» أنه كان يلاعب الحسن والحسين بالمداحي [1] أكثر من مرة بحبور بالغ ، وعن أبي هريرة : إن الحسن والحسين كانا يصطرعان بين يدي رسول اللّه « ص».

وعن يعلى العامري ، أن رسول اللّه « ص» خرج إلى طعام فإذا حسين في السكة مع غلمان يلعب ، فتقدم اليه أمام القوم وبسط له يديه ، فجعل الغلام يفرُّ هنا و هناك ، وجعل رسول اللّه يضاحكه حتى أخذه فوضع إحدى يديه تحت قفاه والأخرى تحت ذقنه وقبله .

وعن شداد ، قال : خرج علينا رسول اللّه في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسيناً ، فتقدم « ص» فوضعه ثم كبَّر للصلاة فأطال السجدة ، فرفعت رأسي فإذا الصبي على ظهره وهو ساجد ، فرجعت إلى سجودي ، فلما قضى الصلاة .. قيل : يا رسول اللّه إنك سجدت بين ظهريْ صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر وأنه يوحى إليك ، قال : كل ذلك لم يكن ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته .

ويقص أبو هريرة في حديث له : أبصرت عيناي هاتان وسمعت أذناي رسول اللّه « ص» وهو آخذ بكفي حسين وقدماه على قدمه وهو يقول : تَرَق تَرَق عين بقة فرقي الغلام حتى وضع قدميه على صدر رسول اللّه ثم قال الرسول : « افتح فاك ، ثم قبَّله وقال أللّهم أحبه فإني أحبُه » .

وعن ابن عمر قال : قال رسول اللّه « ص» : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وأبوهما خير منهما » .

وعن حذيفة قال : أتانا رسول اللّه فرأينا في وجهه تباشير السرور ، فقلنا : يا رسول اللّه لقد رأينا اليوم في وجهك تباشير الفرح وعلامات الرضا..فقال : « ومالي

---

(١) ذكره ابن الأثير في « النهاية » والمداحي : أحجار يحفرون لها حفرة ويدحي الملاعب .. فإن استقر الحجر فيها .. غَلَب وإلا غُلب ـ عن العلايلي ص٢٨٢

لا أسَر وقد أتاني جبريل فبشرني أن حسناً وحسيناً سيدا شباب أهل الجنة ، وأبوهما أفضل منهما » .

وعن جابر بن عبداللّه قال : من سرَّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى الحسين بن علي فإني سمعت رسول اللّه «ص» يقوله .

وعن جابر ، أنه قال ـ وقد دخل الحسين المسجد ـ : « من أحب أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة فلينظر إلى هذا » سمعته من رسول اللّه «ص» .

وعن علي «ع» قال : « شكوت إلى رسول اللّه «ص» حسد الناس إياي ، فقال : يا علي إن أول أربعة يدخلون الجنة أنا وأنت والحسن والحسين وذرارينا خلف ظهورنا وأزواجنا خلف ذرارينا ، قال علي : قلت : يا رسول اللّه .. فأين شيعتنا ..؟ قال «ص» : « شيعتكم من ورائكم » .

وإذا تمعنا في تربية الحسين منذ مطلع نشأته فهمنا سر كل خطواته التي أتاها في مقبل رجولته ، وإذا فهمنا ما يتضح لنا من بعد إمعان .. لمسنا سر عمل الفعالية الصامتة التي مسَّت مشاعره مساً ترك أثره الغامض في قرارة نفسه بفعل الأحداث التي تناولت نفسه في فترة غضارتها ولدانتها ، حينما أصيب بجده العظيم وفُجع بأمه الرؤوم ، وانطوت نفسه على حفيظة وهو يرى بيت أبيه تحت المراقبة الشديدة تُنتهك حرمته بدون لباقة ، هذه الأحداث التي لم تمر على نفسيته وفكره مروراً عابراً دون أن تترك آثارها الخطرة .

شمعة العقيدة ـ أضاءت للمسلمين درب خلاصهم وعرَّفتهم بموطىء أقدامهم وجنبَّتهم الزلل في حفر الضلالة ، والسقوط في فخاخ الخطيئة والتهاون ، وأبانت لبصائرهم بسطوعها المتجلي أبداً .. مسالك الحق وطردت عنها معالم الوحشة لقلّة سالكيها ، فعبرها المؤمنون مستنيرين بأنوار الشمعة التي احترقت فوق ثرى كربلاء ، ولم تزل مضيئة على توالي الدهور وكرور الأيام والليالي حتى يقضي اللّه أمراً كان مفعولاً .

درع الإسلام ـ ذبَّ عنه الأذى المتمثل بوهن العقيدة وتراخي روحانية الدين ،

بعد أن غدت العقيدة ضعفاً لا يتصل بقوة ، بعدما كانت قوة لا تتصل بضعف ، فأغار على مواطن الوهن والإثم بالقول والفعل ، وتلقى بصبر نادر عجيب كل ما شهره في وجهه حَفَدة الشيطان ، مستحلو حرم اللّه وناكثو عهوده ومخالفو سنة رسوله والعاملون في عباد اللّه بالإثم والعدوان ، فكان بتصديه للأذى اللاحق بالعقيدة ..درع الإسلام بحق ، فلولاه لما كان الإسلام إلى ما صار إليه ، عقيدة ثابتة تترع في وجدان المسلين وضمائرهم بعد أن كاد يتحول إلى مذهب باهت يركن في ظاهر الرؤوس التي أدارتها نحو المذهبية الساذجة الحمقاء ممارسات القائمين على أمور المسلمين من حكام وأذناب سلطة ومداحي دواوين.

ضمير الأديان إلى أبد الدهور ـ كان احتراقه المادي فوق أرض الطف ، مرحلة أولى لاشتعال ضميري أبدي ، كمثل التوهج من الاحتراق والحياة من الموت ، وباستشهاده الذي لم يسجل التاريخ مثيلاً له .. تكرست ثورته كضمير للأديان السماوية يستصرخ أبداً في شبه إلحاح مناطق الشعور في الأنفس ، وينبه بتواتر لا يهدأ مثاوي العقيدة في الحنايا ، فكأنه من الدين .. المعنى الديني ، غناه في المهج على مقدار ما فيه من معناه ، فالدين ذاتية مطلقة ثابتة ، والهرطقة نسبية مضمحلة ليست شيئاً إذا لم تكن الخطايا والدنايا كل شيء خلفها وحولها ، لا تجد قيمتها إلا في مدى إسفافها ومهاوي دَرَكها .

حسيننا ضمير الأديان.. والضمير محبة وتحاب وغيرة ، في تلافيفه حنو المستقبل ونصعانه ، ومن آياته المعبرة في صيغة تعبيرية عن حقيقتها : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي اللّه بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلّة على المؤمنين ، أعزَّة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل اللّه ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء ، واللّه واسع عليم[1] » .

قوم اللّه : يحبونه ، وهو لذلك يحبهم ولا يقبل منهم الارتداد إلى الضلالة بعد إيمان ، فإن ارتدوا.. يرعاهم بالتجارب ليخلصهم من الشوائب ، وسبيل التخلص :

(١) المائدة ٥٤

الإخـلاص ، لذلك يصطفي من رسله من يشـاء ليـعلمـوا الناس سلوك طريق الإخلاص المتصل بالخفي المغيَّب من حكمته جلَّ وعلا ، وقد اصطفى من العرب رسولاً وأنبأه : أن يصبر إن كذبوه ، فلقد كذَّبت الأقوام أنبياءهم من قبل بعد ما اجتهد أولئك الأنبياء بتبليغ ما كُلِّفوا به من البينات والزُبُر والكتاب المنير [1] ولكن كيف يُهدي اللّه قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم بالبينات ، واللّه لا يهدي القوم الظالمين [2] .

فقدرة اللّه وحكمته قد تفصل بين المرء وقلبه ليفلت السلطان على النفس من يد صاحبه « أولئك الذين هداهم اللّه فبهداهم اقتدَه [3] ».

أما الفئة السلبية .. فهي الفئة التي تنكر الحق وتضطهد حَمَلَة لوائه تفرح بحيلتها في إخفاء معالمه وبشائره ، هذه الفئة ليست بمفازة من العذاب .

إن اللّه يرفع درجات من يشاء لحكمة وعلم ، وخير الأمم أمة هُديت إلى الحق فهدت به ، فالحق يجعل من الأمة خير الأمم ، ومن المؤمنين خير الخليقة « وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون [4] ».

مقياس خير الأمم قبول الحق والعمل به ، ومقياس المقاييس لخير المؤمنين فئة هدت إلى الحق وعدلت به ونهت عن نقيضه .

فمن من المؤمنين فعل هذا ..؟

ومن الذي أعلن على رؤوس الملأ بقوله الخالد الذي غدا دستور هداية : « إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي ، أريد أن : آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، فمن قبلني بقبول الحق فاللّه أولى بالحق ، ومن رد عليَّ هذا أصبر حتى يقضي اللّه

---

(١) تفسير القرآن المرتب للدكتور أسعد علي ص ٤٣٤ ـ ٤٣٥

(٢) آل عمران ٨٦

(٣) الأنعام ٩٠

(٤) أعراف ١٨١

بيني وبين القوم بالحق وهو خيرُ الحاكمين ».

إنه الحسين سيد الشهداء في ميادين الحق ، والذي كانت ثورته تمثيلاً عملياً لضمير الأديان على مر الدهور ، فقد خرج طالباً الإصلاح في أمة جده ، خير أمة أخرجت للناس بثلاثة مواقفها :

الإيمان ، والأمر ، والنهي ، الإيمان باللّه الأحد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، الأقانيم الخلقية الثلاثة المكتوبة في التوراة والإنجيل والقرآن .

قضية الحق الأولى واحدة في كل دين ، تظهر ببهاء رغم كل الأستار الصفيقة من صنع الهراطقة ، وضمير الأديان ما هو إلا إيقاظ مستمر وتذكير دائم بهذه القضية السرمدية ، وقد جسده الحسين حينما انطلق إلى كربلاء ليكون عاشوراء العقائد ، وليبقى فداؤه على مر الدهور ، ضمير الأديان المطوِّر المبدع في محبة اللّه ، وفي العمل بتعاليمه .

أليست الحرية والإيثار إعلان سُنَّة مرضية للرب كما عرفناها من مبادىء ثورة الحسين ، هي ذاتها جوهر وصايا الإنجيل العظمى .

فحسين الصلاح ضمير .. ضمير كل الأديان إلى أبد الدهور يعلو همسه المنبعث من أعماق الدهور فوق ضجيج الحياة وصخبها ، ومن فوق هامة الإنسانية المختنقة بلفحات الضراوة والمظلومية ، ليردها إلى نعيمها الطاهر الذي تحاول أباطيل الضلالة إزاحته من تحت أقدامها ، وتضبيبه أمام ناظريها ، وحجب بصيرته عن تبين معالمه وتحديد وجهته .

ولئن اعتدي على الحق الإلهي في غفلة من الزمن وفي حَلكة الظلام .. فلهذا الحق في ضمير الكون شاهد .

وكان الحسين « ع » ضمير الأديان في عمر الدهور ، هو الشاهد الأوحد على محاولة إزهاق الحق في ضمير الكون .

ويأبى اللّه إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

وتأبى حكمته إلا أن تبلغ مداها في فضاء العزة والجلالة لتغمر آفاق البشرية بالقدسية والعدل والنبل .

لهذا المقصد الإلهي كان الحسين قبس هداية ، ومشكاة طهر ، ونموذج أخلاق فاضلة ، فكان حقاً ضمير الأديان إلى يوم القيامة .

***

الفصل السادس

الخَلْبُ الفكري

شهيد للمسيحية
كما للإسلام

الحوار بين أتباع الديانات السماوية هو غاية ما تصبو إليه الشعوب المؤمنة في هذا الطور من الزمن وفي هذه الظروف العصيبة التي شمرت فيها قوى الإلحاد عن سواعدها تبغي التخريب وإعمال معاول الهدم في صروح الأديان ، آملة في وقوعها أخيراً تحت ضرباتها .

كل كلمة تقال أو تُكتب ، وكل حرف يسطع بنور الحقيقة ، سيضيف بعداً ذا اثر على قضايا الحق الأولى ، الحق الإلهي الذي ما أنزلت الديانات السماوية الثلاث إلا لتوكيده وترسيخه في أعماق النفوس للأخذ بيد بني البشر إلى حيث الصراط المستقيم ، والحق المبين الذي ينظم علاقة الفرد بربه ، وبأخيه في الإنسانية .

لأجل هذا الحق كانت رسالة عيسى «ع» ولأجله أيضاً كانت رسالة محمد «ص» وما بينهما من قواسم علوية مشتركة ، ما كانت لتتجانس لو كان في طبيعة الحق الإلهي اختلاف أو تغيير .

وكتاب « الحسين في الفكر المسيحي » ما هو إلا صدى لترجيعات أصوات آمنت بهذا الحق ، فكان في مهرجان الإيمان راية صفاء ترفع وعلم نوايا طيبة يرفرف.

فمن أجدر من الحسين «ع» لأن يكون تجسيداً للفداء في الإسلام .. ومن أجدر من الفكر المسيحي لأن يفهم رموز ومعاني هذا الفداء ، الركن الأول في المسيحية .. وبالتالي يحب من يتقدم إليه راضياً مرضياً لوجه اللّه والحق الإلهي؟

فالحسين من وجهة نظر مسيحية ، هو شهيد للمسيحية كما للإسلام وكما لغيرهما من العقائد ، لأن فداءه ذو أهداف إنسانية شمولية لا تختص بفرد دون آخر ولا بعقيدة دون سواها .

ويظل هذا الكتاب من أفضل الكتب التي قرأتها في هذا المجال ، إن من حيث اللغة ، أو من حيث الأسلوب والمضمون ، وأعتبره خطوة جبارة في طريق الحوار بين أتباع الديانات السماوية حوار نحن في أمس الحاجة إليه لنواجه به ما يحيط بعقائدنا الروحية من أعاصير الإلحاد والكفر .

فليبارك اللّه قلم الكاتب ونبل مقصده وعظيم هدفه ، وله في اجتهاده الطيب هذا أجران : أجر العمل ، وأجر المقصد[١] .

***

ثورة للإنسانية كلها

ما أجدر بثورة كثورة الحسين«ع» من أن توصف بالشمولية ، فهي ثورة لكل إنسان فوق هذا الكوكب ، مسلماً كان أم غير مسلم ، وهذا بعض ما يجب أن يقال بحق هذه الثورة التي كانت وستبقى الثورة المثالية والرائدة بلا منازع .

ولعل أحدث ما كُتب حول هذا المعنى ، كتاب خطه يراع الكاتب أنطون بارا بعنوان « الحسين في الفكر المسيحي» حلل فيه بشيء كبير من الصدق والإخلاص ، ملحمة كربلاء وأبرز جوانبها وأهم أسبابها ونتائجها بروح موضوعية بعد أن استتنار بالشيء الكثير مما كتب عن الملحمة الخالدة ، مستخلصاً من كل ذلك شمولية الثورة واتساعها ، وقد سرنا معه فصلاً بعد آخر في رحلة كلها دروس وعبر حتى يختمها كما بدأها ، بكلمات صدق فيها مع نفسه ومع التاريخ ، وأعطى بها لثورة الحسين بعض ما تستحقه[٢] .

---

(١) من كلمة لسيادة المطران الدكتور برتلماوس عجمي .

(٢) من مقال للأستاذ علي الشرقي في مجلة المواقف البحرينية العدد ٢٦٢/ ٥ فبراير ١٩٧٩

سيوفنا لك لا عليك

« ما أجدر بالبشرية اليوم لأن تتوجه نحو منارة الحسين كي لا تضل » .

بهذا القول يؤكد الكاتب أنطون بارا على ضرورة التمسك بتعاليم الحسين والتوجه نحو منارة مثله طمعاً في النجاة من الضلالة والضياع ، لاسيما في عصر الضنك هذا ، عصر المظلومية وعبادة المال .

لقد صدق الكاتب حين قال : « الحسين ضمير الأديان إلى الأبد » قبل كل شيء لنرَ كيف كان الحسين ضميراً يقف على قدمين ، يفرح ، يحزن ، يتحسس ، يتألم ، يدافع ، يناصر ، وبكلمة واحدة : كان مع الحق والحق معه أينما كان .

ألم تسمعوه يقول ليلة عاشوراء وروح المسؤولية تسير حتى على شفتيه : « ألا ترون إلى الحق لا يُعمل به ، وإلى الباطل لا يُتناهى عنه ؟ كأنه يريد أن يهز أعماقنا بهذا الاستفهام الاستنكاري : « ألا ترون .. ألا ترون ؟ » .

وبعد كل هذا ، الحسين مدرسة أخلاق وجامعة إيمان هو عميدها ، ولنا الشرف كل الشرف أن نقتبس ونأخذ منه .

إذن فعيب علينا أن نغالط أنفسنا بإحياء ذكرى الحسين كل عام ، بينما نقتل أهدافه في كل ثانية من حياتنا ، بسلوكنا وأعمالنا ، فلنكن حسينيين قلباً وقالباً [(١)] .

***

إلهام لا ينضب

الحسين بن علي «ع» وثورته كانا على الدوام محط إلهام الكثيرين من أصحاب الضمائر الحرة والأفكار السامية ، يجدون في سيرة سيد الشهداء ذخراً أخلاقياً لا ينضب .

---

(١) من منشور وزع في البحرين بمناسبة ذكرى عاشوراء المجيدة لعام ٧٨ أصدرته اللجنة الثقافية في الصندوق الحسيني الاجتماعي .

وكتاب الزميل أنطون بارا فيه التماعات شتى بذل المؤلف لها الكثير من الجهد الملموس لإيفاء الموضوع حقه من البحث والتحليل والمعالجة الفكرية الهادفة فجاءت فصول الكتاب تجسيداً لرؤية فلسفية وفكرية لم نعهدها من قبل في مثل هذه الكتب التي غالباً ما تعتمد على المحاكاة والسرد الخالي من الفكرة وغياب الطرح المميز .

إنه كتاب جديد في منطلقه ، وعميق في أبعاده ، وهادف في مضامينه الفكرية من أجل تجسيد معنى الاستشهاد والتضحية والفداء ، هذه الملاحم التاريخية الباقية على مر السنين والأجيال ، والتي قدمها للبشرية أبو الشهداء وسيدهم الحسين بن علي «ع» فكانت لها موئلاً وملاذاً .

إن كتاب الحسين جدير بالدراسة المتأنية والواعية لمن يريد التعمق في خصائص الثورة الحسينية[1] .

***

كربلاء بين المستشرقين والمستغربين

المستشرقون الذين تناولوا ثورة أبي الشهداء الحسين «ع» تناولوها بكثير من التجني والإجحاف ، ونظروا إليها نظرتهم إلى حادثة تاريخية مجردة من القدسية ، بينما تناولها المستغربون ـ الكتاب المسلمون ذوو الثقافة الغربية ـ بكثير من الإهمال وضعف التبحر الموضوعي ، إذ غلبت عليهم اللامبالاة فانعكست على تحليلاتهم واستنتاجاتهم مما جعل منها كماً غير ذي أثر على الفكر .

وكان الخطأ الذي ارتكبه المفكرون المسلمون ، هو أنهم هدفوا بكتاباتهم الفكر المسلم ، ولم يدر بخلدهم يوماً أن يتجهوا إلى الفكر المسيحي أو اليهودي أو غيرهما لإيصال أخلاقيات ثورة كربلاء ، أو لعرضها كما يجب أن تعرض بحيث يفهمها الفكر الغربي المسيحي أو الفكر الآخر .

---

(١) من مقالين للأستاذ عبدالله الشيتي في جريدة الرأي العام الكويتية العدد ٥٣٢٩ سبتمبر ٧٨ ومجلة النهضة العدد ٥٦٨ سبتمبر ٧٨

من هنا كان كتاب الأستاذ أنطون بارا وهو المسيحي العربي ، فريداً في بابه ، وقد أثار جدلاً في الأوساط الثقافية والفكرية نظراً لما احتواه من موضوعية وطرح جديدين ، ولكون مؤلفه مسيحياً تصدى لتحليل سيرة وشخصية علم من أعلام الإسلام في وقت يحجم فيه الكثير من الكتاب المسلمين عن الخوض في هذا النوع من الكتابة ، نظراً لصعوبته أولاً ، وتشعبه وحساسيته الفائقة ثانياً ، إذ أنه على امتداد التاريخ الإسلامي ظلت كربلاء مصدراً لإيحاءات فاجعة تذوب معها وجدانيات المسلمين في كل عصر حزناً وحسرة ، وظلت الدهشة هي القاسم المشترك أمام حلكة الظلام التي سادت النفوس وأعمت العيون عن الوقوف إلى جانب حق مبين ، وقادت إلى الالتفاف حول باطل لا يحتمل الشك في بطلانه ، وبين الحزن والدهشة صدرت آلاف الشروحات والتفسيرات لحادثة استشهاد الإمام الحسين عليه وعلى جده وأبيه أفضل الصلاة والسلام ، تلك الحادثة التي تستعيدها الضمائر جيلاً بعد جيل في محاولة لفهم أسرارها وكشف رموزها ، كصورة فريدة للتناقض الصارخ بين الحق المقهور وبين الباطل المنتصر .

ويظل كتاب « الحسين في الفكر المسيحي » البحث الفريد في بابه ، فلم يسبق الربط بين ثورة الحسين وبين فكر أهل الكتاب ، فهو إذن كتاب نادر وجهد ضخم لا يماثل ، وما كان ليكتمل لولا شفافية في نفس الكاتب ، وقدرة طيبة على البحث والاستقصاء والاستيعاب الجيد ، والتمثل للحادثة عقائدياً وتاريخياً ، وقلم يعرف كيف يصوغ الرؤية بلغة فريدة ، ويستنبط التحاليل بأسلوب غير معهود ، خاصة إذا كان الموضوع على هذا العمق الفاجع في وجدان القارىء .

وقد قرأنا الكثير من الكتب التحليلية عن الحسين ، لكنا لم نقرأ بوضوح رؤية ومتانة لغة ، ورشاقة أسلوب ، وروعة تحليل كتاب الحسين في الفكر المسيحي ، إلا كتاب عبداللّه العلايلي .. وإذا جاز لنا تصنيف أفضل ثلاثة كتب عن الحسين وملحمته .. نذكر : لعبداللّه العلايلي أولاً ، ولأنطون بارا ثانياً ، وللعقاد ثالثاً[1] .

---

(١) من مقال للأستاذ علي عباس في مجلة صوت الخليج العدد ٨١٧ سبتمبر ٧٨

الفداء بين عيسى والحسين

أنّى للبشرية أن تجد طريق خلاصها بعيداً عن تعاليم الحسين .. كيف لها أن تسمو إذ لم تمسها قدسية الطف ؟ إن كربلاء ليست وقعة تاريخية انتهت في العاشر من محرم.. بل كانت منعطفاً خطيراً استهدف عقيدة الإسلام العظيم الذي حقق في صدر انطلاقته فتوحات ما كانت لتتم وتنجح لو لا تمكن العقيدة في النفوس وتمددها في ذرات الضمائر ، فهل للحسين«ع» الشهيد وأبي الشهداء وسيدهم شبيه في التضحية بين الأنبياء والشهداء ..وهل لتضحيات أرباب الديانات قديمهم وحديثهم شبه بما قدمه سبط النبي من تضحية فادحة الثمن ، فكان حقاً جديراً بوصف جده الرسول « ص» : « حسين مني وأنا من حسين » ؟

هذا ما أجاب عنه كتاب « الحسين في الفكر المسيحي » حيث عقد المؤلف مقارنة ناجحة بين شهادتي عيسى والحسين «ع» معتمداً على كثير من المراجع والخلفيات ، مبرزاً بموضوعية صافية حسنة النوايا والمقاصد ، قضية الحق الإلهي الذي تقاسمته الأديان التوحيدية الثلاثة ، وما يحملنا على هذا التأكيد هو أن أنطون بارا أنبأنا من قبل بدقته ونزاهته من خلال أعماله السابقة وبراعة أسلوبه ككاتب روائي وصحافي ناجح ، فلنقرأ هذا الكتاب لنطلع على وجهة نظر المسيحية في شهادة الحسين[1] .

***

كتاب فريد من نوعه ولغة تأسر الألباب

الكتاب الأول لزميلنا الأستاذ أنطون بارا « الحسين في الفكر المسيحي » جاء غنياً بمضمونه أنيقاً في مظهره كما عودنا الأديب بارا من خلال كتاباته وأبحاثه في الصحف والمجلات ، فقد كان واقعياً بعيداً عن التهويل العاطفي وموضوعياً بتحليلاته الجديدة حيث عاد بنا بضعة عشر قرناً إلى الوراء وجعلنا نقف بخشوع أمام

---

(١) من مقال للأستاذ أحمد مطر في جريدة القبس الكويتية ١٢أكتوبر ٧٨

ملحمة التضحية والفداء ونكران الذات ولم يبخل على هذا السِّفر القيم بجهد البحث المضني ليعمر صفحاته بالاستنتاجات والتحليلات والبراهين المقنعة .

والكتاب رحلة جريئة توغلت في أعماق أهم الواقعات الدينية التي كان لها الدور المؤثر في مسيرة الإسلام ، وذلك بأسلوب موضوعي متزن متمرد على التكرار والقوالب الجامدة والسرد التاريخي الممل الذي طالما استسهله معظم من كتبوا عن هذه الواقعات ، بينما حذق كاتبنا في أن ينسج من خيوطه الجافة هذا النسيج البديع تسعفه لغة رشيقة شفافة لم نعهدها قبلاً في الكتب الفكرية ، لغة عربية تفردت ببيانها الدال وموحياتها المعبرة بغنَّة آسرة وإيقاع شاعري أخَّاذ ، امتزج بحس ذواقة للكلمة وإحساس فائق بوقعها النفسي وباعتمالها الملهب للسرائر والأنفس والحنايا .

إننا نهنئ الزميل أنطون بارا على عمله الضخم هذا ونقول له والاعتزاز يملأ قلوبنا بما قدم لمكتبتنا العربية من فرائد الكتب : شكراً وألف شكر[١] .

***

الحوار بين الأديان

لم نقرأ قبلاً وجهة نظر مسيحية حول ملحمة كربلاء ، المتجلية في استشهاد الحسين وعترة آل البيت «ع» ، ولا ندري لمَ هذا التقصير من جانب الفكر المسيحي لإبداء وجهة نظره في هذا الصدد ، مع أن الفداء والشهادة هما ركنا الدين المسيحي الذي يقوم عليهما .

لكن كتاب الزميل أنطون بارا الحسين في الفكر المسيحي ليعتبر محاولة وتجربة جريئة من المؤلف للخوض في هذا الموضوع بأسلوب جديد كل الجدة ، لم يعهده قارىء العربية فيما نشر من مئات الكتب حول ذات الموضوع ، وهو في حد ذاته خطوة عملية ومنطلق لدراسات فكرية تعمق من الحوار بين أتباع الديانات السماوية ، بلا تعصب أو ضيق أفق ، ولكن بسعة صدر وشمول رؤية .

---

(١) من مقالة للدكتور نجيب سبيتاني نشرت في مجلة التراث العربي العدد ٧٩ أبريل عام ٨٠

وكما قلنا إن خطوة المؤلف هي جرأة إيمانية يشكر عليها لأننا انتظرناها طويلاً ، فمن أجدر بأتباع الرسالات السماوية بتأمل آيات القول والفعل التي جاءتهم بها وحملها لهم نبيوهم كلماً وآيات لهدايتهم إلى سواء السبيل والصراط المستقيم وافتداها شهداؤهم وأصّلوا جذورها في تربة وجدانهم حماية لها من الاقتلاع ؟

لقد أفاض المؤلف وفصّل بتحليل سيرة سيد الشهداء ، والتي يلمس القارىء لسطور كتابه إعجابه الشديد بهذه السيرة تيمناً بقول رسول اللّه«ص» : « إن لقتل الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً[1]» .

***

المسيحي المؤمن
يكتب بإحساس المسلم

الكتاب الذي خطّه يراع الزميل أنطون بارا أثار جدلاً واسعاً في الأوساط الثقافية والفكرية ، نظراً لما احتواه من موضوعية وطرح جديدين ، ولكون مؤلفه مسيحياً تصدى لتحليل سيرة وشخصية علم من أعلام الإسلام في وقت يحجم فيه الكثير من الكتاب المسلمين عن الخوض في هذا النوع من الكتابة نظراً لصعوبته وتشعبه وبالتالي حساسيته الفائقة .

فكيف أقدم الزميل أنطون على كتابة هذا الكتاب .. وما هي آراؤه فيمن سبقه من كتاب وما تركوه من آثار ؟

هذا ما أجاب عنه المؤلف في هذا اللقاء .

يقول الزميل : الجدية في الفكرة وفي أسلوب طرحها كانت هدفي منذ أول كلمة سطّرتها ، والجدية في كونها تعالج الفكرة من وجهة نظر مسيحية لشخصية وسيرة علم من أعلام الإسلام في أسلوب عقلاني ، إذ أن الخوض في سيرة ما يجعل من

---

(١) من مقال للأستاذ ابراهيم عبد الموجود في جريدة الأنباء الكويتية العدد ٩٨٣ سبتمبر ٧٨

عملية الخروج منها بقدر مقبول من الواقع أمراً غاية في الصعوبة ، وكان رائدي خلال العمل معادلة « كل ما يقبله العقل فهو مقبول » وقد تبلورت لدي فكرة تأليف الكتاب منذ خمس سنوات حينما شرعت بدراسة شخصية الحسين ووجدت نفسي أدون ملاحظاتي على هوامش الكتب التي أقرأها ، وبعد سنتين من المطالعة في مختلف المراجع وجدت أن ما دونته يصلح للتأليف بينه في كتاب ، وكان أن تفرغت سنة كاملة لوضع الكتاب كنت أعمل خلالها سبع ساعات في اليوم .

وعن الصعوبات التي واجهها قال : الصعوبات تكمن في كثرة الأسانيد واختلاف الروايات ، وهنا يأتي دور الكاتب في غربلة مئات من هذه الروايات ، ثم القيام بعملية اختيار صعبة يلعب فيها الحدس والخلفية الثقافية للكاتب دورهما قبل أن يقرب قلمه ويؤشر على إحدى الروايات الأقرب إلى العقل والواقع أو تلك المنسجمة مع الحدث العام والمتناغمة مع إيقاع الأحداث ، وإلا فإن الإختيار السيء يبرز كالنغمة النشاز في لحن السياق .

وحول السمات البارزة في سيرة الحسين«ع» يضيف الكاتب : شخصية الحسين «ع» محيط واسع من المثل الأدبية والأخلاق النبوية ، وثورته فضاء واسع من المعطيات الأخلاقية والعقائدية ، ولعلنا نتمثل أهم سمة من سمات العظمة في هذه الشخصية من قول جده الرسول صلوات اللّه عليه وعلى آله وسلم إذ قال : « حسين مني وأنا من حسين » فارتقت شخصية السبط إلى حيث نبوة الجد « أنا من حسين » وهبطت نبوة الجد إلى حيث إنسانية السبط « حسين مني » وفي هذا المعنى يقول السيد الطباطبائي :

غرس سقاه رسول اللّه من يده   وطاب من بعد طيب الأصل فارعه

• كتبت عن الحسين«ع» بإحساس المسلم ، في حين تجنى المستشرقون كثيراً في هذا المقام .. كيف تفسر ذلك ؟

ـ الإنسان المنصف هو الإنسان المؤمن ، والأديان لجميع خلق اللّه ، والمؤمن أياً كانت عقيدته في قلبه تكمن لواقط الحب لكل ما هو نبيل ، وفي قلبه ترقد حرارة

قتل الحسين«ع» التي عناها الرسول الأعظم« ص» بقوله : « إن لقتل الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً » فصلوات اللّه عليه لم يقل : « في قلوب المسلمين » فحسب وإنما عنى بها كل مؤمن على وجه هذه الأرض يرغب في استلهام مبادىء الحسين ، ولأن شخصية مثل شخصية السبط لا تملك إلا أن تحبها ، ففي سفر حياته لا تعثر على موقف رخو أو متخاذل .. فلمَ لا أحب هذه الشخصية وأنصفها ؟ هذا هو السؤال الأجدر بالطرح ..

أما تجني البعض ـ وخاصة المستشرقين ـ فلا يمكن وصفه ، ولكنه عكس لدافع المنصفين في إظهار الحقيقة المجردة بعيداً عن التطرف والوترة .

• ما الفارق بين معالجة الفكر المسيحي العربي للتاريخ الإسلامي وبين معالجة المستشرقين الغربيين ؟

ـ سؤال مهم .. فالفكر المسيحي العربي يستمد تراثه الفكري من تراث عربي إسلامي ويتعرض لذات التيارات الفكرية ، وفي الغرب لا يملكون الخشية والإحساس الورع بقيمة الشخصية التي يكتبون عنها ، فإذا ذكروا النبي« ص» لا يهتمون كثيراً بوضع كلمة « صلى اللّه عليه وسلم » وإذا ذكروا أحداً من آل البيت لا يضعون كلمة « عليه السلام » وهذا هو الفارق بين فكر مسيحي عربي يتمثل قدسية آل البيت «ع» كالمسلم ، وبين فكر مسيحي غربي يفتقد الإحساس بهذه القدسية ، كذلك فإن الفكر المسيحي العربي يعي كل حادثة تاريخية نتيجة تشربه لها في المدرسة ، أو زيارته لأماكنها وبسبب اتصال ظواهرها به إن في الإنسان أو التراث أو الجماد .

• أحداث معينة في سيرة سيد الشهداء «ع» أثرت بك خلال الكتابة ؟

ـ كثيرة لكن أبرزها حينما غفا الحسين في ليلة الخروج الثانية فوق قبر جده «ص» حيث رآه يضمه ويقول له : « **حبيبي يا حسين كأني أراك عن قريب مرملاً بدمائك مذبوحاً من عصابة من أمتي** » وكذلك وقوف العقيلة زينب «ع» فوق جسد أخيها المدمى ورفعها رأسه وتقديم جسده كقربان للسماء ، وحمل الشهيد لولده الرضيع طالباً له الماء حيث قُتل بين يديه عطشاناً ، أما أصعب المشاهد فكان مشهد شمر بن

ذي الجوشن منيخاً على صدر الشهيد وقابضاً على شيبته المقدسة محتزاً رأسه .

• « ثورة الحسين بدؤها حسيني واستمرارها زينبي » تعبير استحدثته أنت لأول مرة .. فكيف تصف دور زينب ؟

ـ دور الحوراء «ع» كان متمماً لدور أخيها ، إذ ما كادت الثورة تضع أوزارها عسكرياً بتساقط رؤوس آل البيت وسبي الحرم .. حتى هبت عقيلة بني هاشم إلى استلام راية الكفاح من يد أخيها ورفعتها عالياً بما علق عليها من دماء آل البيت وهتفت من تحتها :

على الطف السلام وساكنيه وروح اللّه في تلك القباب

• ركزت بصفة خاصة على كون الشهيد«ع» كان مسيَّراً إلى الشهادة ومعداً لها قبل أن يولد ، في حين وصفها آخرون بالإرتجالية ، فما تحليلك ؟

ـ عيسى «ع» قال : « يا ربي أبعد عني هذه الكأس ، لا كما أشاء بل كما تشاء » والحسين «ع» قال : « شاء اللّه أن يراني قتيلاً » والمشيئة الإلهية هي التي ترسم للشهداء خطواتهم ، فهي سيَّرت ابراهيم الخليل في دروب النمرود ، وأوقفت موسى أمام بطش فرعون ، ودفعت بيحيى لتحدي هيرودس ، ورسمت لعيسى مواقفه ، وأوحت لمحمد تسفيه أحلام قريش وسب آلهتهم وحمل الرسالة شرقاً وغرباً مهدداً كسرى وقيصر ، وهي المشيئة التي قال الرسول من وحيها لسبطه : « لا بد أن ترزق الشهادة ليكون لك ما كتب اللّه فيها من الثواب العظيم » ، فلا توافق بين الارتجالية البشرية وبين المشيئة الإلهية .

• ما هي المصادر التي اعتمدتها في بحثك .. ومن هو برأيك أفضل من كتب عن الحسين ؟

ـ أكثر من مائتي مصدر قديم وحديث ونادر إضافة للكتب السماوية كلها ، أما أفضل من كتب .. فلست بأهل لهذا الحكم لأن التقبل نسبي بين فرد وآخر ، لكني ارتحت لكتاب عبد اللّه العلايلي« سمو المعنى في سمو الذات » كما ارتحت لكتاب عباس العقاد « أبو الشهداء » ، أما المستشرقون فإن أفضلهم على قلتهم أو بتعبير أدق

أفضل السيء فيهم .. ماربين وولهاوزن ونيكلسون .

● لكل كاتب خطة معينة أثناء العمل .. فكيف خططت لكتابك من حيث اللغة والأسلوب ؟

ـ أردته كتاباً تحليلياً صرفاً لايقرب من السرد التاريخي إلا فيما يخدم الفكرة ، لأني لست مؤرخاً بل كاتباً يبحث في التاريخ عن الإنسان ، وقد عنيت بالوفرة في الاستشهادات ، كما حرصت على « الموضوعية » البعيدة عن الشطط والتطرف حيث سمحت لقلمي بنزع حالات شطط عن بعض الأحداث لتنسجم مع الهيكل العام للكتاب ، وبالنسبة للأسلوب فقد أردته سلساً طرياً يخفف من جفاف التاريخ الذي يغوص به ، مستخدماً لغة لا هي تاريخية جافة ولا أدبية عقيم ولا فلسفية عسرة ، بل لغة وسطاً بين الأدب والصحافة المثقفة التي تأخذ من الأدب جماله ومن الصحافة غناها اللغوي وإيقاعها السهل الممتنع ، ثم حاولت إعطاء كل حدث ما يوافقه من لغة وأسلوب بغض النظر عن لغة وأسلوب الهيكل العام للكتاب ، وذلك بهدف إعطاء البحث جدية العمل ، وسلاسة التحقيق ، وابتكار العرض البعيد عن الإنشائية والتقريرية وتكرار ما سبق تكراره[1] .

***

كتاب أتمنى أن
يقتنيه محبو الحسين

كثيرون كتبوا سيرة الإمام الحسين«ع» وأظهروا مبادئه النبيلة والقيم التي حافظ عليها حيال نوازع الشر والظلم التي تحيط ببني الإنسان ، وأنا أكتب هذه الكلمات عدت إلى كتاب أتمنى أن يقتنيه كل من أحب الحسين وآل بيت الحسين عليهم السلام لأن فيه شهادة باحث يدعى أنطون بارا بعنوان « الحسين في الفكر المسيحي » يجسد في ثناياه حقيقة أن التاريخ لم يسجل شبيهاً لاستشهاد الحسين في كربلاء فاستشهاده

---

(١) من حوار في مجلة صوت الخليج العدد ٨١٩ أكتوبر ٧٨ أجراه مع المؤلف الأستاذ شاكر حيدر .

وسيرته هما عنوان واضح وقوي لقيمة الثبات على المبدأ والحق ، ولعظمة المثالية في أخذ العقيدة وتمثلها ، فقد كان الحسين«ع» شمعة الإسلام أضاءت ضمير الأديان إلى أبد الدهور .

وليس كبيراً على الحسين بن علي عليهما السلام رائد الإنسانية ومثلها الأعلى ، أن يكون صاحب ثورة أولى ورائدة ووحيدة وخالدة بعد محمد صلى اللّه عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام[1] .

***

لم يقلها سني ولا شيعي

« **الإسلام بدؤه محمدي واستمراره حسيني** » عنوان هذا المقال كلمة صدرت على لسان رجل لا هو شيعي ولا هو سني ولا هو بمسلم .. بل هو كاتب ومفكر مسيحي معروف اسمه أنطون بارا .

وهذه الكلمة المهمة تثبت أن قضية الحسين بن علي«ع» قضية عالمية لا تختص بفئة دون أخرى ، أو بفريق دون آخر ، فالحسين «ع» إنما جاء ليعلم البشرية درساً في معاني الحرية والعدالة التي جاء بها الإسلام العظيم ، إسلام محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين .. لا إسلام أبي سفيان ومعاوية وهند ويزيد .

فالثورة الحسينية هي التي حفظت الإسلام النقي ، إسلام الإيمان والعدل ، لا إسلام النفاق والظلم .. إسلام الأحرار لا إسلام الفجار من أهل السلطان .

وإذا ما قيل إن « الإسلام بدؤه محمدي واستمراره حسيني» فإننا نضيف ونحن نستذكر يوم الأربعين قول المؤلف : وثورة الطف .. بدؤها حسيني وبقاؤها زينبي[2] .

---

(١) من مقال للدكتور إبراهيم بهبهاني في مجلة المنبر عدد ١٢ صفر ١٤٢٢هـ

(٢) عنوان غلاف نشرة « رسالة عاشوراء » إصدار أنصار القائمة الحرة في ذكرى أربعين الحسين «ع » ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ - كويت .

وفي لقاء مع المؤلف نشر تحت عنوان[1] « حوار مع أشهر مسيحي كتب في الإمام الحسين » ذكر في رده على سؤال عن الدافع وراء وضعه كتابه ، بأن هذا السؤال كثيراً ما طُرح عليَّ ، لذا فقد حرصت في الطبعة الثانية على تبيان الدافع وراء كتابة كتابي ، فأشرت إلى أنني اعتدت معايشة شخصية الحسين«ع» من خلال مطالعاتي لملحمة كربلاء للإلمام بالأبعاد الروحية والنفسية لشخصية مفجِّرها ولم يدر في خلدي في يوم من الأيام أن أكتب كتاباً من هذا القبيل .. ليس ترفعاً ـ حاشا للّه ـ بل لشعوري بعدم القدرة على الخوض في هكذا موضوع صعب وله جوانبه الروحية والتاريخية والزمنية والفقهية ، إضافة لما شكله منذ وقعت الحادثة من زخم عقيدي في نفوس المسلمين وغير المسلمين نظراً لما انطوت عليه فلسفة خروج الحسين«ع» بأهله وصحبه وما جرَّته الملحمة بعدها بقرون من اجتهادات واختلافات في الآراء والتحليلات .

لذا فقد كان من الصعب الكتابة بهذا الموضوع الحساس فضلاً عما يلزمه من اطلاع وقراءات في كتب أخرى ، وما يستتبع ذلك من تدوين للملاحظات ومقارنة مئات التفاصيل المتباينة ، وما يتطلبه أيضاً من وقت وجهد لكتابته وهو وقت تضن به فترة الشباب المبكر ولا تتفق مع فورة طموحات العمر وتكوين المستقبل ، إلا أنني بعد القراءات الأولى وجدت نفسي أتبعها بلا تخطيط أو تصور بقراءات كثيرة حتى أخذت تتشعب وتتناول جوانب شتى لها علاقة من قريب أو بعيد بملحمة الاستشهاد في كربلاء .. ولم أعد قادراً على مقاومة إلحاح داخلي بالبدء ، تزامن مع إلهام أخذ يلازم الفكر بالصحو والمنام والقعود والقيام لتلبية هتاف وحي رجَّاف انبثق له من أعماق الدهور يستحث ويشجع الوجدان والعقل للإقدام على تبني الرأي والتدوين وكسب مثابة إضافة جديد مهما بلغ من التواضع على تبليغ سيرة الحسين العطرة وثورته الخالدة .

---

(١) « رسالة الحسين » بمناسبة عاشوراء عام ٩٥ اصدار مكتبة الرسول الأعظم في الكويت .

وهكذا كان .. فاستجابت الجوارح لهذا النداء بعد أن استشعرت سعادتها كلما همَّت لخاطر من هذه الخواطر ، حتى تحول الإعجاب والرغبة في الإضافة إلى إحساس بضرورة إتمام واجب ، وشعور بوجود قوة غير مُدْركة تعين على هذا الإتمام ، شرط أن يبدأ .. لذا فلم أتأخر وبدأت بشكل متفرغ للعمل وسلخت سنتين من عمري عشتهما وسط أشرف محيط فكري ، أعايش في كل ثانية خلال الليل والنهار سيرة أبي الشهداء ، ويوماً بعد يوم كانت الرؤيا السليمة تتفتح أمام بصيرتي لتتحول إلى تحليل وتصوير وتعقيب إلى أن فرغت .

والآن حينما أعيد قراءة الكتاب بعد اكثر من ١٧ سنة من تأليفه يتأكد لي صدق ما أحسست به ، وأشعر برغم تراكم الخبرة الفكرية بأنني غير قادر الآن على إنجاز عمل شبيه بهذا الكتاب حتى لو تفرغت له عشر سنوات ، فيتأكد لي بأن هذا الإنجاز لم يكن بقدرتي وحدها ، وأتيقن من شمولي ببركة ريحانة الرسول المذبوح ظلماً والمستشهد دون حق اللّه فوق ثرى كربلاء المقدسة ، فأشكر اللّه على هذه النعمة التي خصني بها والتي سأظل أفخر بها مهما تعددت مؤلفاتي إذ يظل كتاب «الحسين في الفكر المسيحي » من أبلغ ما كتبت وأفضل ما سطرت وهذا شرف كبير لي .

● **وعن نظرة المسيحيين للإمام الحسين «ع» ، قال :**

ـ إن الفداء والاستشهاد يشكلان ركناً مهماً من أركان المسيحية ، وقد عاش عيسى «ع» وتحرك وعلّم فادياً نفسه لشعبه ، لذا فإن الاستشهاد له جوانبه الروحية ، والمسيحي يقدس آل البيت عليهم السلام و ينظر إلى استشهاد الحسين «ع» على أنه قمة التضحية والفداء ، ويقارن بين أهداف كربلاء وأهداف عيسى فيجد تشابهاً كبيراً بين توجههما ، مع الإقرار بالفوارق البينية في الأسباب والكيفية لا في الجوهر والهدف ، وفي العودة إلى فصل ـ فداء الحسين في الفكر المسيحي ـ شرح واف لنظرة المسيحي للإمام الحسين واستشهاده ، لأن الرغبة في الاستشهاد والاندفاع إليه لا يُؤتيان إلا للأنبياء والشهداء والمصطفون ، وما دامت ثورة الحسين قامت من أجل الحق وإعلاء كلمة اللّه .. فإنها بهذا المقياس تكون دفاعاً عن الحق في الرسالات السماوية التي سبقتها ، فلمَ لايكون رافع لوائها في موضع التقديس .. ولمَ لا تكون

سيرته العطرة باعثة على استلهام معاني الفداء ، لاسيما إذا كان الاستشهاد بهذا الشكل الدامي الذي شهدته بطاح كربلاء والذي مازال صداه في المهج والحنايا والصدور ؟

وحول مساحة الحسين في قلب أنطون بارا ، قال : وهل يُسأل هذا السؤال وكتابه الذي عانى من أجله شاهد على مقياس المساحة التي يحتلها الحسين«ع» في قلبه وشاهد على حجم المصاعب التي واجهته قبل وخلال تأليف الكتاب وبعد صدوره والسهام الكثيرة التي وُجهت إليه والنقد الذي تحمله ، والمحاكمة على بعض عبارات الكتاب ثم منعه من التداول والخسارة المادية والمعنوية ، إلا أن كل ذلك الذي سلف لم يكن ليزيدني إلا حباً في الحسين حتى نلت لقب ـ المسيحي المتشيع ـ لآل البيت طمعاً في أن أكون واحداً من أولئك الذي عناهم الرسول «ص» بقوله : « مثل أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق » إذ ليس المقصود في هذا القول الكريم ـ من ركبها ـ ركوباً مادياً في حينها أو ـ تخلف عنها ـ تخلفاً زمنياً في ساعتها .. بل كل من استلهمها بسيرة أهل البيت رمزاً ومعنى ، وقولاً وفعلاً ، ومن أحبَّ رموزها القدسية .

وعما لو كان الحسين«ع» عند المسيحيين ما كانوا يفعلون من أجله ؟ أجاب : لو كان الحسين لنا لرفعنا له في كل بلد بيرقاً ولنصبنا له في كل قرية منبراً ولدعونا الناس إلى المسيحية باسم الحسين ، هذا ما قاله قسيس منذ زمن سحيق..فهل من مزيد ؟

وسُئل عما إذا كنا مقصرين بحق الحسين«ع» ، فأجاب بـ« نعم » طالما نرضى بالظلم ولم نتعامل بالعدل ، فالحسين لم يقم بثورته لأجل الثورة وما يصاحبها من صراع العضلات وقعقعة السلاح لتنتهي بانتهاء المعركة .. بل لتظل لنا نبراساً يذكرنا كي لاتعصف بنا في يوم نعرة يزيدية ، ونتشابه بالشمر وابن زياد ، وحتى لايقرِّبنا شيء من حرملة الأسدي ، فنفعل كما فعل أبو الحتوف الجعفي أو كمالك بن النسر وزرعة بن شريك وغيرهم .. نعم نحن مقصرون إذا تهاونا بالمبادىء الجليلة التي كانت تضحية الحسين وآل بيته الدرامية الدامية ثمناً لها .

ورداً على سؤال حول ما إذا كان الحسين «ع» يختص بالشيعة أم هو خارج هذا الإطار ؟ قال : عليه السلام شخصية عالمية لأن ثورته لا تختص بالمسلمين وحدهم ولابالشيعة.. بل هي ثورة الإنسانية والإنسان أينما وجد ومهما كان دينه طالما وُجد فوق أرض فيها ظالم ومظلوم ، وهذه الثورة بشموليتها للإنسانية ومبادىء البشرية الخيرة .. فهي إذن عالمية ، وشخصية مفجرها قدسية لدى أتباع كل الديانات السماوية وغيرها ، لأن الإنسانية جمعاء تشترك في ثوابت واحدة لاتتبدل بتبدل الديانات ، ونعني بها ثوابت الخير والشر والظلم والعدل ، ومن هذا المنطلق والفهم تكون شخصية الحسين لجميع الأديان وأتباعها.. لا للمسلمين والشيعة فقط «شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

• أين تضع نفسك مقابل الشهيد وهب المسيحي ؟

ـ بالرغم من بعد القرون بين كربلاء والقرن العشرين.. فإنك حينما تنافح برأيك أعداء الحسين ، وحينما تستل قلمك لتكتب في أفضال ثورته وعظيم استشهاده وسط هذه الضراوة المتملِّية المتخذة لبوساً مختلفة.. تكون مجاهداً مع الحسين في كربلاء ، وتتشابه إلى قرب مع الأنصاريْيْن سعد بن الحارث وأبو الحتوف ، وحينما تتلقى تسفيه الآخرين ولومهم لك على وقفتك الفكرية مع رافع لواء الحق .. يقربك شيء من الشهيد وهب ، وهكذا فإن الثواب ليس له مقياس زمني حتى وإن بعدت الحادثة ، وبعد ١٤ قرناً وحتى بعد ٢٠ قرناً سيكون من يكتب حرفاً واحداً في دعم الحق الذي انبثق منذ كربلاء .. كمن يلبي نداء المكروب بعد سقوط العباس« أما من مغيث يغيثنا » لأن الجهاد سلسلة متصلة مهما تباعدت الدهور وتعددت الأساليب طالما النية معقودة على رفع راية الحق التي رفعتها ذراع أبي عبد اللّه ـ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ـ فسلام عليه سيداً للشهداء .. وسلام عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حياً .

***

الإمام الحسين سجدة شبيرية

ولغير المسلمين رأي اعتقادي حول شخصية الإمام الحسين«ع» تجلى بأكثر من هتاف وهتاف ، فإليكم هذه المهاتفة من أحدهم وهو مؤلف كتاب « الحسين في الفكر المسيحي » حيث يعلنها بلا اعتراض ويقول :

فقد كان الحسين شمعة الإسلام أضاءت ممثلة ضمير الأديان إلى أبد الدهور ، ولم تحظَ ملحمة إنسانية في التاريخين القديم والحديث بمثل ما حظيت به ملحمة الاستشهاد في كربلاء من إعجاب ودرس وتعاطف ، وهي خالدة خلود الإنسان الذي قامت من أجله .

فهذا الحديث المتألق والمتدفق بتأثر وتفاعل مسيحي مع الحسين «ع» يشير لنا أن للحسين تغاريد وزغاريد ذات إيثار وإكثار تجمعت إرادة الأمم الغابرة والحاضرة على ترديدها بأذواق ندية ونقية تملك مجامع كل قلب يعيش تحت هذه السماء الزرقاء ، ويطوف في رحاب روضة الحسين الغنَّاء لأنه «ع» العظيم الوحيد الذي اختار طواعية طرقاً ذات عقبات كأداء لم تألف البشرية اجتيازها ولا يطيق المغامرون والعمالقة سيرها من قبل في تحقيق تجربته الخالدة التي هي انتفاضة المظلومين ضد الظالم ، والمحرومين ضد الحارم ، تجربة ذات قيم رفيعة ومثل عليا[1] .

***

محبة الحسين في قلوب العباد المخلصين

لقد أعطى الحسين كل ما يملك لحبيبه مالك الملك ، فبماذا يجازي مالك الملك حبيبه ؟ وهو الذي يحب المحسنين ويحب المتقين ويحب المقسطين ويحب المتوكلين ، هل يكفي جزاء له أن يجعل محبته في قلوب المخلصين من عباده المسلمين وغير

---

(١) مجلة الشهيد الإيرانية العدد ٦٢٦ تاريخ ١٧ نوفمبر ١٩٩٩عبد الرسول الفراتي .

المسلمين من أمثال بولس سلامة الشاعر اللبناني المبدع والأستاذ أنطون بارا وجورج جرداق ، وحتى غاندي الذي قال مقولته الشهيرة : علّمني الحسين أن أكون مظلوماً لكي أنتصر .

لقد جعل اللّه سبحانه وتعالى محبة الحسين عليه السلام في قلب كل منصف ومحب للسلام ، لقد جعل اللّه سبحانه وتعالى محبة الحسين عليه السلام في قلوب من يحبونه على مر الدهور والعصور ليبقى نوراً ونبراساً وقبساً لكل أحبائه[١] .

***

خصائص روحية للثورة الحسينية

حينما قام الحسين «ع» بثورته كان يهدف إلى حفظ كيان أمة جده محمد «ص» والذبِّ عن العقيدة الإسلامية من أذى التحريف والضياع ، وبثِّ روحية عقائدية جديدة في صدور المسلمين تذكرهم في منامهم وقعودهم بأهمية صون جوهر عقيدتهم ورفض العبث بها .. هذا ما أورده الكاتب المسيحي المشهور أنطون بارا في كتابه القيم الحسين في الفكر المسيحي[٢] .

***

الإستفادة من نهج الحسين

مهما تكن أمة المعتقدين بنهج أبي عبداللّه مسلمين كانوا أو غيرهم ، سيحصدون ثمار النصر لاقتدائهم الحق ومعرفة طريقه ، ولعل مقتل الحسين ودمه الشريف كانا النصر المؤزر الذي انعكس على الجميع وجعله رمزاً للحرية ونهجاً لمحاربة الشرك

---

(١) من مقالة لصادق الحسن بعنوان ـ الحب ـ نشرت في القبس عدد الجمعة ١٤/ ٤/ ٩٢ م بمناسبة عاشوراء .

(٢) جزء من ترجمة موسعة للكتاب نشرها الكاتب الإيراني م ـ آزاد أردبيلي في صحيفتي كيهان الفارسية اليومية وموعود الشهرية عام ١٩٩٩

والظلم والاستكبار واستعباد الناس .

لقد كان الإمام الحسين نبراساً يهتدي به من أراد الفوز ومن أراد خير الدنيا والآخرة ، فهاهم العظماء والمشاهير بمختلف أفكارهم وتوجهاتهم ودينهم ساروا على الطريق الصحيح واستناروا بنور الحق ، النور الحسيني ، وتحملوا الصعاب والعوائق وفي النهاية نالوا هدفهم الأسمى وسجلوا أسماءهم في سجل الغالبين ، نعم .. ذلك شرف من تمسك بالحسين ، ونستذكر بعض ما قيل حول الإمام المظلوم الحسين بن علي بن أبي طالب .

ـ الزعيم الهندي غاندي قال : اتضح لي أن الهند إذا أرادت الانتصار فلا بد لها من اقتفاء سيرة الحسين .

ـ رئيس المؤتمر الوطني الهندي السابق تاملاس توندون : هذه التضحيات الكبرى من قبيل شهادة الحسين رفعت مستوى التفكير البشري ، وخليق بهذه الذكرى أن تبقى إلى الأبد وتذكر على الدوام .

ـ الكاتب السوري المسيحي أنطون بارا : لو كان الحسين منا ـ مسيحيا ـ لنشرنا في كل أرض راية ولأقمنا له في كل أرض منبراً ، ولدعونا الناس إلى المسيحية باسم الحسين .

ـ المستشرق الانكليزي السير برس ج سايكوس : هذه الفئة الشجاعة الشريفة ، ـ الحسين ومن معه ـ جعلت لنفسها صيتاً عالياً وخالداً لا زوال له إلى الأبد[1] .

***

رؤية مميزة لحدث عظيم

في لقاء مع المؤلف أنطون بارا في مجلة المنبر الكويتية تحدث عن تجاهل المسلمين وتقصيرهم في معرفة قدر الحسين «ع» و أجاب في لقاء موسع عن ظروف تأليفه

(١) فقرة من مقال لعلي جاسم أشكناني نشر في القبس بتاريخ ١٠ محرم ـ ١٣ مارس ٢٠٠٣

لكتابه الأشهر « الحسين في الفكر المسيحي » ومع مقتطفات من حديثه نسلط الضوء على أهم المرتكزات في طرحه المميز والمغلف بالصدق والشفافية وحب الحسين وآل البيت «ع» [1].

***

ثورة الحسين لكل الخلائق

ونقترب أيها الإخوة الأعزة الى زمننا هذا ، فنقرأ للأستاذ أنطون بارا وهو كاتب مسيحي يؤلف كتاباً يفوح بعطر الإكرام والإعجاب يقول فيه فيما يقول : الحسين ثار من أجل الحق ، والحق لكل الشعوب ، والحسين ثار من أجل مرضاة اللّه ، وما دام اللّه خالق الجميع.. فكذلك ثورة الحسين لا تختص بأحد بل هي لكل خلق اللّه[2] .

***

عين المحب فيه تكتحل

يسفر به اليُمنُ والإيمان يختزل ... ماذا تسطر عن أسراره الجمل

قد توَّجته سطور نال كاتبها ... حب الحسين فحل العدل والنبل

نجومه في ذرى الوجدان ساطعة ... فيه المآثر والأخلاق والمثل

وخطه اليوم إخلاص همته ... فذ أديب لبيب كاتب هطِل

أنطون بارا فقد أبدى بوقفته ... روح الإخاء فلا نكد ولا جدل

وساق لابن رسول اللّه ملحمة ... والشوق يحدوه والأفكار والجذل

هو الحسين قلوب الخلق تعشقه ... فبالكرامة دوماً يُضرب المثل

هو الحسين فدى الإنسان مهجته ... فالحق بان وضاع الغيُّ والجهل

---

(١) من مقال على حلقات في مجلة « أبرار » الإيرانية كتبه سيد مرتضى حسيني فاضل عام ٢٠٠١

(٢) مقالة بعنوان « الحسين عنوان الفضائل » نشرتها شبكة الإمام الكاظم «ع» عام ٢٠٠٤

حـوى خـلال رسـول اللّه في ألق — ومن ثناياه بات العطر ينتقـل
قـد ارتقى فـوق هام المجـد من قـدم — له الفـراقـد والأكـوان تحتـفل
وقـد عشـقناه قلبـاً نابضـاً وعـلا — وحـيث حل يحل العـز والأمل
وقـد حـملناه آمـالاً يفـيض بهـا — حلم النبـيين والقـرآن والرسل
سـبط النبي له الأكـوان خاشـعـة — وعين كل محـب فيـه تكتـحل
ومن جـراحـه آمنّا بخـالقنا — لأنه العـزم والإقـدام والبطل
وسـوف تعلو بيـوم الحـشـر رايتـه — مـا دام حـبل له باللّه يتـصل[1]

***

سعادة البشرية
في رمزية كربلاء

عدا كتب التاريخ الصرفة ماضمت أرفف المكتبات العربية كتاباً واحداً يعرض لملحمة كربلاء بالتحليل الجيد والعرض المتقن .

كل الكتب التي تناولت سيرة الحسين العطرة ما خرجت عن ترداد ما رُدد مئات المرات ، وكأن عظمة هذه السيرة تكاد تقف عند حدود هذه التعابير المعادة والمكررة على وتيرة واحدة .

سيرة الحسين .. مبادىء .. ومثل .. وثورة ، لأعظم من حصرها ضمن الأطر التي حُصرت بها ، وعلى الفكر الإنساني عامة لا الفكر المسلم والمسيحي فحسب .. أن يعيد تمثلها واستخلاص رمزيتها من جديد ، لأنها سر سعادة البشرية وينبوع سؤددها ومكمن حريتها أعظم ما عليها امتلاكه .

كتاب واحد قرأته فوجدت فيه ضالتي في فهم شخصية الحسين وثورته ، وهو

---

(١) قصيدة احتفالية بالكاتب والكتاب من نظم الشيخ عبد الرسول الفراتي اكتوبر ٢٠٠٢

كتاب « الإمام الحسين .. سمو المعنى في سمو الذات » للشيخ العلامة عبداللّه العلايلي ، بعده لم يعد ثمة كتاب آخر يشدني في مستوى بلاغته وتحليلاته ، إلى أن اطلعت على الكتاب الفريد الذي خطه يراع الكاتب والصحافي أنطون بارا والذي نحى بتحليلاته فيه منحى مبتكراً جديداً على أسلوب البحث ، سواء على صعيد السيرة أو التاريخ أو اللغة المسخرة لهما .

ولأول مرة اكتشفت إمكانية إيجاد لغة ملائمة لبحث يغوص في موضوع ديني تاريخي ، لغة لا يملها الفكر ، ويحار في وصفها الذوق السليم لما ملكته من رشاقة وغنَّة وإيقاع سهل ممتنع يجمع بين إيقاعات لغات الصحافة والأدب والشعر والبحث الجاد كان منها أن جعلت من سطور الكتاب سيمفونية رائعة فيها من كل لون قبس ومن كل عطر أريج ومن كل صوت نغمة[١] .

***

كاتب كسر الحواجز العقائدية برؤيا إيمانية

هذا الكتاب أعتبره حالة فريدة من نوعها في المكتبة العربية ، فهو عدا ما شكَّله من خطوة غير مسبوقة في عالم الفكر بإثارته هذا الحوار المنطقي الرائع من خلال مقارنته الناجحة بين شهيدي المسيحية والإسلام «ع» وإبراز التشابه المتطابق بين مبادئهما الروحية ومواقفهما في الدفاع عن العقيدتين .. فقد نجح كاتبه في كسر الحواجز العقائدية التي ساهم في ديمومتها غياب المنطق والحوار المتجرد من الأهواء على مر القرون ، واستطاع فتح كوة في جدار الإنغلاق العقيدي برؤيا إيمانية صافية سوف تساهم كثيراً في تلاقي وجهات النظر والالتفاف حول القواسم المشتركة بين رسالتي السماء لإسعاد البشرية وانتشالها من وهاد الضلالة وفلوات الضياع[٢] .

---

(١) كرم قنصل ـ مجلة الكلمة السورية عام ١٩٧٥

(٢) من مقال لمختار الأيوبي ـ مجلة التراث ـ عدد ٧٩ تاريخ ١٢/ ٤/ ٨٦

الإعجاب وحده لا يكفي

لتثمين عطاء المفكرين

سمعت عنه الكثير .. تقريظات وتحليلات من فوق المنابر أشادت به إعجاباً .. ومحاورات حوله في المجالس والملتقيات من أفواه المهتمين بالشأن الحسيني .. لكني لم أتمكن من الحصول عليه خلال السنوات الماضية الى أن أهدانيه إياه صديق عزيز وأوصاني بإعادته إليه في أقرب وقت فوعدته خيراً وطلبت منه إمهالي أسبوعاً لأنجز هذه المهمة .. لكن هذا الأسبوع امتد إلى أكثر من شهرين قرأته خلالهما بتمعن لأربع مرات ، وفي كل مرة كنت أكتشف فيه جديداً .. من : تميز في الطرح ، وجرأة في الاستنتاج وريادة في التحليل ومصداقية شفافة في التناول ، وفوق ذلك كله إبداع لغوي فريد من نوعه يحملك إلى عالم نشوة هيولية من الكلمات المضمخة بأريج لغة الضاد ، فتدهش كيف استطاع هذا الكاتب موالفة لغة ساحرة أخاذة مع موضوع تاريخي عقائدي بكل هذا الكم من الطواعية والمضاء وفن استخدام الكلمة في أسلوب كتابة يشدك بشوق عارم إلى الاستمرار في التهام سطورها سطراً بعد آخر وكأن بك عطشاً لا يُروى إلا مع نقطة الختام ، ولا عجب في ذلك فكاتبنا الألمعي نهل الكثير من معين بلاغة « نهج البلاغة » الذي كما علمنا أنه قرأه ٢٥ مرة حتى الآن .

بعد انتهائي من قراءة هذا السِّفر القيم المعنون بـ « الحسين في الفكر المسيحي » للمفكر والروائي السوري أنطون بارا .. قلت لنفسي : ماذا سأكتب عنه بعد الذي كُتب منذ ثلاثين سنة .. هل سأضيف جديداً على ما قيل وما قدم له علماؤنا الأجلاء من فوق المنابر وعبر وسائل الإعلام في المناسبات الدينية المتعاقبة منذ صدوره وحتى الآن لإعجابهم الشديد به ؟ ولما أعياني الجواب .. التمعت في خاطري فكرة لم أكن أتوقعها.. لمَ لا أتناول الحديث من زاوية أخرى لم يتطرق لها أحد من قبل .. وبها أكسب أجر هذا التناول المغاير للسائد ، لما فيه من إحسان وإقرار بفضل ولفت نظر لأمر من الواجب علينا جميعاً التنبه إليه والمشاركة فيه بعد غفلة طويلة عنه ؟

فكرة طارئة خلّفت تساؤلاً : ترى كم من الجهد والسهر والمراجعة والمعاناة

والحرمان من أوقات الراحة والمتع يدفعها الكاتب الملتزم كثمن لالتزامه.. وما هي محصلته في النهاية عدا الإرهاق وخسارة الصحة والمال والتسفيه من قبل الموتورين الذين لا يرون في الورود الجميلة غير الشوك المدمي ، وترفع ضغط عروقهم كلمة حق تصطدم بها أبصارهم ، ولو اقتصر الأمر على ذلك .. لهان ، لكنه يتعداه إلى التهديد والوعيد والتحقير والتشهير الإعلامي والجرجرة إلى المحاكم تحت ستر مزيفة تنقصها الحجج ، وهي في ضعفها أوهى من بيت العنكبوت ، لكن هؤلاء الكتاب الأحرار الملتزمين خلقياً وإيمانياً على اختلاف عقائدهم .. يؤدون ضريبة مواقفهم في ميدان الحق برضا الأنفس متأسين بتضحيات الحسين «ع» وسائرين على خطوه .. فكما أنه «ع» كان بإمكانه بهزة رأس بسيطة أن يتجنب وآل بيته التهلكة ، وبالمقابل يصبح أميراً مطلقاً على ولاية أو ثغر من الثغور .. إلا أنه آثر التضحية استجابة لصوت الحق المنبعث من داخله والموحى إليه من العلا ، مع معرفته بما ستؤول إليه وقفته.. كذلك حال هؤلاء المفكرين المقتدين به ، والذين لو هزوا أقلامهم هزات لا تُذكر في مدح وتزلُّف يزيديي وفراعنة عصرهم .. ولو سخروا معشار مواهبهم الفذة في دغدغة الغرائز بقصص الحب والمراهقة والتصابي .. لامتلأت جيوبهم ذهباً ، ولعاشوا في طمأنينة ، لكنهم يتأسون بالأسوة العظيمة التي مثلتها وقفة أبي عبدالله في مواجهة الزيف والمنكر ، والتي لم يسجل التاريخ شبيهاً لها ، مع علمهم بمقدار الأذى الذي سيحيق بهم .

ومؤلف هذا السِّفر الرائع كانت له وقفة شجاعة شهد لها الجميع بالقوة والمضاء ، يُجزى عليها كل الخير والبركة ، حيث عانى منها الكثير كما علمنا حتى أوصلته المعاناة إلى المحاكم وإلى تجريم كتابه ومنعه من التداول ، أما بولس سلامة فقد عانى ما عانى خلال تأليفه لملحمة عيدالغدير ، وكذلك جورج جرداق مؤلف موسوعة الإمام علي «ع» هؤلاء الصفوة الأحرار لم يكن يحوجهم شيء لركوب هذا المركب الصعب .. وكان بإمكانهم مع معرفتهم بما ستجر عليهم كتاباتهم في هذا الاختيار الينبوعي المكلف فكرياً .. أن يتجنبوا نتائجها ويستعيضوا عنها بكتابات تمنحهم ولا تسلبهم..تكسبهم ولا تخسرهم..تقربهم ولا تورطهم..تريحهم ولا ترهقهم بتبعاتها

الكثيرة ..لكنهم أبوا بشمم مترفِّع عن نقيصة هذا التوجه وبرهنوا على أصالة أقلامهم ونقاء ضمائرهم وسمو أفكارهم وثبات مبادئهم ومعدن نفوسهم ، وفضلوا السير في درب الحق الذي وصفه أمير المؤمنين علي «ع» بالموحش لقلة السالكين فيه ، والذي عبَّده لهم وللبشرية جمعاء وشق ظلامه الموحش .. قمر بني هاشم بالتماعاته في ليل أوهامهم المحلولك .. وبسطوع نجوم آل بيت النبوة فوق أديم النفوس الجزعة من سواده الدامس .

هؤلاء المفكرون الأفذاذ .. ماذا فعلنا لهم .. وكيف ثمنَّا مواقفهم الحرة .. هل شجعناهم ووقفنا إلى جانبهم..وما هو الشكل الذي اتخذه هذا التشجيع لأكثر من الإعجاب ورفع الحواجب دهشة..هل ساعدناهم ليمضوا في مسيرتهم الطيبة ويتفرغوا لإبداعاتهم بعيداً عن هموم العيش وضغوط الحياة ، وكم من هؤلاء النادرين يعيشون بين ظهرانينا حتى نهملهم هكذا .. ألا يعدون على أصابع اليد الواحدة من بين الملايين في شرق شرقنا وغرب أرضنا فكيف يطاوعنا خلقنا الحسيني للتفريط بهم وتجاهلهم بهذه السهولة واللامبالاة ؟

الذي أعرفه ويعرفه الكافة أن لا أحد دفعته حمية المبادرة للتواصل بواحد من هؤلاء المفكرين ليعرض عليهم عوناً من نوع ما ، عون يجنِّبهم إراقة ماء وجوههم ويشعرهم بتقديرنا لهم وبأهمية ما قدموا ، فهذه النوعية من الكتاب يعتز أفرادها كثيراً بكبريائهم ويتعففون عن الحديث أو التعامل بالجوانب المادية الخاصة بإنتاجهم الفكري لشعورهم بأنه أرفع من الماديات .. ولرغبتهم في النأي به عن التآويل الغارقة في السوء والتي يتفنن في حبكتها أهل المظنة والفكر المريض ، والصائدون في الماء العكر الذين لا يعملون ولا يدعون غيرهم يعمل ، كما أن هؤلاء الكتاب يستنكفون عرض كتبهم على أي جهة لأنهم في الأساس لم يكتبوها للتكسب كما أسلفنا ، ولو كان هذا هدفهم لخاضوا في المواضيع التي تؤمن الكسب المضمون السريع وتجنِّب المتاعب وتوفر الوقت والجهد المطلوبين لتأليف الكتب الفكرية الصعبة كالتي تصدوا لتأليفها غير ضانين عليها بأفضل سنوات أعمارهم وحارمين أنفسهم وأسرهم الكثير الكثير ، ومعرضين أوضاعهم المهنية للاختلال بسبب انكبابهم المضني الطويل على

إنجاز إبداعاتهم بالشكل الذي يليق بقدسية الشخصيات المنزهة التي يكتبون عنها ويعكس بالتالي مصداقية رؤاهم الخاصة ككتاب وشفافية مواهبهم في الاختيار والطرح والمعالجة ، لذا فهم يتحملون تكاليف طبع كتبهم بطيب خاطر ودون إفصاح حتى لتحسبهم أغنياء من التعفف .. وهكذا طرحوا أعمالهم للأمانة والتاريخ دون مقدمات ولا تمهيد ودون توقع مغنم ولا محاولة استدرار مساعدة أحد .

وقد يسأل سائل : كيف أقدم هذه المؤازرة لهؤلاء الكتاب الشرفاء ؟ والجواب بسيط.. فعلى مستوى الأفراد والجهات والجمعيات.. هناك طريقة مألوفة أثبتت فاعليتها وتعرف بـ « تبني الإنتاج » وتتلخص آليتها باقتناء كمية من نسخ الكتاب وتوزيعها ، سواء بالمجان وفاء لنذر ، أو قربى لآل البيت «ع» ، أو ببذل جهد طوعي لبيعها في المراكز والجمعيات الدينية والاجتماعية والثقافية أثناء المناسبات الدينية ، وكذلك يمكن تبني طبعة خاصة .. لا لتُباع بل لتوزع وتُهدى بواسطة متبنيها عن روح عزيز من أهله فتسجل من حسنات الفقيد ومكرماته ، حيث أنه وهو في رحمة اللّه هناك من يعلي باسمه مناقب الحسين وينشر أهداف ثورته الخالدة ، كما يُثاب على هذا الإعلاء والتذكير من بادر إليه طوعاً ومحبة وقربى ، كما في مقدور أي محب لأسد كربلاء اقتناء عدد من النسخ وإرسالها بالبريد وإهدائها للأصدقاء الأقربين والأبعدين ، مسلمين وغير مسلمين في المناسبات المختلفة .

ولإظهار التقدير الشخصي للكاتب .. يمكن المبادرة بالاتصال به مباشرة على عنوانه الألكتروني أو البريدي أو بواسطة الهاتف ، وهذه وسائل صارت في متناول أي فرد لعرض التشجيع والإعجاب والمساعدة والدعم المادي والمعنوي ، وهذه الطريقة لها تأثيرها الكبير على نفسية الكاتب لأنها تقيم جسر تواصل مع قارئه وتشعره بأن هناك من يقدر ويهتم بما قدم .

وعلى مستوى المؤسسات والجهات الكبيرة .. فيستحسن المبادرة لشراء حقوق النشر والترجمة من المؤلف ، فيتحقق من ذلك عدة أهداف.. أولاها : تأمين ظروف تفرغ تام له تحفزه على الاستمرار في وضع كتب جديدة عن سيَر وفضائل آل البيت الكرام ، وكجهة متبنية للكتاب .. تملك القدرة والآلية لمنع نسخه وتداوله بطريقة

مشوهة وغير مشروعة فتحفظ بذلك جهد وحقوق كاتبه وفي الوقت ذاته تكسب حسنة نشره وإيصاله إلى أكبر عدد من الناس..كما تتيح لها ترجمته إلى لغات عدة تعميم فائدته إلى شعوب أخرى غير العربية فيطلع المتحدثون بهذه اللغات على عظمة آل البيت ويمجدون الخالق في ذكرهم والتعرف على فضائلهم السامية وتمثُّلها وإسقاطها على حيواتهم وتعاملهم وينال الفضل من تصدى لهذا الواجب الفضيل .

ما يدفعني لهذا القول إني التقيت الأستاذ أنطون العام الماضي في مهرجان «الإمام علي وحقوق الإنسان» الذي أقيم في دمشق وشارك فيه بكلمتين ، إحداهما في الحوزة الزينبية في الست زينب والأخرى في مركز الفردوس الثقافي في المزة ، حيث سألته عما إذا كان قد تلقى أي اتصال من أحد أوجهة بعد كلمته التي ألقاها في حفل تأبين السيد محمد الشيرازي رحمه اللّه في الحسينية الكربلائية في الكويت ، وإعلانه عن معاودة العمل في كتابه المنتظر« زينب .. صرخة أكملت مسيرة » الذي كان قد بدأ كتابته منذ ٢٥ سنة وتوقف العمل به لعدم توفر الوقت وظروف التفرغ لإكماله .. فنفى تلقيه أي اتصال ، لكنه بالمقابل رفض اعتبار ما أعلن عنه في حفل التأبين دعوة للاتصال به ، وشدد على أن ذكر تكملة الكتاب جاء في سياق استعادته لحوار دارِ بينه وبين الإمام الراحل في مكتبة الرسول الأعظم حول دور الحوراء زينب «ع» في ثورة أخيها الحسين «ع» ، والإعلان عن معاودة العمل بالكتاب جاء وفاء لوعد قطعه للسيد الشيرازي آنذاك وجدده في حفل تأبينه واعداً بإهدائه لروحه الطاهرة بعد إنجازه .

ومن جهة أخرى ولإشعار مؤلفينا الكبار ، لاسيما المسيحيون العرب منهم الذين كتبوا في سيَر آل بيت النبوة «ع» ، بأهمية ما كتبوه .. وكنوع من الامتنان لحبهم للعترة المطهرة كحبهم لنبيهم عيسى ولأمه العذراء البتول مريم «ع» ، وجسارتهم الإيمانية في التصدي وإظهار الحق الإلهي الذي مثله خير تمثيل بنو هاشم الميامين ، وإبرازهم لعظمة ما أقدم عليه قمرهم الحسين «ع» .. فإنه من الواجب مخاطبة الجهات والجامعات والمراكز الفكرية والعلمية ذات الصلة والحوزات الدينية والتنسيق معها لمنح هؤلاء الدكتوراه الفخرية أو رتبة الأستاذية الشرفية أو الكراسي الجامعية تقديراً لما

قدموه للفكر الإنساني عامة ، وللإسلام كدين خاتم ولآل البيت المطهرين خاصة .. من نشر فضائلهم ولفت أنظار البشرية إلى مظلوميتهم .

وأخيراً فإني أستعير إحدى فقرات لقاء مع مؤلف « الحسين في الفكر المسيحي » لأنهي فيها اقتراحي الذي أتمنى أن يجد قبولاً .. إذ يقول المؤلف : بالرغم من بعد القرون بين كربلاء والقرن العشرين .. فإنك حينما تنافح برأيك أعداء الحسين ، وحينما تستل قلمك لتكتب في أفضال ثورته وعظيم استشهاده وسط هذه الضراوة المتملّية المتخذة لبوساً مختلفة .. تكون مجاهداً معه في كربلاء ، وتتشابه إلى قرب من الأنصاريّيْن ابن الحارث وأبو الحتوف ، وحينما تتلقى تسفيه الآخرين ولومهم على وقفتك الفكرية مع رافع لواء الحق .. يقربك شيء من أولئك الأبرار الذين قضوا مع الحسين ولم يتراجعوا .. وهكذا فإن الثواب ليس له مقياس زمني حتى وإن بعدت الحادثة ، وبعد ١٤ قرناً وحتى بعد ٢٠ سيكون من يكتب حرفاً واحداً في دعم الحق المنبثق من كربلاء .. كمن يلبي نداء المكروب بعد سقوط العباس « أما من مغيث يغيثنا ؟» لأن الجهاد سلسلة متصلة وأشكال عدة مهما تباعدت الدهور واختلفت الأساليب طالما النية معقودة على رفع راية الحق التي رفعتها ذراع أبي عبداللّه ..

وخلاصة القول أنه على الرغم من إفصاح الكاتب عن ظروف عدم إنجازه لكتاب السيدة زينب «ع» ونشر هذا القول في الصحف وإنزاله في مواقع مختلفة على شبكة الأنترنت .. رغم ذلك فإن أي مبادرة من أي جهة أو من راغب مكرمات لم تصله تعرض عليه مساندة ما ، أقلها توفير تفرغ تام له كي يكمل العمل في خضم مشغولياته الكثيرة ، على أن يكون العائد المتحصل من نشر الكتاب وتسويقه بعد ذلك هو العوض عما تقدمه جهة التبني للكاتب من دعم ومؤازرة يوفران له الوقت والمناخ المناسبين للإنجاز ، وحتى لو لم يتوفر العائد .. وتوفر الثواب الطيب والقربى الحسنة .. فذلك وحده نعمة يتمنى كل محب للحسين أن تكون من نصيبه ، فإذا لم يستطع أحدكم أن يعطي .. يستطيع أن يدل على العطاء ويلفت الأنظار إلى كيفيته «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره» والدال على المكرمة كفاعلها .

وأخيراً فإن كاتبنا المبدع صاحب العبارات المضمَّخة بحب الحسين وزينب «ع»

التي جرت على كل شفة ولسان ، مثل : « ما أجدر بالبشرية لأن تتوجه نحو منارة الحسين كيلا تضل» و« ثورة كربلاء بدؤها حسيني واستمرارها زينبي » و« زينب صرخة أكملت مسيرة ».. هذا الكاتب لقمين بنا الأخذ بيد مشروعه الفكري الذي بدأه عن الحوراء زينب عقيلة الطالبيين والمعجزة المحمدية والذخيرة الحيدرية والوديعة الفاطمية ، كي يرى النور بعد عقدين ونصف من التوقف .. وكي يكون بعد صدوره .. صرخة مسيحي مؤمن يعلن عن صرخة وريثة أهل البيت الطاهرين «ع» ويكون أحد رافعي لواءها بعد تشرفه برفع راية أخيها الحسين «ع» والانضواء تحت أنوارها القدسية الملهمة .. فكتاب مثل هذا له مكانته الفكرية ، ينجزه أديب له شهرته الواسعة كأديبنا .. لأجدى وأوقع أثراً في العقول من تلك النشرات السنوية المكررة على نفس الوتيرة والتي لا تضيف جديداً بل تستهلك الإمكانيات والجهد وتتحول إلى إنتاجات تقليدية روتينية تظهر مع المواسم الدينية وتختفي بانتهائها .

لذا فإن أي جهد يُصرف أو اهتمام يُبادر به في سبيل إيصال صرخة زينب «ع» التي هي في حقيقتها صرخة أخيها «ع» المدوية .. إلى أسماع العالم ، لا سيما العالم الغربي المسيحي بقلم مسيحي عربي شُهد له بالموضوعية حتى نال عن جدارة لقب «المسيحي المتشيع[1]» ..لهو مثابة يُجزى القائم بها دنيا وآخرة لأنه من المحتسبين مجاهداً وناصراً في صفوف الميامين علي والحسين وزينب وآل البيت «ع» وإن بعدت القرون واختلفت ساحات النصرة وميادينها .

كما أن من يتقدم بمبادرة طيبة يسترجع[2] فيها إلى الأذهان ملحمة الطف في أي وقت صحَّت فيه عزيمته ، وبأي شكل يقدر عليه بدافع من نخوته الحسينية .. يعطيه

---

(١) نذكر هنا بيت الشعر الشهير لشاعر الغدير بولس سلامة : « جلجل الحق بالمسيحي حتى عُدَّ من فرط حبه علوياً » .

(٢) ذكر الحسين «ع» أنه سمع جده المصطفى «ص» يقول : « ما من مسلم تصيبه مصيبة وإن قدم عهدها فيُحدث لها استرجاعاً إلا أعطاه اللّه ثواب ذلك» هذا على المستوى الشخصي فكيف بمصيبة المصائب على مستوى الإسلام كدين وعلى المسلمين كأمة ..كم سيكون ثواب استرجاعها كبيراً والتذكير بها ثميناً ؟

اللّه ثوابها ويكون مغيثاً لبطل الملحمة ومستجيباً لصرخته في فلاة الآلام والاستشهاد وتكون مبادرته صرخة جوابية « لبيك يا أبا عبداللّه لبيك » وإلا فهو من خاذليه إذا تجاهلها ، ولن يُحتسب من الطفيّين لأن الطفّ كان يوم التضحية السخية علّم المسلم الحق ألا يدخر ليومه أو غده لنفسه أو لولده شيئاً ويبخل به على حركة الحسين وعلى كل من يساهم بنشر مبادئها[1] والبلوغ بأهدافها إلى حيث مرقاتها التي ضحى بطلها بنفسه وبعترة آل البيت الطاهرين في سبيل إطلاقها ، لتكون الأفئدة مستقرها والمهج والحنايا سكنها حتى انقضاء الدهور ، فهل ستلقى فكرتنا هذه صدى في أودية النفوس الحسينية الأبية ؟.. أللّهم بلّغت وعذرك يا أبا عبداللّه على تقصيري .

« **قل لا اسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى** » .

ومن كاتبنا استميح العذر الجميل لإصراري على وضع كلمتي هذه بين الكلمات التي تناولت كتابه ، أملاً في كسب ثواب قولها والتذكير بما يتوجب لمن غفل عن صنع الواجب .. ومقدراً له نبل خلقه لاعتذاره المبدئي عن تثبيتها في الكتاب بعد نشرها في « أورينت ».. معللاً الموقف بأن غاية مطمحه عذوبة معاناة أخرى شبيهة في كتابه المقبل عن العقيلة زينب يسترجع بها تلك المعاناة فائقة العذوبة التي عايشها على مدى سنوات وضع كتابه عن أخيها شهيد المظلومية ، وبأن ما أحاطه به عاشقو سيد الشهداء «ع» من ود وتقدير على مدى العقود الثلاثة التي تلت صدور كتابه .. يكفيه فخراً ككاتب ، ويعتبره من أطيب العطاءات السخية التي تلقاها والتي لا يعادلها عطاء ، ومن أرفع الأوسمة التي تقلدها والتي لا يعلو عليها وسام والتي ستظل مصدر اعتزازه ومحور زهوه مدى الحياة[2] .

---

(١) أريد أن لا يكون أحد من الجماهير ولا من النخبة ولا من صغار السن ولا من كبار السن و لا من الرجال ولا من النساء .. بعيداً عن تحمل دور ملحوظ في حركة الإمام الحسين ـ رأي لسماحة الشيخ عيسى أحمد قاسم نُشر في مجلة التوعية البحرينية عام ٢٠٠٥

(٢) مقالة للدكتور معن الحيدر أستاذ الأدب المقارن في جامعة بيونس إيرس نشرت في مجلة « أورينت» العدد ٢٠٩ لسنة ٢٠٠٥

لا تعرفون قدر الحسين

تحت عنوان تمهيدي : **يعتبر نفسه شيعياً وإن كان مسيحياً ..**

وتحت عنوان رئيسي : أنطون بارا « **أنتم لا تعرفون قدر الحسين** » نُشر لقاء[1] مع المؤلف جاء فيه : لم نكن نتصور ونحن نتوجه للقاء الأستاذ أنطون بارا أننا على موعد مع شخصية رجل يعتبر نفسه شيعياً[2] ! فما نعلمه عنه أنه مفكر وباحث مسيحي الديانة وقد كتب كتابا بعنوان « **الحسين في الفكر المسيحي** » ضمنه رؤاه تجاه ثورة سيد الشهداء عليه السلام .

أنطون بارا الذي دام لقاؤنا معه أكثر من ثلاث ساعات ، لم يكن يذكر الحسين إلا ويقرن ذكره بقوله : « عليه السلام » وهو يرى أن أبا عبداللّه ليس حكراً على الشيعة أو المسلمين[3] .. بل هو للعالم أجمع ، فهو « ضمير الأديان » حسب وصفه.

---

(١) مجلة المنبر عدد عاشوراء الخاص محرم ١٤٢١ هـ أجراه عصام الموسوي

(٢) للشاعر المسيحي بولس سلامة بيت من الشعر يقول فيه :

« جلجل الحق في المسيحي حتى عُدَّ من فرط حبه علوياً » .

(٣) للمهاتما غاندي قولٌ شائع ذكر فيه : أنا هندوسي بالولادة ، وبعد دراسة عميقة للأديان عرفت الإسلام بشخصية الإمام الحسين وخاطبت الشعب الهندي : إذا أرادت الهند أن تنتصر فعليها أن تقتدي بالإمام الحسين ، ولقد تعلمت من الحسين كيف أكون مظلوماً فأنتصر .

والمثير في الأمر أنه يعتبر التشيع « **أعلى درجات الحب الإلهي** » لذا فإنه يعتقد بأن كل انسان مهما كانت ديانته ، يتوجب عليه أن يكون شيعياً لـ « **عظمة الإقتداء بأهل البيت عليهم السلام ، وكي يحافظ على جماليات عقيدته** ».

بيد أنه وفي السياق ذاته قال : « أنتم الشيعة والمسلمون لم تعرفوا قدر الحسين ، فالمفترض أن تكون لديكم أمانة تامة بتوصيل صيحته يوم عاشوراء وروحية حركته الثورية وعدم الإكتفاء بالسردية والمظهر الخارجي للواقعة » وحينما وجه بارا كلمته هذه إلينا أثناء اللقاء .. استذكرنا كيف أننا أضعنا تراث إمامنا العظيم ، وكم نحن مقصرون في حق نصرته التي تتجلى اليوم بقول الحق والدفاع عن المظلوم وإعلاء راية العدالة والحرية.

تحدث بارا عن ظروف تعرفه على شخصية أبي الأحرار سلام اللّه عليه ، بدءاً من لقائه بالمرجع الديني الأعلى الإمام الشيرازي في أوائل السبعينات الذي شوّقه لتأليف كتابه القيم ، وحتى ما واجهه من متاعب وصعوبات ومحاربات من قبل بعض من لم يعجبهم ما ورد في ثنايا الكتاب ، لكنه أوضح أنه متيقن من أن : « سيدي الحسين عليه السلام سيشملني بكرمه يوم لا ينفع مال ولا بنون » .

وهذا نص لقائنا معه :

● **أستاذ أنطون .. هلا سردت لنا قصة تأليفك لكتابك؟**

- في البداية لم أكن أعرف شيئاً عن واقعة كربلاء الدامية سوى بعض الخطوط العادية من قبيل خروج الإمام الحسين عليه السلام على يزيد ومقتله في أرض كربلاء ، وذلك لأننا كنا أثناء دراستنا نمر مروراً سريعاً على هذه الواقعة دون أن نطلع على تفاصيلها ، ولكن حينما تعرفت على شخصية الإمام المرجع السيد الشيرازي قبل أكثر من ثلاثين عاماً .. أهداني بعض الكتب التي تتحدث عن الحسين عليه السلام ولما طالعتها وجدت أن قصة كربلاء ملحمة فريدة من نوعها ، واستغربت كيف أنها لم تجد اهتماماً على مستوى المفكرين المسلمين ، فالمسلم غير الشيعي يتحدث عنها كمجرد حادثة تاريخية ترتبط بالوجهة العامة للمجتمع الذي يعيشُ فيه

وحتى لا يخالف بيئته وثقافته ، أما المسلم الشيعي فإنه ينظر إليها بنظرة تغلب عليها العاطفة[1] ، فاتجهت إلى ما كتبه المستشرقون فوجدت كتاباتهم وقد دارت في فلك النظرة المادية وأغفلت جوانب الثورة الروحية والإجتماعية.

هذا كله دفعني إلى تدوين ملاحظات عن هذه الثورة وعن شخصية الحسين عليه السلام ، حيث رأى الكثيرون فيما بعد أن نظرتي ـ ولا فخر ـ كانت أكثر النظرات حيادية وموضوعية بغض النظر عن الاعتبارات العاطفية والعقائدية ، فأنا كاتب وباحث مسيحي مواطن في بلد مسلم وقد تشربت الثقافة الإسلامية من ذات المصادر التي غذت المسلمين مما جعل هويتي الثقافية والإجتماعية هوية إسلامية رغم ديانتي المسيحية وهذا ما جعل إدراكي للقضية الحسينية إدراكاً واعياً متكاملاً.

وفي الواقع لم تكن لدي النية أو التخطيط لتأليف أي كتاب بهذا الخصوص ، لكنني كنت دائم التردد على ديوانية الإمام الشيرازي في بنيد القار مع الأخ أزهر الخفاجي وحيث كان الحديث يدور بيننا في الديوانية .. أشرت إلا أنني بحكم طبيعة عملي الصحفي دوَّنت بعض الملاحظات عن حركة وشخصية الحسين «ع» فقال لي الإمام : « لماذا لا تكتب كتاباً تجمع فيه هذه الملاحظات طالما دوَّنتها ولك فيها رؤية؟ » فأجبت : « سأفكر في الموضوع ».

والحقيقة أن الفكرة اختمرت في رأسي فرحت إلى مكتبي ووجدت الملاحظات التي دوَّنتها وقد بانت سماكتها ، فصرت أبحث أكثر وأكثر ، وكما تعلم فإن الباحث ما إن يبدأ بالبحث لا ينتهي منه أبداً ، وكلما تعمقت ازداد البحث صعوبة ، وقد وجدت نفسي أسير في حقل ألغام ملؤه الحساسية .. فلعلك تتبنى رأياً يعجب هذا ولا يرضي ذاك ، عدا عن كوني مسيحياً يفترض بي النأي عن بحوث حساسة كهذه تخص المسلمين .

---

(١) يقول المستشرق الهنغاري أجناس غولد تسهير : إن نزاعاً دامياً قام بين الحسين بن علي والغاصب الأموي ، وقد زودت ساحة كربلاء تاريخ الإسلام بعدد كبير من الشهداء ، اكتسب الحداد عليهم حتى اليوم مظهراً عاطفياً .

غير أنني مضيت في البحث لقناعتي بأننا كمسيحيين عرب ثقافتنا هي ثقافة المسلمين ذاتها وينبغي أن تكون لنا نظرتنا المتوازية معها والمختلفة عن نظرة المستشرقين تجاه قضية الحسين عليه السلام ، ولست أذيع سراً إذا ما قلت بأنني كنت طوال فترة تأليفي للكتاب أشعر بإلهام معنوي خاص يدفعني إلى مواصلة البحث والتحقيق رغم صعوبة ذلك بالنظر إلى الاعتبارات المختلفة.

لقد حاولت الإحاطة بمختلف الجزئيات آتياً على كثير من الشرح والتحليل لمختلف الأبعاد والزوايا ، حاولت الإجابة على كثير من الأسئلة التي تكتنف الثورة وشخصية الحسين عليه السلام ، فلماذا حدثت هذه الملحمة .. وهل كان هدفها دنيوياً .. ولماذا أقبل الحسين على الشهادة .. وما سر كلماته وصرخاته .. ولماذا أخذ معه الأطفال والنساء؟ الأمر الذي جعل مدة تأليفي للكتاب تطول إلى أكثر من خمس سنوات ، منها سنتان كنت فيهما في تفرغ تام للتأليف ومع ذلك فقد استغرق العمل في الكتاب كل هذه المدة وهي مدة طويلة بالنسبة لي فبقية مؤلفاتي لم تتجاوز مدة تأليفها السنتين بأقصى التقادير .

وما إن فرغت من الكتاب الذي طالما عدَّلت فيه ونقَّحت بين الفينة والأخرى حتى أرسلته إلى الإمام المرجع ، فقرأه وأعجب به وقال لي بالحرف الواحد : « اطبعه فوراً » وحينما اشترطت عليه أن يكتب لي مقدمة .. أبدى موافقته ، وذهبت إلى المرحوم باقر خريبط رئيس تحرير مجلة صوت الخليج التي كنت أعمل بها آنذاك ، فوافق على التكفل بطباعته ، وهكذا خرج الكتاب إلى النور بتوفيق من اللّه وببركة سيدي الحسين عليه السلام .

وأذكر هنا أنه ما إن نشر الكتاب حتى طلب مني الإمام الشيرازي عشرين نسخة منه بثمنها ، فقلت له : « يا سيدنا كيف آخذ منك ما عرضت وأنت من أنت ؟ » فأجاب : « إنني أود مساعدتك .. وإذا لم تقبل فإنني لن آخذ النسخ ..» والحقيقة أنني كنت محرجاً جداً أمام إصرار الإمام واضطررت إلى القبول .

● ألم يثر كتابك ردود فعل معاكسة ؟

ـ بالطبع أثار الكثير من ردود الأفعال وأكثر مما تتصور ، صحيح أن الشيعة بشكل خاص والمسلمين بشكل عام تقبلوه ، واعتبره المنصفون الذواقة أفضل ما أُلّف في سيرة الحسين عليه السلام .. إلا أن بعضاً من المسلمين والمسيحيين اعترضوا عليه ، ومما قالوه : إن هذا مسيحي متشيع لآل البيت عليهم السلام .. والحق أنهم أرادوا ذمي فمدحوني !

وأذكر أن شخصاً في بيروت أصدر كتاباً رداً على كتابي ، لكن معالجته كانت ركيكة وسطحية جداً إذ حاول جاهداً إثبات أن القضية الحسينية مجرد حادثة تاريخية تتعلق بالصراع على السلطة ، لكن في المقابل هناك من ألف رسائل دكتوراه عن الكتاب وقدمها في أكثر من جامعة عربية وأجنبية ، وقد أتاني دكتور من جامعة لاهور في باكستان يدعى « مشتاق أسد » طالبا الإذن في ترجمة الكتاب إلى اللغة الأوردية ، فوافقت بلا تردد وقد أبدى استغرابه من أنني لم أطلب أي مقابل مادي ، فأوضحت له بإنني لم أؤلف هذا الكتاب للتربُّح بل ألّفته لإيماني بشخصية الحسين عليه السلام ، كما راسلني دكتور عراقي من النمسا يدعى « رضا رشيد عباس» وهو أستاذ أدب عربي في جامعة سالزبورغ رامياً ترجمة الكتاب الى اللغتين النمساوية والألمانية ، فوافقت أيضاً والحمدللّه فقد ترجم الكتاب إلى سبع عشرة لغة عالمية وهذا من فضل الحسين عليه السلام .

إلا أنه بعد عشر سنوات من نشر الكتاب فوجئت باستدعائي إلى النيابة العامة بتهمة التعرض للخلفاء الراشدين ، وحينما ذهبت إلى الموعد المقرر .. عرفت أن وزارة الإعلام هي صاحبة الدعوى ، إذ رأى قسم الرقابة فيها أن عبارة وردت في الكتاب تتحدث عن سياسة عثمان بن عفان في الإدارة والحكم ..كانت السبب في استشراء نفوذ بني أمية .. هي محل طعن بالخليفة عثمان ، رغم أنني أوضحت في هامش الكتاب أنني أخذتها من كتب المؤلفين المسلمين وعلمائهم ، وأشرت إلى بعضها وهي مجازة وموجودة في المكتبة المركزية للدولة مما يعني الرضى بمحتواها ، وقد تم تجاهل الخمسمائة صفحة من الكتاب العابقة بالمديح لرموز الإسلام ، بدءاً من النبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ، وانصب التركيز على هذه

العبارة ، لذا فقد حكمت المحكمة بغرامة مالية فقط ولم يتضمن نص الحكم أي إشارة إلى منع تداول الكتاب أو مصادرة نسخه من المكتبات أو عدم السماح بمعاودة طبعه لكنني لاحظت بعد فترة من صدور الحكم اختفاءه من كافة المكتبات وكأن قراراً غير معلوم قد أشار بذلك مع أن القضاء لم يمنعه[1] لا صراحة ولا تضميناً ، وعلى الرغم من إجازته على مدى ثلاثة معارض للكتاب وإدخاله في الفهرسة الخاصة بها على التوالي ، حيث تمت مراجعته وإجازته من قبل لجنة الرقابة الخاصة بالمعرض ، كما أن هناك قضايا رفعت على بعض الأقلام أخذت ذات المعنى وأكثر غضاضة ، وجاء الحكم بالبراءة أو بعدم النطق بالعقاب !

● **هل كان تأليفك لكتابك مترجماً لشعور خاص أم أنه كان بحثاً علمياً بحتاً ؟**

ـ كان من كلا الجهتين ، ففي البداية كان الهدف علمياً بحتاً ، ولكن ما أن تعمقت أكثر وتوسعت تاريخياً .. حتى تولد عندي شعور خاص بعظمة الإمام الحسين عليه السلام ، تلك الشخصية التي ضحت من أجل الدين والمبادئ وكي لا ينحرف المسلمون عن الرسالة ، وحتى يضمن دوام العقيدة وانتقالها من جيل إلى جيل ، فلو لم يضح بهذه الكيفية الوجدانية الصارخة .. لما حدثت هذه الرجة العنيفة في النفوس والتي حفظت الدين الإسلامي ، والدليل على ذلك ماحدث عند رد السبايا إلى دمشق إذ خرج السنة والشيعة والنصارى أيضاً وضربوا الجنود ورشقوهم بالحجارة لأنهم اهتزوا وجدانياً ، وكذلك في حمص قاموا بضرب الحراس ومنعوهم الماء لأنهم منعوا آل بيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ، الماء.

---

(١) في معرض تعليقه على منع عدد كبير من الكتب التي لم تتعرض لنظريات الثوابت والعادات والتقاليد ، وعلى خلفية منع كتابيْ « الرحيل » لليلى العثمان و « عناكب ترثي جرحاً » لعالية شعيب جاء في مقال للمحامي محمد مساعد الصالح في عدد القبس الصادر في ٢٤ اكتوبر عام ٩٩ أن منع تداول أي كتاب لا يتم إلا إذا قرر القضاء ذلك ، وهذه القاعدة مطبقة في معظم الدول العربية والأوربية ، والمادة ٣٨ من قانون المطبوعات حصرت قرارات المنع بوزير الإعلام وحده ، ولا يصبح قراره نافذاً إلا بعد نشره في الجريدة الرسمية طبقاً للمادة ٣٨ رقم (٣/ ١٩٦١)

إنها مبادئ إنسانية فجرتها ثورة عاشوراء وهي ما دفعتني إلى المواصلة في تأليف هذا الكتاب الذي لم أنل منه سوى التعب والجهد والمحاربة دون أي مطمح شخصي عدا اللّهم بركة سيدنا الحسين « ع » وأعني بالبركة طباعة الكتاب لأكثر من عشرين طبعة رغم أنني لم أطبعه شخصياً إلا ثلاث مرات ، فهناك كثير من الجهات في العالم طبعته دون إذن مني لكنني لم أكترث لأنني لا أعتبر الكتاب ملكاً لي بل هو ملك للبشرية جمعاء ، كما الحسين عليه السلام للبشرية جمعاء .

• بعد هذه الدراسة المعمقة لتاريخ الإمام سيد الشهداء عليه الصلاة والسلام لا بد أنك توصلت إلى تعريف محدد وواضح له .. فما هو من وجهة نظرك ؟

ـ تعريفي الخاص أن الحسين عليه السلام ضمير الأديان ، ولولاه لاندرست كل الأديان السماوية ، فالإسلام بدؤه محمدي واستمراره حسيني وزينب عليها السلام هي الصرخة التي أكملت مسيرة الجهاد والمحافظة على الدين .

لقد أراد اللّه سبحانه وتعالى أن يحفظ هذا الدين الوليد فأرسل الحسين إلى جده بقماشة شهيد دون الأنبياء فكان المنعطف كربلاء ، فلو لم يقم الحسين بثورته لما تبقى شيء من التوحيد أساساً ولأصبح الدين الإسلامي الصاعد مرتبطاً بممارسات السلاطين الذين على المجتمع القبول بهم والرضوخ لجورهم واضطهادهم مهما حدث باعتبارهم « ولاة للأمر »..

وإني أعتقد بأن الحسين عليه السلام كان مسيَّراً في هذا الإتجاه لأن له وظيفة إلهية محددة كما للأنبياء وظائف إلهية محددة ، ولكن مع الأسف فإنه على الرغم من أنه عليه السلام شخصية مقدسة عندكم أنتم الشيعة والمسلمين .. إلا أنكم لم تعرفوا قدره وأهملتم تراثه وثورته ، إذ من الواجب عليكم أن تعرفوا كيف تنصروا هذا الإمام العظيم اليوم من خلال قول الحق ونصرة المظلوم وإصلاح المجتمع وتحقيق العدالة والحرية ، والمفترض أن تكون لديكم أمانة تامة بتوصيل صيحته يوم عاشوراء إلى العالم ، وهذه الأمانة تستدعي التعمق بأركان وروحية حركته الثورية وعدم الإكتفاء بالسردية والمظهر الخارجي للواقعة .

• كلمة الزعيم الهندي غاندي : « تعلمت من الحسين كيف أكون مظلوما فأنتصر » بمَ تفسرها ؟

ـ غاندي مصلح تأثر بشخصية المصلح الأكبر الحسين بن علي عليهما السلام ، وصحيح أن قصة الحسين « ع » دموية .. إلا أنها في الوقت ذاته كانت سلمية لا عنيفة ، ومن هنا انتهج غاندي منهجية اللاعنف فاستطاع توظيف المظلومية في الانتصار على الاستعمار البريطاني ، تماماً كما فعل الحسين عندما وظّف مظلوميته على مرِّ التاريخ للحفاظ على العقيدة والدين والمبادئ .

إن الشعور بالمظلومية عبارة عن قوة روحية تتغلب على الحواجز المادية التي يضعها الناس ، الشعور بالمظلومية هو أيضاً شعور براحة الضمير من أدران الدنيا ، وهذا الشعور يتحول إلى طاقة روحية جبارة هي التي جعلت غاندي ينتصر على الإنجليز كما انتصر الحسين « ع » من قبل على الأمويين ، وعندما نقول انتصر .. فإننا ندلل على ذلك بما نراه اليوم ، فانظر الى مرقد الحسين وانظر إلى قبر يزيد ، الأول أضحى قبلة للناس .. والآخر أمسى مزبلة مزرية !

• الفصل الذي تكلمت فيه عن أن المسيح عليه السلام تنبأ بظهور الحسين « ع » كان كالقنبلة إذ أنه أكثر فصول الكتاب إثارة وتشويقاً ، فهلا سلطت الأضواء على هذه الحقيقة ؟

ـ طبعاً هذا الفصل كان يبحث بشكل موسع عن معنى كلمة « المؤيِّد » التي وردت في الإنجيل ، وقبل الإسترسال وتحليل ماهيتها أؤكد أن الإنجيل ذكر النبي محمد « ص» كما ذكر الحسين « ع» وتأتي هذه البشارات في سياق الحديث عن الدين الكلي الواحد الذي هو بنظري دين الإسلام ، لقد بشر المسيح « ع » بظهور الحسين في إنجيل يوحنا إذ يقول : « إني ذاهب الآن إلى الذي أرسلني وما من أحد منكم يسألني إلى أين تذهب ، غير أني اقول لكم الحق ، من الخير أن أمضي فإنه إن لم أمض لا يأتكم المؤيِّد ، أما إذا مضيت .. فأرسله إليكم ، ومتى جاء أخزى العالم على الخطيئة والبر والحكم » .

ولقد فسر البعض من المسيحيين كلمة المؤيِّد بـ« الروح القدس» لكنني بحثت في معناها فلم أجدها تطابق هذا المعنى إطلاقاً لذا صرفت نظري الى أحد تفسيرين : إما أن يكون المقصود بالمؤيِّد الرسول محمد «ص» .. وإما أن يكون الحسين « ع » وعندما بحثت أكثر أدركت أن المسيح عليه السلام لا يمكن أن يرسل نبياً مثله كما جاء في الكتب وكما ورد على لسان النبي عيسى ذاته بشكل لا لبس فيه ، ولكنه يستطيع أن يرسل إلى البشرية شهيداً ، الأمر الذي يعني أن الحسين هو المقصود حتماً بهذه العبارة ، وقد ناقشت هذه الحقيقة بإسهاب في كتابي ولا أريد تكرار ما ذكرته فضلاً عن أنني أضفت إلى الطبعة الثالثة من الكتاب مقدمة فيها مزيد من الدلائل على تنبؤ عيسى بالحسين ومن أراد الإطلاع عليها فليراجع الطبعة الثالثة وما بعدها .

وهنا أود الإشارة إلى أنني اجتمعت مع أحد البطارقة المسيحيين في لبنان والذي كان قد قرأ الكتاب ، فقال لي : « منذ زمن بعيد نسمع أن المسيح قد تنبأ بشهيد ولكنني لم أعرف من هو ، وعندما قرأت كتابك اقتنعت بهذه الفكرة التحليلية السليمة ، فالحسين الشهيد هو المقصود بلا شك » وهذه شهادة من عالم مسيحي متنور غير متعصب وأرى أن علينا جميعاً أن نخلع ثوب التعصب ونعترف بالحقائق والتي منها تبشير المسيح « ع » بالرسول محمد« ص » كما يجب أن نؤمن بأن رواية القرآن الكريم عن رفع المسيح إلى السماء .. إنما جاءت تصويراً لتكريم اللّه تعالى لنبيه عيسى في آخر مراحل صلبه .. وإن لم تنفها ، وهي بذلك لا تتعارض مع رواية الإنجيل إلا في هذه الجزئية ، ما دامت نية صلبه قد أضمرها اليهود وعملوا على تنفيذها ، وما دامت نيته « ع » انعقدت على تقديم نفسه للصلب فداءً للعقيدة ، وقد أجمعت القوانين على أن نية الفعل حتى لو لم يتحقق.. معادلة لتحققه وتأخذ حكمه ، واللّه تعالى لم يرضَ لإسماعيل الذبح فافتداه بكبش بعد أن صدق أبوه وهمَّ بذبحه.. فكيف سيرضى لرسوله وروحه عيسى الآلام بعد أن عزم وتقدم بنية صادقة.. فكان أن شبهه لهم في آخر لحظة صوناً لقداسته ، وليطمئنوا إلى تمام فعلتهم.. إلا أن تباين روايتي الصلب لا يمس جوهر مضمون الحدث..

● **بهذا السياق قلت في كتابك إنه لو كان الحسين « ع » منا لنشرنا له في كل**

أرض راية ولأقمنا له في كل أرض منبراً ولدعونا الناس إلى المسيحية باسم الحسين كيف يكون ذلك ؟

ـ هذه ليست كلمتي الشخصية وإنما هي كلمة قسيس عاصر زمن استشهاد الحسين «ع » وهي عبارة تكشف كم أنتم الشيعة والمسلمون لا تعرفون قدر إمامكم ، لقد كان لدينا حافر حمار المسيح « ع » وكنا نحج له ، وأنتم لديكم مرقد الحسين وآثار وبركات الحسين وتراث الحسين ولم نركم قمتم باستثمارها إيجابياً ، أما لو كان الحسين منا فلأقمنا له في كل أرض بيرقاً ، لأنه ليس مرحلة فحسب .. بل هو مسيرة حرية الإنسان وهو مبدأ أزلي سيعي المسلمون سره عاجلاً أو آجلاً .

● **كيف تفهم كلاً من هذه المفردات : المسيحية ، الإسلام ، التشيع ؟**

ـ المسيحية مرحلة من مراحل الدين الكلي الواحد جاءت بعد اليهودية وسبقت الإسلام ، والإسلام هو الدين المتمم لكليهما ، ولأن اليهودية كانت ديانة نظرية ، والمسيحية روحية صرفة .. فقد جاء الإسلام ليكمل نواقصهما ، ولكنا في النهاية مسلمون لأننا نسلم بالإله الواحد .. بالتوراة والإنجيل والقرآن .

أما التشيع فهو أعلى درجات الحب الإلهي وهو طبيعي لكل من يحب آل البيت من ذرية محمد وعلي عليهما السلام ، وهو فخر للبشرية ، وكل شخص في هذا العالم مهما كانت ديانته فإنه يتوجب أن يكون شيعياً لعظمة الإقتداء بأهل البيت عليهم السلام وكي يحافظ على جماليات وروحانيات عقيدته ذاتها .

● **هل تعتقد بأن للحسين « ع » موقفاً معك يوم لا ينفع مال ولا بنون ؟**

ـ نعم .. فسيدي الحسين « ع » سيشملني بكرمه يوم لا ينفع مال ولا بنون ، لأنه يعلم كم كابدت من أجل أن يظهر هذا الكتاب إلى النور ، وكم تحملت من المصاعب والأزمات في سبيله دون الإلتفات إلى أي مقصد أو الرنو إلى أية غاية عدا غاية كسب الثواب والبركة والتقرب من سيد الشهداء في عمر البشرية والأديان.

● **ماهي نظرتك للمجالس الحسينية ؟**

ـ أعتبرها نموذجاً لاستذكار فاجعة الطف حيث تجدد الشعور بوخز الضمير ، ومن خلالها يتولد الإيمان في النفوس عن طريق دعم استمرارية التكفير عن التقصير في نصرة الحسين « ع » .

● والشعائر الحسينية من لطم وتطبير وتمثيل ماهي نظرتك إليها بصراحة ؟

ـ أرى أنها تسهم كثيراً في تنشيط الذاكرة [١] والضمير الجمعي ، لأنكم تتمثلون الواقعة [٢] من دون إيذاء الغير ، وهذا يترك لكم ذخيرة إيمانية طوال الحياة ، فأنت

---

(١) لفضيلة الشيخ يعقوب سلطان رأي يقول فيه : إن السبب في إقامة هذه المآتم في بقاع العالم المختلفة هو من أجل تذكير المسلمين والعالم بأهداف هذا الحدث التاريخي الإسلامي المهم ، إن الديانة المسيحية تحاول نشر مأساة السيد المسيح وكيف أنه صلب على عمود حسب اعتقادهم ، لأن في نشر هذه المأساة أثر في النفوس واجترار لعاطفة الناس إليها ، ونحن المسلمين نملك أكبر زخم عاطفي بين أيدينا من أحداث عاشوراء نستطيع من خلاله أن نكسب العالم لنا ، ففي كربلاء تجسدت أروع معاني التضحية وأقسى صور المأساة ، فالأحداث تصور بالدموع مآسي الأطفال والنساء والرجال والشباب والشيوخ وكل علاقة إنسانية كالأبوة والأمومة والأخوة والصداقة ، جميعها تجسدت في شخصيات كربلاء ، إن من يدرك هذا الكنز العاطفي المليء بالقيم السامية ذي القدرة على بعث النفوس إلى الخير والسلام .. يجد الطمأنينة ويكسب ذاته ، فهل نستفيد من معطيات عاشوراء الخيرة ؟

(٢) في المسيحية هناك أسبوع يدعى أسبوع الآلام الذي ينتهي بعيد الفصح .. يقدمون فيه طقوساً شبيهةً بطقوس عاشوراء ، إذ ينوحون خلالها حزناً على ما كابده السيد المسيح « ع » من أذى واحتقار على يد اليهود ، وكثيرون منهم يمثلون واقعة جلد المسيح وتسخيره بحمل الصليب وضفر رأسه بإكليل الشوك وحتى صلبه ، إذ يقوم البعض بدق المسامير في يديه ورجليه في محاولة لإحياء الشعور بآلام عيسى واجترار العاطفه نحوه ، حتى اليهود ينشرون مآسي الهولوكوست وأفران الغاز النازية وهي لم تقع لنبيهم موسى بل لأفراد عاديين ، كل ذلك لإحياء ذكرى اضطهادهم كجنس بشري ، أما شعائر كربلاء فإنها الأرقى فعلاًبين الشعائر المماثلة وفيها تقريع للذات وإسالة للدماء التي حجبت عن الحسين وصحبه فكانت السبب في خذلانهم .. وهي شعائر تضج بالعواطف السامية وأحاسيس الندم والإنحاء باللائمة على الأنفس والاستعداد لفداء مبادئ الحسين بالعمل والدم والدموع .

حينما تلطم نفسك فإنك تعاقبها معنوياً لأنك لم تكن في زمان نصرة الحسين « ع » وهو يعني أنك مستعد الآن للتضحية بنفسك[1] وبكل ما تملك في سبيل الإلتحاق بركب الحسين الشهيد .

أما بخصوص التطبير ، فأرى فيه عملية رمزية تعبر عن رسالة مفادها أنكم مستعدون لفداء الحسين بدمائكم ، وكونها زائدة أو ناقصة عن الحد .. فإن هذا شأن القائم بها وهي ترجع إلى طبيعة الشخص ذاته ، ولقد علمت بأن للهندوس وكثير من معتنقي الديانات الأخرى طقوساً خاصة يوم عاشوراء ، وهذا يؤكد أن عظمة الحسين ماثلة في أعين البشرية جمعاء ، فكل من يعتقد بالحرية لا بد أن يعتقد بالحسين رديفاً لها ، إذ هو معناها الحقيقي .

•ما أكثر ما شدك في شخصية الحسين وما هي أكثر كلماته وأقواله قرباً منك؟

ـ شدني فيه تواضعه الجم مع كونه رمزاً مقدساً عظيماً ، وأكثر ما هزني من كلماته صرخته يوم عاشوراء :« أما من مغيث يغيثنا ، أما من ناصر ينصرنا » هذه كلمة أتذكرها دائما لأنها تصور حجم الجحود البشري للمبعوثين من اللّه ، كما تصور إنسياق الناس وراء مصالحهم الشخصية وإهمالهم للمبادئ والقيم التي جاءت بها الأديان ، ولما بدأ تأنيب الضمير لديهم أقاموا الثورات ومنها ثورة التوابين ، ولكنها للأسف كانت بعد رحيل المخذول ظلماً ، فكم خسرت البشرية جمعاء جراء جحودها وعدم وقوفها إلى صفه عليه السلام ؟

•ما هي الرسالة التي توجهها إلى معشر المقتدين بالحسين « ع » ؟

---

(١) يقول الكاتب الإنجليزي توماس لايل بعد أن حضر إحدى شعائر عاشوراء : لم يكن هناك أي نوع من الوحشية أو الهمجية ، ولم ينعدم الضبط بين الناس ، فشعرت في تلك اللحظة وخلال تلك الشعائر وما زلت أشعر بأني توصلت إلى جميع ماهو حسن وممتلئ بالحيوية في الإسلام ، وأيقنت بأن الورع الكامن في أولئك الناس والحماسة المتدفقة منهم بوسعهما هز العالم هزاً فيما لو وُجِّها توجيهاً صالحاً وانتهجا السبل القويمة ، ولا غرو فلهؤلاء الناس واقعية فطرية في شؤون الدين .

ـ كما قلت أن تكون لديكم أمانة تامة بتوصيل صيحته « ع » ورسالته العظيمة إلى العالم ، وهذه الأمانة تستدعي التعمق بأركان وروحية حركته بمفهومها الحقيقي الواقعي حتى تتمثلها البشرية وتوظفها في رفض الظلم واباء الضيم ، إن الذكرى السنوية لملحمة كربلاء لا ينبغي أن تمر مروراً عادياً ، صحيح أن ممارساتكم في الحسينيات جعلت كل العالم يسمع عن الحسين ومظلوميته .. لكنني ألمس تقصيراً كبيراً من جانب المفكرين المسلمين كونهم لم يستوعبوا الرسالة ولم يتمثلوها جيداً.

إن عليهم واجب إيصال هذه الثورة وصوتها إلى مختلف البقاع ، فهناك أناس لا تستطيع عقولهم القاصرة تمثل هذه الثورة بشكل صحيح ، وأعتقد بأن الغرب كله سيتبع الحسين إذا ما أحاط بثورته وعرف مبادئها ومعانيها السامية النبيلة.

● ختاماً هل من كلمة ؟

ـ آمل أن تكون لكلماتنا صدى في نفوس الجميع ، إنني أدعو البشرية إلى الاقتداء بقدسية مبادئ الحسين « ع » واتخاذها نبراساً في حياتها الخاصة والعامة.

***

ثورة
تلامس الروح

وتمر ذكرى الملحمة الروحية سنة بعد أخرى وفي مرورها تخلّف معان سامية في الوجدان ، تحُرك أشجاناً في الصدر ، تُراكم حباً فوق حب في القلب ، وما زادها تعاقب القرون مذ وقعت فوق تراب الطف المطهرة ذراته من عبق تلك الجسوم المقدسة إلا رسوخاً في سويداء المؤمنين بانتصار الحق والمقدرين لسمو تلك المظلومية التي رفع لواءها حفيد من نزلت الرسالة السماوية الخاتمة عليه ، فكانت مظلومية أنارت للمظلومين طريق حقهم ، وللظالمين مآل .. سواد الليل أنصع منه بياضاً .

إن عظمة الثورة الحسينية تكمن في ثبات مفجرها على مبدأ المثالية في أخذ العقيدة وتمثلها والعمل بمقتضاها .. ولعل سحر جاذبية توجهها يتجلى في تلك العبارة البليغة التي قالها «ع» في مستهل ثورته : « إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي .. أريد أن : آمر بالمعروف ، وأنهى عن المنكر ، فمن قبلني بقبول الحق ، فاللّه أولى بالحق ، ومن ردَّ عليَّ هذا .. أصبر حتى يقضي اللّه بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين » .

إنها عبارة جامعة لأسس الوثبة الحسينية الفدائية التي أقدم عليها الشهيد العظيم مصطحباً أهل بيت النبوة الكرام ليكون دمهم المزكى شاهداً على سمو الهدف الذي أريقت لأجله ، وهو هدف شكل منعطفاً روحياً خطير الأثر في مسيرة العقيدة الإسلامية والتي لولاها لكان الإسلام مذهباً باهتاً يركن في ظاهر الرؤوس لا عقيدة راسخة في أعماق الصدور .

هذه الثورة « فريدة الدهور » هل تقاس بمقياس الثورات التي تقوم هنا وهناك فوق هذا الكوكب .. وهل يمكن أن يوضع لها مبنى قياسي لقياسها على ضوء ما تعارف عليه البشر في تقديرهم للثورات ؟

والجواب على ذلك يكمن في النظر لكيفية العمل بهذه الثورة ومعرفة الأسباب والموجبات التي شكلت لها قاعدة الحركة وما آلت إليه بعد قرون من وقوعها ، لأنه بدون النظر والربط بين كل هذه العناصر مجتمعة .. لا يمكن تبيان سر نجاحها الأزلي ، لأن هذا النجاح كان نتيجة عزمة القلب المؤمن الذي عز عليه الإذعان لقوى التحريف في العقيدة كما عز عليه النصر العاجل في معركة غير متكافئة العدد والعدة لكنها متفوقة بالروح الإيمانية والعزيمة الحقة المدفوعة بقوة المبدأ وصلابة الموقف وسمو الهدف.

لقد كانت قوة على قوة بضعفها العسكري ومضاء على مضاء بمظلومية مفجرها ومضت أزمان وتعاقبت دهور وظلت صرخة المظلوم في فلاة كربلاء : « أما من مغيث يغيثنا .. أما من مجير يجيرنا » دعوة لمحبي الحق وكارهي الظلم كي يقفوا بصلابة أمام المرجفين والظالمين .

وما هذه الاحتفالات بمناسبة عاشوراء في كل عام إلا استذكار لهذه الصيحة ولوم للنفس على تخاذلها عن نصرة شهيد الإسلام وضمير الأديان إلى أبد الدهور أبي عبد اللّه «ع» وعترة آل البيت الطاهرين .

وإذا استذكرنا الثورة الحسينية بعد كل هذه القرون التي تعاقبت بعدها .. فإننا نستذكر صرخة من كانت الدافع وراء إبراز تلك المظلومية .. العقيلة زينب «ع» التي واجهت الطاغية يزيد وصرخت في وجهه : « فواللّه لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا » فكانت هذه الصرخة استقراء للمستقبل الذي غدا مرهوناً لذكر آل البيت ، وغدت العظمة لرجاله موقوفة ، والعلو لأعتابهم يزداد ، والولاء لهم وحدهم يتعمق كلما كرت القرون وتعاقبت الأجيال .

إنها فعلاً معجزة من معجزات الشهادة في كربلاء ، فقد اندرست آثار أولئك

الظَلَمة وانمحى ذكرهم إلا لأجل لعنهم والدعاء عليهم ، بينما ظل ذكر الحسين وآل البيت منارة هدي للبشرية وطوق نجاة ، وصارت قبورهم محجة لكل الناس يقصدونها للتبرك والمغفرة .

لذا فإن دور العقيلة زينب سليلة أشرف نسب في الإسلام غدا مثالاً يحتذى به بحملها لواء الحرب النفسية التي تممت حرب أخيها العسكرية ، ولولا قيامها بهذا الدور وبهذا المضاء .. لما زادت الواقعة ونتائجها عن واقعة ونتائج أية معركة تدار فيها الأيدي والسيوف وتصهل فيها الخيل ، لكنها نجحت في إحداث هزة ضميرية لدى أمة الإسلام يسَّر لها التأهب لرجعتها إلى حظيرة العقيدة الصحيحة ، فكان ما فعلته «ع» دوراً مؤثراً لا يقل أهمية عن دور أخيها الشهيد ، لذا فإذا قيل إن الإسلام بدؤه محمدي واستمراره حسيني .. فيجب أن يقال أيضاً : « إن الثورة الحسينية بدؤها حسيني واستمرارها زينبي » .

فسلام عليهم مطهرين .. يوم ولدوا ويوم ماتوا .. ويوم يبعثون أحياء[1] .

***

---

(١) من مقال للمؤلف في مجلة المنبر العدد ١١ محرم ١٤٢٢هـ .

الشعر الحسيني
خَلْبٌ فكري

لو قلنا إن الإسلام بدؤه محمدي واستمراره حسيني .. فلن نكون مجافين لحقيقة تجلت في شواهد دينية وتاريخية ، فعلى المستوى الديني كانت ملحمة كربلاء عنواناً صريحاً لقيمة الثبات على المبدأ ، ولعظمة المثالية في أخذ العقيدة وتمثلها ، حيث أوجدت خلال مسيرة الإسلام كدين ..حركة وجدانية بتشكيلها ذاك المنعطف الروحي خطير الأثر في الضمائر ، والتي لولاها لكان الإسلام مذهباً باهتاً يركن في ظاهر الرؤوس ، لا كما غدا بعدها عقيدة راسخة تستوطن أعماق الصدور ، وإيماناً مترعاً في وجدان كل مسلم ، وحركة روحية عقائدية على هذا المستوى وبهذه الفعالية ..كيف لنا أن نلم بشخصية مفجرها دون فهم لأهداف حركته ودور العناية الإلهية في تكوينها بالشكل الذي بدت فيه ، وبالأهداف التي آلت إليها بعد عدة قرون ؟

أهداف تمحورت حول الحق الإلهي الذي خرج الحسين ذلك الخروج الدامي ليكرس حقيقته في النفوس طالباً الإصلاح في أمة جده ، آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر ، لتظل العقيدة نبراساً والحق هادياً للمخلصين له والمتعايشين بالمعروف المطهِّر من المنكر ، كي يتحقق للمسلم ذلك الانسجام الهيولي مع الحق ، فكانت ثورته عليه السلام خروجاً محباً من أجل الجماعة ، وستظل ملحمة استشهاده وكوكبة من أهل بيت النبوة إيقاظاً مستمراً وتذكيراً دائماً بسمو المبادىء التي كان فداها هذه الأنفس المطهرة ..

ولو تساءلنا : ترى ماذا في هذه الثورة من سحر روحي جعلها لا تتخذ كما لسواها شكل المذهب الصوفي أو المبدأ النظري .. بل تغدو شيئاً كالاستحواذ يتمدد في القلب ويختلط في الفكر ، ليغدو متلقيها قلباً وفكراً في آن معاً ..؟ السر في كل ذلك كما يفهمه كل ذي عقل متنور يكمن فيما يسمى بـ « **الهيولية الروحية** » تلك الذخيرة الإيمانية صانعة الشفافية ملهمة الفكر ، بوصلة الوجدان العقيدي وموجهته نحو قطب الحق والصلاح ، وموصلته إلى نبع الحقيقة وتجليات السطوع الفكري والخلقي « وممن خلقنا أمة يَهدون بالحق وبه يعدلون[1] ».

هذه الثورة التي استمدت ديمومتها وخلودها من قدسية مفجرها وسمو أهدافه.. هل كانت مصادفة تاريخية أو حدثاً ظرفياً أملته عوامل ومعطيات أوصلت إليها كحتمية ؟

لا يجادل اثنان في أن الحسين «ع» كان معداً للقيام بهذه المهمة السامية ، فقد اجتمعت في شخصيته كل مقومات الشهيد .. لا على مستوى فردي بل على مستوى العقيدة ككل ، وكان النبي« ص» يعد سبطه لتحمل ضنك تلك النقلة الروحية المجددة للصدور حينما تهتز الأرض من تحت أقدام المسلمين ، وتميد الدنيا بالإسلام ، ويتزعزع هيكل العقيدة بفعل الضلالات والظلم والتحريف ..

« **أللّهم أحبه فإني أحبه** » .. كلمة رجاء من نبي لربه في أن تكلأ عزته ما سيزرع فيه من فضائل نبوية فذة ، فيباركه من عليائه ويهديه بإلهامه ليكمل مسيرة رسالة جده الوليدة ..

وكان عليه السلام صورة تشكلت من صورة جده « ص» شبيهاً له في الخلق والخلقة ، تطلع إليه الجد فرأى في شمائله سيماء مستقبل العقيدة وسؤددها وحامل لوائها من بعده بأمانة الشهداء واقتدار المصلحين ..

لقد أثمرت تلك الزهرة اليانعة في تربة القداسة التي تعهدها النبي « ص» فسيلاً

---

(١) سورة الأعراف

غضاً وصقلها الإمام علي «ع» بمثالية آل البيت ومناقبيتهم ، فغدت فيئاً ظلل عقيدة الإسلام من هجير الانحراف والتنكر للسُّنة ، وصارت نموذجاً[1] إيمانياً بلغت جواذبه مداها حيث صار المسلم يفضل معها المصارع على طاعة اللئام ومهادنة الظالمين بعد أن كان يصمت أمام تغير الدنيا وإدبار معروفها ويرضى بالصبابة كصبابة الإناء ويُسرُّ بخسيس العيش كالمرعى الوبيل ويتجاهل ما يراه من باطل لا يُتناهى عنه وحق لا يُعمل به ، وصار يردد مع إمام الثوار : « موت في عز خير من حياة في ذل » إذا كان في هذا العيش إلغاء لدوره كمسلم وإهدار لكرامته كإنسان .

وعلى مر الدهور وتكرار متوالية السنين ظل الحسين رمزاً لعظمة انسجام الإنسان مع الحق بما قدمه من فداء لعقيدة جده الكريم فوق بطاح كربلاء ، لتظل عاشوراء ضمير الدين المطوِّر المبدع بتحريره من مظاهر المنكر ، جموداً وتخلفاً وخروجاً متعمداً عن جادة الإيمان وفهم جوهر العقيدة ..

ولقد أسعدنا وأثار إعجابنا ذلك الجهد الفريد من نوعه الذي تصدت له دائرة المعارف الحسينية بوضع موسوعة بجهد سماحة المحقق الشيخ محمد صادق الكرباسي ، تتضمن سيرة ومسيرة ريحانة الرسول « ص» وأهل بيته وأنصاره الكرام الذين استشهدوا في واقعة الطف الأليمة عام ٦١ من الهجرة فوق بطاح كربلاء ، وما علمناه من أن عدد أجزاء هذه الموسوعة المزمعة يربو على الخمسمائة جزء سوف تغطي ستين باباً منوعاً ، وبهذا تكون الموسوعة مشروعاً إعلامياً وتوثيقياً غير مسبوق وجهداً لا يماثل يُجزى عليه الشيخ الكرباسي ومعاونوه كل الجزاء لأنه عمل فكري لا يُجارى لا سيما أن هذه المشاريع الموسوعية بحاجة إلى سهر وتحقيق ومتابعة وبحث مضن لا يتوقف على مدار الأربع والعشرين ساعة ، ومن لم يجرب القيام بمثل هذه المشاريع لا يعرف مقدار المعاناة والجهد اللازمين لإنجاز واحد منها ، فكيف

---

(١) قال الكاتب المسيحي أنطون بارا : شخصية الإمام الحسين قدوة التقت فيها شعلة النبوة المقدسة بالمثالية البشرية التي ما تركت قلباً إلا ومسَّته ولا فكراً إلا وألهبته ـ من مقالة لسماحة السيد محمد باقر المهري في جريدة السياسة الكويتية عدد الثلاثاء ١١ محرم ١٤٢٥ هـ .

بخمسمائة ؟ إننا نثمن مسبقاً هذا الجهد ونبارك لسماحة المحقق هذا الإنجاز الذي سيُكتب بأحرف من نور في سجل الاجتهاد والتضحية والإيثار في سبيل إضافة جديدة لسيرة ومسيرة سبط الرسول وريحانته ، هذه المسيرة التي لن تتوقف حتى تبلغ بالإنسان مداها وإلى أن يرث اللّه الأرض وما عليها ..

لقد شكلت ملحمة كربلاء على مر التاريخ إلهاماً للشعراء وذوي النفوس الشفيفة لما حملته الفاجعة الأليمة من معان روحية وتوثب ثوري وغيرة على العقيدة ، فكانت على الدوام دعوة تستحث شاعرية الأنفس النزّاعة للتحليق في عالم المثل الزاخر بكمال الأخلاق ، تبحث في تلافيفه عن الجماليات الفكرية المتزاحمة في فسيفساء لا أجمل ، شكلتها ملايين المعاني والصور الإنسانية الخلابة لتصبها في قالب بلاغي بما تتضمنه من رموز جاذبة وما تورثه من خَلْب عقلي ورواء نفسي وارتواء روحي يوزع سناه كما توزع بلّورة صافية ضوء الشمس المنعكس عليها ، يدور مدارها حول شخصية سيد الشهداء «ع» بما اختصت به من إعجاز اللّه في خلقه وما نفحته العناية الإلهية في أفكارهم وأفعالهم ، فكانت خلقتهم وخلقهم ومواقفهم صورة أمينة لما استودعه اللّه فيهم من سر إعجازه في الخلق..

وهكذا شخصية التقت فيها شعلة النبوة المقدسة بالمثالية البشرية لم تترك قلباً إلا ومسته ولا فكراً إلا وألهبته ، فليس غريباً أن تنطلق تلك الإنسيالات الفكرية ممجدة مواقف البطولة التي جسدها الحسين فوق أرض الطف ، ولا عجب فإن من آيات القلوب والأفكار أن تعشق الجمال وتجانس بين النبض والإلهام فتجعل أصحابها شعراء وأدباء يرسمون بالكلمات عالماً من المثل والجماليات لا يحده ولا تلحق بانطلاقته أشد الأخيلة جموحاً..

وفي هتاف القلوب ورسم الأفكار صدى لما استعر فيها من أصوات رجافة تنساب إليها من أعماق الدهور لتمس مواطن الجمال فيها ، فتخط على صفحة أعماقها الصافية خط حنان واستذكار .. وشهيد كالحسين انتهت إليه كل سمات العظمة قمين بأن تستوحيه العقول والأفئدة إلهاماً دواماً ، وتستكين لسيرته العطرة النفوس النزاعة إلى مثوى السكينة والسلوى ، وتنشد آيات الحب والجمال ورضا

القلب والحنايا ، وهذا ما عناه الإمام الصادق «ع» بقوله لأبي عبد اللّه جعفر بن عفان الطائي : « ما من أحد قال في الحسين شعراً ، فبكى وأبكى به إلا أوجب اللّه له الجنة وغفر له » ..

لقد جمع الشعر الحسيني المعطى الجوهري لرمزية حركة الحسين وأثرها في النفوس ، وما خلفته من إيحاءات فكرية وروحية مذ كان المقتل في العاشر من محرم عام ٦١ هـ وحتى يومنا هذا ، حيث تحول هذا الشعر على مر التاريخ إلى نهضة فكرية متكاملة ومنهج فلسفي فجَّر العديد من الثورات الاجتماعية والسياسية رغم محاولات الأنظمة الحاكمة الحد من تأثيره بأساليب الترهيب والترغيب ، وطرح بدائل له لصرف الأنظار عنه ، إلا أن الأدب الحسيني كان يسري كالسحر لأن محوره « واقعة الطف » كانت أدبياتها قد ربضت في الوجدان الجمعي للأمة الإسلامية ، واختلطت بذرات ضميرها الديني فلم يعد التأثير عليها ممكناً ، بل زادتها تلك المحاولات علواً ورسوخاً وتفاعلاً تحقق بمتوالية هندسية تضاعفت تلقائياً بمرور الأيام وتعاقب القرون[1] ..

***

(١) من تقديم المؤلف لكتاب « المدخل إلى الشعر الحسيني » لسماحة المحقق الشيخ محمد صادق الكرباسي دار المعارف الحسينية « الجزء الأول » لندن عام ٢٠٠٠



أهزوجة حب لقمر كربلاء

ماسر هذا الألق الروحي الجاذب للنفوس النزاعة لقدسية كربلاء .. وكيف نفهم ما تعنيه ثورة سيد الشهداء إذا لم نكن حسينيين قلباً وقالباً ؟

ومن رحاب حب الشهيد الحسين «ع» تطل المحبة الفواحة ناشرة ضياءها بين السطور ، ساطعة أنوارها خلف الكلمات ، توحي لمسطِّرها روعة ما قام به سبط النبي ، وتصور لسريرته النقية هلع السرائر والحنايا من هول الفاجعة .

ملحمة إنسانية روحانية لم يشهد لها التاريخ شبيهاً ، رَقَت درجات فوق مستوى الملحمة لأنها استمدت عزمها من عزمة عترة النبي وآل بيته الأخيار ، فكانت هزة مهدت لثورة روحية تذكر المسلمين بخاصة .. والمؤمنين بعامة ، بمعنى أن ينتصب المؤمن كالطود الصلب في وجه المتاجرين بالدين وموقظي الفتنة لأغراض دنيوية زائلة ليست بذات قيمة حيال استمرارية صفاء الشريعة والسُّنة قرناً بعد قرن مجللة بالغار وهادية بالحق ، لأن خير الأمم أمة هُديت إلى الحق فهَدت به .. والتزمته بالعدل[1] .

لقد وزعت حركة الحسين العظيمة سناها على توالي القرون كما توزع بلَّورة صافية ضوء الشمس المنعكس عليها ، فتداعت لها القلوب وشخصت ناحيتها

---

(١) لاحظ نصوص الآيات الواضحة : « وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » أعراف ١٨١

الأبصار والبصائر .. تيمناً بقولة الرسول « ص» : « مثل أهل بيتي كسفينية نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق » والمقصود في هذا القول الكريم .. ليس من ركبها ركوباً مادياً في حينها أو تخلف عنها في ساعتها .. بل يشمل هذا المغزى كافة الأجيال التالية التي تستلهم سيرة أهل البيت وتسير على هديها ، فتكون كمن تركب سفينتها لتنجو في أي وقت صحت فيه عزيمتها ، ومن ينافح عن صدقية حركة الحسين بقلمه وفكره ووجدانه بعد ١٤ قرناً من حدوث الملحمة .. يكون كمن شارك فيها حقاً باسترجاعه لمبادئها ورفضه لمنطق الهدم ، وبذلك يكون بمقياس المعنى النبوي المقصود مشاركاً مثل كل الذين جاهدوا جهاداً مادياً إلى جانب الحسين وسقوا غرسة الشهادة في كربلاء بدمائهم الزكية ، وقد أخرج ابن ماجه وأبو يعلى عن الحسين« ع» قوله : « سمعت رسول اللّه يقول : « ما من مسلم تصيبه مصيبة وإن قدم عهدها فيحدث لها استرجاعاً إلا أعطاه اللّه ثواب ذلك » .

الإمام الحسين«ع» لم يكن رجل حرب أو مجرد بطل مواقف وميادين فحسب .. بل نتج عن نهضته الرائدة مسيرة عبادية جهادية سياسية تظللت بظل مبادىء مقدسة مستوحاة من روح نصوص الشريعة الإلهية ، وهذا القول يتفق مع ما أوردته في كتابي هذا من أن موقعة صحراء كربلاء لم تكن موقعة عسكرية انتهت بانتصار وانكسار .. بل كانت رمزاً لموقف أسمى لا دخل له بالصراع بين القوة والضعف وبين العضلات والرماح بقدر ما كانت صراعاً بين الشك والإيمان ، والحق والظلم ، والنور والظلمة .

يقول «ع» : إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي ، أريد أن : آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر .. وفي هذا الإعلان انسجام الإنسان مع الحق ، وقد آثر الحسين صلاح أمة جده ، الإنسانية الهادية بالحق العادلة به .. على حياته ، فكان في عاشوراء رمزاً لضمير الأديان على مر العصور ، فاستشهاده وسيرته عنوان صريح لقيمة الثبات على المبدأ ولعظمة المثالية في أخذ العقيدة وتمثلها [1] .

---

(١) مقاطع من مقدمة المؤلف لكتاب « الحسين ريحانة النبي » للشيخ كمال معاش عام ٢٠٠١

الفصل السابع

محاكمة السرائر

كتاب في قفص الإتهام

عندما صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٧٨ والتي كانت تحمل عنوان « **ثورة الحسين في الفكر المسيحي** » قبل أن يتم تعديله في الطبعة الثانية لأسباب ذكرناها في مقدمة المؤلّف .. لم يكن يدور في خلدي للحظات بأن يُتهم الكتاب بنواياه ومراميه ، وأن يقدم للمحاكمة على هذا الأساس ، ولكن ذلك ما حصل فعلاً .. وتحولت النوايا الحسنة والمرامي الطيبة إلى متهم يقف في قفص الاتهام ، تتناوشه التفسيرات البعيدة عن جوهره ، وتشير إليه أصابع البنان بالاتهام بدل الإشارة إليه بالشكر والاستحسان ..

أعوام مضت بعد الإصدار الأول والصحافة نشرت الكثير عن الكتاب وشارك ثلاث مرات في ثلاثة معارض[١] للكتاب التي يقيمها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب حيث عرض في أجنحة عدة شركات نشر وتوزيع[٢] .

وكان لا بد بعد نفاذ الطبعة الأولى التي صدرت عن دار الخليج للصحافة والنشر من إصدار طبعة ثانية عام ١٩٨٠ في دار اليقظة للصحافة والنشر ، وهي طبعة فاخرة

---

(١) أقيمت خلال الأعوام ٨٠ ـ ٨١ ـ ٨٢ وهي السادس والسابع والثامن .

(٢) أجنحة دار صوت الخليج للنشر والصحافة ، و مكتبة المنهل ، و المتحدة للتوزيع ، وأجنحة أخرى .. كما ورد اسم الكتاب ومؤلفه وسعره في فهارس المعرض الرسمية .

مزيَّدة ومنقحة ومزودة بفهارس المصادر التي فاتنا تدوينها في الطبعة الأولى ، وكذلك بمجمل الكتابات التي تناولت الكتاب منذ صدوره وحتى طبعته الثانية ، وقد وُزع من هذه الطبعة آلاف النسخ ونالت قبولاً حسناً في الأوساط الفكرية والدينية والثقافية ، نظراً للطرح الجديد الذي قدمته لملحمة كربلاء والتحليل المنصف لمسيرة بطلها الحسين« ع» ولنتائجها الروحية والإنسانية والاجتماعية ، بلا مدح ولا هجاء ، ولا إغضاب ولا إرضاء ، ولكن انسجاماً مع هتاف الحق وبيانه.

لقد أجمع كل من اطلع على الكتاب على أنه أهزوجة اعتدال وتبصر ، أنصف الدين الإسلامي كما لم ينصفه قلم كاتب مسلم ، وقد خلا من أي توجه مذهبي أو فئوي ، ولم يخُض في أي خلاف تاريخي .. لا بالتلميح ولا بالتحليل ولا بالانحياز لأن التاريخ ملك للبشرية ولا يمكن لأي كائن كان ، وتحت أي ستار أن يضيف إليه حرفاً ولا أن يحذف منه فاصلة أو يغير فيه سطراً ، فهذا لم يكن من أهداف الكتاب ، حيث بدا واضحاً للجميع من خلال سطوره وتحليلاته .. الحرص على الوسطية في الطرح ، والبعد عن ليِّ عنق الأحداث والتاريخ كون الموضوع المطروح من المواضيع فائقة الحساسية ، وقد كُتبت عنه أسفار بلا حصر منذ وقوع الملحمة حتى يومنا هذا ، لذا كان لا بد من الالتزام التام بما هو متداول ومقبول من المصادر ، واعتماد ما يقره العقل ويرضى به الوجدان ، لأن العبرة ليست فيما ينقله المؤلف من المصادر بنصه الحرفي .. بل في رؤيته له كمحلل وما يفيض به قلمه من تجليات وتفسيرات إنسانية للمواقف والأحداث[1] على ضوء ما استُقرىء وما ظهر فعلاً على أرض الواقع وباستلهام ما استقر في وجدانه من قناعات نتيجة تفاعله مع هذه المواقف والأحداث وتفهُّمه لموجباتها.

كان هذا هو هدفنا مذ بدأنا نخط أول حرف في الكتاب ، وما كان نصب الأعين خلال السنوات التي استغرقتها كتابته .. وكانت سعادتنا التي أنستنا معاناة تأليفه قد عمَّقتها ملاحظة الجمهور المتلقي للعمل.. للعناصر الرئيسية والمرتكزات والتوجهات

---

(١) « رالف ايمرسون » يرى أن التاريخ هو انحلال الأحداث إلى مقوماتها الإنسانية .

التي ذكرناها قبل قليل ، حيث اطمأن الوجدان إلى ترجمة حرصنا الزائد على الموضوعية إلى نتائج لمسها كل من قُدر له الاطلاع على الكتاب من شتى أنحاء العالم الإسلامي ، إذ لم يستشعر أحد من موضوعه ولا من سياقه سوء نية أو مقصد مبيَّت للإسلام وخلفائه تغمر سطوره ..

ورغم كل ما قيل وكُتب حول هذه الموضوعية الخالية من التحيز والانتقاص من قدر الشخصيات والرموز التاريخية والدينية التي تمادت المصادر الكثيرة الأخرى التي خاضت في ذات الموضوع في الانتقاص منها سواء في النقد أو التحليل أو التركيز على مثالبها بكثير من الإفاضة والتطويل أو الغمز واللمز .. إلا أنها لم تشفع في منع اتهام الكتاب وتجريمه رغم غياب هذا الإيقاع غير الموضوعي عن سطوره ، فقد كان مروره على مواقف هذه الشخصيات ومواقفها مجرد عبور عاجل لا بد منه للوصول إلى الأحداث التي تلي الواقعة المقصودة ، إذ لم تعننا بأي حال من الأحوال تلك الصراعات المذهبية[1] والسياسية والفئوية والشعوبية التي كانت تحكم التهافت على السلطة الزمنية والروحية في الفترة التي شجرت فيها النزاعات وتلاطمت مفاعيلها بين الفرقاء إلى أن وصلت مداها بمصرع عثمان ومذبحة كربلاء ومقتل عترة النبي وما تلا ذلك من أحداث وصراعات دامية لم يترك التاريخ شاردة ولا واردة منها إلا وسجلها .. فمن يجسر على نزع أو إضافة أو تغيير شيء منها بعد ١٥ قرناً من وقوعها لا سيما اذا كانت بعيدة كل البعد عن محور بحثنا في هذا الكتاب ؟

جواب ذلك لم يحمله كتاب وزارة الإعلام إلى النائب العام بتقديم الكتاب إلى

---

(١) يفرِّق الكاتب أحمد الديين بين الرقابة والوصاية الحكومية على حق الفرد في القراءة والاطلاع ، فيقول : ليس هنالك بأس من وجود رقابة تجاه الكتب الإباحية غير ذات القيمة الفنية أو الأدبية ، وكذلك الكتب الحاضة على التمييز العنصري والمثيرة للنزاعات الطائفية والداعية للحرب ، ولكن علينا أن نلاحظ أن هنالك فرقاً دقيقاً بين منع كتاب إباحي وكتاب آخر في الثقافة الجنسية ، والأمر ذاته ينطبق على الفرق بين الكتب المثيرة للنزاعات المذهبية وبين الكتب الدارسة للمذاهب الدينية وتاريخ الأديان ـ القبس عدد ٩٤٧٩ الصادر بتاريخ ٧ نوفمبر ١٩٩٩

القضاء بتهمة الافتراء على الخليفة والسخرية[1] من الدين الإسلامي عن طريق الكتابة والنشر وفقاً للمادة (١١١) من قانون الجزاء.

وكان أن استدعيت إلى التحقيق[2] في النيابة العامة في قضية الجنحة[3] رقم ٢١ لسنة ١٩٨٤ صحافة.

وهكذا وبعد ست سنوات من صدور الطبعة الأولى .. بدأت معاناة جديدة ، وكنت أظن أنها انتهت بعد الانتهاء من تأليف الكتاب الذي استغرق العمل به خمس سنوات ، معاناة تمثلت في البحث المضني عن المصادر وتجهيزها ، وبالذات العبارة موضوع القضية إذ كان يتعين عليَّ تصويرها من الكتاب القابع في المكتبة المركزية والتأكد من رقمها[4] وكذلك البحث من جديد عن الكتب الأخرى التي تضمها المكتبات العامة والتي أوردت ذات معنى « العبارة المجرَّمة » بتفصيل أدق وإسهاب أوسع.. بينما اكتفيت أنا بنقل عبارة واحدة بنصها الحرفي من كل هذا الفيض

---

(١) في زاوية بتوقيع « زينهم » نشرتها الوطن في عددها الصادر يوم الخميس ١٧ ابريل ٨٦ جاء فيها : كنت أتمنى لو طلب السادة أعضاء مجلس الأمة من وزير الإعلام تزويدهم بإحصائية تبين عدد القضايا الصحفية التي نظرتها المحاكم متهمة رئيس التحرير بتحقير وتصغير الدين الإسلامي .. لوجدوا أنها لا تتجاوز عشر قضايا منذ الاستقلال ، وعليه فإن هذا العدد الذي لا يتجاوز أصابع اليدين لا يستحق تعديل قانون المطبوعات لحبس رئيس التحرير والمحرر في جريمة المساس بالذات الإلهية والأنبياء والصحابة ، لأن أحداً لم ولن يفكر بارتكاب مثل هذه الجريمة ، والقانون عادة يوضع لمعالجة حالات شائعة وكثيرة ، أما النوادر فلا يمكن أن تعالج أوضاعها بقانون ، ولكن سبق السيف العذل .. وقضايا الدين لا يستطيع أحد من النواب مناقشتها لأن تهمة الكفر والإلحاد جاهزة ..

(٢) حضرت التحقيق برفقة المحامي الأستاذ مصطفى الصراف .

(٣) سيرد تفصيل أسئلة وأجوبة التحقيق ضمن نصي حكميْ محكمتيْ الجنح الجزائية والاستئناف وكذلك في مذكرتيْ الدفاع .

(٤) كتاب « ثورة الحسين ونتائجها الاجتماعية » للشيخ محمد مهدي شمس الدين صفحة ٢٣ المكتبة المركزية ٤ / ٢١٩

وجدت أنها تفي بالغرض دون الدخول في التفاصيل ، وهي عبارة مثبتة في كتاب متداول بين يدي العامة وتقتنيه مكتبة رسمية ، كما تقتني وتعرض لجمهرة القراء كتباً مشابهة تتطرق لذات الموضوع المتهم بحيث تبدو العبارة المنقولة لكتابي إذا ما قارناها بما احتوته تلك الكتب .. نقطة في محيط واسع ومساحة براءة إذا ما اعتُبرت الآراء المشابهة في الكتب المعنية جرماً فكرياً أو جنحة تفكير..

عملية التجميع[1] المضنية هذه استغرقت سنة كاملة منذ التحقيق الأولي في النيابة لحين موعد جلسة[2] المحكمة الكلية في دائرة الجنح[3] الجزائية ، وقد تضمنت مذكرة[4] الدفاع الوقائع التالية :

قدم الإدعاء العام المتهم الأول وآخرين للمحاكمة الجزائية بتهمة السخرية بالدين الإسلامي عن طريق الكتابة والنشر وفقاً للمادة (١١١) من قانون الجزاء ، لأنهم في تاريخ سابق على ٢٢/ ٥/ ٨٤ وفي دائرة اختصاص مخفر المرقاب وقع ما يلي :

ـ بالنسبة للمتهم الأول : قام بتأليف كتاب جاء فيه افتراء على الخليفة الراشد عثمان بن عفان مما فيه مساس بالدين الإسلامي.

ـ بالنسبة للمتهمين الثاني والثالث : قاما بطبع ونشر هذا الكتاب رغم علمهما بما يحتويه من افتراء على أحد الخلفاء الراشدين.

---

(١) الأوراق الدالة على مصادر الكتاب بلغت ٦٢ صفحة مع ثلاث صور لفهارس معرض الكتاب تؤكد اشتراك الكتاب في المعرض لثلاث سنوات متتالية .

(٢) عُقدت برئاسة القاضي حسن كوكش وعبد الجليل عبد الواحد ممثل الإدعاء ، يوم السبت بتاريخ ٢٥/ ٣/ ٨٥

(٣) في إجراء لاحق ألغي رقم جنحة الصحافة عن القضية بموجب مذكرة من النيابة العامة إلى النائب العام بتاريخ ٢٦/ ٦/ ٨٤ وإحالة الأوراق إلى جهة الشرطة للاختصاص والموافق عليها بتاريخ ٢٧/ ٦/ ٨٤ عملاً بالمادة ٩ / ٢ من قانون الإجراءات والمحاكمات الجزائية .

(٤) أعدها المحامي الأستاذ علي عطية .

وكانت وقائع الدعوى على ما أظهرته مطالعة أوراقها..تتحصل فيما ورد بكتاب وزير الإعلام إلى السيد النائب العام من أن كتاب « الحسين في الفكر المسيحي » لمؤلفه أنطون بارا « المتهم الأول » والذي قامت بطبعه مطابع اليقظة في الكويت .. تضمن افتراء على الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي اللّه عنه حيث وصف سياسته في نهاية صفحتي ١٩٨ - ١٩٩ بأنها فاسدة في المال والإدارة والحكم .. وأنه نتيجة لتفاعل الأحداث مع هذه السياسة بدأ الانحراف الصريح في العقيدة ومبادىء الإسلام .

وأضاف كتاب الوزير أنه لما كان رأي الكاتب فيما ذهب إليه يتضمن سخرية بالدين الإسلامي وتصغيراً له لمساسه بعقائده ومبادئه مما يشكل الجريمة المنصوص عليها في المادة « ٣٠ » من القانون رقم ٣ لسنة ١٩٦١ بإصدار قانون المطبوعات والنشر والتي تحيل في العقاب على العقوبة المنصوص عليها في قانون الجزاء ، وقد انتهى الكتاب إلى طلب اتخاذ الإجراءات القانونية اللازمة.

وقد باشرت النيابة العامة التحقيق على النحو المبين بمحاضر التحقيق ، بعد أن قيدت الواقعة برقم ٢١ لسنة ٨٤ جنح[1] صحافة إلا أنها عادت ورأت بمذكرتها المؤرخة في ٢٦/ ٦/ ٨٤ والموافق عليها من السيد النائب العام بتاريخ ٢٧/ ٦/ ٨٤ ما يلي :

- أولاً : إلغاء رقم جنحة الصحافة.
- ثانياً : إحالة الأوراق إلى جهة الشرطة للاختصاص.
- ثالثاً : إخطار ذوي الشأن بهذا القرار.

---

(١) في قضية مماثلة حولت النيابة قضية جنح صحافة مرفوعة من وزارة الإعلام عام ٩٩ ضد دار قرطاس ناشرة كتاب محمد سلمان غانم « اللّه والجماعة » إلى قضية جنح عادية بتهمة السب والقذف ، رغم أن التقاضي حول الكتب يقوم أساساً على قانون المطبوعات والنشر ، وتكون بذلك وزارة الإعلام هي المدعي فيها تحت مسمى « جنح صحافة » .

وذلك على سند من أن نص المادة ٣٥ من القانون رقم ٣ لسنة ٦١ بإصدار قانون المطبوعات والنشر المعدل بالقانون رقم ٩ لسنة ٧٢ أنها جعلت نطاق اختصاص النيابة العامة بشأن الجنح المنصوص عليها في ذلك القانون قاصراً على ما تختص بنظره محكمة الجنايات من هذه الجنح وهي تلك المنصوص عليها في الباب الثالث الخاص بالمسائل المحظور نشرها في الصحف دون غيرها من المطبوعات الأخرى ، أما ما عدا ذلك من جنح فباق على أصله والاختصاص به تحقيقاً وتصرفاً وادعاءً مقصور لجهة الشرطة ، ونظراً لأن الواقعة محل الاتهام في الدعوى المطروحة متعلقة بكتاب وهي تشكل جنحة طبقاً للمادة ١١١ من قانون الجزاء والمادة ٢٩ من القانون رقم ٣١/ ٧٠ بتعديل بعض أحكام قانون الجزاء .. فإنها تكون خارجة عن نطاق ما تختص به النيابة العامة ويتعين بالتالي إحالة الأوراق إلى جهة الشرطة للاختصاص عملاً بالمادة ٩/ ٢ من قانون الإجراءات والمحاكمات الجزائية وإعمالاً لما تقدم وأخذاً به فقد باشرت الشرطة الدعوى وقدم الإدعاء العام المتهمين للمحاكمة الجزائية عن التهمة المشار إليها آنفاً .

الدفاع

وبناء على ما ساقته النيابة من تهم ووقائع ، قدم محامي الدفاع مذكرة تضمنت التفاصيل التالية :

ـ أولا : بالنسبة للطلب الأصلي الخاص بالسقوط فإن المادة السادسة من قانون الجزاء نصت على أن :

« تسقط الدعوى الجزائية في الجنح بمضي خمس سنوات من يوم وقوع الجريمة وتسقط العقوبة المحكوم بها إذا كانت من العقوبات المذكورة في المادة السابعة بمضي عشر سنوات من وقف صيرورة الحكم النهائي » .

وإذا كان من المقرر أن مدة سريان التقادم تبدأ منذ ارتكاب الجريمة ، وتكون الجريمة مرتكبة منذ تكوُّن أركانها بما فيها الفعل المادي التنفيذي.

ولما كانت الجريمة المسندة إلى المتهم الأول أنه قام بتأليف كتاب جاء فيه افتراء

على الخليفة الراشد عثمان بن عفان مما فيه مساس بالدين الإسلامي وكان الثابت بأن الكتاب الذي تضمن هذه العبارات التي وصفها الاتهام بأنها افتراء على الخليفة ومساساً بالدين..قد تم طبعه وتداوله في سنة ١٩٧٨ ، فإذا ما تفضلت عدالة المحكمة وطالعت صفحات الكتاب المقدمة نسخته لعدالتها وفق حافظة المستندات المرفقة .. لوجدت أنها تحمل ذات العبارات التي تضمنتها نهاية صفحة ١٩٨ وأول صفحة ١٩٩ من الطبعة الثانية من ذات المؤلَّف الصادرة في سنة ١٩٨٠ وقد عُرضت الطبعة الأولى المذكورة بكافة المكتبات المحلية بعد أن اطلعت عليها وزارة الإعلام وسمحت بتداولها ، كما سمحت أيضاً بعرضها في معارض الكتاب التي تقام سنوياً في أرض المعارض بالكويت ويرعاها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ومن ثم وإذا كان الفعل المادي التنفيذي قد تم في عام ١٩٧٨ وكان أول إجراء اتخذ من قبل سلطات التحقيق قد تم في ٢٢/ ٥/ ٨٤ على النحو الثابت بالأوراق .. فمن ثم تكون مدة التقادم قد اكتملت مما يلتمس معه المتهم الأول القضاء بسقوط الدعوى الجزائية قبَله .

ـ ثانياً : وبالنسبة للطلب الاحتياطي الخاص بالبراءة فقد نصت المادة ١١١ من قانون الجزاء المعاقب عليها : على أن كل من أذاع أو نشر بإحدى طرق العلنية المبينة في المادة ١٠١ آراء تتضمن سخرية أو تحقيراً أو تصغيراً لدين أو مذهب ديني سواء كان ذلك بالطعن في عقائده أو في شعائره أو في طقوسه أو في تعاليمه .. يعاقب بالحبس مدة لا تجاوز سنة واحدة وبغرامة لا تجاوز ألف روبية أو بإحدى هاتين العقوبتين .

وكانت المادة ١٠١ من ذات القانون قد نصت على أن : « كل من حرَّض علناً في مكان عام عن طريق القول أو الصياح أو الكتابة أو الرسوم أو الصور أو أية وسيلة أخرى من وسائل التعبير عن الفكر.. ».

ثم جاءت المادة١١٢ من ذات القانون ونصت على أن : لا جريمة إذا أذيع بحث في دين أو في مذهب ديني في محاضرة أو مقال أو كتاب علمي بأسلوب هادىء متزن من الألفاظ المثيرة وثبت حسن نية الباحث باتجاهه إلى النقد العلمي الخالص..

ومفاد ذلك أن الأفعال التي جرَّمها المشرع وعاقب عليها هي إذاعة آراء بطريقة علنية تتضمن سخرية أو تحقيراً أو تصغيراً لدين أو لمذهب ديني إلا إذا كانت هذه الإذاعة بحثاً في دين أو في مذهب ديني جاء في محاضرة أو مقال أو كتاب علمي في أسلوب هادىء متزن خال من الألفاظ المثيرة ، وثبت حسن نية المتهم باتجاهه إلى النقد العلمي الخالص.

أي أنه يتعين لقيام مثل هذه الجرائم التي تتعلق بانتهاك حرمة الأديان والتي لها علاقة بالعقائد الدينية .. توافر القصد الجنائي الذي هو اتجاه وإرادة الجاني إلى ارتكاب الجريمة بعناصرها ، كما تسلتزم قيام هذه الجرائم توافر سوء القصد والنية ومعرفة الحد الذي يفصل بين حسن النقد العلمي المثبت في أسلوب هادىء ومتزن.. وبين السخرية والإثارة والمساس بحرمة الأديان.

وبإنزال ما تقدم من أحكام وقواعد على واقعات هذه الدعوى ، وإذ كانت التهمة المسندة إلى المتهم الأول هي السخرية من الدين الإسلامي على دليل ما تضمنه مؤلفه الحسين في الفكر المسيحي في نهاية صفحة ١٩٨ وأول صفحة ١٩٩ من افتراءات على الخليفة عثمان بن عفان وحيث إنه وبالرجوع إلى الصفحات المذكورة نجد أن ما تضمنته بالحرف الواحد كان الآتي :

« وقد تفاعلت الأحداث مع سياسة عثمان الفاسدة في المال والإدارة والحكم ، فبدأ الانحراف الصريح في العقيدة ومبادىء الإسلام من يومها ، وقد ازداد الفساد في عهده فضرب كل الولايات الإسلامية مما ألَّب جموع المسلمين عليه فتنادوا إلى الثورة ضده بعد أن ضيَّق عليهم بأعمالهم وبعثهم إلى أرض العدو كجنود وجمَّرهم ـ أي جمَّدهم ـ هناك ، وحرَّم أعطياتهم ليطيعوه ، ولكن هذه الأحداث انتهت بمقتل عثمان ».

باللّه على عدالة المحكمة أين هي السخرية بالدين الإسلامي من هذه الكلمات.. وأين هو المساس بالدين الإسلامي في هذه العبارات ؟

يعتقد المتهم الأول ويشاركه في ذلك كافة البشر ، على أنه لا يرد في ذهن أحد أياً

كانت عقيدته الدينية ، أن يتناول الدين الإسلامي الحنيف بالسخرية ، ولا يريد المتهم الأول الاسترسال في شأن ذلك لأن المقام لا يتسع إليه وسيعاود دفع الاتهام عنه على سند من الآتي :

ـ العبارات التي تضمنها مؤلَّف الحسين في الفكر المسيحي موضوع الاتهام لا تحمل أية مساس بشخصية الخليفة عثمان بن عفان ، كما وأنها لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تفسر أو تؤوَّل أو تؤدي إلى أنها تتضمن سخرية بالدين الإسلامي ، هذا علماً بأن العبارات المذكورة استقاها الكاتب من مؤلفات لعلماء مسلمين نسوق منها على سبيل المثال صور الصفحات المقدمة بحافظة المستندات المرفقة ، والتي نلتمس من عدالة المحكمة التفضل بالرجوع إليها بدلاً من تكرارها وإعادة سردها بهذه المذكرة ، ومنها يتضح بجلاء أن ما دوَّنه المتهم الأول بمؤلفه هو ترديد لها دون تحريف ، بل بالعكس فإن ما استقاه المتهم منها هو جزء يسير جداً وكان بالقدر اللازم لاستكمال بحثه ، ونذكر في هذا المقام ما جاء بالصفحة ٢٣ من كتاب ثورة الحسين ونتائجها الاجتماعية للشيخ محمد مهدي شمس الدين رئيس المجلس الشيعي الأعلى بلبنان المرفقة صورة منه والمتضمن التالي :

« هذه هي الأحداث التي نرى أنها تتصل اتصالاً وثيقاً بالفتنة التي أصابت المسلمين في عهد عثمان ، فقد تفاعلت هذه الأحداث فيما بينها مجتمعة مع أسلوب عثمان الفاسد في سياسة المال والإدارة والاجتماع ، فكان من ذلك جميعاً الانحراف الصريح عن مبادىء الإسلام الذي وصل بالمأساة إلى قمتها ، فدفع المسلمين إلى الثورة وانتهى بهم إلى شر ما كانوا يحذرون ».

ـ تحمل المقدمة التي قدم إليها المتهم كتابه موضوع الاتهام والتي جاءت في ٣٦ صفحة ، تقديساً وإشادة بالدين الإسلامي الحنيف وبنبوة محمد صلى اللّه عليه وسلّم خاتم النبيين ، كما أوردت واستشهدت بآيات القرآن الكريم ، ونرجو من عدالة المحكمة التفضل بالرجوع إلى تلك الصفحات منعاً من ترديدها وحرصاً على وقت العدالة ، وسنسوق فقط على سبيل المثال جزءاً يسيراً جداً منها وهو ما ورد بآخر صفحة ٤٣ من القول :

ـ أما عبارة « ورضيت لكم الإسلام ديناً » فإنها جاءت بعد عبارة « وأتممت عليكم نعمتي » الواقعة بدورها بعد عبارة « اليوم أكملت لكم دينكم » فبذا يكون الإسلام هو الدين البشري الذي رضيه اللّه لعباده سواء أكانوا يهوداً أم نصارى أم مسلمين ، وتكون اليهودية والمسيحية هما الأدواء الروحية التي عالجت الأنفس في أزمان نزولها .. فبرأتها إلى حين نزول الإسلام حيث أكملها وحصَّن الأنفس بطعم روحي سرمدي ودرأ عنها كل العلل والأسقام التي قد تطرأ عليها فتفنيها .

ـ الكتاب موضوع الاتهام قد تناول بحثاً علمياً اتصف بأسلوب هادىء متزن سمح بعيد عن التعصب والإثارة والسخرية ، كله احترام للأديان السماوية وتقديس للدين الإسلامي ومبادئه ، ولا يحمل في طياته أي سوء قصد أو إساءة لشخصية الخليفة عثمان بن عفان .

ولما تقدم وإذ ثبت بالدليل القاطع أن كتاب الحسين في الفكر المسيحي موضوع الاتهام على مستوى يربأ به عن قصد السخرية بالدين الإسلامي أو حتى مجرد المساس به .. فإن التهمة المسندة إلى مؤلفه المتهم الأول تضحى بلا سند من الواقع والقانون ، الأمر الموجب براءته منها.

بناء عليه يلتمس المتهم الأول من عدالة المحكمة أن تقضي : أصلياً بسقوط الدعوى الجزائية قبله ، واحتياطياً ببراءته من التهمة المسندة إليه.

ونظرت المحكمة في القضية وأصدرت الحيثيات والحكم اللذين تضمنا التالي :
في القضية رقم : ٩٦/ ١٩٨٤ المرفوعة من الادعاء العام ضد أنطون يوسف بارا ، ومصطفى . ك ، ودنيس . ف .

الأسباب

بعد الاطلاع على الأوراق وسماع المرافعة ، وحيث أن المتهمين الثاني والثالث لم يحضرا بالرغم من إعلانهما قانوناً ويجوز الحكم في غيبتهما عملاً بالمادة ١٢٢ إجراءات جزائية .. وحيث أن الادعاء العام أقام الدعوى الجزائية ضد المتهمين مسنداً إليهم تهمة السخرية بالدين الإسلامي عن طريق الكتابة والنشر وذلك لأنهم في

تاريخ سابق على تاريخ ٢٢/ ٥/ ٨٤ وبدائرة اختصاص مخفر شرطة المرقاب :

ـ المتهم الأول : قام بتأليف كتاب جاء فيه افتراء على الخليفة الراشد عثمان بن عفان مما فيه مساس بالدين الإسلامي.

ـ المتهمان الثاني والثالث : قاما بطبع منشور هذا الكتاب رغم علمهما بما يحتويه من افتراء على أحد الخلفاء الراشدين.

وطلب عقاب المتهمين وفقاً للمادة ١١١ من قانون الجزاء ، وحيث أن واقعة الدعوى كما تتحصل للمحكمة من أحداثها وما تم فيها من تحقيقات ، نوجز منها ما جاء بكتاب السيد وزير الإعلام بتاريخ ١/ ٥/ ٨٤ إلى السيد النائب العام ، من أن كتاب الحسين في الفكر المسيحي الذي ألفه المتهم الأول وتولى طباعته ونشره المتهمان الثاني والثالث ، قد تضمن افتراء على الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي اللّه عنه حيث وصف في نهاية الصفحة ١٩٨ وبداية الصفحة ١٩٩ من الكتاب بأن سياسته فاسدة في المال والحكم وأنه نتيجة لتفاعل الأحداث مع هذه السياسة بدأ الانحراف الصريح في العقيدة ومبادىء الإسلام من يومها ، وإذ اعتبرت وزارة الإعلام ما نشر فيه سخرية بالدين الإسلامي وتصغيراً له لمساسه بعقائده ومبادئه.. فقد أحالت الكتاب المذكور إلى السيد النائب العام لاتخاذ الإجراءات القانونية.

وحيث إن النيابة العامة تولت التحقيق في الواقعة وإذ تبين لها أنها تشكل جنحة خارجة عن نطاق اختصاصها .. فقد أحالت الأوراق إلى جهة الشرطة للاختصاص.

وحيث إن المحكمة اطلعت على الصفحتين ١٩٨ و ١٩٩ من كتاب الحسين في الفكر المسيحي فبان لها أن هاتين الصفحتين تضمنتا عبارات وصفت سياسة الخليفة عثمان بن عفان بالفساد في المال والإدارة والحكم مما ترتب عليه الانحراف الصريح في العقيدة ومبادىء الإسلام من يومها ، وقد ازداد الفساد في عهده فضرب كل الولايات الإسلامية مما ألب جموع المسلمين عليه فتنادوا إلى الثورة ضده بعد أن ضيَّق عليهم بأعمالهم وانتهى الأمر إلى مقتله.

ويسؤال المتهم الأول أقر في التحقيق والجلسة بأنه مؤلف الكتاب محل التهمة ،

وقرر أن الطبعة الأولى لكتابه تمت في عام ١٩٧٨ وأن النسخة المضبوطة منه تم ضبطها عام ١٩٨٠ من مطابع دار اليقظة ، وقد قصد من تأليف الكتاب إبراز عنصر الشهادة في الديانتين المسيحية والإسلامية في سبيل العقيدة ، ولم يدر في خلده الإساءة إلى الدين الإسلامي أو المساس بالعقيدة أو بشخص الخليفة عثمان ، وإنما قصد الحديث عن السياسة في عهده وصولاً لتوضيح ما استجد بعدها من أحداث ، وأنه استقى بعض أفكار وعبارات كتابه من كتب لكتاب مسلمين.

وحيث إن المتهمين الثاني والثالث لم يضبطا ومن ثم فلا أقوال لهما في الأوراق.. وحيث إنه لدى نظر الدعوى بالجلسة مثُل المتهم برفقة محاميه وكرر أقواله السابقة وقدم الدفاع عنه مذكرة شرح فيها وقائع الدعوى ، ثم طلب أصلياً الحكم بسقوط الدعوى الجزائية قبَلَ المتهم عملاً بالمادة السادسة من قانون الجزاء بمقولة أن هذه المادة قد نصت على سقوط الدعوى الجزائية في الجنح بمضي خمس سنوات من وقوع الجريمة ، ولما كان ذلك وكان الثابت أن الكتاب الذي تضمن العبارات محل الاتهام قد تم طبعه عام ١٩٧٨ وكان أول إجراء اتخذ من قبل سلطات التحقيق قد تم في ٢٢/ ٥/ ٨٤ على النحو الثابت بالأوراق ومن ثم تكون مدة التقادم قد اكتملت مما يتعين معه القضاء بسقوط الدعوى الجزائية ، كما طلب الدفاع عن المتهم بمذكرته ، إحتياطياً : ببراءته مما أسند إليه بمقولة أن العبارات محل الاتهام لا تتضمن أي سخرية أو مساس بالدين الإسلامي أو برموزه وأعلامه ، هذا فضلاً عن أن هذه العبارات مستقاة من مؤلفات لعلماء مسلمين أوردها المتهم في كتابه على سبيل التصوير لحالة المجتمع الإسلامي إيام الخليفة عثمان بن عفان وقدم حافظة مستندات طويت على صور من صفحات الكتب والمحررات الأخرى التي استقى منها معلومات وعبارات كتابه محل الاتهام .

وحيث إنه عن الدفع بسقوط الدعوى الجزائية قبَلَ المتهم بالتقادم .. فهو مردود بأنه وفضلاً عن أن الجريمة المسندة إلى المتهم من الجرائم المستمرة والتي يدوم ارتكابها طالما بقيت العبارات محل الاتهام منشورة في الكتاب الذي ألّفه.. بالثابت أن الكتاب الذي تضمن تلك العبارات المسيئة قد تمت طباعته عام ١٩٨٠ الأمر الذي تعتبر معه

الجريمة محل الاتهام قد ارتكبت منذ تاريخ طباعته ونشره ، ولما كان ذلك وكان الثابت أن أول إجراء قد اتخذته النيابة في التحقيق بالواقعة تم في ٢٢/ ٥/ ٨٤ عند التحقيق مع المتهم ، ومن ثم فإن مدة الخمس سنوات المنصوص عليها بالمادة ٦ من قانون الجزاء تكون لم تكتمل بعد مما يغدو معه الدفع المبدى من محامي المتهم على غير سند من الواقع والقانون بما يتضمن الإلتفات عنه .

وعن الموضوع ، فإن المحكمة تجد من الرجوع إلى الصفحتين ١٩٨ ـ ١٩٩ من كتاب الحسين في الفكر المسيحي الذي ألفه المتهم ، أن المؤلف وفي معرض حديثه عن السياسة التي انتهجها الخليفة عثمان بن عفان إبان حكمه ..وصف تلك السياسة في المال والإدارة والحكم بالفساد ، مما أدى إلى ظهور الانحراف الصريح في العقيدة الإسلامية ..الأمر الذي ترى معه المحكمة أن هذه العبارات تشكل مساساً وطعناً بالدين الإسلامي ، ومن ثم فإن أركان التهمة المسندة إلى المتهم الأول تكون قد توافرت حقه بما يتعين معه أخذه بها ومجازاته بعقوبتها إعمالاً لحكم المادة ١٧٢/ ١ من قانون الإجراءات الجزائية.

فبالنسبة للمتهمين الآخرين ، فإنه ولما كانت المحكمة قد انتهت إلى أن العبارات محل الاتهام تضمنت مساساً بالدين الإسلامي ، وكان الثابت من الأدلة المتوفرة في الدعوى أن المتهمين الثاني والثالث قد توليا طبع ونشر الكتاب الذي احتوى العبارات سالفة الذكر ..ومن ثم فإن التهمة تكون ثابتة في حق كل منهما مما يتعين معه أخذ كل منهما بمادة الاتهام المسندة إليه ومجازاته بعقوبتها.

فلهذه الأسباب ..حكمت المحكمة حضورياً للأول أنطون يوسف بارا ، وغيابياً للمتهمين الثاني مصطفى ك ، والثالث دنيس ف بتغريم كل واحد منهم خمسين ديناراً عما أسند إليه.

بعد صدور هذا الحكم الابتدائي قررنا الاستئناف بينما اكتفت الوزارة بهذا الحكم ولم تستأنف ، وكانت العطلة القضائية على الأبواب فكان لا بد من التمهل في إعداد المستندات الجديدة إضافة إلى القديمة ، وكذلك كان هناك مزيد من الوقت أمام

المحامي لإعداد مذكرة دفاع ثانية لتقديمها إلى دائرة الجنح المستأنفة التي حددت جلستها بتاريخ ١١/ ٩/ ٨٥ بعد انتهاء العطلة مباشرة.

الكثير من الأصدقاء الخُلُص أسدوا إليَّ النصح بلا جدوى محاولة الاستئناف على اعتبار أن الكتاب وبشهادة الألوف التي قرأته ليس بحاجة إلى صك براءة.. ويكفيه فخراً ذيوع صيته في الأوساط الفكرية على امتداد العالمين العربي والإسلامي ، وتقريظه من قبل النخبة المثقفة وعلماء الدين وسواد القراء على حد سواء ، ونظرتهم إليه على أنه عمل فكري غير مسبوق ، نجح رغم الحساسية المحيطة بموضوعه من تخطي مناطق الشطط ، وتحقيق توازن دقيق بين مختلف الآراء بكثير من العدل والإنصاف والسماحة واحترام رأي الآخر ، مما جعله قبلة للباحثين عن الحقيقة المجردة الخالية من التعصب والعصبية والراغبين في الاطلاع على رؤى مغايرة لما هو مطروح ، وكتاب كهذا ـ على حد قولهم ـ ليس بحاجة إلى شهادة حسن سلوك من أي جهة كانت ، أو تعريف بنواياه ومراميه بعد أن خبرها كل من قُدر له الاطلاع عليه من أتباع مختلف الأديان والمذاهب والملل ، مما رفعه فوق مستوى الشبهات ونأى به عن مواطن الزلل والهوى.

هذه النصائح والتقريظات التي اعتمدت على قناعات القاعدة العريضة لمتداولي الكتاب .. كان حرياً بها أن تثنيني عن طلب الاستئناف .. فالمسألة من وجهة نظر أخرى..مسألة مبدأ ، و الاستئناف لا يعني هنا استجداء صك براءة أو الرغبة بشهادة حسن سلوك فكرية من جهة رسمية مع احترامي لكافة الجهات وتقديري لآرائها ورؤاها للعمل ، لا.. فالهدف ليس هذا لأن ما ارتآه القراء من أن سطور الكتاب تحمل براءته الذاتية ، وأن رضا أي جهة على الكتاب لايقدم ولا يؤخر في مسألة قيمته الأدبية ونبل مقصده ونواياه .. فإن هذه المسلّمات استقرت في قناعتي منذ أمد بعيد وسبق أن أتيت على ذكرها في ندواتي ومحاضراتي ، وقلت إن أي كاتب ترضى عنه أي جهة كانت غير جهة القراء .. عليه أن يعيد النظر فيما يقدمه ويصحح مساره الفكري وتوجهه الرسالي قبل فوات الأوان .. هذا ما أؤمن به وما استقر في وجداني منذ أمسكت القلم لأول مرة في حياتي ..

لكنني قلت لنفسي : لعل في الاستئناف مهما كانت نتيجته ..إصرار على رفضي لمبدأ اتهام كاتب بما لم يقصده ، وغض الطرف عن مقصده الواضح الجلي وعدم الالتفات إلى ما يدحض الاتهام جملة وتفصيلاً في الصفحات الأربعمائة التي لو قُرئت بتمعن وقُيِّمت بإنصاف وتجرد .. لكانت استحقت الشكر والامتنان صراحة ووجوباً بدل اتهامها بما لم تحمله ولم تقصده ، لا تضميناً ولا تصريحاً..

مذكرة الدفاع في الاستئناف توسعت باستشهاداتها لكتاب آخرين وزادت من مستنداتها المكتوبة .. وقد نظرتها المحكمة في جلسة[1] الأربعاء الموافق ١١/ ٩/ ٨٥ ، حيث ركزت المذكرة على النقاط التالية :

ـ قدم الادعاء العام المستأنف وآخرين للمحاكمة الجزائية مسنداً إليهم تهمة السخرية بالدين الإسلامي عن طريق الكتابة والنشر ، وذلك بأنهم في تاريخ سابق على ٢٢/ ٥/ ٨٤ وبدائرة اختصاص مخفر شرطة المرقاب :

ـ المتهم الأول ـ المستأنف قام بتأليف كتاب جاء فيه افتراء على الخليفة عثمان بن عفان مما فيه مساس بالدين الإسلامي .

ـ المتهمان الثاني والثالث قاما بطبع منشور هذا الكتاب رغم علمهما بما يحتويه من افتراء على أحد الخلفاء الراشدين ، وطلب عقابهم وفقاً للمادة ١١١ من قانون الجزاء .

وقد تولت النيابة العامة التحقيق في الواقعة وتبين لها أنها تشكل جنحة خارجة عن نطاق اختصاصها ، وأحالت الأوراق إلى جهة الشرطة للاختصاص ولنا وقفة طويلة إزاء تصرف النيابة العامة .

فالنيابة العامة هي صاحبة الإختصاص الأصيل ، أي هي المختصة أصلاً بتحريك الدعوى الجزائية ومباشرتها حيث تنص المادة ١٦٧ من الدستور على أن تتولى النيابة

---

(١) عُقدت برئاسة الأستاذ محمد ماضي أبو الليل وعضوية الأستاذين القاضيين علي عبد الفتاح خليل وأنور العنزي ، وبحضور الأستاذ عبدالله ملا حسين ممثل الادعاء .

العامة الدعوى العمومية باسم المجتمع ، ويجوز أن يُعهد بقانون لجهات الأمن العام تولي الدعوى العمومية في الجنح على سبيل الاستثناء وفقاً للأوضاع التي يقررها القانون .

ونصت المادة ٥١ من قانون تنظيم القضاء اختصاص النيابة العامة في الدعوى الجزائية ..على أنه للنيابة العامة دون غيرها الحق في رفع الدعوى الجزائية ومباشرتها ما لم يوجد نص في القانون على خلاف ذلك ، كما نصت المادة ٥٢ من ذات القانون على أن تتولى النيابة العامة تحقيق الدعوى الجزائية ويجوز لها أن تندب مأموري الضبط القضائي لهذا التحقيق.. إما بصفة عامة في نوع معين من القضايا ، وإما بصفة خاصة في قضية معينة بالذات .

وأيضاً نصت المادة ٥٣ على أن مأموري الضبط القضائي يكونون فيما يتعلق بأعمال هذه الوظيفة تابعين للنيابة العامة ولها عليهم حق الإشراف في جميع أعمال التحقيق التي يقومون بها .

إذن فالنيابة العامة بحسب الأصل هي خصم المتهم وهي صاحبة الحق الأصيل في مباشرة الدعوى العمومية أو تحريكها ، أي استعمال الدعوى الجنائية ومباشرتها ، فهي القوامة على الدعوى العمومية وهي التي تختص في تحريكها بصفة أصيلة وإن كان هذا لا يمنع وجود أشخاص آخرين غيرها يُمنحون هذا الحق ، ولكن هذا الحق لا يتقرر لهم إلا على سبيل الاستثناء وهم يعملون تحت إشراف النيابة العامة .

إذن فالنيابة لا تملك التنازل عن سلطتها بدعوى أنها غير مختصة لأنها صاحبة الاختصاص الأصيل على نحو ما أوضحنا ، وكان يتعين عليها أن تباشر مهمتها في هذه القضية بالذات لأنها تتعلق بجرائم النشر .

وبجلسة ٢٣/ ٣/ ٨٥ أصدرت المحكمة حكمها في القضية رقم ٩٦/ ٨٤ ، حضورياً للأول أنطون يوسف بارا ، وغيابياً للمتهمين الثاني مصطفى ك والثالث دنيس ف ، تغريم كل واحد منهم خمسين ديناراً عما أسند إليه .

ولما كان هذا الحكم قد جاء خاطئاً مخالفاً للقانون و مشوباً بالقصور في التسبب

والفساد في الاستدلال .. فإن الطالب أنطون يوسف بارا يستأنفه للأسباب التالية :

ـ أولاً : مخالفة القانون والخطأ في تطبيقه وتأويله ، فقد جاء بكتاب السيد وزير الإعلام الموجه للسيد النائب العام أن كتاب الحسين في الفكر المسيحي الذي ألفه المستأنف وتولى طباعته المتهمان الثاني والثالث قد تضمن افتراء على الخليفة عثمان بن عفان حيث وصف في نهاية ص ١٩٨ وبداية ص ١٩٩ من الكتاب سياسته بأنها فاسدة في المال والحكم وأنه نتيجة لتفاعل الأحداث مع هذه السياسة بدأ الانحراف الصريح في العقيدة ومبادىء الإسلام من يومها .

وقد اعتبرت وزارة الإعلام أن ما نشر فيه سخرية بالدين الإسلامي وتصغيراً له لمساسه بعقائده ومبادئه .

ويرد على ذلك : بأنه لم يثبت أن المستأنف قصد التشهير بالخليفة عثمان ، فالنقد كان عن واقعة عامة واردة في كافة كتب التاريخ وفي كافة كتب المؤلفين الذين ألفوا كتباً عن الخلفاء الراشدين ، والمؤلف كان يناقش سياسة عامة يعلمها الصغير والكبير ، ثم أنه لم يأت بما جاء به من عندياته بل نقل العبارة المنسوبة إليه من كتاب مروج الذهب للمسعودي وهو كتاب من كتب التراث ، وكذلك من كتاب الشيخ محمد مهدي شمس الدين « ثورة الحسين ونتائجها الاجتماعية » .

فقصد المستأنف لم يكن سوى سرد وقائع تاريخية ثابتة في كتب التراث وفي مؤلفات المؤلفين المحدثين ولا يختلف عليها اثنان ، لا لمجرد التشهير بالخليفة عثمان أو النيل من قدره وشرفه ، فسوء القصد منتف تماماً عن المستأنف وبالتالي فليس فيما ذكره مخالفة للقانون والعرف الإعلامي ، وهو لم يتعمد خطيئة ولم يقصد إلى إساءة ، فهو يعرف لعثمان فضله ومكانته كما يعرف له سوابقه التي لا تجحد أيام الرسول« ص» وهو وإن لم يكن عثماني الهوى بل شيعة لعلي والحسين .. إلا أنه يعرف لعثمان فضله .

وقد نظر المستأنف إلى قضية عثمان نظرة خالصة مجردة ، ليست صادرة عن عاطفة ولا هوى ولا تتأثر بالإيمان والدين ، بل نظرة المؤرخ الذي يجرد نفسه تجريداً

كاملاً من النزعات والعواطف والأهواء كما فعل ذلك أيضاً الدكتور طه حسين حين أرَّخ لعثمان في كتابه « الفتنة الكبرى » الجزء الأول .

لقد اختلف المسلمون حول هذه القضية اختلافاً كبيراً في عهد عثمان وبعده ، واختصموا حولها أعنف خصومة عرفها تاريخهم ، خصومة ذكر الدكتور طه حسين أنها خصومة عنيفة فرقتهم وما زالت تفرقهم حتى الآن وستظل تفرقهم إلى آخر الدهر ص٥ ، كما ذكر في ص ١٣ : وقد احتج خصوم عثمان عليه بإخصاص النبي من نفسه وبما أراد عمر من إقصاص الرعية من ولاتها وطلبوا منه أن يقص من نفسه فلم يجبهم إلى ما أرادوا .

وفي موضع آخر من الكتاب ص ٤٠ : ليس من الغريب في شيء أن يتعرض كثير من الصالحين ومن أصحاب النبي لأسباب الفتن ودواعي الغرور ، وأن يطرأ عليهم من الأحداث والخطوب ما يباعد بينهم وبين عهدهم الأول حين كان الإسلام غضاً .

وسنرى أن أسباب الفتن ودواعي الغرور كانت كثيرة قوية خلابة لا يثبت لها أولو العزم ، وأولو العزم كله في كل زمان ومكان ، إن جماعة من أصحاب النبي قد حسن بلاؤهم في الإسلام حتى رضي النبي عنهم وبشَّرهم بالجنة أو ضمنها لهم ، ثم طال عليهم الزمن واستقبلوا الأحداث والخطوب وامتُحنوا بالسلطان الضخم العظيم والثراء الواسع العريض ، ففسدت بينهم الأمور وقاتل بعضهم بعضاً وقتل بعضهم بعضاً وساء ظن بعضهم ببعض إلى أبعد ما يمكن أن يسوء ظن الناس بالناس .

وفي صفحة ٤١ جاء : أما نحن فلسنا نعاصرهم ولا نشاركهم فيما شجر بينهم من الخلاف ، وليس من المعقول لذلك أن نقحم عواطفنا في أمرهم ، وإنما سبيلنا أن ننظر إلى أعمالهم وأقوالهم من حيث صلتها بحياة الناس وأحداث التاريخ وأن نخطِّىء منهم من نخطِّىء ونصوِّب من نصوِّب من هذه الجهة وحدها دون أن نقضي في أمر دينهم بشيء فإن الدين للّه .

وقد ناقش الدكتور طه حسين قضية هامة كان لها أثرها في الفتنة وهي قوله عن

عثمان في صفحة ٤٢ : إن عمر كان يحرم قرابته احتساباً للّه وأنا أعطي قرابتي احتساباً للّه ومن لنا بمثل عمر ؟ ورد عليه بقوله : إن الأموال العامة إما أن تكون للشعب فلا يحل للإمام أن يتصرف فيها إلا بإذنه ، وإما أن تكون للإمام فلا يحل للشعب أن يعترض عليه إن تصرف فيها ، فإما أن يتقرب بعض الأئمة إلى اللّه بحفظها على المسلمين وأن يتقرب بعضهم الآخر إلى اللّه بصلة رحمه منها ..فهذا شيء لا يستقيم ، وواضح أني مُذهب في ذلك مذهب عمر لأنه يلائم الحق والعدل .

ثم ذكر بموضع آخر في صفحة ٤٣ : عثمان ذهب في أموال المسلمين مذهباً مخالفاً لمذهب عمر وسيرته .

وفي صفحة ٤٧ : لما استخلف عثمان فتح الطريق أمام الطبقة الممتازة التي أمسكها عمر ، لا إلى الأقاليم فحسب .. بل وصلهم أيضاً بالصلات الضخمة من بيت المال ، فيقال إنه أعطى الزبير ستمائة ألف ، وأعطى طلحة ذات يوم مائتي ألف ، وإذ أكثر المال على هذا النحو لفريق بعينه من الناس .. فقد فُتحت لهم أبواب الفتنة على مصاريعها .

كما ذكر أيضاً في صفحتي ١٩٣ـ ١٩٤ : والسياسة المالية التي اصطنعها عثمان منذ نهض بالخلافة ..كلها موضوع للنقمة والإنكار من أكثر الذين عاصروه ومن أكثر الرواة والمؤرخين ، خصوصاً من جانب الشيعة والخوارج .

فعثمان كان يرى أن للإمام الحق في أن يتصرف في الأموال العامة حسب ما يرى أنه المصلحة ، وأنه ما دام قد انقطع بحكم الخلافة لتدبير أمور المسلمين .. فله أن يأخذ من أموالهم ما يسعه ويسع أهله وذوي رحمه ، لا يرى بذلك بأساً ولا جناحاً .

لقد أعطى مروان بن الحكم خمس الغنيمة التي غنمها المسلمون في أفريقية أو خمس الخمس ، ووهب ما بقي عليه من ثمن الخمس ، وأعطى الحكم عمه وأعطى ابنه الحارث ثلاثمائة ألف ، وأعطى عبداللّه بن خالد بن أسعد الأموي ثلاثمائة ألف ، وأعطى كل واحد من الذين وفدوا مع عبداللّه بن خالد مائة ألف حتى أبى عبداللّه بن الأرقم صاحب بيت المال أن ينفذ الأمر واستقال من عمله ، وأعطى عبداللّه بن

الأرقم هذا بعد استقالته ثلاثمائة ألف فلم يقبلها مورعاً وزهداً ، وأعطى الزبير بن العوام ستمائة وألف وأعطى طلحة بن عبيد اللّه مائة ألف ، وأعطى سعيد بن العاص مائة ألف ، وزوَّج ثلاثاً أو أربعاً من بناته لنفر من قريش فأعطى كل واحد منهم مائة ألف دينار ، ولم يكن يبيح لصاحب بيت المال أن يعصى أمره أو يجادل فيه ، وواضح أن عمال عثمان ساروا في المال سيرة إمامهم فأعطوا واقترضوا والتوى بعضهم بالدين .

وإذا أطلق الإمام يده وأطلق العمال أيديهم في الأموال العامة على هذا النحو.. لم يكن غريباً أن يحتاج الجيش إلى المال فلا يجده ، وأن يضطر الإمام أن ينفق على الحرب من أموال الصدقة فيعرض نفسه لما تعرض له من الإنكار الذي إن دل على شيء فإنما يدل على أن سياسة المال أيام عثمان لم تكن دقيقة ولا محكمة .

ولم يكن غريباً أن تمتد أيدي العمال والإمام إلى أموال الصدقة لا للإنفاق الحربي..بل للعطاء وصلة الرحم ، ولم يكن غريباً أن يحتاج بيت المال إلى ما يواجه به نفقات الحرب والسلم وسخاء الإمام والعمال فيدعو ذلك إلى التشدد على الرعية والعنف في جباية الخراج والجزية والزكاة ، وهذا يفسر لنا ما رُوي من أن المصريين شكوا ظلم عبد اللّه بن سعد ومن قول عمرو بن العاص لعثمان : وهلكت مضالها .

كما يفسر لنا ما رُوي من أن عمال الصدقة كانوا يظلمون أهل البادية ويُنسب ظلمهم إلى عثمان ويبلغه ذلك فلا يغير منه .

على أن عطاء عثمان لم يقتصر على السائل من المال وإنما تجاوزه إلى الجامد أيضاً فقد نقم الناس من أسلوبه في اقتطاع القطائع الكثيرة في الأمصار وتخصيصها لكل من هب ودب من بني أمية.

إذن السياسة المالية لعثمان كانت كلها شر ، ففيها إنفاق الأموال العامة بغير حقها وما يترتب على ذلك من الاضطراب المالي وظلم الرعية ، وفيها إنشاء طبقة غنية مسرفة في الغنى ، ولو سار عثمان في الأموال العامة سيرة عمر فلم ينفق المال إلا بحقه .. لجنَّب نفسه والمسلمين شراً عظيماً .

إذن فلم يكن المستأنف في قوله متأوِّلاً أو قائلاً بما لم يقل به الأوائل الذين عاصروا عثمان ووقفوا في وجهه ونقدوه نقداً مراً كأمثال أبي ذر وغيره ، ولم يقل أحد آنذاك أنهم اتهموه في دينه أو في عقيدته ، بل كان الهجوم كله منصباً على سياسته في المال وفي تعيين الولاة ، فلماذا يُحرم على المستأنف ما أحل للكثير من غيره ؟

ولا يجوز أن يكون للعقيدة الدينية دخل في ذلك مطلقاً ، لأن المؤلف تعرَّض في كتابه لشخصية إسلامية هامة هي شخصية الحسين بن علي سيد الشهداء وابن بنت رسول اللّه محمد « ص » ، وإذا كانت الحساسية التي تواكب قلم الكاتب غير المسلم لدى تناوله علماً من أعلام الإسلام مضاعفة .. فإنها سوف تتصاعد أيضاً لدى القيام بعملية الربط بين المواقف المتجانسة والأهداف المشتركة بين نبي ونبي وشهيد وشهيد صفحة ٢٩ من كتاب المؤلِّف ذاته.

إذن فهو أمر رائع أن يلتقي الفكران الإسلامي والمسيحي في قضية تاريخية كقضية الحسين وربطها بقضية المسيح عليه السلام .

ولتأكيد أن ما ذهب إليه المستأنف ليس بجديد ، اقرأوا إن شئتم كتاب علي بن أبي طالب بقية النبوة وخاتم الخلافة للأستاذ عبد الكريم الخطيب الطبعة الأولى سنة ١٩٦٦ مكتبة القادسية ـ ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي .

ـ وكتاب الخلفاء الراشدون للأستاذ محمد إسماعيل إبراهيم الطبعة الأولى سنة ١٩٧٦ مكتبة القادسية ـ ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي .

ـ وكتاب الشيعة في التاريخ تأليف الشيخ محمد حسين الزين الطبعة الثانية سنة ١٩٧٩ دار الآثار للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت .

ـ وكتاب عبقرية الإمام علي تأليف عباس محمود العقاد ـ دار الهلال .

ـ وكتاب الإمام علي وحقوق الإنسان للأستاذ جورج جرداق ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت المكتبة المركزية .

ـ وكتاب علي وعصره للأستاذ جورج جرداق ـ منشورات دار مكتبة الحياة .

ـ وكتاب فضائل الإمام علي للأستاذ محمد جواد مغنية ، المكتبة العامة المركزية منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت .

ـ وكتاب بين علي والثورة الفرنسية للأستاذ جورج جرداق ، منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت .

ـ وكتاب ثورة الحسين ونتائجها الاجتماعية للأستاذ محمد مهدي شمس الدين طبعة ثانية ـ مكتبة الحياة ـ بيروت .

وغيرها من الكتب العديدة عن سيرة عثمان وعلي ومنها ما هو مقرر على طلبة المدارس والجامعات في بعض البلدان العربية .

ولنقتبس بعض فقرات قليلة من هذه الكتب ونترك لعدالة المحكمة الرجوع إليها وقراءتها مع غيرها لتنتهي إلى أن المستأنف لم يأت بجديد يلام عليه ، بل استقى ما ذكره من مؤلفات لعلماء أجلاء وما استقاه منها هو جزء يسير جداً بالقدر اللازم لاستكمال بحثه .

فمن كتاب الخلفاء الراشدين للأستاذ محمد إسماعيل نطالع : وشيء آخر جدَّ وظهر في حياة المجتمع وهو فتنة المال والجاه والثراء الفاحش الذي ظهر واستشرى طغيانه ، طبقة من هؤلاء الصحابة الأثرياء باعوا كل ما لهم في مكة والمدينة واشتروا بثمنها الضياع والعقار في الأمصار وعلاوة على ذلك ظلم الولاة الذين ولأهم عثمان وأكثرهم من أقاربه الذين لم يتورعوا عن استخدام نفوذهم في جميع الأحوال ، وبعد السنوات الست الأولى من توليه مقاليد الخلافة .. بدأت الأحوال تسوء بسبب التطورات الاقتصادية والاجتماعية وظلم الولاة وعدم توزيع أموال الفيء بالعدل ، فبدأ السخط والتذمر ، وقام من الصحابة من يندد وينقم على مظاهر الغنى الفاحش والفقر المدقع وعلى رأسهم أبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر وعبداللّه بن مسعود وغيرهم ممن نادوا بضرورة الثورة على هذه الأوضاع الظالمة .

ومن كتاب عبقرية الإمام علي للأستاذ عباس محمود العقاد : أهم أسباب الفتنة أن عثمان خالف بعض السنن التي اتبعها النبي في الآذان والصلاة ، وأنه أدنى أناساً

من أقاربه كان رسول اللّه « ص» قد أقصاهم عن المدينة ، فاستدعاهم إليه بعد استخلافه وأغدق عليهم المنح والأموال ، وأنه أطلق العنان لأبناء أسرته في الولاية والعمالة ، ومنهم من اتهموه بإقامة الصلاة وهو سكران .. وأنه منح سفيان بن حرب مائتي ألف درهم كما منح الحارث بن الحكم زوج ابنته عائشة مائة ألف درهم ومن بيت المال ، وأنه توسع في بناء القصور وحرم بعض الصحابة وضرب بعضهم على مشهد من الملأ ضرب إهانة وإيجاع .

ومن كتاب الشيعة في التاريخ للشيخ محمد حسين الزين : في أواخر أيام عثمان تغلبت فئة من بطانته وتولت الأعمال وانتشرت في البلاد تأمر وتنهي حسب الأهواء وتنال ما تريد من الملاذ والملاهي التي حرمها الشرع الشريف ولم يعتدها المسلمون من قبل ، ولم يستطيعوا الصبر عليها والإغضاء عن فاعليها فكان من الطبيعي أن ينهضوا ويملأوا الأرض والسماء أصواتهم الحرة واستنكاراتهم الشديدة .

ومن كتاب علي وحقوق الإنسان : لقد كانت العدالة الاجتماعية في خطر ، والناس يأكل قويهم ضعيفهم ، وقد أطلقت أيدي النافذين منهم والحاكمين في الأرزاق والأعناق .. الخ .

ومن كتاب علي وعصره لذات المؤلف : وكانت خلافة عثمان ، فاستشرى داء الوجاهة وأفلتت المطامع من عقالها وتناصر الوجهاء بزعامة الأمويين فعم البلاء من كل جانب .

ويقول الأستاذ محمد جواد مغنية : في عقيدتي أن خلافة عثمان كانت أهم حدث في تاريخ المسلمين ، وأنها تركت أسوأ الأثر في حياتهم من يومها إلى قيام الساعة .

وأخيراً نقرأ في كتاب ثورة الحسين للأستاذ محمد مهدي شمس الدين ص٢٣ : هذه هي الأحداث التي نرى أنها تتصل اتصالاً وثيقاً بالفتنة التي أصابت المسلمين في عهد عثمان ، فقد تفاعلت هذه الأحداث فيما بينها مجتمعة مع أسلوب عثمان الفاسد في سياسة المال والإدارة والاجتماع ، كان من ذلك جميعاً الانحراف الصريح

عن مبادىء الإسلام الذي وصل بالمأساة إلى قمتها فدفع بالمسلمين إلى الثورة وانتهى بهم إلى شر ما كانوا يحذرون .

ولنرجع بعد كل ذلك إلى ما قاله المؤلف المستأنف بالحرف الواحد حتى نبين أنه لم يأت بجديد : وقد تفاعلت الأحداث مع سياسة عثمان الفاسدة في المال والإدارة والحكم فبدأ الانحراف الصريح في العقيدة ومبادىء الإسلام من يومها ، وقد ازداد الفساد في عهده فضرب كل الولايات الإسلامية مما ألَّب جموع المسلمين عليه فتنادوا إلى الثورة ضده بعد أن ضيق عليهم بأعمالهم وبعثهم إلى أرض العدو كجنود ـ وجمَّرهم ـ أي جمَّدهم هناك وحرَّم أعطياتهم ليطيعوه ، ولكن الأحداث انتهت بمقتله .

فأين هو المساس بالدين الإسلامي في هذه الكلمات ، وبمَ تختلف عن غيرها ؟

الواضح الجلي أن هذه العبارات لا تحمل أي مساس بشخصية الخليفة عثمان ، فالمؤلف يعرف له مكانته وأنه من السابقين إليه وأنه على صلة نسب مع النبي « ص » من ناحية الأب والأم ، وأنه زوج ابنته رقية ثم أم كلثوم ، وأنه كان كريماً سخي النفس واليد بماله في سبيل اللّه ، وأنه الذي اشترى بئر رومه ، كما اشترى أرضاً وسَّع بها مسجد النبي ، وجهَّز جيش العسرة ، وكان أبر الناس بالناس وأرفق المسلمين بالمسلمين وأحرصهم على صلة الرحم وأسخاهم يداً وأسمحهم نفساً وأعظمهم حلماً ، صادق الحياء ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، ولو كان المؤلف يؤرخ لعثمان فقط في كتابه .. لذكر كل هذا الذي ذكرناه ، ولكنه إزاء الكتاب عن الحسين جاءت عبارته إشارة عابرة اقتضاها السياق التاريخي لمجريات الأحداث ليصل إلى ما يريد الكلام عنه .

ولا ندري من أين جاء الادعاء العام بأن المؤلف يهاجم الدين الإسلامي ؟ ولو قرأ الكتاب من أوله إلى آخره..لهاله ما ذكره المؤلف من إشادة بالدين الإسلامي الحنيف ونبوة محمد « ص » خاتم النبيين .

ففي صفحة ٢٢ من الكتاب يقرر بقوله : وصل الخط البياني للتوحيد في الرسالة

المحمدية إلى الذروة في قوله تعالى : قل هو اللّه أحد ، اللّه الصمد لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

وقوله : وهكذا كان الإسلام خاتم الديانات والرسالة المحمدية خاتم الرسالات .. « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

وقوله في صفحة ٣٩ : لقد وجدت الأنفس في رسالة محمد « ص » تتمة وخاتمة لرسالة المسيح « ع » ، فبلغ بها الكمال الإلهي حدوده العليا وارتقت وحدانية اللّه مداها من خلالها .

وقوله في صفحة ٤٣ : القرآن الكريم خاطب مجموع البشرية بالقول : اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ، والمقصود من هذه الآية الكريمة بأن ما كان في مسالك دين اللّه الواحد من رسالات سابقة ، جاء الإسلام ليكملها ويضع لها الخاتمة ، فتمت نعمة اللّه على البشرية بتمام هذه الرسالات .

فمعنى عبارة : أكملت لكم دينكم يجيء مشيراً بشكل ضمني واضح إلى وجود هذا الدين فيما سبق ، وأما عبارة : ورضيت لكم الإسلام ديناً .. فقد جاءت بعد عبارة وأتممت عليكم نعمتي .

فبذا يكون الإسلام هو الدين البشري الذي ارتضاه اللّه لعباده سواء أكانوا يهوداً أم نصارى أم مسلمين .

وهكذا يسترسل المؤلف في تمجيد الإسلام إلى أن ينتهي من مقدمته قائلاً : ويأبى اللّه إلا أن يتم نوره .

لذلك فإننا نقرر عن يقين أنه لو كانت محكمة أول درجة قد قرأت الكتاب الذي كتبه المستأنف .. لما اكتفت بالحكم ببراءته بل لقرظته وأشادت به وحثت كل مثقف على قراءته .

فالإمام الحسين عليه السلام سيد الشهداء يستحق أن يكتب عنه كل منصف

سواء كان مسيحياً أو مسلماً ، فهو قمة في الفداء والتضحية ، عليه وعلى أبيه وجده السلام .

ثانياً : سُئل المؤلف في التحقيق معه فأجاب : أنه قصد بتأليف الكتاب الإشادة باستشهاد كل من الحسين بن علي رضي اللّه عنه والمسيح عليه السلام في سبيل العقيدة لما لاحظه من أوجه شبه بين موقفيهما ، وأن العبارات التي أشار إليها كتاب وزارة الإعلام لم يقصد بها المساس بالعقيدة الإسلامية أو بشخص الخليفة عثمان بن عفان ، وإنما قصد بها الحديث عن السياسة والإدارة في عهده ، وأنه استقى أفكاره وعباراته من كتب ألفها كتاب وعلماء المسلمين ، وقد أوردنا بعض هذه الأفكار فيما سبق .

كما قرر المستأنف أن مندوبي [1] وزارة الإعلام سبق أن أخذوا بعض نسخ الطبعة الأولى ، وبعد أن جرى الاطلاع عليها في الوزارة .. أعادوها دون اعتراض على نشرها وتداولها ، وقد أيَّد المدير العام لدار الخليج للطباعة مهدي باقر خريبط المستأنف فيما ذكره ، فكيف تحرم وزارة الإعلام اليوم ما أجازته بالأمس ولم تعترض على تداوله ؟

---

(١) في تزامن واحد مع مجريات قضية الكتاب ، وقبل خمسة أشهر من الاستئناف الذي قدمه المؤلف ، نشرت القبس في عددها ليوم الأربعاء بتاريخ ٣/ ٤/ ٨٥ لقاء مع مسؤول المعرض الحادي عشر للكتاب « هاشم السبتي » ذكر فيه أن جهاز المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب لا يراقب كتب معرضه ، بل إن مهمة المراقبة تقع بالكامل على وزارة الإعلام دون أي تدخل من قبل المجلس لأجل السماح أو منع أي كتاب وأشار إلى أن الوزارة من جهتها انتدبت لهذه المهمة أفضل مراقبيها ، فإذا تمت الموافقة على الكتاب .. أدرج في فهرس المعرض وعرض على الجمهور « وبمجرد وضع اسم الكتاب في الفهرس .. فمعنى ذلك أن الوزارة قد أجازت مادته ووافقت على عرضه وتداوله للبيع » أما الكتب التي تدخل المعرض بلا رقابة الوزارة .. فإن الإدارة تصادرها ، وكتابنا المتهم أجيز للاشتراك في ثلاثة معارض للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، وأدرج لثلاث سنوات في فهرس المعرض .. وهذا يعني مراقبته لثلاث مرات متتالية من قبل مراقبي وزارة الإعلام ومن ثم إجازته للعرض والتداول في المعارض الثلاثة .

ثالثاً : لكل شخص الحق في إبداء آرائه بتمام الحرية مادام بعيداً عن المساس بالدين أو انتهاك حرمته أو الحط من قدره أو ازدرائه ، فالدستور الكويتي ينص على أن حرية الاعتقاد مطلقة ، فكل شخص حر في أن يعتقد أو لا يعتقد بمبادىء لا تتفق مع مبادىء دين آخر ، ولا يجوز للدولة أن تتخذ من نفسها حكماً على صحة أو عدم صحة العقائد من الوجهة الدينية.. بل تبحثها فقط من الناحية الاجتماعية فمتى وجدت أنها لا تخل بالنظام العام ولا تنافي الآداب..تولت حمايتها وحماية من يدين بها ، وما دامت الدولة تحمي دين الدولة والأديان الأخرى المعترف بها قانوناً وتأخذ بحرية العقائد ..فإن الحماية يجب ألا تستحيل إلى ضغط ، والمؤلفات يجب أن تكون حرة ما دامت لا تخرج عن حدود البحث البريء الذي يحصل بحسن نية بعيداً عن الزراية والإهانة ، والنيابة العامة لم تقدم دليلاً واحداً على إهانة المؤلف لدين الدولة أو فيها المساس بالاحترام الواجب لهذا الدين ، وهذه المسألة كانت محل بحث بمناسبة الحركة التي قامت ضد كتاب وضعه الدكتور طه حسين في الشعر الجاهلي إذ حققت النيابة العامة معه وتناول تحقيقها ما نُسب إلى المتهم من طعن على الدين الإسلامي في مواضيع أربعة من كتابه وهي :

أولاً : تكذيبه القرآن في أخباره عن إبراهيم وإسماعيل

ثانياً : إنكاره إنزال القراءات السبع من عند اللّه .

ثالثاً : الطعن في نسب النبي بقوله : إنه ليس هناك ما يدل على أنه من صفوة الأنساب .

رابعاً : إنكاره أن الإسلام أولوية في بلاد العرب وأنه دين إبراهيم أو دينهم قديماً .

وقد رأى رئيس النيابة أن القصد الجنائي غير متوافر لدى المتهم لما ظهر من أنه كتب ما كتب عن اعتقاد تام ، وأنه كان منساقاً في كتابه بعامل قوي متسلط على نفسه ، وهو وإن كان قد أخطأ فيما كتب .. إلا أن الخطأ المصحوب باعتقاد الصواب شيء .. وتعمد الخطأ المصحوب بنية التعدي شيء آخر ، لذا أمر رئيس النيابة بحفظ الأوراق إدارياً لعدم توفر القصد الجنائي .

والخلاصة أنه يُشترط للعقاب توافر القصد الجنائي [1] لدى المتهم المستأنف ويجب لتوافره أن يثبت أن المتهم إنما أراد بما قاله أو كتبه إهانة أحد الرموز أو الازدراء بها ، فإذا لم يثبت هذا الركن ..فلا عقاب .

ومن المقرر أن البحث العلمي أو الأدبي الذي يقوم على حسن نية ويكون الغرض منه سرد الحقيقة التاريخية ، لا يدخل في متناول المادة ١١١ من قانون الجزاء ما دام أنه لا يرمي إلى التحقير من شأن الدين ووضعه في موضع السخرية .

لكل ما تقدم يتضح أن القصد الجنائي غير متوافر لدى المتهم وأن محكمة أول درجة إذ أدانته رغم انتفاء القصد الجنائي لديه .. يكون حكمها مشوباً بمخالفة القانون والقصور في التسبب والفساد في الاستدلال ، الأمر الذي يستوجب إلغاءه والحكم ببراءة المتهم « المستأنف » مما هو منسوب إليه .

بناء عليه : نصمم على طلب الحكم بقبول الاستئناف شكلاً ، وفي الموضوع بإلغاء الحكم المستأنف والحكم ببراءة الأستاذ أنطون يوسف بارا مما هو منسوب إليه .

وبعد اطلاع المحكمة على ما تضمنته مذكرة الدفاع أصدرت حكمها التالي مبينة أسبابه وحيثياته :

الأسباب : بعد الاطلاع على الأوراق وسماع المرافعة وبعد المداولة من حيث أن الاستئناف استوفى أوضاعه الشكلية ، وحيث أن الادعاء العام أسند للمتهم المستأنف أنطون يوسف بارا أنه في تاريخ سابق على ٢٢/ ٥/ ٨٤ بدائرة مخفر المرقاب قام بتأليف كتاب جاء فيه افتراء على الخليفة عثمان بن عفان بما فيه مساس بالدين الإسلامي الأمر الذي يتضمن سخرية بالدين عن طريق الكتابة والنشر ، ومحكمة أول درجة قضت بجلسة ١٨/ ٢/ ٨٥ حضورياً بتغريم المتهم خمسين ديناراً عملاً بمادة الاتهام ، وحيث أن المتهم المذكور لم يرتض هذا الحكم فقرر استئنافه بتاريخ ٢٨/ ٢/ ٨٥ طالباً البراءة .

---

(١) الموسوعة الجنائية للأستاذ جندي عبد الملك ج ٣ بند ٤٧ ص ٧٥٦ - ٧٥٧

وبالمرافعة حضر محامي المتهم وقدم مذكرة قال فيها : إن المتهم لم يقصد من العبارات التي نشرها بكتابه المساس بالدين الإسلامي ، وإن هذه العبارات قد نقلها من كتب علماء وكتَّاب الإسلام ، وختم المذكرة بطلب الحكم بالبراءة .

وحيث أن الحكم المستأنف قد جاء سديداً من حيث تحصيله للوقائع وصحة إسناد الاتهام إلى المتهم والتطبيق القانوني والعقوبة التي أنزلها به للأسباب السائغة التي بنى عليها والتي تقرها وتأخذ بها هذه المحكمة أسباباً مكملة لأسباب هذا الحكم وتضيف إليها أن الجريمة المسندة إلى المتهم يكفي فيها القصد التام ، فمجرد نشر الآراء التي تتضمن السخرية والتحقير الماس بالدين .. يكفي لتوافر القصد ، ولا يتطلب البحث في مكنون سريرة الناشر ، ذلك أن مجرد علانية الرأي يكفي لإحداث أثره ، وهو ما عناه الشارع بالتجريم ، ولا يُجدي المتهم ما قال به من أنه نقل بعض ما نشره من بعض كتاب المسلمين إذ أن ذلك لا يعفيه من كونه قد ارتكب الفعل الإجرامي الذي يعاقب عليه القانون ، فإن نشر آراء الغير التي تتضمن مساساً بالدين أو الطعن على العقيدة .. يتحقق به الركن المادي للجريمة ، وهو في ذاته كاف للقول بتوافر القصد الجنائي ، فضلاً عن أن العبارة التي تضمنت مساساً بالدين الإسلامي عن طريق الطعن على الخليفة ووصفه بفساد الحكم مما أدى إلى الانحراف في العقيدة الإسلامية ..عبارة جديدة لم يقل بها أحد سبقه ، إذ كل من سبقه كان يطعن على سياسة الإدارة والمال مما كان له أثره على مبدأ عدالة توزيع فيء المسلمين وزكاة مالهم وغير ذلك من موارد بيت المال ، أما الطعن على سياسته في الحكم والمقصود به هو الحكم بالشريعة الإسلامية ، أي تطبيق الشرع في الحدود والقصاص وغيره من تعاليم الإسلام ، وكذلك الشأن بما ورد بعبارة الانحراف في العقيدة الإسلامية ، وكل ذلك يتضمن مساساً بالدين ، الأمر الذي يضحي معه دفاع المتهم على غير أساس ويكون الحكم المستأنف إذ أدانه .. قد صادف وجه الحق وهو في محله بما يتعين معه تأييده ورفض الاستئناف موضوعاً عملاً بالمادة ٢٠٨ / ١ من قانون الإجراءات والمحاكمات الجزائية .

فلهذه الأسباب حكمت المحكمة بقبول الاستئناف شكلاً ، وفي الموضوع برفضه

وتأييد حكم المستأنف .

وهكذا فإن تأييد حكم محكمة الجنح الجزائية في جلسة الاستئناف كان متوقعاً ولم يثر أي دهشة .. لكن ما أثارها كان العبارة التي أشارت إلى « **أن الجريمة المسندة إلى المتهم يكفي فيها القصد التام ، فمجرد نشر الآراء التي تتضمن السخرية والتحقير الماس بالدين يكفي لتوافر القصد ، ولا يتطلب البحث في مكنون سريرة الناشر ذلك أن مجرد علانية الرأي تكفي لإحداث أثره** » .

« **القصد التام .. ومكنون سريرة الناشر** » أمران يصعب الجزم بوجودهما من عدمه ، لأنهما مكنونان في أعماق ضمير الكاتب وليس لهما مظاهر تدل عليهما سوى الكلمة المقالة ومقام قولها ومناسبته ، وهذا ما أكده رأي محكمة الجنايات في قضية[1] مشابهة تزامنت مع قضية كتابنا وقد رأت المحكمة في استعراضها للنصوص القانونية أن جرائم النشر هي من الجرائم العمومية التي يتعين لقيامها القصد الجنائي الذي هو اتجاه وإرادة الجاني إلى ارتكاب الجريمة بعناصرها وأركانها المبينة في القانون مع افتراض علمه بها ، الأمر الذي يستوجب أن تنصب إرادة الجاني من عناصر الجريمة ، كما تستلزم جرائم النشر توافر سوء القصد الذي هو ركن هذه الجرائم ، ذلك أن هذه الجرائم بمختلف صورها ما هي إلا تجاوز لحق إبداء الرأي وإفتئات على هذا الحق ، وحين يتخلف لدى الناشر قصده السيء..فإنه لا بد من خلع صفة حسن النية على عمله ولا بد في هذا المقام من معرفة الحد الذي يفصل بين حق النقد وبين التحريض والإثارة والمساس بالشرف ، فإذا كانت المناسبة التي يتعرض لها الناقد من الأهمية والخطورة بمكان..فإن دائرة النقد تتسع لمصلحة الناقد الذي يتعرض للشؤون العامة بالنقد والتوجيه والتحذير والنصح ، فيغدو أقرب إلى الناقد منه إلى « اللعان » أما ثبوت ارتكاب الفعل الإجرامي في قضيتنا .. فقد أورد قرار الإدانة فقرة منه إذ أشار إلى أنه « **لا يجدي المتهم ما قال به من أنه نقل بعض ما نشره من بعض كتاب**

---

(١) قضية ضد رئيس تحرير الوطن وأحد الكتاب ، نظرتها محكمة الجنايات برئاسة القاضي عبد الرزاق أبو العثم ، ونشرتها الوطن عام ٨٥ وكان الحكم فيها بالبراءة لانتفاء القصد الجنائي .

المسلمين إذ أن ذلك لا يعفيه من كونه قد ارتكب الفعل الإجرامي الذي يعاقب عليه القانون ، فإن نشر آراء الغير التي تتضمن مساساً بالدين أو الطعن على العقيدة يتحقق به الركن المادي للجريمة » .

وبمقارنة هذا الرأي القانوني مع رأي آخر في قضية[1] أخرى مشابهة لقضية كتابنا اتُهم فيها رئيس تحرير نشرة جامعية وأحد كتابها بتحقير مذهب ديني .. يبدو التكييف والتخريج القانوني مختلفان كلية ، مع أن محوري القضيتين واحداً .. وهو « الإساءة إلى الأديان » كما تتشابه معطيات الفعل الإجرامي في كلتيهما ، وهي النقل من الكتاب الآخرين بلا اجتهاد ولا تحريف ومن كتب متداولة بين أيدي الناس إذ جاء تكييف الواقعة من قبل المحكمة والذي مهد الى البراءة[2] ..كالتالي : قرر كاتب المقال الأول أنه استقى هذه المعلومات من كتاب الملل والنحل لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني ، وكتاب الطائفة وتاريخها ، واعترف المتهم الثاني بأنه رئيس تحرير النشرة ، وحيث أن المتهم الأول قدم للمحكمة كتاب الملل والنحل وصوراً فوتوغرافية لورقات من كتاب الطائفة ، وباطلاع المحكمة

---

(١) قضية نظرتها محكمة الجنح برئاسة القاضي عبد اللّه يونس ونشرتها الوطن عام ٨٥

(٢) أشار الكاتب عبد الرحمن النجار إلى هذه النتيجة الحتمية « البراءة » في زاويته بالأنباء عدد الأحد ٢٠/ ١٠/ ٨٥ تحت عنوان « المحكمة الإعلامية » فكتب : ... وتستمر وزارة الإعلام في إحالة الكتاب إلى المحكمة نتيجة لكتاباتهم وآرائهم أو تحليلاتهم ، وتكون التهمة عادة هي التعرض لزعماء دول صديقة ، أو التعرض للدين والسخرية منه أو محاولة إساءة العلاقات بين الكويت ودولة أخرى... الخ . وكما تستمر الوزارة في تقديم الكتّاب للمحكمة .. تستمر المحكمة بتبرئتهم ، وتذكر في حيثيات حكمها بالبراءة ما يدحض زعم وزارة الإعلام ويفند حجج ادعائها ، ويعزز مبدأ حرية الرأي والقول في حدود القانون والمفاهيم الدستورية .

والسؤال هنا : لماذا تستمر وزارة الإعلام في إحالة الناس للمحاكم في قضايا الرأي وحرية الكتابة .. ولماذا تحيل الكتّاب بسبب كتابات سبق للمحاكم أن قالت رأيها في شبيهاتها وبرأت المحالين في مثيلاتها وإن اختلفت التفاصيل ؟

على ما قدمه .. تبين أن دوره لا يعدو في أن يكون تجميعاً لما سطره غيره بل أنه قام بنقل فقرات كاملة دون اجتهاد أو تحريف ، وحيث إنه لما كان المقال المنشور لا يعدو كونه نشر لمعلومات دُوِّنت في الكتب وتناولتها أيدي الناس وهي ليست خطراً على أحد ..مما ينفي عن المتهمين السخرية والتحقير من مذهب ديني ، الأمر الذي يتعين معه براءتهما مما أسند إليهما عملاً بالمادة ١ / ١٧٢ إجراءات جزائية .

تبقى النقطة الأهم في قرار محكمة الاستئناف تلك التي وردت في متن الحيثيات والقائلة بأن ما ورد في العبارة التي قُدم على أساسها الكتاب إلى المحكمة « لم يقل بها أحد سبقه ، وهي عبارة جديدة .. إذ أن كل من سبقه كان يطعن على سياسة الإدارة والمال مما كان له أثره على مبدأ توزيع فيء المسلمين وزكاة مالهم وغير ذلك أما الطعن على سياسته في الحكم والمقصود به الحكم بالشريعة الإسلامية ، وكذلك الشأن بما ورد بعبارة الانحراف في العقيدة الإسلامية ..كل ذلك يتضمن مساساً بالدين ، الأمر الذي يضحى معه دفاع المتهم على غير أساس » .

هذا الرأي إن اعتُمد كمبدأ ليُعمل به .. فإنه حمَّال أوجه عديدة ، إذ يوحي بأن ثمة اختراقاً متعمداً لجدار التاريخ ووهناً في هضم حقائقه وأحداثه وجدباً في معرفة مجرياته وتغافلاً عن نتائج معطياته وفهم جدلياته .. ولن نناقشه أو نعلق عليه بشيء لاحترامنا الكامل لرؤية المحكمة ، وكذلك لتقديرنا الثابت للرأي المخالف حتى لو لم نكن طرفاً فيه .. بل التاريخ بإرهاصاته وملايين الصفحات التي دوَّنت كل كبيرة وصغيرة منه ، ويكفينا إيراد بعض ما كُتب وتناقله الكتاب والمؤرخون القدامى والمحدثون وما سجلوه بأقلامهم من تحليلات وآراء حول موضوع لم يُغلق منذ فتح ولن يُغلق حتى انقضاء الدهور ، ولن يغير شيء من حقائقه التي دخلت ذمة التاريخ ووجدان الإنسانية مهما تعددت وتضاربت الآراء والرؤى حولها ..

ولنبدأ من مجلة العربي.. مطبوعة وزارة الإعلام الرسمية ، رافعة الدعوى على الكتاب ، فنقرأ في استطلاع[1] نشرته عن الكوفة في العراق ، هذه الفقرة التي أوردت

---

(١) نشر بتارخ ١ / ٦ / ٨٥ في الصفحة ١٠٦ وما قبلها وبعدها .

بها أسباب الثورة على عثمان والتي جاء فيها : « **كان أهم سببين للثورة على عثمان الإغراق في ملذات الدنيا وحظوة أقاربه ، مما أثار حفيظة فقراء المسلمين ، ولذا فقد كان جمهور الثائرين عليه من فقراء المسلمين والرعاة والعبيد ، والسبب الثاني هو ابتعاد عثمان وكثير من ولاته عما كان يسنَّه رسول اللَّه في الحكم ووفق ما حكم به أبو بكر وعمر ، ولذلك فقد كان اتباع علي هم الفقراء والقراء والحفاظ والكثير من الصحابة الذين كانوا يرون في سياسة عثمان ابتعاداً عن سُنة رسول اللَّه ونهج الراشدين أبي بكر وعمر**» .

بين سطور هذه الفقرة تتجلى مظلومية كتابنا المتهم ، فمجلة الوزارة تورد أن السبب الأول لثورة المسلمين على عثمان كان « الإغراق في ملذات الدنيا وحظوة أقاربه » فلعمري بمَ يختلف معنى هذه العبارة عن عبارة كتابنا حول فساد سياسة عثمان في المال والإدارة ؟ وفي إيرادها للسبب الثاني للفتنة ذكرت « ابتعاد عثمان وكثير من ولاته عما كان يسنه رسول اللَّه في الحكم وكذلك ابتعاده عن نهج الراشدين أبي بكر وعمر» وهذه العبارة ألا تتشابه كما التوأم مع عبارتنا المجرَّمة عن «انحراف العهد عن السُّنة والفساد في الحكم » والتي اعتبرتها المحكمة مساساً بالدين وبأن أحداً لم يقلها قبلنا .. وبأنها عبارة جديدة !

ولننظر إلى قول مفجر حركة الإصلاح في أمة جده الرسول الكريم ، حينما خاطب جموع المسلمين مذكراً إياهم بوصية جده « ص» : أيها الناس إن رسول اللَّه قال : من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم اللَّه ، ناكثاً لعهد اللَّه ، مخالفاً لسنة رسول اللَّه ، يعمل في عباد اللَّه بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول .. كان حقاً على اللَّه أن يدخله مدخله[1] .

ومؤكداً وجود الباطل ومخالفة السُّنة في خطاب آخر أكمل به معنى ما سبقه ومحرضاً على التقويم قال : ألا ترون إلى الحق لا يُعمل به ، وإلى الباطل لا يُتناهى عنه ، ليرغب المؤمن في لقاء اللَّه محقاً ، فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع

---

(١) الطبري جزء ٦ ص٢٢٩ ، وكامل بن الأثير ج ٤ ص ٢١

الظالمين إلا برماً [١] .

وفي مقال [٢] تحت عنوان « الحسين بن علي » جاء فيه : ومما لا شك فيه أن الحسين رضي اللّه عنه كان كبقية أهل البيت عكفوا على أداء دورهم في حفظ رسالة الإسلام من تيار الانحراف وخاصة بعد رحيل أخيه الحسن ، حيث انصبت مهمته على التوجيه الفكري والخلقي وتقويم سلوك الناس ، ويظل الحسين مع ما كلف نفسه به ، حتى شاعت عمليات الإرهاب السلطوي وبدأت التصفية الجسدية لكل قوى المعارضة داخل الدولة الأموية التي عمت في أيامها الفوضى وانتشر الفساد ولعن أهل البيت من على المنابر حيث هدفت الدولة الأموية إلى تصفية أهل البيت وأتباعهم .

ويورد كتاب [٣] « فضائل الإمام علي » هذا الرأي : إن خلافة عثمان كانت أهم حدث في تاريخ المسلمين ، وإنها تركت أسوأ الأثر فيهم من يومها إلى قيام الساعة ، **فلقد أفسح المجال لبني أبيه الأمويين أن يعبثوا بالدين ، كما يعبث الصبيان بالكرة** وجاء قتله نتيجة حتمية لهذا الاستهتار ، كما كانت الحروب والفتن بين المسلمين نتيجة لقتله ، وكل من يعرف عثمان وتاريخه قبل الخلافة وبعدها ، يخطر له هذا السؤال : لماذا حين تولى الخلافة نكّل بصفوة الأخيار من الصحابة كابن مسعود وعمار بن ياسر وأبي ذر .. ألم يكن وهؤلاء في زمرة واحدة وجبهة واحدة يقاتلون مع رسول اللّه أعداء الإسلام .. وهل زاحموه على السلطان وجمع المال .. وكيف تجاهل سابقة إبي ذر وتعذيبه في اللّه ، ومكانه من رسول اللّه ، وقوله : ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر ، وتجاهل سابقة عمار وأبويه وتعذيبهما واستشهادهما في سبيل الدين يوم لم يكن للإسلام معين ولا ناصر

---

(١) اللهوف ، والطبري ج ٦ ص ٢٢٩ ، والعقد الفريد ج ٢ ص ٣١٢ ، وابن عساكر ج ٤ ص٣٣٣

(٢) نشر في الوطن بتاريخ ٢٨ رمضان ١٤٠٧هـ الموافق ٢٥/ ٥/ ٨٧

(٣) لمحمد جواد مغنية ، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت عام ٦٢ ـ ص ٨١ ـ ٨٢ / المكتبة المركزية في الكويت ٣ / ٢١٩ مح فض

فهل أحدث عمار وابن مسعود وأبو ذر حدثاً بعد رسول اللّه ، أو أن عثمان هو الذي أحدث ؟

ونجد الجواب في قول الإمام : « يا أبا ذر إنك غضبت اللّه . . إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينهم .. ولو قبلت دنياهم لأحبوك » ، **رأى أبو ذر سنناً تموت**[1] **وبدعاً تحيا ، فثارت ثائرته وطالب بالرجوع إلى القرآن وسُنة الرسول** وحاول عثمان أن يستميله بالمال .. فأصر وأبى ، لأن الدين لا يُشترى ، بل تُبذل الأرواح في سبيله ، بخاصة إذا اعتنقه قلب كقلب أبي ذر واحتواه صدر كصدره .

الشيخ علي الطنطاوي قدم رأياً[2] رد فيه على معركة فكرية نشبت بين سيد قطب وبين محمد شاكر قال فيه : هذا الاستبداد ، والحكم الفردي الذي سار عليه ملوك بني أمية وتحكيم آرائهم وشهواتهم في مصلحة الأمة ، ودماء أفرادها وأموالهم **دون تقيد بكتاب أو سُنة أو رجوع إلى علم أو فقه .. هل هو من الإسلام ؟**

واختيارهم شر الولاة ، من الطغاة الظالمين وتحكيمهم في رقاب الناس .. هل هو من الإسلام .. هل يقر الإسلام تولية مثل الحجاج على رجولته وعظمة نفسه ، وخالد القسري وأمثالهما من الجبارين .. وإثارتهم العصبيات والخلافات بين القبائل وبين الشعراء وتمهيدهم سبيل اللهو والاستهتار ، لأنفسهم وللناس ، لا سيما جيران بيت اللّه وأهل مدينة رسول اللّه .. وعدوانهم على الحريات وعلى المقدسات وقتلهم العلماء من أمثال الحسين وسعيد بن جبير ، وإيذاؤهم سعيد بن المسيب ، وضربهم الكعبة بالحجارة وبالنار.. هل هو من الإسلام ؟

إن هذه كلها أشياء ثابتة لم يفترها عدو ولم يضعها خصم ، وهذه كلها تناقض الإسلام أشد التناقض بل إن بعضها لم تأت بمثله الجاهلية الأولى .

وما كان عليه العباسيون ومن جاء بعدهم من الطغيان والعدوان على الأنفس

---

(١) وماذا عن هذه العبارة .. هل قيلت بعد عبارتنا الجديدة أم قبلها ؟

(٢) نُشر في البريد الأدبي لجريدة الرسالة المصرية ص ٧٢ في عددها الصادر بتاريخ ٣١/ ٣/ ١٩٥٢

والأموال ، وإتباع غير سبيل الهدى ، كل ذلك يُسأل عنه بنو أمية ، لأن من سنَّ سُنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، **وأنا أكبر بني أمية وأمجد آثارهم وأرفع أقدارهم ولكن لا أستطيع القول إن دولتهم كانت دولة إسلامية لأني أكون قد مدحتهم بذم الإسلام** ، والإسلام أحب وأعز من أهل الأرض جميعاً .

ويقول سيد قطب[1] : « **ولقد كان الصحابة يرون هذا الانحراف عن روح الإسلام فيتداعون إلى المدينة لإنقاذ الإسلام** وإنقاذ الخليفة من المحنة ، والخليفة في كبرته وهرمه لا يملك أمره » ومضى عثمان إلى رحمة ربه وقد خلف الدولة الأموية قائمة بالفعل بفضل ما مكَّن لها في الأرض ، وبخاصة في الشام ، **وبفضل ما مكَّن للمبادىء الأموية العريقة « المجافية لروح الإسلام »** من الاستئثار بالمغانم والأموال والمنافع ، وعدم المبالاة بروح التآخي والإيثار والتكافل ، مما أحدث «خلخلة في الروح الدينية ذاتها لدى الأمة الإسلامية » ، وليس بالقليل ما يشيع في نفوس الرعية ـ إن حقاً وإن باطلاً ـ أن الخليفة يؤثر أهله ويمنحهم مئات الألوف ، ويعزل أصحاب رسول اللّه ليولي أعداء رسول اللّه ، ويضطهد مثل أبي ذر لأنه أنكر كنز الأموال وأنكر الترف الذي يخب فيه الأثرياء ، ودعا إلى مثل ما كان يدعو إليه الرسول من الإنفاق والبر والتعفف .. فإن النتيجة الطبيعية لشيوع مثل هذه الأفكار أن تثور نفوس وأن تنحل نفوس ، تثور نفوس الذين أشربت صدروهم روح الدين إنكاراً وتأثماً وتنحل نفوس الذين لبسوا الإسلام رداء ولم تخالط بشاشته قلوبهم والذين تجرفهم مطامع الدنيا فيرون الانحدار مع التيار أمراً مقبولاً ، وهذا كله كان في أواخر عهد عثمان قبل انهياره .

ويرى سيف الأسدي[2] أن الخلاف اقتصر على طريقة تطبيق الشرع ولم يتطرق إلى كنه الشريعة ، وتحولت الخلافات السياسية إلى مذاهب عقائدية ، فغدا الدين أدياناً ، ولم تمض سنوات قليلة حتى تناول التغيير مفهوم الحكم في الإسلام .

---

(١) كتاب العدالة الاجتماعية في الإسلام ـ ص ١٨٣ ـ ١٨٥ طبعة سنة ٥١ ـ مطبعة النهضة ـ القاهرة .

(٢) كتاب الفتنة ووقعة الجمل ص ٢٥ الجزء الأول .

ويُرجع عبد القادر عودة الفتن والانقلابات والحرب الداخلية في داخل الأمصار الإسلامية منذ الفتنة الكبرى في عهد عثمان مروراً بحروب الخوارج وانقلاب بني العباس ، وصولاً إلى فتنة عرابي والثورة العربية والانقلابات السورية .. إلى سبب واحد لا ثان له ، ألا وهو « **الانحراف عن الإسلام الذي بدأ في عهد عثمان** » وانتهى إلى أسوأ نهاية[1] .

ويصف عبد الفتاح عبد المقصود الوضع الذي آلت إليه الأمور ونظرة عائشة إلى ما تخلف عنه ، فيقول : ونفضت عائشة عنها خمول البيت ومضت في الغمار حتى آخر الشوط « **فلم تغفر لعثمان أن تناول سُنة زوجها بالتبديل والتغيير** » وشنت عليه حرباً شعواء لا ترضى من نتائجها بأقل من إبعاده عن مقعد الحكم الذي خلف عليه رسول اللّه ، ولقد هداها فكرها إلى نوع من التأليب أشد أثراً ، فسارعت إلى قميص لرسول اللّه فنشرته أمام بيتها وكلما مر امرؤ ، هتفت : « **هذا قميص رسول اللّه لم يُبلَ ، وقد أبلى عثمان سُنته**[2] » .

لقد مهد الخطأ إلى « الانحراف » وباعد الانحراف بين الخطأ المرسوم والخطأ المطروق تماماً كما يؤدي الميل ولو بقيد شعرة إلى انفراج لا يُحد بعيداً عن نقطة المحور ، مما سمح للغيرة أن تغلي في الضمائر النقية على الدين أن يغدو مظهراً بغير جوهر « **وعلى الأمة أن ينهبها الانحراف فيغدو الإسلام نصاً يُتلى وشعيرة تُقام ويصبح قصاراه أن يتردد على الشفاه ألفاظاً جوفاء ، وأن تخرج الأمة الإسلامية عن الجادة التي شرعها اللّه** » .

ويحلل طه حسين أحد أسباب الانحراف التي أدت إلى الفتنة بقوله[3] :

وساءت الصلة بين الذين لم ينتفعوا من سخاء العطاءات وبيت المال وبين الإمام

---

(١) كتاب الإسلام وأوضاعنا السياسية ص١٦٨

(٢) كتاب الإمام علي ص٧٢ ـ ١٣٥ مقتنيات المكتبة المركزية كويت ٢٠ ـ ٩٥٣ ـ طباعة ١٩٧٠

(٣) الفتنة الكبرى ـ الجزء الثاني ص ٩٥ مقتنيات المكتبة المركزية ـ الكويت

والولاة ، ثم فكروا في هذا كله وما آلت إليه الأوضاع ، واستحضروا سيرة النبي وصاحبيه .. فلم يلبثوا أن « **تبينوا في سيرة عثمان مخالفة للسنة**[1] **الموروثة** ».

وكان أصحاب النبي الذين أقاموا بالمدينة يكتبون إلى أصحابه الذين تفرقوا في الثغور يستقدمونهم **لتقويم ما اعوج من أمر الخلافة ، ولإقامة الدين وصيانته بعد أن عرَّضه السلطان لشر عظيم** .

وتقول د . بنت الشاطىء[2] : إن بني هاشم لم يرضهم أن تغدو الخلافة مرعى خصباً لعصبة بني أمية ، وأن يلمحوا أيديهم في خلافة عثمان وهي تتصيد أزمَّة الأمر العظيم ، **ولا رضي الصحابة قط أن يتحكم فيهم ولاة انحرفوا** [3] **عن مبادىء الإسلام وسيرة الرسول وهم في مأمن من غضب الخليفة بل في طمأنينة إلى لينه وتسامحه** .

ولا ينسى الإمام علي « ع » أن يذكِّر معاوية في رسالة جوابية على رسالته المهدِّدة بالحرب بهذه العبارات : فإن كنا نحن وأنتم على ما ذكرت من الألفة والجماعة ، ففرق بيننا وبينكم أمس : « **أنَّا آمنا وكفرتم ، واليوم أنَّا استقمنا وانحرفتم** » .

ويقول جمال الدين الأفغاني : في زمن قصير من خلافة عثمان تغيرت الحالة الروحية في الأمة تغيراً محسوساً ، وظهرت طبقة ثرية من الأمراء وذوي القربى من الخليفة ، فنتج عن هذه المظاهر وجود طبقة متميزة عن طبقة العاملين والمستضعفين في المسلمين وأرباب الحمية والسابقة في تأسيس الملك الإسلامي وفتوحاته ونشر الدعوة [4] .

لقد رأى الصحابة في خلافة عثمان قصوراً تقام في الجزيرة العربية ويُجلب إليها

---

(١) ليت الحكمة اطلعت على هذه العبارة وفوَّتت عليَّ سبقاً لا أستحقه باستحداث شبيهات لها !

(٢) سكينة بنت الحسين ص ٢٠ طبع دار الهلال المصرية ـ مقتنيات المكتبة المركزية ـ الكويت .

(٣) وعبارة أخرى قديمة سلبت عبارة كتابنا جدتها المزعومة !

(٤) علي بن أبي طالب ـ محمد عمارة ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ص٢٢

الأثاث والرياش وتُحشد فيها الجواري والقيان ويُساق إليها الترف والنعيم في شتى ألوانه ، فأنكروا ذلك أيما إنكار وعدوه « **بدعاً في الدين وخرقاً لسياج الإسلام** ».

وأخذ ولاة عثمان بحظهم كاملاً من هذه الحياة الجديدة ، بل لقد أفرطوا في هذا وأسرفوا حتى جاوزوا الحدود « **وجاروا على حرمات الدين** » ولم يكن هؤلاء ممن يصلحون للقيام على شؤون المسلمين ، فقد كانوا ممن دخلوا في الإسلام حين أرغمتهم الظروف على الدخول فيه ، حيث لم يكن ثمة من سبيل إلا الإسلام أو القتل ، كما كانوا أبناء رؤوس الكفر والمحادة للّه ولرسوله ، ومنهم الوليد بن عقبة ، وعبداللّه بن أبي السرح أخو عثمان بالرضاعة ، ومروان بن الحكم وغيرهم[1] .

ويقول سماحة المفكر الإسلامي السيد محمد بحر العلوم[2] :

لم يكن الإمام الحسين عليه السلام ، إلا ذلك الامتداد الثَّرُّ لرسالة جده رسول الإنسانية محمد «ص» ومن أجل تقويم تلك الرسالة نهض بموقفه المضحي لتصحيح مسار الأمة الذي انحرف نتيجة تحرك الفئة الضَّالة لاجتثاث تلك القيم الإنسانية التي جاء بها محمد رسول اللّه« ص» .

وها هو أبو ذر الغفاري يوجه كلمة لعثمان متألما متبرماً : « **واللّه يا عثمان لقد حدثت أعمال ما أعرفها واللّه ما هي في كتاب اللّه ولا سُنة نبيه..واللّه إني لأرى حقاً يُطفأ وباطلاً يحيا وأثرة بغير تُقى ومالاً مُستأثراً به**[3] ».

كل هذه الآراء التي استطعنا جمعها والكثير الكثير غيرها مما لم يسعفنا الوقت للإحاطة بها والتي قيلت منذ واقعة الفتنة الكبرى وما تلاها من وقائع توجت بملحمة كربلاء وقتل عترة آل البيت الكرام وما أعقب تلك الأحداث من ثأر وثورات ومذابح

---

(١) « علي بن أبي طالب بقية النبوة وخاتم الخلافة » لعبد الكريم الخطيب ، ط عام ٦٦ دار الفكر العربي .

(٢) من كلمته في مقدمة الطبعة الثانية لهذا الكتاب عام ١٩٨٠

(٣) كتاب النظم الإسلامية نشأتها وتطورها تأليف د . صبحي الصالح ص٩٣ طباعة دارالعلم للملايين سنة ٦٥

مارت موراناً لم يكن يهدأ إلا ليثور .. والتي حفلت بتفاصيلها كتب المؤرخين والناقلين عنهم بالتحليل والتدوين ، والتي وصلتنا على مر العصور بالرواية الشفهية والمدونة ، وتشربناها في كتب الدراسة ، وغدت معروفة للقاصي والداني ، والجاهل والمتعلم ، قرناً بعد آخر ..كيف يهضم عاقل الرأي القائل بأني أول متحدث عنها ولم يقل بها أحد سبقني وبأنها عبارة جديدة ..كيف يكون ذلك وماذا نسمي هذه العبارات التي أوردناها .. فهل بدأ التاريخ من عند كتابي .. وإذا كنت قلت عبارات بهذه الخطورة و« لم يقل بها أحد سبقني » فكيف لم يرد عليَّ مجادل ولم يسفِّه رأيي مسفِّه ولم يتهمني مؤرخ باستحداث تاريخ حسب مشتهاي[1] ؟

إن الدهشة ولا شعور سواها هي الانطباع الحتمي حيال هذه الأطروحات الغرائبية والتفسيرات التي يعوزها المنطق ويعتورها قصور فهم الحقيقة والوصول إلى إحداثياتها ومعطياتها المبذولة لكل ذي عين بصيرة لإخراجها من مظانها .

ومن خلال نظرة متأنية عميقة إلى جدلية التاريخ وموقف المثقف منها ، وكذلك موقفنا كأمة كان لها النصيب الأكبر في تفاعيل أحداثه والمشاركة في صنعها ، يتبدى إدراكنا المتخلف لها مدعوماً بفكر تمادى في تعاميه عن مجرياته ، مما يشكل برهاناً لا يدحض على فقدان وعينا بالذات ، وبحركة التاريخ ومقتضياتها ، ويشير إلى انكفائنا التام على الأنا ، وهذا التعامي أو الإنكار لحقائق غدت ملكاً للبشرية جمعاء ، سواء عن قصد أو عن جهل .. هو إسقاط خادع مقزز من ذهنية مضطربة ليست على مستوى أمثولة الزمن ومتوالية[2] أحداثه ، وهذا الإسقاط يرتد على

---

(١) يرى د .ج .ب .بيوري أن التاريخ علم ، في حين يرى اللورد أكتن أنه اجتماع طائفة كبيرة من الوقائع المتشابهة بحيث تشكل وحدة عامة تمكننا من التنبؤ بحدوث وقائع مشابهة إذا تشابهت ظروفها .

(٢) التاريخ مادة تحرك من الوهم ، فيها تكبر وتبلغ سن الرشد ، والأمر الوحيد المحزن هو ما يبدو من أن بعض الناس لايكادون يستفيدون منه أو ينتبهون لحركته في أعمارهم وتدخله في تراثهم .. وهذا يطابق ما يقوله هيجل : الشيء الوحيد الذي يتعلمه المرء من التاريخ هو أن البعض لايتعلم أبداً أي شيء منه ، ص٢٥ من كتاب « التاريخ أثره وفائدته » لمؤلفه أ .ل رواس طباعة مؤسسة سجل العرب ـ القاهرة .

حساب وجودنا الآني ويسفِّه مصداقية تراثنا الفكري ، ويُظهرنا بمظهر المصابين بفصام تاريخي وحضاري ، والمبتلين بالنورستانيا المغيبة للوعي[1] والإدراك .

وفي كل الأحوال لا يحق لمن ابتُلي بهذه النقائص الحضارية المخجلة أن يتولى عملية التقييم وإبداء الرأي من زاويته الضيقة ، إذ يكفيه عار جهله بهذه البدهيات لأن التاريخ ليس ألعوبة نلهو بها كما نشاء ونشكله حسب أهوائنا[2] .. بل يجب تقبله كما هو.. شئنا أم أبينا ، وبغض النظر عن قناعاتنا الخاصة وأهوائنا المسيِّرة لعواطفنا ، لأن التعاطي مع التاريخ لا يجوز على نحو عشوائي وانتقائي ، ولو تم ذلك لأنهك مجتمعاتنا وعقولنا .. بل وحطمها ، لذا يجب تحييد التاريخ وإبعاده عن اللعبة السياسية والطائفية ووساوس الهوى الشخصي ، وعدم الدخول إليه على رؤوس الأصابع .. إذ أن أهم شيء في الذي يكتب التاريخ أن يحترم التاريخ .

إن التاريخ علم عربي إسلامي ، ومع أن كافة الأمم تشترك في النزعة التاريخية والتي يمكن تسميتها بـ « الغريزة التاريخية » لرغبتها في تخليد مسيرتها الإنسانية ورصد ارتقائها .. فإن أكثر الأحداث تسجيلاً كانت في العهد العربي الإسلامي لأن

---

(١) يرى المفكر حسين أحمد أمين أن العقل إنما يخون طبيعته أو وظيفته إن هو قبل الحدود التحكمية أو القيود المفروضة على حريته ، وتأكيد العقل لحقه المطلق في النظر في كل الأمور .. هو ما يعرف بالعقلانية وما إدانة البعض لهذه العقلانية إلا من آثار الصراع الطويل والمرير بين العقل وبين أولئك الذين يخشون إثارة عقولهم أو مواجهتها ، إما لطبيعتهم الكسولة أو لخوفهم الغريزي من التغيير ، أو لارتباط مصالحهم بالشرائح المعادية للعقلانية ، لذلك فإننا حين نتحدث عن حرية الفكر فإنما نعني بذلك حرية التعبير عن الرأي لا حرية البحث عن المعارف العلمية والتصريح بها ! ولكن لماذا تعارض مجتمعات كثيرة كمجتمعاتنا حرية الفكر وتحاربها وتخشاها فئات وجهات كثيرة ، كما حدث في معرض الكتاب الأخير في الكويت؟ جريدة الحياة ١١ أغسطس ٢٠٠٠

(٢) يقول كروتشني : الذين يتذرعون بقص التاريخ فينهمكون كأنهم قضاة .. يدينون هنا ويمنحون صكوك الغفران هناك لظنهم بأن هذا هو مكتب موظفي التاريخ ، هؤلاء مجردون من أي إدراك تاريخي أو حس بشري للتفاعل مع حركة القرون ، كما أنهم معدومو الضمائر ، سيئو النوايا ، الخبث طويتهم .

الإسلام دين تاريخي الروح[1] والتاريخ هو الإحساس بمرور الزمن والأحوال جيلاً بعد جيل ، والإنسان إلى حد كبير هو « حيوان مؤرخ » من قبل أن يخلق هيرودوت بكثير .

ولعل من نافلة القول أن التاريخ ليس مصدراً معرفياً شرعياً ، وليس محلاً لأن يكون حكماً على الشرع ، وما يطرأ فيه لا يعدو أن يكون أحداثاً لغير معصومين بعد النبي «ص» وإن كانوا خير الناس كالقرون المفضلة وعلى رأسهم الصحابة .. ففرق بين ما يُقرَّر في تفسير الدين والوحي ، وبين حياة الشخص غير المعصوم ، فالأول جاءت النصوص الواضحة المحكمة على الاعتبار الشرعي الخاص له من مثل قوله «ص» : عليكم بسُنتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ .

والثاني ـ وهو التاريخ ـ لا عصمة فيه ، وليس مصدراً شرعياً لفهم الدين ، وإن كان التاريخ هو خزانة التجارب وخلاصة العبر والأمثولات ، وتاريخ الصدر الأول هو أعطر التاريخ وأمثله .. فالفترة النقية الصافية من صدر هذه الأمة نُقش تاريخها موثقاً ، مقروناً توثيقه بالمصادر الشرعية الأولى من كتب السُنة وغيرها ، في وثائق تعتبر من أعلى وأغلى مصادر الإثبات التاريخي ، ولذلك فإنك تجد المسلم يعرف ويستحضر وقائع كثيرة من صدر تاريخ هذه الأمة على نحو يعز وجوده في غيرها من الأمم ، مع أنه لا يوجد تاريخ على الأرض تعرض ـ بسبب الأغراض الدينية البدعية ـ لحملات كذب وتلفيق واسعة مفضوحة ومكشوفة تاريخياً وإسنادياً وبالدراسات المقارنة مثل تاريخ الصدر الأول ، ومع هذه الحملات لم يختلط تاريخ[2] المسلمين في القرون الأولى بشيء من الافتراءات ، خصوصاً أن عدداً من علماء المسلمين حرصوا على أن ينقلوا كل ما رُوي حتى لو تضمن شيئاً مما لم يثبت واقعاً بأسانيده في عملية فقهية حكيمة وعظيمة هي أشبه ما تكون بجر شبكات

---

(١) أنظر كتاب « التاريخ العربي والمؤرخون » د . شاكر مصطفى ـ دار العلم للملايين ص ٦ ـ ٧

(٢) « نصاعة التاريخ وثبوته .. من يضعهما ؟ » مقالة لأحمد السبيعي ـ القبس عدد ١٥ ديسمبر عام ٩٨

الصيد العملاقة في البحر لتحيط بكل ما يمكن أن يقال ليسد الطريق تماماً على من أراد أن يضيف شيئاً من خارج حركة التاريخ والمجتمع ويفتضح كذبه ، وهذه طريقة توثيقية عكسية تسد الطريق على من يريد أن يضيف افتراء خارج سياق الروايات التاريخية المعتمدة في الأمهات المعروفة عند المسلمين ، ولذلك فلما جاء الأصفهاني صاحب « الأغاني » وحاول في كتابه الضخم ـ والذي أصل غرضه الأدب العربي أحد مداخل الكذب على تاريخ المسلمين ـ أن يدس ما شاء من الأكاذيب بطريقة مستهجنة ، وهي رواية ما يرويه بأسانيد يقلد فيها كتب التاريخ .. استهجن بعض أهل العلم والأدب صنيعه ، وجاء بعض المتأخرين فجرَّد كتابه من هذه المحاكاة في عشرة مجلدات كاملة لعله تبقَّى منه فائدة لدارسي العربية والأدب.

والراصد المتتبع لحركة التاريخ يواجه بكميات ضخمة من المعلومات والأحداث والشخصيات والمؤثرات والتفسيرات والتداخلات والتي تحتاج إلى جهد جهيد لتُجمع خيوطها وتُنسق في قصة كاملة متسلسلة ، هذا طبعاً لمن يريد أن يقرأ التاريخ مصطحباً قواعد العدل والثبوت والإنصاف والتحليل الموضوعي ، أما من كان يريد الخطوط العامة التي توجه لخدمة تصورات محددة سابقاً أو لاحقاً دون موضوعية وتركيز .. فذلك متاح لأي مغالط أن يأخذ بعض الحقيقة ثم يكملها على هواه .

أما مسألة الاقتباس من كتب الآخرين .. فمن المسلَّم به أن الاقتباس والنقل إن جُرِّما..فالأوْلى أن يُجرَّم المصدر أيضاً أو يُمنع من التداول على الأقل ، وهذا ما كنت أنتظره بعد إدانة العبارة في كتابي .. وقد حرصت بعد المحاكمة وعلى مدى شهور وسنوات على زيارة المكتبات العامة لأرى هل مُنع الكتاب الذي استقيت منه العبارة بحذافيرها على اعتبار أنها عبارة خطيرة ألصقت بي تهمة « سبق الجميع في قولها » مع أني وضعت نسخة ضمن مستنداتي المرفقة بمذكرة الدفاع لذات الصفحة التي تستقر بها هانئة في كتاب محدد الرقم والعنوان واسم المؤلف على رفوف المكتبات الرسمية ، ولكن الكتاب والكتب الأخرى التي تناولت مضمون العبارة بصيغ أخرى أحدَّ من السيف ، ظلت في المكتبات حتى الآن..وكان من البدهي رفعها كيلا يطلع عليها باحثون جدد وينقلون منها فيتورطون كما تورطت ويدانون كمقتبسين .. بينما

يسلم من المساءلة أصحاب الرأي الأصليين[١] وتظل كتبهم بيد العامة !

أما تفسير العبارة[٢] المجرَّمة « وقد تفاعلت هذه الأحداث مع سياسة عثمان الفاسدة في المال والإدارة والحكم فبدأ الانحراف الصريح في العقيدة ومبادئ الإسلام من يومها » .. بأنه حكم على انحراف مستديم للعقيدة ، مع أنه لم يعقبها كلمة « **وحتى الآن** » كي تؤكد متوالية الاستمرارية .. بل سبقتها وأعقبتها على مدى صفحات الكتاب .. العبارات التي توضح مسبِّبات الانحراف بها ، وتفسِّر عوامل عودة نصاعتها إلى التلألؤ بعد زوال الأسباب الطارئة التي عصفت بها[٣] والتي أشبعتها كتب التاريخ بحثاً ، والتي انتهت بمقتل عثمان في أحداث الفتنة الكبرى وما تلاها من اشتعال حركة الحسين بهدف إعادة العقيدة إلى مسارها الصحيح وإبعاد عوامل إضعافها .

ولو نظرنا إلى السياق الذي وردت فيه كلمة « الانحراف » لوجدنا أنه يقع في مجال التطبيق البشري لأركان ومبادئ العقيدة ، ولا يقع في مجال العقيدة ذاتها وثوابتها ، بدلالة توسطها لسردية الممارسات المحرَّفة التي أدت إلى النتيجة الحتمية لها ، حيث سبقت العبارة وتلتها القرائن السياقية المتعلقة بالكلمة كدلالة عامة ألقى

---

(١) اتضح لي بما لا يدع مجالاً للشك بأن قانون المطبوعات يصحو فقط لفئة محددة .. ويغمض عينه عن الأخرى .. واتضح لي أيضاً بأن الإحالة للنيابة بتهمة مخالفة القانون وآداب النشر .. قضية يكبل بها إنسان وينسل منها آخر ، هذا الرأي ليوسف محمد السميط أورده تحت عنوان « التضامن الوزاري » ونشر في القبس يوم الأحد الموافق ٨ / ١١ / ٨٥

(٢) ص ١٩٨ ـ ١٩٩ من الطبعة الثانية .

(٣) الانحراف المقصود بهذه العبارة لم يكن بفعل عوامل كامنة في العقيدة ذاتها .. وهنا يصبح القول بهذا « بطلاناً وتحقيراً » بل بفعل فاعل ممن أنيط بهم تطبيق شرائعها والعمل بسُنتها .. كما أفاض بذلك التاريخ المدون وشهادات معاصريه وإرهاصات تلك المرحلة الصعبة من يفاعة الإسلام ، فهي إذن براء من الاستجابة لهذا الفعل الانحرافي الآني ، وهذا دليل على سموها وقدسيتها المنزهة ، واستحالة أن تطالها عوامل الانحراف ـ بله أن تفلح معها ـ مهما بدت جارفة قوية ، لأنها عقيدة السماء لا البشر .

التفسير المغاير عليها ظلال معان جانبية مستمدة من ميول شخصية لا دخل لها في المعنى السياقي[1] العام ، فانتقل بها من دلالة عامة إلى دلالة هامشية يقصد بها غرض لهدف مستهدف .

فلو قيل مثلاً إن ثمة إساءة في تطبيق قانون ما..فهل معنى ذلك أن القانون سيء أم يُلام من طبَّقه بطريقة سيئة .. وإذا نُعتت خطبة ما بالضعف واللحن والرطانة .. فهل يَطال هذا النعت اللغة فتكون كمن وُصفت ضمنياً بأنها غير صالحة للبلاغة والجزالة والفصاحة ؟ إن مثل هذا الخلط بين الأصل الأصيل المتجذر وبين تباين أساليب وطرائق تداوله المحكومة بالرؤى والأهواء الخاصة والعامة ، والخاضعة للفكر الجمعي السائد أو المستحدث ، والمسيَّرة لتلائم ظروفاً وأحوالاً ، أو لتتواءم مع الاجتهادات الفردية والجماعية .. لا يجب أن يكرس كمقياس ولا أن يُعتمد كنموذج للحكم على الأمور بهذه الكيفية ، لأنها تؤدي إلى استلاب الحكمة واغتيال المنطق السليم وإلغاء الحس المدرك للفكر ، هذه الهبات الربانية لبني البشر هي نبراسهم إلى النزاهة ، وإلهامهم للتفريق بين الخطأ والصواب ، وسندهم في معرفة الحقيقة .. ما ظهر منها وما بطن .

ويكفينا في هذا المقام إعادة اقتطاف تلك العبارات الدالة على الأهداف الروحية السامية التي وضعتها حركة الإصلاح الحسينية لأمة محمد وما تمخضت عنها من نتائج ، لتنفي عن العبارة المجرَّمة أي اتهام بسوء النية أو المقاصد الموحية بعكس المعنى أو المؤولة حسب الهوى بفصلها المتعمد عما سبقها ولحق بها من عبارات تفسرها

---

(١) حذرت اللجنة العلمية في المجلس الأعلى للثقافة في مصر من تجاوز المنهج العلمي في الحكم على الأعمال الفكرية مما يؤثر على حركة الإبداع عامة ، واحتمال زيادة جرعة الرقابة العقلية مما يحول دون حرية التفكير التي هي أساس تطور الحضارة والإصلاح ، واعتبرت أن إرهاب المبدعين حتى على مستوى وعيهم الغائر .. يترتب عليه الحد من الطلاقة والأصالة والإبداع » وقالت : « لا يجوز قراءة الجزء منفصلاً عن الكل دون السياق العام لأي نص كان أدبياً أو علمياً ، ولا يجوز اقتطاف أي عبارة أو سطر أو فقرة من نص دون إحالته إلى قائله والاقتطاف أحد شقي الحوار دون الرد عليه » القبس الجمعة ١٩ / ٥ / ٢٠٠٠

وتبرر إيرادها بالشكل الذي وردت به ، وتوظيفها لخدمة سياق مناقض لها بما يغري هواة الصيد بالماء العكر ومهتبلي الفرص للاستفراد بها كمعنى مجرد لذاته بقصرها عليه واجتزائها إلى كل منفصل ليعطي منفرداً معنى مغايراً للمقصود به[1] ، وليطمس أثر ما يخلص إليه لإتمامه به ، وإيضاح معناه الحقيقي في كتلة تعبيرية واحدة .. تماماً كذلك الاجتزاء الذي حوّل أمراً إلهياً إلى أمر شيطاني بتغييب كلمتين من الأمر : ولا تقربوا الصلاة .. الخ !

فما هي عبارات كتابنا المضمخة بطيب المقاصد والنوايا[2] ومسك المحبة لدين الإسلام العظيم وللسُّنة المطهرَّة ؟ لنقرأ أولاً ثم نحكم ..

● و« الأبعاد الجديدة » في رأي البعض ، هي في النظر لملحمة كربلاء من وجهة نظر مسيحية لكاتب مسيحي عربي ، لا هو بمسلم كي يقال بأنه متأثر عاطفياً بالفاجعة التي وقعت فوق ثرى الطف ، ولا هو بمستشرق صاحب فكر غربي ينظر إلى التاريخ الإسلامي نظرته إلى أية مرحلة تاريخية أخرى ، لا تخشعه خلالها أية قدسية من قدسيات آل البيت «ع» فلا يرى من خلال عدم الخشية هذا .. إلا الجانب التاريخي السَّردي ، مهملاً عن عمد أو جهل الكثير من المقومات الروحية والإلهية للحركة من جانبها العلوي القدسي ، مجرِّداً إياها من أهم ماتملك ومن أكبر أهدافها التي هدفت .

---

(١) للدكتور عبد الصبور شاهين رأي في هذا التصيد المقصود يقول فيه : إن القاعدة الصحيحة عندما نريد أن ننقد عملاً إبداعياً أو فكرياً توجب تقديم العمل كاملاً لنقده ، أما أن نقتطع جزءاً منه يوهم بمعنى معين لإطلاق الأحكام عليه فهذا مجرد اجتهاد لا يمكن الاعتماد عليه على طريقة « ويل للمصلين » فإذا اقتطعنا هذه الجملة من سياقها أفسدنا المعنى وأضعنا الفكرة ونشرنا الضلال ، لذا يجب أن يكون النقد مهتماً بنصوص العمل ككل وتقديمه بصورة كاملة حتى يأخذ القارىء صورة بانورامية أمينة عن العمل تساعده على أن يكوِّن لنفسه حكماً سليماً داخل الإطار العام للنص ذاته وهنا يمكن أن يميز بين الخبيث والطيب أما أن يُنسب لشخص كلاماً لا يقصده .. فهذا ظلم ـ القبس عدد الاثنين ١٥ / ٥ / ٢٠٠٠

(٢) جواب هذا تلاحظه في فصل مقتطفات وآراء من هذه الطبعة .

• فالفكر المسيحي العربي يقدس آل البيت «ع» كما المسلم ، وفي أخذه لأية حادثة تاريخية تختص بالعالم الإسلامي الذي يعيش فيه .. يهدف إلى الحيدة ، مبتغياً الواقع ، باحثاً عن المنطق والرؤى العقلانية السليمة ، وهي صعوبة تتكاثف على قلم غير المسلم ، الذي تحكم حيدته اعتبارات كثيرة ، ولا يحتمل الزلل لأقل هفوة ، ولا يُقبل منه الشطط أو التطرف ، ولا تسمح له الأدبيات الفكرية بإبداء ما يخالف الحقيقة ، وما ينفر منه العقل الآخر الذي يخاطبه .

• وفي هذا حجة.. وللحجة سبب بل جملة أسباب ، منها أن الفكر المسيحي العربي يستمد تراثه الفكري من تراث عربي إسلامي ويتعرض لنفس التيارات التاريخية للعالم الإسلامي ، وهو فارق كبير في صغره المتناهي في ميزان النتيجة ، وصغير في انعكاساته الفكرية في ميزان الكيفية ، وشتَّانٌ بين كبَر خطر النتيجة ، وبين تفاهة صغَر الكيفية خلال مسار الأمور(١) .

• لم تحظَ ملحمة إنسانية في التاريخين القديم والحديث بمثل ما حظيت به ملحمة الاستشهاد في كربلاء من إعجاب ودرس وتعاطف ، فقد كانت حركة على مستوى الحدث الوجداني الأكبر لأمة الإسلام .

• لقد شكلت الحركة « المنعطف الروحي» الخطير الأثر في مسيرة العقيدة الإسلامية ، والتي لولاها لكان الإسلام مذهباً باهتاً يركن في ظاهر الرؤوس ، لا عقيدةً راسخة في أعماق الصدور ، وإيماناً يترع في وجدان كل مسلم(٢) .

• فأية ملحمة هي استمدت وقود أحداثها من عترة النبي وآل بيته الأخيار .. وأية انتفاضة رمت إلى حفظ كيان أمة محمد وصون عقيدة المسلم وحماية السُّنَّة المقدسة وذبِّ أذى المنتهكين عنها ؟

• ملحمة ظلت في خاطر المسلم رمزاً للكرامة الدينية ، شاهد من خلالها

---

(١) من مقدمة المؤلف

(٢) أنظر فصل : ثورة الحسين .. لمن ؟

صفحة جديدة من مسيرة عقيدته ، صفحة بيضاء عارية من أشكال العبودية والرِّق والزَّيف ، مسطَّرة بأحرف مضيئة تهدي وجدانه إلى السبل القويمة التي يتوجب عليه السير في مسالكها ليبلغ نقطة الأمان الجديرة به كإنسان .

• كان «ع» عارفاً بأنه خاسر معركة « ليكسب الإسلام الحرب » الحرب على الظلم عامة ، والانتصار على مسببات ضعف العقيدة ، فقد كان «ع» شمعة الإسلام أضاءت ممثلة ضمير الأديان إلى أبد الدهور ، وكان « درعاً » حمى العقيدة من أذى منتهكيها ، وذبَّ عنها خطر الاضمحلال .

• فتلك الأراء إنما تمثل الجانب الفكري ناقص النضج ، والذي وضع حركة الحسين «ع» في إطار الثورة للثورة ولا شيء عداها ، ولم ينظر إليها كما هي وكما هدفت إليه كمنعطف خطير لمسيرة العقيدة الإسلامية ، والتي لولاها لما وجد المؤرخون شيئاً يتحدثون به عن الإسلام .

• كانت ثورة ضعيفة بتركيبتها المادية ، إلا أن لها صلابة الصخر والمبدأ بتركيبتها الروحية والرمزية ، وكان «ع» يعلم بأنه بالغ بها النصر والاستمرار للعقيدة ما لم يكن ليبلغه بإيثار السلامة من مذبحة كربلاء .

• والحسين«ع» عندما ثار لم يثر لأجل نوال كرسي الحكم إذ لم تكن منطلقاته من قاعدة فردية أو زمنية ، بل كانت أهدافها تتعداه إلى الأعقاب والأجيال القادمة ، التي ستعرف كيف كان شكل الفداء دفاعاً عن « عقيدة سُلِّمت لها متلألئة[1] » .

• إذن كان الحسين «ع» هو رجل المرحلة الثانية للإسلام بعد المرحلة الأولى التي بدأها جده الرسول ، وكانت مهمته كبيرة تتصدى لإعادة « مسيرة العقيدة إلى الصراط المستقيم » ولمَ لا ؟ أليس «ع» هو خامس أهل البيت الذين صرح القرآن الكريم بطهارتهم .. ومن كان أجدر منه لأن يكون رجل « الاستمرارية » وإعادة

---

(١) هل من الإنصاف وصف هذه العبارات بـ « السخرية وتحقير الدين الإسلامي » .. وإذا لم تعتبر تعظيماً للإسلام .. فكيف تكون عبارات التعظيم ؟ !

التقويم للإسلام الذي قيل فيه « بدؤه محمدي وبقاؤه حسيني »[1] ؟

● ولم تكن ثورة فرخ النبي إلا هذا الزلزال الذي خلخل كيان الأمة الإسلامية فصدع مداميك انحرافها وردم فجوات إيمانها ، فبدت بعده ناصعةً متماسكةً مغسولةً بزوفى الشهادة ، ومعمدةً بدم الطهر الذي جعلها بيضاء كالسوسن ونقيةً كالزنبق وشفافةً كوردة في صباحٍ مشرق[2] .

● وحركة الحسين «ع» كان لها هدفان لا ثالث لهما ، الأول : إحداث رجَّة عنيفة في كيان الأمة الإسلامية ، وهذا هدف مبدئي وليس مرحلي أو نهائي ، والثاني : وضع الأسس النهائية والمبادئ الضرورية « لحفظ كيان العقيدة إلى الأبد » محاذراً بها أن تزل أو تضعف أو تضمحل على يد أفراد أو سلاطين وهذا هو هدفها الجوهري والرئيسي والأساسي.

● كل ذلك من ألوان الانتهاكات وتحريف روح الإسلام ومبادئ العقيدة والسُّنة والابتعاد عن أحكام الشريعة والعودة إلى النزاعات الجاهلية التي قام الإسلام ليحاربها ..كل ذلك كان يتم ومعاوية سادرٌ في غيِّه يزداد بغياً على بغي ، والأمة الإسلامية سادرة في خنوعها وذلها تزداد استسلاماً على استسلام والحسين يرقب ذلك كله وتهاويل ثورية تعتمل في صدره ، صابراً محتسباً على ما آلت إليه أمة الإسلام من أوضاع مزرية لا تليق بصدر بعثها ، وكأنه «ع» ينتظر إتيان ساعة الخلاص ليُعطى الإشارة من لدن العناية الإلهية للقيام بانتفاضته التي ستعيد عقيدة جده إلى صراطها المستقيم الذي أنزلت فوقه ، وتعيد إزكاء شعلتها التي خبت في الصدور بفعل التدجين المنظم بإسم الدين والإرهاب ، وليفتدي بمقتله إحياءها من جديد ، وليكمل الشهادات العظيمة التي كتبها اللّه تعالى على الأنبياء والوصيين والشهداء الأخيار ، فيستمر الإسلام ويبقى بشهادته ، كما بدأ حين أنزل على جده الرسول الأعظم ونُشر بتضحياته الكبيرة .

---

(١) انظر فصل فداء الحسين في الفكر المسيحي

(٢) فصل حكمة اختلاف الشهادتين .

• الموت دون العقيدة محط هواه ، الذود عن الإسلام مهوى فؤاده إيقاظ ضمير المسلم هدف نهضته ، إحقاق الحق مرمى ثورته ، وقف التحريف والزيف مبدأه ، توليد إسلام جديد رسالته ، الاستشهاد في سبيل اللّه قدره .

• وقولة الرسول : حسين مني وأنا من حسين ، و اللّهم أحبه فإني أحبه ، فيها شهادة وتكليف ، شهادة.. بأن النبي «ص» قد عهد براية الإسلام الذي أنزل عليه ، إلى سبطه الحسين الذي هو بضعة منه .

• وتكليف..للإبن الذي أحبه وطلب من ربه أن يحبه بالاستشهاد صوناً للعقيدة ودفاعاً عن روح الدين من العبث والاستهتار اللذين كادا يؤديان إلى اضمحلاله فكانت هذه الشهادة وهذا التكليف هما العنوان الضخم والراموز الخالد لنهضة الابن في سبيل الحفاظ على عقيدة الجد ، حتى استحق عن جدارة مغزى قول : « الإسلام بدؤه محمدي وبقاؤه حسيني[1] » .

• فالحسين البضعة الرسولية قام بمهمة لا تقل خطراً عن مهمة جده فأبقى على الإسلام كما بشَّر به جده الكريم ، وأودع في صدور المسلمين وديعة ثمينة ، تنبههم في نومهم وقعودهم بوجوب الحفاظ عليها كأندر وأغلى ما يملكون .

• سيد شباب أهل الجنة .. أتمَّ حجة اللّه في خلقه وفي دينه الحنيف وأبرز مظلومية آل محمد وأعاد دين النبي الذي بشر به إلى صراطه المستقيم ، فأفنى ذاته وأهله في هذا السبيل[2] .

• درع الإسلام .. ذبَّ عنه الأذى المتمثل بوهن العقيدة وانحلال روحانية الدين بعد أن غدت العقيدة ضعفاً لايتصل بقوة ، بعدما كانت قوة لا تتصل بضعف ، فأغار على مواطن الوهن والإثم ، بالقول والفعل ، وتلقى بصبر نادر عجيب كل ما شهره في وجهه حَفَدة الشيطان ، مستحلُّو حرم اللّه ، وناكثو عهوده ، ومخالفو سُنة رسوله

---

(١) عبارة مستحدثة من وضع المؤلف .

(٢) فصل « ضمير الأديان أفضال وألقاب » .

والعاملون في عباد اللّه بالإثم والعدوان ، فكان بتصديه للأذى اللاحق بالعقيدة.. درع الإسلام بحق ، فلولاه لما كان الإسلام إلى ما صار إليه ، عقيدة ثابتة تترع في وجدان المسلمين وضمائرهم بعد أن كاد يتحول إلى مذهب باهت يركن في ظاهر الرؤوس التي أدارتها نحو المذهبية الساذجة الحمقاء ممارسات القائمين على أمور المسلمين من حكام وأذناب سلطة ومدَّاحي دواوين .

وبعد .. هل يكفي ما عرضناه في الصفحات السابقة لتبرئة الكتاب من تهمة تحقير الدين والسخرية منه .. ألا يستدعي كل هذا الحشد للنوايا والمقاصد الصافية المحبة ، عبارة تلو أخرى وصفحة إثر صفحة ، واستناداً إلى منطق الاتهام ذاته والقائل « **بأنه لايتطلب البحث في مكنون سريرة الكاتب لأن مجرد علانية الرأي تكفي لإحداث أثره** »..كي ينال الكاتب « **صك البراءة المنشود** » ؟ فها هي علانية آرائه تعلن عن « مكنون سريرته » .. وهاهو « مكنونه » يتجسد في علانية آرائه ، فما قول متبني القول بـ « إحداث الأثر بمجرد العلانية ».. وماذا تعلن لهم علانية الآراء السالفة حول الدين الإسلامي والتي خطها قلم الكاتب بمداد من صدق مكنون سريرته وعلى ورق عكس نقاء أفكاره ومقاصده والتي لخصناها في مقام واحد كي نوفر جهد البحث عنها لقوم لايقرأون ، وإذا قرأوا لايفقهون ، وإذا فقهوا لاينصفون ، ويميل بهم هواهم ميل سعفة جافة في مهب ريح صرصر ؟ !

قراءة ما بين السطور لم تظهر ما هو مختلف عما احتوته السطور ذاتها .. ونبش في تلافيف الضمائر لتصيد سوء النوايا[١] لا يُظهر غير ماهو ظاهر لذوي البصائر .. فمحنة أي كتاب تبدأ من خلال ردود أفعال غير منطقية لفئة من قرائه تفتقر للسوية النفسية والمنهجية الفكرية .. الباحثة عن مثالب غير موجودة ، تستميت في محاولة إثباتها من لاشيء وبلا حجج عقلانية دامغة ، والمتصيدة في طمي ثقيل .. وأغلب الظن ـ وإن كان يكفي بعضه لإحداث الإثم ـ أن فكرة واحدة لن تتبدل في أذهان

---

(١) من يصدر حكماً مسبقاً على النوايا يصعب إرضاؤه لأنه لا يبالي بما يرى من حقائق ولاعتقاده بأنه خبير متمرس بخفايا الصدور ـ من مقال لخالد الجنفاوي في السياسة عدد ١٤٢٦ بتاريخ ١١ ابريل ٢٠٠٥

أفراد هذه الفئة المعوقين فكرياً وتاريخياً ، الموتورين إنسانياً وعقائدياً ، مهما كانت قناعاتهم بسلامة الرأي الآخر .. ونظرية الاتهام والإدانة ديدنهم ، وهي جاهزة في أي وقت لايثنيهم عنها وضوح رؤيا أو إجماع معاكس لنظريتهم[1] .. وهكذا أناس حكم القدر أن يعيشوا بين ظهرانينا ، وأن نعيش بين ظهرانيهم ونضطر مكرهين للاحتكاك بفكرهم الأحادي الاتجاه ، والتوجع من لامنطقية أهوائهم شئنا أم أبينا .. هم ضريبة تخلفنا الحضاري والفكري وعلينا تأديتها مرغمين ، لكن « نداهة » التقدم لن تهتف بنا ، ولن يكون لنا شأن بين الأمم مستقبلاً مالم نتأكد من أن معطياتنا الفكرية المتنورة غدت أقوى من أطروحاتهم الجاهلية ، ورغباتهم المستديمة للكيل بمكاييل من صنع أيديهم ولاتخضع لأي معايير معترف بها ، وأن السائد كقناعات مجردة لدى السواد الأعظم سيكون هو ميزان الرأي والفيصل في ساحته مهما كانت النتائج .. مع الهوى الشخصي أم ضده .. ولكن هيهات أن نعيش لنرى ذلك اليوم .. لأنه يوم بعيد بُعد السنوات الضوئية السحيقة الموغلة في اللانهاية !

وهكذا تعلمت مما حاق هذا الكتاب من المظالم أمثولة كتلك التي تعلمها المهاتما غاندي من شهادة الحسين : أن أكون مظلوماً كي أنتصر ،كما غدوت أشد قناعة بالمثل العربي القائل : رضا الناس غاية لاتدرك .. فلماذا تحاول إدراكها ؟ لاسيما إذا كان هؤلاء الناس من أهل الوترة والعصبية والتعصب يرون احتقار الأديان بهذه الكيفية ويستسهلون كيله كتهمة جاهزة ، وبفعلتهم هذه إنما يحقرون الدين بنظرتهم الساذجة إليه على أنه هدف بهذه البساطة لكل من أراد تحقيره .. لذا فهم لايقرأون إلا ما يوافق أمزجتهم العكرة وينسجم مع توجهاتهم المقدَّدة ، ويستخلصون من العبارات ما يدعم رأيهم ويؤيد تهمتهم السهلة ، وهم يعتقدون بذلك الوهم أنهم

---

(١) يطالب أبو العلا ماضي وكيل مؤسس حزب الوسط الإسلامي المصري ، بضرورة الحرص على صيانة الوعي الجماعي الشعبي والأخذ بممارساته ، لأننا نعيش في مناخ ملوث وغير صحي يدفع الجميع بلا استثناء للتربص والتحريض المتبادل ، وهو مناخ يثير الكثير من الغبار الذي يؤثر كثيراً على صحة الحقيقة نفسها ، ويعبث بأول وأهم مداخل الشخصية الإنسانية التي يشكل الفكر راموزها الأوحد ، نشر في القبس عدد الاثنين ١٥ / ٥ / ٢٠٠٠

دخلوا مكنون السرائر .. وشقوا صدور من جعلوا منهم خصوماً لأفكارهم ورأوا ما في دواخلها وحكموا[١] عليهم بالتهمة التي لا يفكر بارتكابها أعتى الملاحدة .. فكيف تُرتكب بهذه الصورة التي يركزون عليها في أدبياتهم وخطابهم الفكري المحنط ، وكأنهم احتكروا الإيمان وحدهم وغدوا الفرقة الناجية الوحيدة ، وغدا احترام الدين وقفاً عليهم دون خلق[٢] اللّه ! وتمادوا بأن نصَّبوا أنفسهم أوصياء على دخائل الخلق وأخلاقهم ، لا لشيء إلا لغيظهم من هؤلاء المتنورين إذ اطمأنوا لرحابة

---

(١) العدل الذي ينادي به الإسلام هو الذي يعطي كل ذي حق حقه ، من المسلمين وغير المسلمين ، حتى كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه « فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل اللّه » واتباع الهوى مهلك ويحمل المرء على الشهادة بغير الحق ، وعلى الجور في الحكم ، قال الشعبي : آخذ اللّه عز وجل على الحكام ثلاثة أشياء : ألا يتبعوا الهوى وألا يخشوا الناس ويخشوه وألا يشتروا بآياته ثمناً قليلاً ، والشهادة بالحق تكون حسبة للّه « وأقيموا الشهادة للّه » أي أدوها ابتغاء وجه اللّه لتكون صحيحة عادلة خالية من التحريف والتبديل والكتمان ، ولا يجوز أن تحيد عن الحق وتشهد بغيره مراعاة للضعيف والفقير وإشفاقاً عليه ، كما أنه لا يجوز أن تشهد بغير الحق لصالح الغني مجاملة له وتقرباً إليه ، ولا يجوز أن يدفعك التعصب للقبيلة أو العشيرة لأن تشهد لصالح الأقرباء أو الأصدقاء .. بل اشهد بالحق من غير ميل لقريب أو حيف على عدو ، ولا يجوز أن يحملك الكره والبغض على أن تشهد ضد أعدائك « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » أي لا يحملنكم بغض قوم على أن لا تعدلوا بحقهم .. إن المؤمن إذا شهد ، شهد للّه وتعامل معه وتجرد من كل غرض أو مصلحة أو هوى أو أي اعتبار ، لأن كل هذه المؤثرات لا تصرفه عن الشهادة بالحق لأنه لا يقيم لها اعتباراً ولا يجامل أو يحابي تحت ضغطها وتأثيرها ، وفي هذه الآية الكريمة نقرأ التوجيه الرباني لهذه المعاني التي سقناها « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء للّه ولو على أنفسكم أو الوالدين أو الأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فاللّه أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى إن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن اللّه كان بما تعملون خبيراً» النساء ١٣٤

(٢) لكم الدين كله ولنا الشرك فنحن الخوارج السفهاءُ
نحن من خان كل شرع ودين وعلى الدين أنتم الأمناءُ
نحن أهل الضلال دوماً وأنتم عندنا المرسلون والأنبياءُ

أبيات من قصيدة طويلة للشاعر عبد المحسن حليت اقتطفناها لتوافق معناها مع مقصد العبارة.

الفكر الإيماني وسماحة الوعاء القدسي الذي يغترفون منه دون وجل يدفعهم للالتفات يميناً ويساراً وكأن قروناً طويلة لم تمر وتفصلهم عن محاكم التفتيش ..

وغبطة بنعمة البصيرة الشفيف حيال رتع في عماوة غاشية للبصائر ، حسبنا القول : ألا بئس فكرهم المتحجر[1] وحسهم الإنساني المتبلد .. وبئس أحادية نظرتهم وتعاظم وترتهم ، وتربصهم للفكر الحر ، وبئس الزمن الذي قُدر لنا أن نولد فيه لنعاصرهم ونعاني من غلِّ نفوسهم الضاري ، ونئن في كل لحظة من ثقل جهلهم الإيماني وفهمهم المغلوط لجوهر الدين ولأخلاقيات رسالات السماء وما تفرضه على الإنسان من سلوكيات..فكراً وقولاً ونيةً وفعلاً في كل نَفَس ونأمة ونظرة وحركة .

وإذا تمثلنا بقول ومثل أهل الأرض حيال محنة هذا الأثر الفكري .. فإنَّا طوال عملنا في الكتاب كان تمثلنا لقول الحق تعالى : « قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ؟ » ليهدنا على الدوام سواء السبيل ، ونور البصيرة كي نكون ممن امتثلوا لخطاب الآية الكريمة : « وقل اعملوا فسيرى اللّه عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ».

ولعلنا لن نكون مغالين لو قلنا أن قصارى الأمل ألاَّ نميل مع هوى ولا ننحرف إلى غير ما انعقدت عليه نيتنا وما انتواه ضميرنا[2] من احترام تام وتقديس مطلق

---

(١) في وطننا العربي ، الكتابة أصعب ما يواجه إنسان القلم ، سواء كان كاتب تعليق أو مفكر أو كاتب سياسي ، فهو محاصر بالعقول المتحجرة والفكر الرديء ، والسلاسل تلاحقه.. سلاسل الفكر والعقيدة والرفض وإلى ما هنالك ، والغريب العجيب أن الدول العربية تترك الدعاة والجماعات إلى قول ما يشاؤون من فكر متحجر ، وفي كثير من الأحيان يكون افتراء على الدين وتعاليمه ، ولا تجرؤ على القول لهذا أو ذاك : اصمت فهذا غير وارد في الكتب ، إنها تخاف الاقتراب من أمثال هؤلاء ـ مقال لأم الخير نشر في الهدف الكويتية العدد ١٩٠١ بتاريخ ١٩ مارس ٢٠٠٥

(٢) لقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن صدق النوايا وحسنها لن يكفيا وحدهما لتحصين العمل الفكري من احتمالات التأويل السيء .. والنأي به عن حساسيات الفهم الخاطئ المتعمد .

للدين الإسلامي وولاء لسيد شهدائه وإنزاله من قلوبنا منزلة الإعلاء والتكريم ليشهد كل ذلك على نضالنا من أجل تكريس مفهوم احترام الأديان ورموزها القدسية المنزهة .. قولاً وفعلاً ونوايا .

فإذا استطاع هذا الجهد الفكري الإيماني أن يضيف إضافة متواضعة لما كتب عن سيرة الحسين العطرة .. فهي حسبه وكفى ، كما يكفيه عزاً وفخراً أن يُحاكم على وقفته بصف الحق ، وفي مقام الجهر به في سياق سيرة رافع لوائه في مسيرة العقيدة : فمن قبلني بقبول الحق فاللّه أولى بالحق .

بهذا المقياس وحده يكون حب سيد الشهداء «ع» هو تهمتي التي أعترف بها دون خوف ولا وجل .. بل بكثير من استعذاب الوقوف دون رأيي مجاهداً في مقام سيرته العطرة وساحة وغى كفاحه المشرف الذي لم يكتب لي شرف خوض غماره إلا بعد ١٤ قرناً بسلاح الكلمة المنافحة المؤيدة المعجبة ، داعياً اللّه أن تكون وقفتي على بساطتها .. استجابة لصيحة الشهيد فوق أرض المصارع « أما من مغيث .. أما من مجير ؟ » وبإجابة شوق حرَّى : « لبيك يا أبا عبد اللّه لبيك » .

وقفص اتهام يبث في الحنايا هكذا أحاسيس .. أحب إليَّ من صحراء ممتدة أضيع في فيافيها وأخسر ذاتي .. فماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه[١] ؟

وهكذا قفص أجد فيه حريتي الحقيقية .. لا أود الخروج منه كي لا أفقدها .. فعجباً لقفص ليس في حساب المساحة .. بين قضبانه رحابة أوسع من رحابة فضاء كون لا متناه ..

وأي مكان أقف فيه سيكون سجني[٢] الفعلي إذا لم تحركني حمية كربلاء وتقتحم كياني بسموها وترفعها عن المتعارفات البشرية الزائفة ، فيغدو حيزي المتواضع .. ذلك الامتداد الفسيح الذي لا يحده مدى منظور .

---

(١) عبارة للسيد المسيح «ع» حينما سُئل عما ينفع الإنسان في دنياه ؟

(٢) يرى سيجموند فرويد أن سجن الإنسان الحقيقي يتمثل في عدم انسجامه مع مبادئه الحياتية.

وإنسان مؤمن هذا قوله وهذه سريرته ونوايا ضميره .. هل يُتهم أم يُجزى الشكر على ما فعل؟

مهما كان الجواب .. فإن هذا المجد المؤثل الذي حازه الكتاب بشهادة أصحاب الضمائر الحية والعقول المتنورة والأنفس الشفافة .. يكفيني ككاتب ، إذ لا شيء يعدل وقفة عز في أشداق الرزايا والمحن ، وومضة ضمير رابط الجأش في درب الحق الموحش لقلة السالكين فيه ، فعلى أرض مخاوفنا وأحزاننا ، سنقف غير هيابين من قولة كلمة الحق مهما كانت تبعاتها الأليمة ، ونحن نعلم بأننا لو لم نقلها .. أو قلنا معشارها في مقام ظالم غشوم .. لأسقينا ماء غدقاً ، ولامتلأ جرابنا ذهباً وفضة .. بدل امتلائه عنتاً وإساءة وخسارة للمال والأعصاب ولسنوات العمر الغضة .

ولا أخالها إلا ضريبة موجبة كثمن لاختيار التوجه الينبوعي الطاهر ، وهي ضريبة لم تفتنا إمكانية استحقاقها ، وأعترف غير خجل أن خشية من بهاظتها كانت تعتريني بين فترة وأخرى .. لكنها لم تفت من عزمي على المضي بالتدبيج والتسطير ، حيث كنت أستشعر لحظة أقرر ذلك بنفحة روحية تحثني على الإقدام والتحدي وعدم الخوف ، بل وتشعرني بالمنعة والاستقواء ، وبأن قدرة العلي القدير ستحميني ببركة أبي عبد الله ، وبما كان يصلني من نسائم الحرية المهلّة من فضاء الزمان السحيق ، المختلطة بأطياف رائحة مسك عطر مخالط لترب الطفوف في فلاة كربلاء المقدسة .

وبين كل معنى وآخر للعبارات التي يسكبها القلم على الورق ..كانت هذه الأطياف والأطياب تتنوع حاملة للروح قبساً من الموقف المستحضر .. فهذا طيب الوثبة الشجاعة لسيد الشهداء ، وهذا مسك الدم القدسي المراق فوق رمال مصارع آل البيت ، وذاك عطر العرق الصبيب من الأجساد المطهرة في مجالدتها الظَلَمة ، وذاك شذى دموع العقيلة على أخيها المطوّق بعذاباته ، وذاك طيف المظلوم يطلق صيحته المدوية في الأزمان والأكوان : أما من مغيث .. أما من مجير ؟ وهو محاصر بوحوش بشرية تمنعه عن الماء وترميه بسهام حقدها ، وتضربه بسيوف ضلالتها في أنحاء جسده الطاهر ، ليختتم هذا المشهد الدامي بالشمر يحتز رأسه الشريف ، وسط

عويل نساء آل البيت يتردد في الأنحاء القفر ويبعث في الأنفس مشاعر تفوق الوصف ، ووسط تلك الجسوم القدسية المجندلة في العراء بمهانة لا تليق بطهارتها .

فأي نفس ستكون قادرة على تحمل هذا الفيض الزاخر من الطيوف والطيوب تبث في الحنايا كل هذه المشاعر المتباينة التي تستشعرها تخيلاً فائق المذاق قبل تدوين الكلمة ، واستعذاباً لا يقاوم بعدها .. ولا ترفع راية الإستسلام أمام ألوان هذا الطيف القزحي من الهيوليات .. وتتوق الروح معها إلى استصغار كل عذاب دنيوي وعنت بشري قياساً لما عاناه الشهيد الحسين وآل بيت النبوة الكرام من عذابات فوق احتمال البشر .. ولا تتشوق إلى الذوب فيما تحمله هذه الأطياف من مشاهد وروائح ذلك المسك المنبعث من تلك القرابين المطيبة التي قُدمت فداءً للعقيدة فوق بقعة التضحية والشهادة .. فتخمد أي مشاعر سلبية عن الحركة والتسيد ، وتسطع في الصدر شعلة الجسارة الإيمانية ، وتشتعل في القلب شرارة الاستهانة بكل ما يحتمل صدوره من البشر كردود أفعال سلبية نتيجة الانسياق لهذه المشاعر الأجَّاجة ؟

وإنها لمعاناة متوالية ممضة ، لا يعرف مقدار مرارتها إلا من عاشها فعلاً ، لكنها عذبة المذاق خلال لحظات معايشتها ، شفيفة الأثر بعد هجوعها في الذاكرة والوجدان ، تلك التي كانت خلال السنوات الثلاثين الماضية منذ أمسكت القلم لأخط أول حرف في الكتاب ، مروراً بمعايشة محنة اتهامه وتجريمه .. وصولاً إلى لحظات كتابة هذه السطور ..

وحسبي أن أردد حتى آخر عمري هذين البيتين الجميلين لأني واجد بهما انعكاساً لواقع شعوري ومقتضى حالي بعد كل هذه السنوات من المعاناة المريرة :

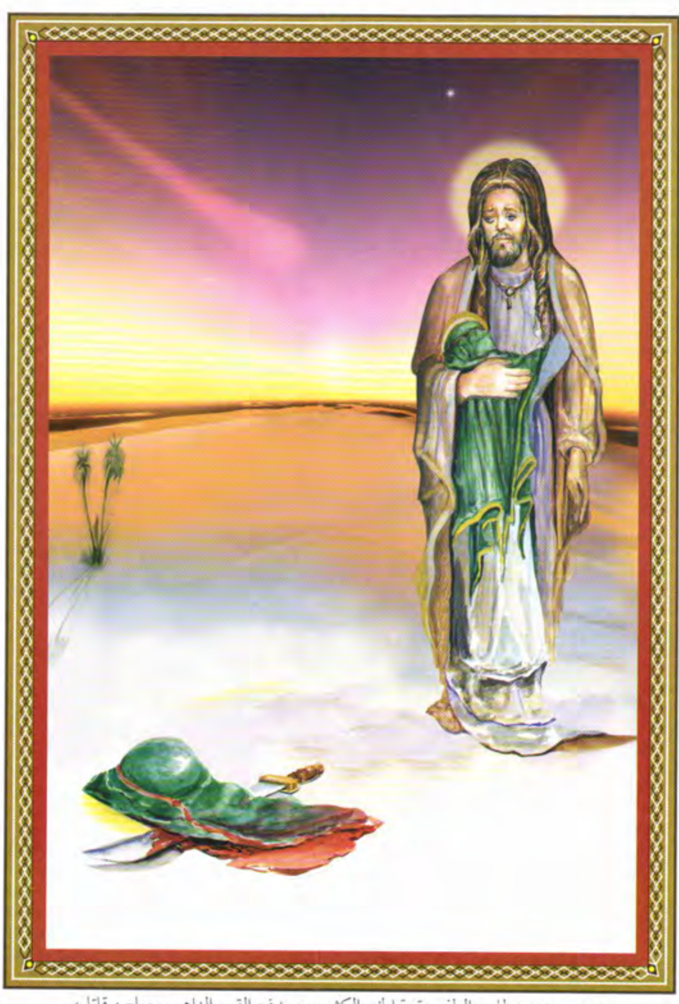
ولا تطلبـــوا رأس الحـــسين ... بشـــرق أرض أو بغـــرب

ودعـــوا الجـــميع وعـــرِّجـــوا ... نحـــوي فمشـــهـــده بقلبي

***

الفصل الثامن

صور الواقعة



عيسى يزور مطارح الطف بقعة الخير الكثير .. ومدفن القمر الزاهر .. ويلعن قاتليه



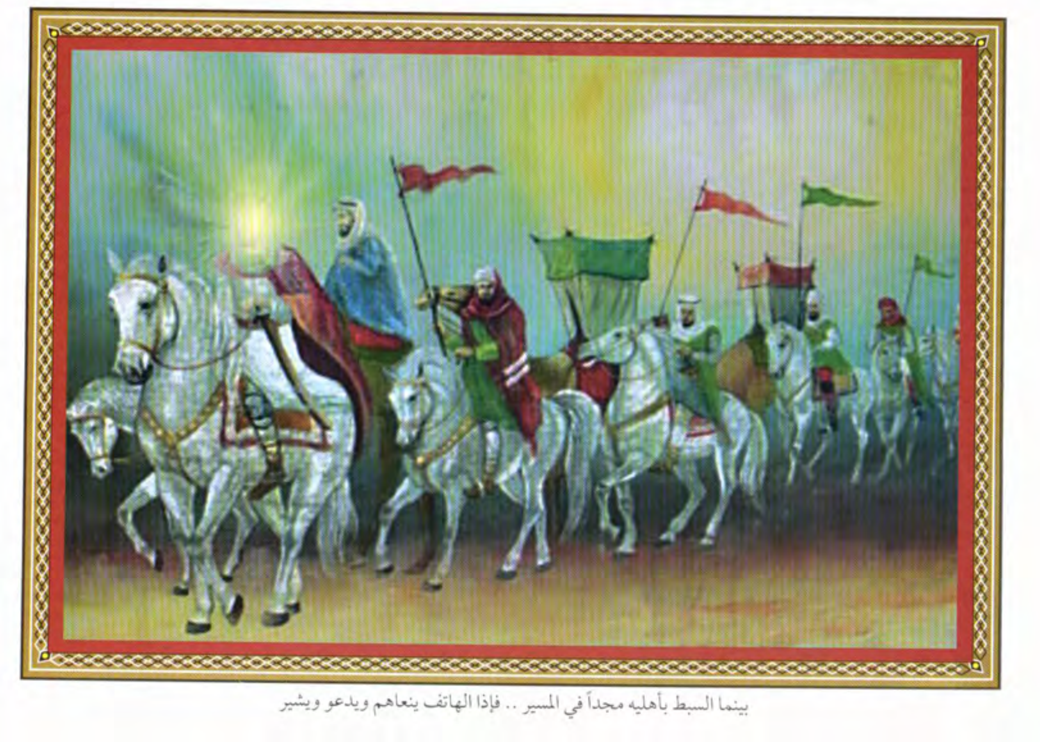


فأتته كتبُ الكوفه بالعهد الوثيق .. نحن أنصارك فاقدم سترى قرَّة عين

ضمَّني عندك يا جَدَّاهُ في هذا الضريح .. علَّني يا جَدُّ من بلوى زماني أستريح



المولى جون يصغي لهاتف رجّاف استجاب له تاركاً ليلة عرسه .. مسرعاً لنصرة الحسين



بينما السبط بأهليه مجداً في المسير .. فإذا الهاتف ينعاهم ويدعو ويشير



فدَعا في صحبه : يا قوم ما هذي الفلا ؟ قيل : هذي كربلاءُ .. قال : كربٌ وبلا



جيش عبيدالله بقيادة الحر بعد عثوره على ركب الحسين في قفار جبل ذي حسم ظهيرة يوم قائظ يخنق الأنفاس





طلائع جواسيس ابن سعد يراقبون الوضع في مخيم الحسين ليبلغوه لأسيادهم المتعطشين للغدر





محاصرة معسكر الحسين لإجباره على الرضوخ لمطالب يزيد

حرم الحسين وأصحابه عطاشى بعد منعهم من الورود إلى الماء لإطفاء ظمئهم في صحراء اللظى المهلك

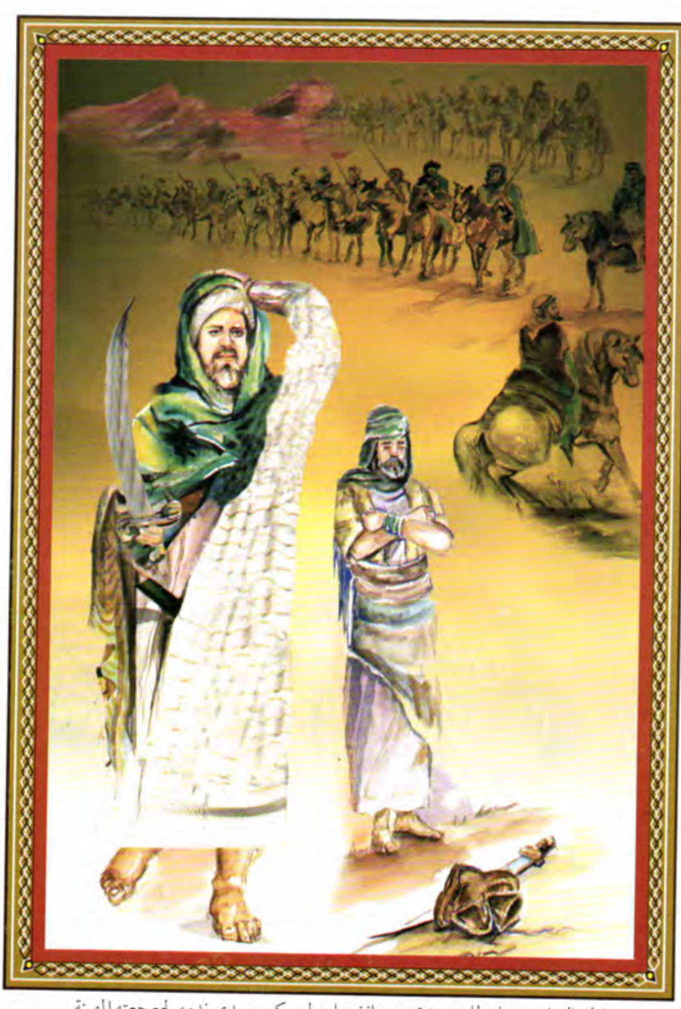
الشهيد يطلب من المتوحشين شربة ماء لطفله الرضيع عبد الله.. فيرسل له حرملة سهماً ثلاثي الشعب صرعه في الحال



فدعا في القوم يا للّه للخطب الفظيع.. نبؤوني أأنا المذنب أم هذا الرضيع؟

جيش يزيد يستعد للهجوم بـ ٢٥ ألف مقاتل على ٧٣ نفراً من أنصار الحسين ربعهم نساء وأطفال





الحر الرياحي يعلن للحسين توبته و انضمامه لمعسكره ويبدي ندمه لجعجعته المهينة





بعد قبول الحسين لتوبته ..علا البشر وجه الحر واستعد للشهادة



فيذوقون المنايا كمذاق العسل .. شاهدوا الجنة كشفاً ورأوها رأي عين





ما لهُ في حومة الهيجاء في الكرِّ شبيه .. غير مولانا علي والفتى سرُّ أبيه

بطلٌ فردٌ على الجمع من الأبطال طال .. أسد يفترس الأسد على الآجال جال





فاصطلى الجمعان نار الحرب في يوم عَسر .. واستدارت في رحى الهيجاء أنصار الحسين





حبيب بن مظاهر لم يمنعه كبر سنه من القتال وجندلة العديد من المهاجمين الأكثر فتوة منه قبل أن يستشهد بطعنة غادرة

أبو الفضل العباس مقطع الأوصال مثخناً بسهام نشابة الشمرعلى ضفاف نهر الغمة بينما كان يهم بحمل قربة ماء لعطشى مخيم الحسين



القاسم محمولاً بين ذراعي عمه بعد إصابته وقبل أن تنهدل رجلاه وتخطان الأرض خطاً

ولما تجالد الطرفان وكان بينهما ما كان .. ارتعش أفق الزمان وارتقت أنفس الألى إلى الجنان





ملحمة ظهيرة العاشر من محرم : « ههنا مهراق دمائهم ثقل لآل محمد ينزل ههنا »



وتوالى الضرب والطعن على الليث الهُمام .. وعَرَاه من نزيف الدم ضعف الساعدين



رأس من تقطع يا شمرَّ بهذا الصارم .. ليس من تفري وريديه بكبش جاثم



الكلب الأبقع ابن الزنا الشمر الضبابي يقف متفاخراً بإثمه بعد أن احتز رأس حفيد نبيه وغدا مستحقاً لجائزة الفاسق يزيد



سقط الفارس وانخسف الضياء.. وتشرفت بالدم الزكي كربلاء





مرَق المهر وجيعاً عالياً منه العويل .. يخبر النسوان أن السبط في البَوغا جديل

ولما عاد فرس الشهيد إلى الخيمة خرجت النساء من الخدور يلطمن وجوههن



أقبل ذو الجناح إلى الخيمة مخزياً وسرجه ملوياً .. فلطمت زينب وأعولت : واآخاه .. وآسيداه ..



وبدت من داخل الخيمات آلُ الفاضل .. محرقات بسواد الحزن من فقد الحسين



بعد انتهاء المذبحة .. زينب تجري هلعة بين الأجساد المجندلة تبحث عن جثمان أخيها الطاهر





العقيلة المكلومة تبكي أخاها الذبيح في فلاة كربلاء الموحشة بعد المجزرة





ميدان المعركة بعد انجلائها .. صرعى ودماء ونساء حزينات



والسماء أبدلت ضياءها ظلاماً ..علّة كونية خارقة لم تحدث إلا عقب شهادتي عيسى والحسين

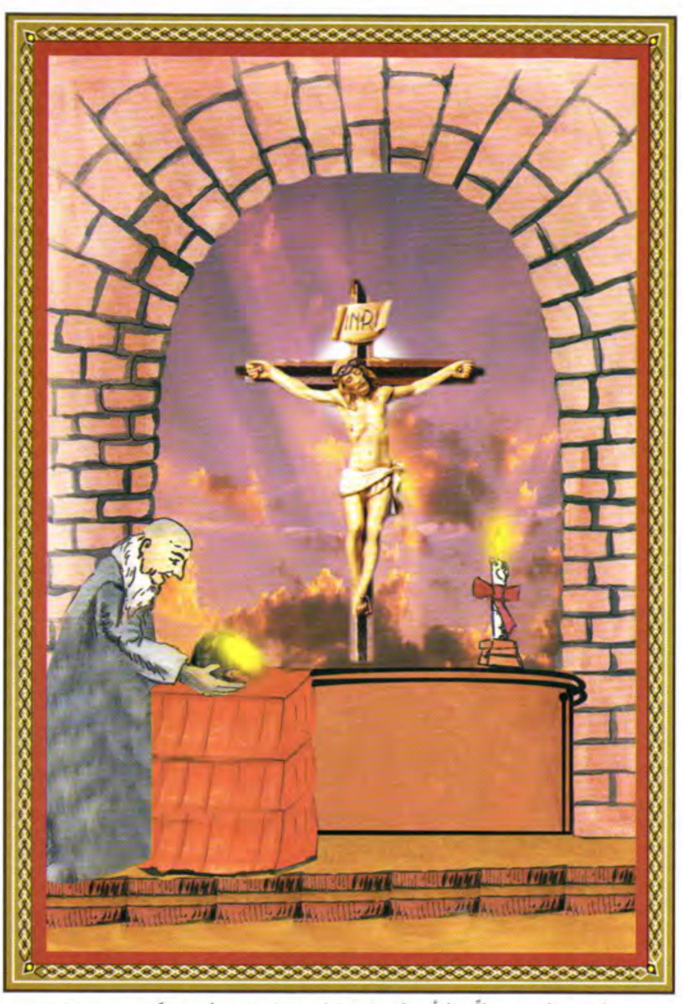


تجميع السبايا بعد انجلاء غبار المذبحة تمهيداً لسوقهن مع رأس الحسين إلى يزيد في دار الخلافة بدمشق





قد بَرَى أجسامَهن الضربُ والسيرُ الحثيث .. وبينها السَّجَّادُ في الأصفاد مغلولَ اليدين



الراهب المسيحي يطيِّب الرأس الشريف بما يليق بقداسته من طيب ويبكيه بدمع هتون





دخول السبايا إلى الشام من باب الساعات ويزيد واقفاً على شرفة قصره يرتجل أشعار الشماتة : « ليت أشياخي... »

أيزيدُ فوق فرش من حرير في سرير.. ثملٌ نشوانُ من خمر له الساقي يُدير

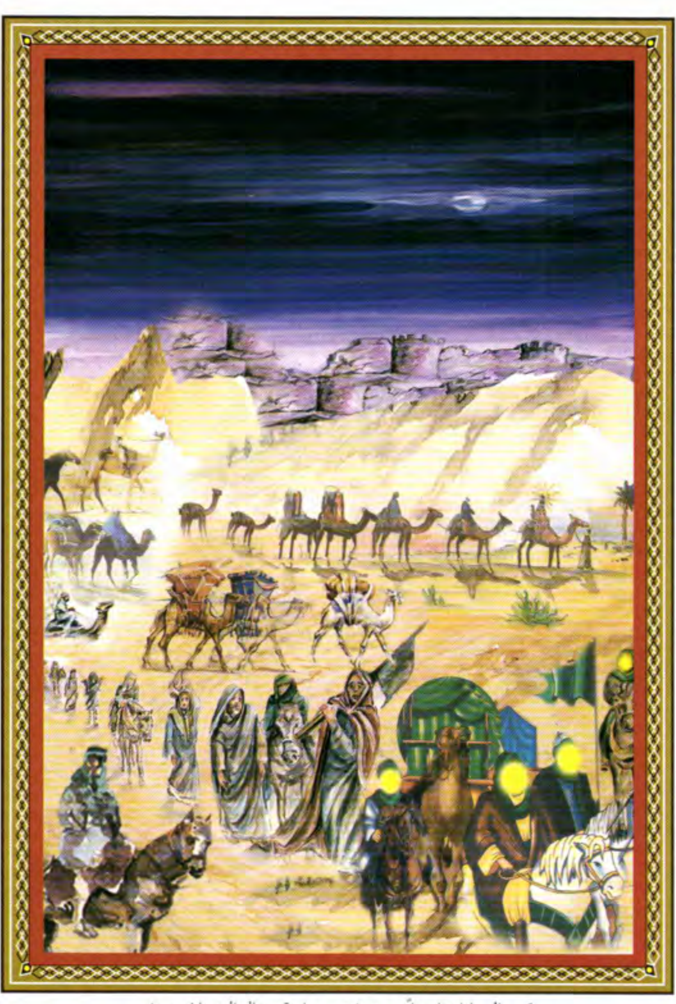


يزيد الآثم ينكت بمخصرة ثنايا الرأس الشريف الموضوع في طشت أمامه .. بينما تقرعه العقيلة زينب على فعلته الخسيسة



سبايا بيت النبوة ينحن في خرابة بالشام لثلاثة أيام قبل عودتهن برأس الحسين إلى العراق





ركب السبايا خارجاً من دمشق بحراسة رجال النعمان بن بشير



وعاد رأس الحسين إلى مطارح مصرعه في موكب حزين لم يُر له شبيه في الأمصار كانت على رأسه عقيلة بني هاشم



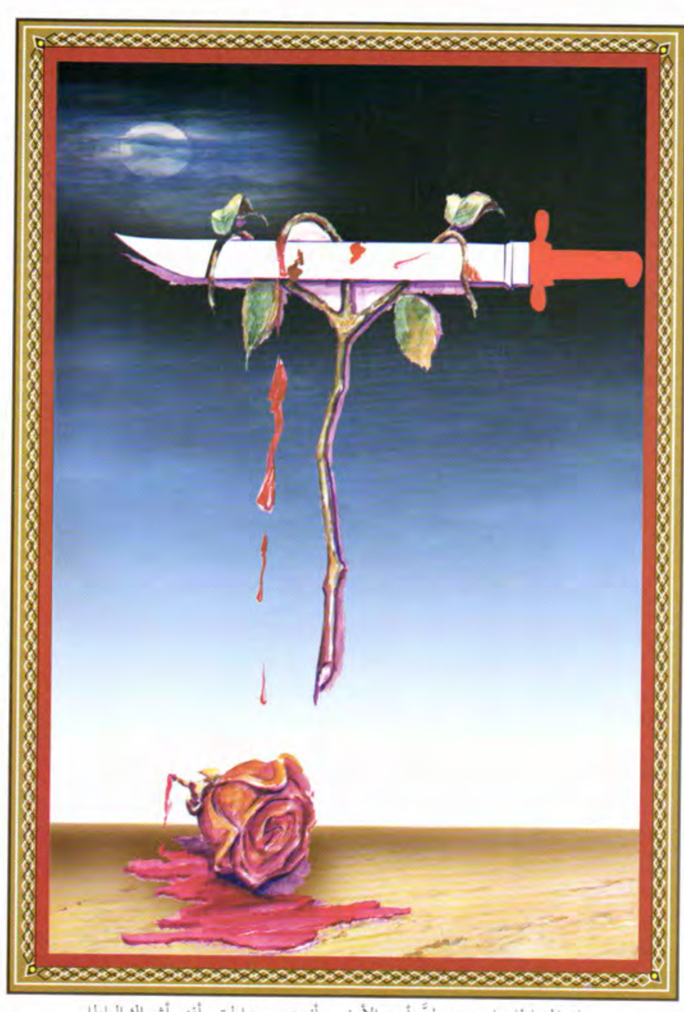
ركب آل البيت الحزين عائد من كربلاء الى المدينة تحت جنح الظلام الحالك





والي مصر مسلمة الأنصاري يستقبل السيدة زينب وبقية آل البيت لدى وصولهم إلى أرض الكنانة بعد ترحيلهم من قبل يزيد





دمك المتهاطل يا حسين طهَّر أديم الأرض وأنبت ورود الحق وأفنى أشواك الباطل



« يالثارات الحسين » عدالة السماء اقتصت من آثمي محرم .. ضربة بضربة وقتلة بقتلة

الفهرس

جديد هذه الطبعة

لقد عمدنا في هذه الطبعة إلى تنقيح مادة الكتاب وزيادتها وإعادة إخراجها بشكل جديد وغلاف مختلف عن الطبعات السابقة وأضفنا إليها نصوص وحيثيات الدعوى التي رُفعت على الكتاب والحكم الصادر بحقه ومناقشة المؤلف لها والتعقيب عليها، وعرضنا كذلك آراء العلماء والمفكرين والإعلاميين حول الكتاب وما تضمنه من طروحات وأفكار، كما زودنا الطبعة للمرة الأولى بلوحات تصور الملحمة من الخروج إلى المقتل والسبي وثورات الثأر بريش فنانين قدموا أفضل إبداعاتهم لتجسيد وقائع الملحمة الخالدة، حيث بدئ بهذه الأعمال في منتصف عام ٨٥ وانتهى إنجازها بحمد الله في أوائل عام ٢٠٠٦ .

الرسومات للفنانين

- محمود فرشجيان ، ابراهيم داو طلب ، عقيل حسين الشيخ محمد البيضاني ، عقيل الدرازي
- أبيات الشعر تحت الصور نظم الشيخ حسن الدمستاني
- الغلاف تصميم صفوت المنياوي